رواية

أشرف العشماوي

تذكرة وحيدة للقاهرة

الدار المصرية اللبنانية



الدار المصرية اللبنانية

تذكرة وحيدة للقاهرة

رواية

العشماوي، أشرف.
تذكرة وحيدة للقاهرة: رواية / أشرف العشماوي. – ط10.–
القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، 2017.
472 ص؛ 20 سم.
تدمك: 5 – 069 – 795 – 977 – 978
1– القصص العربية.
أ – العنوان 813
رقم الإيداع: 14020 / 2016

الدار المصرية اللبنانية

16 عبد الخالق ثروت القاهرة.
تليفون: 23910250 202 +
فاكس: 23909618 202 + ص.ب 2022
E-mail:info@almasriah.com
www.almasriah.com

الطبعة الأولى – الطبعة الثانية – الطبعة الثالثة: 2016م
الطبعة الرابعة – الطبعة الخامسة – الطبعة السادسة: 2016م
الطبعة السابعة – الطبعة الثامنة: 2017م
الطبعة التاسعة – الطبعة العاشرة: 2017م

صورة الغلاف: تراس فندق شبرد بالقاهرة عام 1940.
من موقع Hulton Archive للصور التاريخية.
تصميم الغلاف إهداء من الفنان: أحمد مراد.

أشرف العشماوي



رواية

الدار المصرية اللبنانية

«معظم شخصيات هذه الرواية غير حقيقية ومن نسج الخيال، وأي تشابه بينها وبين الواقع هو مجرد مصادفة مجردة عن أي قصد».

المؤلف

ابحث عن صفاء روحك لكي تعرف طريقك.. نور الدين الشمسي

1

أيها السادة، البدر في المقدمة، لكنْ برق يتقدَّم، البدر يتراجع، ومايسترو الآن بالمقدمة، ووراءه برق.. والبدر في ذيله..!

أزاح شفيق باشا المغازي النظارة المكبرة من على عينيه وهبَّ واقفًا يتابع بحماسٍ شديدٍ حصانه «البدر» وهو يمر من أمام المقصورة، يمنعه وقاره من الهتاف ويفرض عليه منصبه الكبير مزيدًا من الجدية التي

لا تنقصه، تمتد أصابع ولده الصغير «بدر» - الذي سُمِّي الفرس تيمنًا باسمه - إلى النظارة المدلاة من يد أبيه ليجذبها عنوة ويضعها بسرعة على عينيه، التفت الباشا نحو الصبي الذي لم يُكمل عامه السابع بعد، ورمقه بنظرة غاضبة وهمَّ بنهره وتوبيخه كالمعتاد بسبب رغبته في الاستحواذ على ما لا يخصه حتى دونما استئذان، لكنَّ اقتراب الخيول من خط النهاية بالشوط الأخير من السباق جذب انتباهه أكثر وصرفه مؤقتًا عن طفله.

طرق الباشا المنضدة أمامه بقبضة يده في غيظٍ حتى تزلزلت فازة الزهور الصغيرة الموضوعة عليها وكادت تسقط مهشمة لولا أنه لحقها، بعدما أعلن المذيع الداخلي بنادي الجزيرة فوز الحصان «برق» بالسباق، يليه بنصف ياردة فقط حصان السفير الإنجليزي الملقب بـ «مايسترو»، ليأتي «البدر» في المركز الثالث شبه خاسر لن يجني سوى بضعة جنيهات من قيمة المراهنات كلها.

- شكرًا أيها السادة على مشاركتكم، نتمنى لكم حظًّا أكبر في المرات القادمة، يومكم سعيد.

أعادها المذيع بالإنجليزية ثم بالفرنسية لتتعالى بعدها صيحات فرح ونشوة بالنصر من بعض الأمراء وتتداخل مع تصفيق آخرين عقب انتهاء السباق وإعلان النتيجة، تسري همهمات بأن الحصان «برق» تابع للسراي وقيمة المراهنات الأكبر ستؤولِ للملك فؤاد. يرتدي شفيق باشا قبعته ويتأهب للانصراف، كان الصغير بدر ما زال يلهو بالنظارة ثم علَّقها على صدره وهو يكرر على مسامع والده عدة مرات أنها صارت مملوكة له وحده، عنَّفه الباشا بصوتٍ خفيضٍ متوعدًا إياه بعقابٍ شديدٍ حال عودتهما للبيت، ومن داخله كان يلوم نفسه بشدة لتركه دون عقاب على فَعلته المشينة منذ أسبوع عندما تسلَّل من باب الحديقة الخلفي لفيلتهم إلى فيلا جيرانهم بحي الزمالك واستولى على دراجة طفلهم وعاد بها إلى حديقتهم ثم أفسد إطارها الأمامي لمّا أُجبر على إعادتها لصاحبها.

لم يخف الفتى من تهديد أبيه، بل بدا أكثر حِدَّة وهو يعقد ذراعيه على مقدمة صدره، قطب جبينه وراح يقترب من والده وهو يهمُّ بركله بعنفٍ بقدمه مثلما يفعلها دومًا، تراجع الباشا وابتسم للصغير مرتبكًا وهو يحاول أن يهدئ من روعه حتى يحفظ ماء وجهه أمام أعضاء النادي.

- ربنا يحفظ الحفيد العزيز يا دولة الباشا..!

مجاملة عابرة من أحد المشاركين في السباق أثناء خروجه قلّبت عليه مواجعه وأربكته أكثر، ذكَّرته بفارق السن الكبير بينه وبين ابنه الوحيد الذي رُزق به بعدما فقد الأمل في الإنجاب. ربَّت شعر طفله بدر في حنانٍ وأجلسه على حِجره مفضلًا الانتظار حتى ينفضَّ الزحام وهو يترحَّم على زوجته التي رحلت وتركته بعد ولادة طفلهما الوحيد بساعاتٍ قليلة. ظلَّ يُلاطفه في وداعة فتشبث الولد بالمنظار المكبر أكثر، سلَّمه لمربيته السويسرية لتعتني به بحديقة الأطفال وهو يوصيه بالتزام الهدوء وعدم التشاجر مع أقرانه، قائلًا وهو يضحك في بشاشة :

- وحلال عليك النضارة يا سيدي..

غادر شفيق باشا منصَّة السباق الملكية، وما إن ظهر على بوابتها الأولى حتى هرع نحوه سائقه منتظرًا تعليماته، أخرج الباشا من جيبه تذاكر السباق في ضيق وسلَّمها له قائلًا:

- اصرف قيمتها من الشباك واشتري لعيالك حاجة تفرحهم.

قبل أن يتجه نحو سيارته استوقفه نداء متلاحق:
- يا دولة الباشا..
هرول رجل طويل مهندم نحوه مبتسمًا، ليجد خلفه جمعًا كبيرًا غالبيته من السياسيين والصحفيين وبعض وزراء الحكومة يلتفون في احترام مبالغ فيه حول السفير الإنجليزي بالقاهرة، اضطر شفيق للعودة بصحبة الرجل المهندم ليصافح سفير إنجلترا، يؤخر قدمًا ويقدم أخرى، مشتت هو دائمًا بين رضى السراي والإنجليز وسخطهما، أشار بطرف خفي لسائقه بسرعة إحضار سيارته بعد استبدال التذاكر حتى لا يقف كثيرًا في معية السفير.
- تهانينا يا شفيق باشا على المشروع الجديد، نأمل أن تنتهي منه سريعًا.
أبدى الوزير شفيق المغازي اندهاشه للسفير الإنجليزي مستفسرًا منه عن المشروع الذي يقصده، لكن السفير ابتسم في برودٍ ونظر في ساعته قائلًا:
- باقي من الزمن ساعة وتعرف، لا تُفسد مفاجأتنا لكم.
***
.. قبل أن تقترب عقارب الساعة من الثانية ظهرًا بخمس دقائق، مرقت سيارة السير ويليام ويلكوكس بسلاسة من بوابة الوزارة الكبيرة تسبقها دراجة بخارية بيضاء تابعة للبوليس المصري، ظلت طوال الطريق تُطلق سرينة طويلة، لتشق سيارة المهندس الإنجليزي خبير السدود المائية طريقها كالسهم بشوارع القاهرة، هدَّأت العربة من سرعتها قليلًا حتى توقفت فجأة عند منتصف درج المدخل تمامًا، ترجَّل السائق منها مسرعًا وفتح بابها الخلفي منحنيًا في احترام ليهبط الرجل النحيف الصارم بوقار، ممسكًا بحقيبة يد كبيرة متخمة بأوراقه، رافضًا أن يساعده السعاة في حملها عنه، توقف لبرهة متفرسًا في وجوه التشريفة الرسمية التي تنتظره منذ أكثر من نصف ساعة يتقدمها وكيل وزارة الأشغال العمومية وكبار الموظفين، ثم اجتاز البهو الرئيسي بخطى واثقة دون أن يتبادل كلمة أو مجرد ابتسامة مع مستقبليه، مكتفيًا بهز رأسه، وجميعهم يهرولون وراءه.
- السير ويليام يا دولة الباشا..
أومأ وزير الأشغال العمومية بإيماءة خفيفة لسكرتيره، ثم زفر ببطء ممزوج بالضيق عندما لمح السير ويليام ويلكوكس بقامته الفارهة وملامحه الجامدة يدخل مكتبه فهبَّ واقفًا لاستقباله عند منتصف الغرفة، لكنه صافحه ببرود مَن يريد أن يُنهي اللقاء مبكرًا.
- أعلم أنني سببت لك حرجًا كبيرًا في مجلس الشيوخ، لكن الموضوع اليوم مختلف.
قالها السير ويليام وهو يجلس واضعًا ساقًا فوق أخرى، بدا أنه
لا يريد أن يُضيِّع وقتًا في ثرثرة فارغة، فأصاب الهدف من أول رمية دون أن يتنازل عن طلب قهوته ويؤكد على نسبة السكر بها. تراجع الوزير شفيق باشا في مقعده، ثم أعاد وضع عدسة المونوكول على عينه اليسرى قائلًا بصلف:
- أنا بالفعل في حرج سياسي بالغ وقد أفقد منصبي، لن أوافق على تعلية بوصة واحدة من خزان الشؤم مرة ثانية!
- أعتقد ستوافق.
قالها المهندس الإنجليزي بثقة وبلغة عربية سليمة أتقنها من طول فترة بقائه بمصر، فلما لمح ضيقًا لاحت سحبه على وجه الوزير، خفتت نبرة صوته وهو يضغط على مخارج ألفاظه مسترسلًا:
- وستحتفظ بمنصبك أيضًا، بل ربما تُصبح رئيسًا للوزراء قريبًا.
- لكن...
- أنا أعرف كل ما ستقوله، اطمئن فحكومتك ستحصل على أموال كافية لتعويض النوبيين، لا تضعهم حجة للتفاوض، وتذكَّر أننا لو كنَّا بنينا الخزان عند أضيق نقطة ببلدة الخطارة كما اقترحتم علينا، لغرقت

أسوان كلها، وأهل الصعيد غير أهل النوبة!

شرد الوزير قليلًا وراح يقلب الكلام في رأسه على كل الوجوه خاصة منصب رئيس الوزراء ثم مطَّ شفتيه قائلًا:

- أريد وقتًا لأدرس الموضوع وأعرض الأمر على...

قاطعه السير وهو ينظف غليونه على مهل بينما يرتب أفكاره بسرعة ليحاصره بها:

- جلالة الملك فؤاد وافق مبدئيًّا على الفكرة، فأنا لا أسبق حكومتي بخطوةٍ واحدةٍ أبدًا، ولا بد أن جلالته ينتظر موافقتك، فلا تتأخر عليه كي لا يغضب عليك، أو تخذله فيندم على ثقته فيك!

خرجت عباراته مشوبة بتهديدٍ خفي طُوي ببراعة بين ثناياها، ثم أردف بحسمٍ بعدما صار الوزير لينًا طيِّعًا بين يديه كقطعة عجين:

- كل الدراسات موجودة في الملف الذي أمامك، ومقاول المشروع سيكون الشركة الإنجليزية كالمعتاد، فلا تطرح العملية في مناقصة، والآن اسمح لي أن أقدم لك عربونًا جديدًا لصداقتنا القديمة، بعيدًا عن الخزان والنوبيين والرسميات كلها.

عبث ويليام في حقيبته للحظات، ليقدم له خنجرًا فضيًّا متوسط الحجم بنصل حاد، مُزينًا برسوم لأفارقة عُراة يشقون بطن تمساح ضخم، وعلى الوجه الآخر يلتفون بشجاعة حول تماسيح صغيرة مستسلمة لهم في سكون بعد تحنيطها.

برقت عينا الوزير انبهارًا بالخنجر، ثم خرجت بعدها كلماته مغموسة برجاء الغريق وأمله في النجاة:

- الأمر ليس سهلًا، فالحكومة الآن مثل خيال مآتة عرفت الطيور حقيقته وبدأت تأكل من رأسه، أنا أخاف من تمردهم و...

تعالت قهقهة السير ويليام حتى غطَّت على بقية عبارات الوزير، ثم خلع قبعته البيضاء الواسعة مسترسلًا بغير توقف:

- لقد ذكَّرني حديثك عن خيال المآتة بقصةٍ لا بد وأن أحكيها لك، عندما كنت في بغداد منذ سنوات لبناء قناطر نهر الفرات، كانت الطيور تُفسد ثمار حديقتي كل يوم.. وقتها تذكرت ما فعله صديق لي يخدم في إفريقيا، كان جنرالًا بالجيش الإنجليزي وصادفته ذات المشكلة فتفتق ذهنه عن فكرة شيطانية!

تعمَّد السير الإنجليزي التوقف عن الحديث قليلًا وهو يرتشف قهوته ليقاطعه شفيق بسرعة قائلًا:

- ما هي الفكرة؟

- فتح خزانة ملابسه وأخرج بدلته العسكرية المزينة بالنياشين، وبعدما نفض الغبار عنها، أحضر أخشابًا عريضة لصنع خيال مآتة جديد، لكنه كان برتبة جنرال، وعندما وضعه في وسط الحقل أصاب الطيور كلها بالفزع، وراحت تتخبط بأجنحتها وهي تفر من أمامه هاربة..

سكت السير ويليام برهة مرة ثانية مبتلعًا ريقه ومتابعًا الشغف المطل من عيني الوزير، فلما اطمأن على نضوج لهفته، أكمل بنبرة مسرحية:

- حتى الفئران التزمت بحظر التجوال وقبعت بجحورها، وعمَّ السكون المكان إلا من حفيف السنابل مع الرياح فبدت مثل جماهير الغوغاء تهتف بحياة الجنرال الخشبي الشامخ المُزيَّن بأنواط الشجاعة ووسام الخدمة الطويلة في معركته الأخيرة التي سيخلدها التاريخ!

ساد الصمت تمامًا بعد مشهد نهاية القصة التي يرويها السير ويليام، فانتهز المهندس الإنجليزي العجوز فرصة ترنُّح أفكار الوزير وتشتُّت ذهنه فهبَّ واقفًا بلا مقدمات، ليغادر فجأة كما جاء فجأة، تاركًا إياه يغرق في ضجر وضيق هاجماه بعنف كالفيضان. خلع الوزير طربوشه ومسح رأسه برفق، ثم أغمض عينيه وأعاد رأسه للوراء قليلًا بعدما فقد القدرة على التركيز وشعر بأنه كمَن هُزم بالضربة القاضية.

اقترب شفيق باشا بعدها بقليل في تكاسل من النافذة، كانت الغيومِ قد سادت، رعدت السماء وبرقت ثم انهمر المطر بلا توقف، لمح السير ويليام وهو يهبط الدرج متحدثًا مع وكيل الوزارة بصوتٍ عالٍ وبدا

من حركات يده وإشارات أصابعه أنه يُملي عليه أوامر محددة، ثم وقفا لبرهة قرب السيارة يستكملان حديثهما وبجوارهما السائق النوبي يظلل رأسيهما بالمظلة بينما أغرقه المطر المنهمر بغزارة فوق رأسه حتى التصقت ملابسه بجسده الطويل الضخم. صافح وكيل الوزارة السير ويليام بحرارة، ثم خفض الأخير رأسه قليلًا ليدخل سيارته، بينما سائقه ينحني له نصف انحناءة وهو يدفع الباب برفق ويُحكم إغلاق المظلة المبتلة مهرولًا، ليبتسم الباشا من وراء الستار بسخرية متمتمًا:

- آه لو عرف هذا النوبي التعيس أنه يُخفض رأسه لمَن سيقطفه ويقضي على مَن تبقَّى من سُلالته، لربما قتله..!

رمق الوزير كرسيه الوثير الضخم بنظرة شاردة، ثم نقل بصره صوب أوراق السير ويليام، بدا لفترة مترددًا، تأمل الخنجر الفضي ورسومه من التماسيح في إعجاب، ولملم بعدها أوراقه برفق، ووضعها مرتبة عائدًا لجلسته مرة أخرى بعدما ومضت في رأسه فكرة ما، بدت ملامحه أكثر هدوءًا هذه المرة وهو يقرأ حتى استغرقته التفاصيل.

بعد ساعة واحدة فقط أمسك بقلمه الحبر ووضع تأشيرة مطولة في نهاية الصفحة الأخيرة بما انتوى عمله، ثم أعاد القلم لموضعه وهو يبتسم في رضى..!

***

2

- يا ألله..!

نطقناها سويًّا ثم التصقنا ببعضنا أكثر لما بدأ يقترب ويظهر أمامنا بوضوح، تلك أول مرة أرى فيها تمساحًا بهذا القرب وربما هي أيضًا، لا يفصلني عنه الآن سوى ثلاثة أمتار فقط، عمري لم يتجاوز العاشرة لكنه آخر عهدي بالطفولة قبل وأدها فجأة. اختبأتُ كعادتي في خور من الخيران الكبيرة المظلمة قرب النهر لأراقب تلك الكائنات المخيفة، التي تأتي زاحفة ببطءٍ على شاطئ النيل، لترقد في كسل وخمول، تتشمس وقت الضحاوية، صوتها عالٍ وغريب كأن عشرة رجال يتجشؤون في وقت واحد، تفتح فمها وتباعد بين فكيها لتظهر أنياب لا حصرٍ لها، فشلت دومًا في عدها بعد العشرين. انشغلت عنها بمراقبة طائر صغير ينظف ما بين أسنانها، عصفور ملون يقفز كل برهة، يلتقط ما علق بين ثناياها ثم يبتلعه في سرور.

تمنيت لوهلة أن أكون في جرأة الطائر، لم أكن وقتها مدركًا لمعنى الموت، لكنني كنت أهابه، فقد حرمني من أمي، لم أعرف أن التمساح الراقد أمامي الآن يكون نائمًا في تلك اللحظة التي يفتح فيها فكيه على مصراعيهما، ليبدأ العصفور الصغير مهمته الانتحارية. وكلما حرك ذيله الضخم ببطء كنت أنكمش أكثر في مكاني بقلب الخور، أحيانًا كنت أشعر أنه يراقبني بعينه الكسولة، يرصد تحركاتي، ويعلم أنني أراقبه.

تحرك التمساح فجأة مرة أخرى بلا مبرر، وضرب الرمال بذيله مرتين، متململًا في رقدته، ثم سكن ثانية، انتفضنا، أخفيت ملامحي منه بكفي اليمنى الكبيرة، فأمسكت هي بيسراي وكأنها تطمئنني ثم قالت هامسة: شافنا؟!

رفعت كتفـيَّ قليلًا ولم أنطق، كنت مرتجفًا وخشيت أن أجيبها فيسمع صوتنا، لكنها ظلَّت تُلح بالسؤال هامسة، أومأت لها برأسي لتسكت، لكنها أردفت بإصرار: اتكلم بحِس عالي..

رويت لها بصوتٍ خفيضٍ ما سمعته من حكيم قريتنا، قصة ظلت عالقة بذهني، تحكي أن أحد الصيادين يومًا ما منذ سنين بعيدةً، نقل بيض التمساح من مكانه وأخفاه عنه، لكن التمساح حفظ ملامحه وظل يترقبه، وفي ليلة قمرية اتجه الرجل للشاطئ مع صياد آخر مستقلين فلوكة، وراح الرجل الذي نقل البيض يجدف قابعًا في وسط المركب، فجأة هاجمهما التمساح من المنتصف وضرب الفلوكة بذيله من الناحية الأخرى، فأنزل ناقل البيض معه إلى النهر، ثم ابتلعه في ثوانٍ وترك الرجل الآخر، سرعان ما ظهرت بقعة الدم الحمراء، وراحت تتسع وتكبر أمام الصياد الناجي وهو يصرخ، حتى وصل للبر الثاني ليروي القصة لكل مَن يقابله لتنتشر في القرى كلها.

هزَّت مِسكة رأسها غير مقتنعة ثم قالت: ما يمكن نصيبه.. أمي دايمًا تقول كل حاجة قسمة ونصيب.

برقت عيناها بشدة كأنها توصلت لإجابة لم نكن نعرفها، أطبقت على يدي فشعرت أنها ربما تكون خافت قليلًا فضغطت على كفِّها برفق لأطمئنها، بينما فرائصي لا تزال ترتعد من الحكاية، لكن مِسكة اعتدلت في جلستها لتقترب مني أكثر، ثم روت لي بثقة أن عمي أخبرها بأن التماسيح لا تأكل نوبيًّا أبدًا بل تخاف منه، ولا بد أن القتيل غريب عنَّا، ربما من الجنوب لكنه ليس نوبيًّا، ومع ذلك لم تفلح في طمأنتي وظللت أخفي وجهي بيمناي كلما رأيت التماسيح ولو من بعيد!

ضحكت مسكة بصوتٍ عالٍ وهي تتأمل وجهي وانتبهت لرعشة كفي، فكتمت فمها بيدي حتى كدت أغشي عينيها وهي تحاول الفكاك مني، انتبهنا فجأة لأصوات تقترب من الخور، فباعدت بين أصابعي أكثر لأرى شبابًا من أهل قريتي، ومعهم بعض الصبية عمرهم يقارب عمري، لست متأكدًا تمامًا فقد كنت أضخم وأطول من أقراني بكثير، وكان جدي يتفاخر بي قائلًا: ابن عجيبة سر الختم لا بد وأن يكون فلقًا مثله!

اقتربوا بسراويلهم البيضاء وصدورهم العارية، أجسادهم سمراء لامعة، يسيرون في خفة على أطراف أصابعهم، حتى عقدوا نصف دائرة حول التمساح الراقد بالقرب مني، لكنه لم يُعرهم اهتمامًا، وظل فاتحًا فكيه، أما العصفور الصغير فقد طار وابتعد!

تقدم صبي منهم زاحفًا على يديه وركبتيه بحذرٍ شديدٍ وهو يدفع أمامه قطعة كبيرة من الخشب، عريضة، بدا متأهبًا لأمرٍ ما مثل نمر يوشك أن يثب على فريسته، حتى صارت المسافة بينه وبين التمساح مترًا واحدًا، وثبَ فجأة في جرأة بالغة ممسكًا بالخشبة، ثم وضعها مستقيمة بين فكي التمساح، وابتعد في سرعة سهم عن الزاحف الذي فقد صوابه وراح يضرب بذيله، ظل يَحرُك ويَفرُك في مكانه بعدما شلّت حركته تمامًا بقطعة خشب، بينما جثم بعض الفتيان على ظهره وهم يلفون الحبال حول بطنه في سرعة وخفة ومهارة أيضًا. صفقت إعجابًا وانبهارًا بجرأتهم.

خرجت من الخور مندفعًا، مهللًا، محييًا إياهم، مقبلًا عليهم، ظنوا أنني جني خرج فجأة من المغارة، فزعوا وصرخوا، ثم فروا هاربين، تفرقوا، قفز بعضهم في الماء سابحًا تحته لمسافة. لم أتمالك نفسي من الابتسام، ظلت ابتسامتي تتسع أكثر حتى علت ضحكاتي ودمعت عيناي وكدت أستلقي على ظهري.

وقفت بثقة أتأمل التمساح الأسير، لكن الخوف كان يظللني، شعرت لوهلة أن عينيه تدمعان أيضًا كأنه يستغيث بي لأنقذه من ورطته، كدت أصدقه، تحركت يدي اليمنى نحوه، لكن عقلي ظل يجذبها للوراء وهي تقاومه.

فجأة تسمرت مكاني على نداء عمي بصوته الجهير، فلما اقتربت فلوكته، قفز منها برشاقة رغم سنه الكبيرة، رمق مِسكة بنظرة غاضبة معاتبة تشي بعقاب شديد، تسمَّرت مكانها وأطرقت حتى أمرها بالانتظار في القارب فهرولت ناحيته دون أن تنطق حرفا، التفت لي الرجل بوجهه الغاضب لكنه لم يشأ توبيخي أمامها، وقعت عينه على التمساح الذي يرقد أسيرًا مستسلمًا بجوار قدمَيّ، فقد كنت الأقرب إليه، ارتسمت الدهشة على ملامحه، ثم ربَّت كتفي بإعجاب أطلَّ من عينيه بلا مواربة رغم غضبه قائلًا: عفارم عليكم يا ولدي..

ظللت مبحلقًا في وجهه مندهشًا، كدت أقول له: لست أنا من اصطاد الوحش، إلا أنه جذبني من ذراعي مسترسلًا: أنا مطمِّن عليك..

نظرته حانية ونبرة صوته مشوبة بعطف وشفقة كمَن يخفي عني خبرًا أليمًا، لم يوبخني على اصطحاب مسكة معي للخور دون علمه، ربما أراد ألا يُفسد فرحتي بصيد التمساح، انتظرت قلقًا لعله ينطق بشيء مما دار بعقلي، لكنه لم يبُح بأسراره، اكتفى بقسمات حزينة وجبين مقطب، ظلَّا مصاحبين له طوال عودتنا وبقية عمره.

سرت بجواره صامتًا نحو النهر لنعود، مختلسًا نظرات ورائي كل برهة لرجاله وأتباعه وهم يساعدون الفتيان الذين خرجوا من النهر مندهشين وراحوا جميعًا يربطون ذيل التمساح وبطنه إلى جذع نخلة ضامر ليسيطروا عليه أكثر. خُيل لي لوهلة أن التمساح يرمقني بنظرة متوعدة مثلما فعل من قبل مع ناقل البيض فارتعدت وأدرت وجهي للناحية الأخرى، شق قاربنا النيل ومِسكة تجلس بعيدًا عني، مطرقة، لا تجرؤ على رفع عينيها لكنها تبدو متماسكة ولم تبكِ أبدًا، ابتعدنا عن الخور والتمساح والرجال حتى صاروا أطيافًا وخيالات غير واضحة من بعيد، وغابوا عن نظري.

شردت في صفحة النيل الداكنة محاولًا أن أستشف الرؤية عبرها نحو قاع النهر، حيث يقبع جدودي منذ ثلاثين عامًا مثلما أخبرني أبي، خُيل لي أن المئات بل الآلاف من أهلي يرقدون على جنوبهم نيامًا في سلام بقاعه.. سرَت رعدة بصدري فجأة، وانتفضت جزعًا من هاجس غريب طاف بخيالي، فقد شعرت لوهلة أن أبي أيضًا يرقد بجوارهم، أطلت النظر كثيرًا، لكنني لم أستطع تمييزه من بينهم أبدًا.

***

.. بدا وجه السائق النوبي «عجيبة» عبوسًا بمرارة في مرآة السيارة، وعلى غير عادة السير الإنجليزي

بتركيبته المتحفظة وملامحه الصارمة وكلامه القليل إذا به يسأله ببرود عن سبب تجهمه، ليرد عجيبة في يأس:

- سامحني يا سِيدي، سمعت كلامكم مع وكيل الوزارة عن تعلية الخزان!

- وهو أنت عندك مشكلة مع الخزان؟! أنت مقيم في القاهرة.

- أهلي كلهم عند الشلال، والتعلية تغرقهم.

- عجيبة.. قلت لك ألف مرة تعالوا إلى هنا، أمرك غريب، أنا لا أفهمك أبدًا!

قالها السير مقاطعًا بغضب، لمعت أسنان عجيبة البيضاء وهو يبتسم في سخرية رغم المرارة الظاهرة بعينيه مغمغمًا بعصبية:

- كيف آتي بقريتي وأهلي كلهم إلى هنا؟!

رفع السير جريدته فغطى وجهه، مسدلًا ستارًا كثيفًا يُنهي الحديث به بعدما أغلق الحاجز الزجاجي الفاصل بينه وبين سائقه، عبس وجه عجيبة مرة أخرى حتى تجهم، سرح في قريته التي باتت معرضة للغرق، سيعتلون الجبل مرة أخرى هربًا من الفيضان مثلما فعلوها من قبل، زفر زفرة طويلة ثم رفع عينيه نحو السماء، شعر بصوت داخلي يصم أذنيه وهو يصرخ: «أغثنا بقدرتك.. نحن نقترب من سمائك مع كل تعلية.. يا الله!»، أغمض عينيه للحظات طالت دون أن يدري، جاهد حتى يحبس دموعه التي ترقرقت، لكنه أفاق مرغمًا على صوت السير ويليام عاليًا هلعًا محذرًا وهو يفتح الحاجز الزجاجي:

- عجيبة انتبه.. يا مجنون!

اتسعت حدقتا عيني عجيبة رعبًا، وشعر بأن كفيه تيبستا على المقود، ظلت قدمه اليمنى مشلولة على دواسة البنزين بعدما أبى عقله أن يرسل لها إشارة بالتراخي، لحظات مرَّت كومضات خاطفة في كابوس غير واضح المعالم، لتصعد السيارة بسرعتها على الإفريز المنخفض، فتتجاوزه في ثوانٍ، لترتطم مندفعة ببوابة خشبية على سور الكورنيش، فتقتلعها مثلما تقتلع الريح النبتة الضعيفة، ثم تهوي منقلبة ثلاثًا حتى استقرت في قاع النهر، لتغمرها المياه من كل جانب، يتكوم عجيبة بداخلها مثل جنين ساكن في بطن أمه يستعد للخروج للدنيا في أي لحظة، بينما تمدد جسد السير ويليام على أريكة السيارة الخلفية منكفئًا على وجهه، كمَن لا يريد أن يراه أحد مرة أخرى مثل المذنبين!

تجمهر نفر غير قليل من المارة، كثر عددهم مع مرور الوقت وبطء محاولة انتشال السيارة وظهور بعض مندوبي الصحافة، ثم تعالت أصوات مختلطة، وحدثت جلبة من أصحاب دواب عابرة، زاد الصخب وعلا ولم يُفسر منه إلا عبارة واحدة: الخواجة غرق!

***

3

جلست متململًا في سرادق عزاء أبي، خيمة بسيطة متوسطة مفتوحة من جانب واحد لدخول المعزين وخروجهم بينما ثقوبها تسمح بمرور عِجل صغير. كنت حائرًا بين عقلي وجسدي، ما جعلني دومًا هدفًا لسهام الانتقاد كلما تحركت، وكلما أتيت بحركة مباغتة تندهش العيون وتُمط الشفاه تأففًا وضجرًا، لكن طفولتي تضغط على عقلي ليحرض ساقَيّ فتحملاني كل برهة وقوفًا بلا سبب، وقد تُصادف عيناي مَن أعرفه من أهلنا، أذهب إليه عفويًا فيلومني بغلظة. كانت الهمهمات التي سرت بعد وفاة أبي تقلقني، قالوا إنه قصد قتل الخواجة ويليام ويلكوكس انتقامًا لتعلية الخزان مرة ثانية ووصفوه بالبطل الذي أخذ بثأرنا جميعًا، لكن آخرين ردوا عليهم بأنه انتحر ومات كافرًا وسيذهب إلى جهنم حتمًا وسيرتفع الخزان رغمًا عنا ولن يشفع له ما فعل. يا ألله! هل مات أبي بطلًا أم كافرًا؟ لا أحد يجيبني!

- اقعد واسمع للقرآن، أنت الآن راجل.

خرجت الكلمات مؤنِبة من كثيرين، تفرست وجوههم في صمت حزين، أريد البكاء وهم يقولون إن بكاء الرجل عيبًا، وإذا لم أطق الجلوس ساكنًا مثلهم قالوا ركبه شيطان!

اقتربت من عمي وهمست في أذنه سائلًا للمرة الثالثة: أبويا مدفون فين؟

- أبوك غرق في النيل.

انتابني القلق رغم معرفتي بالحقيقة، هل يمكن أن يكون التمساح قد ابتلعه، تساءلت، فقال عمي بنبرة حاسمة: لا تماسيح في نيل القاهرة، الخزان حاشها كلها في النوبة، وأبوك في الجنة.

- كيف عرفت أنه في الجنة؟

- لأننا موحدون بالله وكلنا مسلمون فكلنا في الجنة إن شاء الله!

ابتسمت على ذكر الجنة وأغمضت عينيَّ متخيلًا أبي بها يأكل عنبًا ويشرب لبنًا متكئًا على أريكة مريحة مثلما يردد على مسامعنا خطيب الجامع كل جمعة، قطع خيالاتي أحد أقاربنا المغتربين بالقاهرة مقترحًا أن يُسيروا نعشًا خاويًا لتكون جنازة مهيبة تليق بأبي، لكنهم وجدوها عيبة كبيرة ألا يدفنوا أحدًا بعد الجنازة، وتطوع بعضهم بالتأويل والتفسير بأن الشياطين تسكن النعوش الخاوية، وحذرنا آخرون بأن كل أرض سارت عليها الجنازة سيحيلها الجان إلى خراب، بينما روى لنا غيرهم حكايات غريبة عن رجال صارت لهم أرجل ماعز وذقون جديان من الخوف لما خالفوا أوامر الجان!

فانكمشت وراء ظهر عمي وأطبقتُ يدي على كفه.

***

.. دقت الأجراس معلنة عن بدء الجلسة الثامنة والخمسين من جلسات مجلس الشيوخ، طلب وزير الأشغال العمومية الكلمة مدافعًا عن قانون الحكومة بنزع ملكية النوبيين للمنفعة العامة، صال شفيق باشا المغازي وجال حتى اختتم كلامه قائلًا: أنفقت مصر ملايين الجنيهات على بناء الخزان وتعليته وكلكم متشوقون لزيادة المياه، ولو كنا انتظرنا سنوات أخرى ليتم نزع الملكية عن طريق المحاكم لحرمنا مصر كلها من الماء دون مبرر، لقد أسدى السير ويليام ويلكوكس خدمات عظيمة للوطن وآن الأوان لأن نريحه في مرقده الأخير.

هنا علا صوت شيخ من شيوخ المجلس غاضبًا: هل ستنطبق السماء على الأرض لو انتظرنا سنة أو اثنتين أو حتى ثلاثًا؟ وماذا ستعرض علينا بعد هذا القانون يا دولة الباشا؟ تعلية جديدة بالطبع وغرق قرى أخرى، ثم مَن الأولى بالراحة، الأحياء منا أم الميت منهم؟!

قالها وجلس متأففًا وهو يجول ببصره بين زملائه ليتعرف على وقع كلمته عليهم. حدثت ضوضاء شديدة، تعالت الأصوات وتداخلت، لم يسمع أي طرف ما يقوله الآخر، قرع رئيس المجلس الجرس الفضي الصغير أمامه عدة مرات ليسود الصمت، وتُعطى الكلمة للوزير كي يرد، لكنه قبل أن يشرع في

الكلام باغته آخر من أصحاب البشرة السمراء صارخًا من الصف الأخير: أنتم تعوضون الناس بالفتات، النخلة بعشرة قروش والمنزل بخمسة جنيهات، ثم رفع بصره صوب صورة الملك فؤاد التي تزين صدر القاعة هاتفًا بنبرة مسرحية وإن كانت تبدو صادقة: يا صاحب الجلالة، نظرة عطف على الغلابة قبل أن يسبق السيف العذل، ويتسرب اليأس للفؤاد فيدميه.

امتلك وزير الأشغال ناصية الكلام مرة أخرى بصعوبة، وظهرت ورقة بيضاء صغيرة تمرر خلسة، منحدرة من المنصة، كانت توصية من طرف خفي بعرض أراض بديلة بمدينة الأقصر على النوبيين، كان رئيس المجلس يوحي للوزير بأن يهدئ النفوس ويعيد النظّر في التعويض، لكن الوزير تجاهل الرسالة ودس الورقة في جيب الصديري الصغير قائلًا بعنجهية: هذه الأطيان التي يطمعون فيها يا دولة الرئيس أجود بكثير من أراضي النوبة والتعويض يجب أن يكون مماثلًا، فالحكومة لا تمنح معونات وقد أعدت قانونًا عادلًا للتعويضات لن يحكم القضاة بأكثر منه فلا حاجة لنا بالمحاكم، والتعلية الجديدة حتمية لا محالة حتى تضمن مصر كلها المياه، فليضحي البعض من أجل الكل، أنا أطلب منكم اللجوء للتصويت.

ارتفعت الأيدي بالموافقة وبعدها بالتصفيق، ووزير الأشغال العمومية لا يكف عن الانحناء، حتى تدلت عدسته على جانبي كرشه بعدما خلعها مغمضًا عينيه منتشيًا بطرق الكفوف الذي كان يشنف أذنيه، وفي جيب سترته ترقد ورقة مطوية تنتظر خروجها بعد قليل، تحمل اقتراحه بإطلاق اسم السير ويلكوكس على أحد شوارع القاهرة وتحديدًا في منطقة غرب الزمالك حيث كان يقطن.

***

بعيدًا عن القاهرة.. وفي أقصى الجنوب على مسافة تزيد على ألف كيلو متر من هذه القاعة الفسيحة التي تضم بين جنباتها أصحاب المعالي والسعادة والمقامات الرفيعة، ارتفعت أيادٍ أخرى سمراء وأذرع من تحت الماء نال منها الهزال والفقر حتى برزت عظامها، تستغيث

بلا مجيب، وأخرى تلطم على خديها ليعلو النحيب، ومن أمامها وخلفها عشرات الجنود حاملين الأسلحة منتشرين في كل الأرجاء تنفيذًا لحكمة ويليام ويلكوكس التي رواها عنه شفيق باشا، فلاقت قبولًا. تمر شهور والعمل يجري على قدم وساق وكأنهم في سباق مع القدر، يرتفع البناء كسحابة سوداء تكبر ببطء وتحجب الشمس لتسود العتمة، يعلو منسوب المياه خلف الخزان الجاثم على نفوسهم، غرقت البيوت ونفقت الدواب، ليهرع النوبيون للجبال يلوذون بصخورها ونتوءاتها من الفيضان، وصمم البعض على إنهاء حياته داخل بيته ليرقد بقاع النهر بعدما ركبه العناد ومن بينهم جد عجيبة الصغير.

ينتصف عام 1933 ويظهر موظف خمسيني نحيل يدس منديلًا ضخمًا قذرًا تحت حواف طربوشه، قادمًا من ناحية الغرب، راكبًا بغلة رمادية بائسة تعاني من القيظ، حاملًا أوراقه تحت إبطه ومن بينها قرار مجلس الشيوخ بنزع ملكية النوبيين للمنفعة العامة وتعويضهم.

جلس الرجل إلى منضدة خشبية متهالكة، وبجواره انتصب شاب أسمر نصف عارٍ يرفع فوق رأسه مظلة تقيه من شمس أول يوليو الحارقة بينما يتلظى الشاب بنيرانها منفردًا. لم يمضِ وقت طويل حتى اصطف أمامه طابور غير قصير متعرج من بداياته، منبعج عند منتصفه لرجال يرتدون جميعًا الجلابيب البيضاء النظيفة رغم أن بعضهم ربما لا يجد ما يستر قدميه، وقد راح كل منهم يفرك كفّيه في لهفة انتظارًا للتعويضات ولا يدركون بعد أنها مجرد فتات!

***

جاء الدور على عمي بعد أن صهرت الشمس مؤخرة رأسه، وبدأت تتلذذ بحرق مقدمتها، قدم أوراقًا وتحدث قليلًا وقوطع كثيرًا بصلف، حتى عوضه الموظف بجنيه واحد عن عشر نخلات كان يمتلكها قبل الفيضان الذي أغرق قريتنا، وخمسة جنيهات أخرى عن منزل جدي الذي كنا نقيم فيه جميعًا، بالكاد وافقت الحكومة على أننا كنا نملك فدانين عُوِّضنا عنهما بأربعين جنيهًا، مع أن والدي طالما ردد أمامنا بامتلاك جدي لعشرة أفدنة، لكن الحُجة غرقت مع البيت وأذابتها المياه، تبخرت الوعود الملكية

بتعويضنا بكرم حاتمي، وأذابت أحلامي في البقاء، حتى صارت الصفحة بيضاء لا أعلم مَن الذي سينقش حروفها هذه المرة!
تلمست راحة جلوسًا علىِ حجر أملس ضخم منتظرًا عمي، لكنني كنت أنزلق كل برهة لأرفع جلبابي القصير، وأحشره بين فخذَيّ، ثم أعاود الجلوس، حتى انتهينا.
جال طيف أبي بخاطري، الريس عجيبة سر الختم الذي فقدته فجأة، لم يترك لي شيئًا سوى ذكريات غاليات، ورثت عنه ملامحه وضخامة بدنه، وصار الجميع ينادونني «عجيبة» على اسمه هو فأصبحت نكرة. لا أدري لماذا مات صغيرًا، ولم أفهم جيدًا معنى حادث سير إلا عندما عرفت بتفاصيل غرقه مع مهندس الري الإنجليزي، لكن الصحف لم تهتم سوى بمصمم الخزان، أما أبي فلم يرد ذكره إلا بجملة واحدة عطفًا على الخواجة «وسائقه النوبي»! وعندما أحضر عمي الجريدة التي تحمل خبر الحادث، احتفظت بقصاصة منها تروي التفاصيل لكنها كانت تحمل صورة السير ويليام فقط.
نفضت ذكرى والدي عن رأسي، لأستعيد أيام طفولتي ببيت جدي الذي كنا نقيم فيه وغرق منذ شهور قليلة، جدرانه الداخلية بلون الزهرة لطرد الناموس، وبيضاء من الخارج لتعكس حرارة الشمس. كثيرًا ما جلست على حِجر جدي متوسطين مصطبة عريضة أمام البيت وقت العصاري ليشرب الشاي، ثم ننام ثلاثتنا متجاورين، أنا وهو وعصاه. تذكرت الحوش الفسيح المرشوش بالرمال الصفراء الفاقعة والمفتوح على السماء.
- هنا الله...
يقولها جدي وهو يشير بعصاه السوداء الطويلة لأعلى، أرفع رأسي، أطيل النظر، تدمع عيناي من ضوء الشمس، لا أكاد أرى شيئًا، يضحك جدي، يظهر فكّاه وأسنانه متفرقة كجزر منعزلة ثم يقول: «لن تراه بسبب نوره الشديد»، ويتمتم: «فَلَمَّا تجلى ربه للجبل جعله دكّا»..
أفقت من ذكرياتي على كف عمي الضخمة وهو يربِّت رأسي مستفسرًا عن سبب ترقرق دموعي، لكنني بادرته بسؤال: عمي. كنت بتكذب وأنت صغير؟
نفى بشدة لكنني لم أصدقه، لا بد وأنه كان كذوبًا مثلي، كلنا نكذب أطفالًا ونستمتع بأكاذيبنا وبنظرة الدهشة في عيون مَن كذبنا عليهم. علت وجهه أمارات الضيق من حديثي، شعرت بالخجل لتجاوزي وخفضت رأسي ومسحت وجهي بكفي في عجالة وأجبت سؤاله باقتضاب:
- الشمس ضايقت عيني.
عدنا إلى مكاننا الجديد بقرية أدندان، وطوال الطريق ظل عمي يتحدث مع جارنا عن السفر لحلفا السودانية هروبًا من التعلية والفيضانات، فكّرت في مِسكة سر الختم ابنة عمي، تلك السمراء الصغيرة ذات الابتسامة المشرقة التي تصغرني بتسعة أشهر فقط، كيف ستبتعد عني، ليس لي أصدقاء سواها، ولا ألهو مع أحد غيرها، هي الوحيدة التي تأتي معي لمراقبة التماسيح من الخور قرب النهر.
وعلى ذكرها سرحت للحظات في التماسيح، هل لهم وجود في حلفا السودانية؟ سألت عمي عرضًا أثناء سيرنا، لكنه لم يجبني سوى بابتسامة واسعة لم أفهم منها شيئًا! عدت ألح عليه بسؤالي:
- عندهم تماسيح في حلفا؟
- مدرستك غرقت ومن السنة الجديدة حتروح مدرسة داخلية في أسوان.
- ومِسكة والتماسيح؟
- حتسافر حلفا مع أخواتك البنات.
- وأنا والتماسيح؟
- حتزورنا كل شهر، أنا رتبت أمورك كلها مع حمدون.
ثم أردف بعصبية : انسَ التماسيح وإلا غضبت عليك!
كان فرمانًا لا يقبل العدول عنه، صدر من عمي وصار واجب النفاذ، أنا الوحيد الذي سيرحل شمالًا إلى

أسوان مع تابعه حمدون. بعد صلاة العشاء تجمعنا بالقرب من كوخ كبير، يقطنه شيخ قريتنا الغارقة الذي انتقل معنا إلى أدندان منذ شهور لكنه لم يسكن الجبال مثلنا وظل قريبًا من سفح الجبل مع أغلب العجائز، التففنا حول النار التي تأكل حطبًا يابسًا بتلذذ وهو يئن ببطء تحت وهج لهيبها المستعر، وما تبقى من أمتعة النوبيين الفارّين من الفيضان يظهر متكومًا من بعيد على ضوء القمر وألسنة اللهب المتراقصة، بدت الأمتعة كأشلاء جثث متراصة بجوار بعضها البعض بعشوائية، وكأنها في انتظار أن تدفن بمقبرة جماعية. انكمشت بجوار عمي بصعوبة أراقب مِسكة من بعيد وهى تجلس على حِجر أمها ساكنة لتفوز بضفيرة، حتى أتى أحد شباب القرية ليهمس في أذن عمي ببضع كلمات فحجب رؤيتها عني. وعلى إثر كلماته انتقلنا بجوار حكيم قريتنا وشيخها الكبير.

دارت أحاديث طويلة لم أعبأ بها، فقدت بوصلتي ناحية مِسكة بعدما تركت حِجر أمها لتلعب مع أخريات. شعر الحكيم بقلقي، فدعاني لأجلس بجواره مباشرة، ربت رأسي بحنو، فتشجعت وسألته عن تماسيح حلفا، تبدلت ملامحه ومالت للجدية وهو يقول: إذا كنت ستصطاد التماسيح عندما تكبر فلن يكون لك أصدقاء، ولن تُكوّن عائلة، لن يقترب منك أحد، سيعرفون أنك تباغت أي شخص بالهجوم مثلما تفعل مع التمساح، لكنك ستصبح قويًّا يومًا ما ويكون لديك سياج من الرهبة بينك وبين الآخرين، الاختيار لك!

- النوبيون كانوا يركبون التماسيح في النيل.. صح؟

انشغل الحكيم العجوز عني بغيري ولم يجبني، تركني لخيالي أراني أسبح وسط مئات التماسيح، أخذني التعب حتى نمت متوسدًا فخذ عمي، فرأيت فيما يرى النائم أنني أركب ظهر تمساح ضخم، أقوده من الشلال حتى أدندان بطول بِلادي كلها، وأنا ملك متوج على ظهره، وعشرات التماسيح القريبة مني تخفض رأسها في الماء خوفًا كلما صوبت نظري إليها، بينما الآلاف من أهلي على جانبي النهر يلوحون لي بأيديهم فأحييهم بثقة القائد المنتصر، فجأة دوى صوت رصاص منهمر، وأطلقت دانات مدافع بكثافة وسمعت أزيز طائرات يفوق الرعد مثلما كان جدي يصف لنا الحرب، ألقي الرعب في قلبي وسقطت في عرض النهر، تلفت حولي لأجد التماسيح الخائفة وقد تجرأت كلها فجأة وكشرت عن أنيابها واتجهت نحوي في شراسة غريبة، وراح حجمها يكبر ويكبر، لم تعد تخيفها الأصوات بل زادتها جرأة، وما إن غرس أولها أنيابه في بطني حتى صرخت منتفضًا، فالتفت الجميع صوبي، ربت عمي رأسي وهو يتمتم بآيات قرآنية لم أدرك منها إلا آخرها: «فأغشيناهم فهم لا يبصرون».

سرت بعدها في جسدي رعدة خفيفة، ولم أقصص رؤياي على أحد.

* **

4

عدت يومًا في إجازة من مدرستي الجديدة بأسوان، جلست على تبة عالية أتابع باخرة البوسطة السودانية وهي تقترب من الشاطئ ببطء آتية من الشرق، كانت أشبه بوحش خرافي كبير تتدافع ألسنة اللهب من رأسه، تزأر زئيرًا يثير رهبة يرتج جسدي لها ومعها، أرتدي طاقية بيضاء لامعة استوليت عليها عنوة من تلميذ قصير بدين، بشرته بلون اللبن، لكنني
لا أتذكر اسمه، فعلتها عقابا له على لفظ «بربري» الذي تفوّه به أمامي وهو يلطمني على وجهي بشدة فأطار طربوشي الصغير من فوق رأسي، وظل يكرره كلما رآني، لم أفهم معناه في حينه، لكنني شعرت من ملامحه ونبرة صوته بأنه يسبّني، لم أدرك أبدًا الفارق بين الأبيض والأسود، ولماذا أحدهما أفضل من الآخر، فغالبيتنا بالمدرسة أصحاب بشرة سمراء، ظننت أن السعادة تلتصق بأصحاب البشرة البيضاء فقط، دائمًا مبتسمون، مرفهون. التقطت حجرًا خشنًا من فناء المدرسة ورحت أكحت بشرتي بقوة أمام المرآة حتى أدميت وجنتي وبكيت ألمًا، لكن ظل لوني كما هو، بعدها قررت عقاب من سبني، عقرته ببطنه ليخرس مؤقتًا، مستغلًا أنيابي الحادة من كثرة أكل الدوم، تكوّم صارخًا عند قدمَيّ، فنزعت عنه طاقيته، ومن يومها وأنا لا أخلعها حتى في عنبر النوم، ولم يجرؤ هو على مطالبتي بها مرة ثانية.

بدت لي عقارب الساعة الزاحفة كل يوم من أيام الدراسة وكأنها تواجه ريحًا قوية تكاد تعيدها للوراء بينما هي تقاوم ببطء، كنت أتعلم وأستذكر وآكل وأنام فقط، فشلت في تكوين صداقات حقيقية أو ممارسة رياضة منتظمة بسبب قوتي البدنية كما توقع جدي، صار الكل يبتعد عني بمسافة كما الأجرب وخشي المدرسون من عدم وجود منافسة فاستبعدوني من أغلب الألعاب. أحببت اللغة الفرنسية وسرت عكس اتجاه أغلبية زملائي، فاخترتها بدلًا من الإنجليزية التي لم أحبها قط بسبب مدير الخزان الإنجليزي المتعجرف، الذي كان لا يكف عن توقيع الجزاءات القاسية على أهل قريتي من العاملين هناك ويضطهدهم حسبما روى عمي وأبي كثيرًا أمامي، فقررت معاقبة الإنجليز بعدم تعلّم لغتهم.

في سنين الدراسة الأخيرة كان الحدث الأهم بالنسبة لي هو خطابات مِسكة، كنت مثل سجين ينشد الزيارة، ويتلهف عليها، يترقب موعدها ويحسبه بالدقائق، وظلت خطاباتها قبلة الحياة لي. ومضت الفكرة برأسها أولًا في بداية السنة الثالثة بالبكالوريا، كنت في زيارة لعمي الذي مرت السنون عليه ولم يرحل لحلفا رغم أنه ظل يردد نفس العبارة «إن شاء الله».. لكنه فيما يبدو لم يشأ.. وربما كان لا يريد! ألحت وقتها مسكة عليّ مرارًا لإيجاد وسيلة تواصل بيننا لا تقطع الود أبدًا، لكنني احترت كثيرًا ولم أوفق في إيجاد مخرج، حتى فوجئت ذات يوم بورقة مطوية بعناية بين طيات صرّة طعامي صدفة، طرقت جبهتي بعنف هاتفًا: كيف لم أفكر فيه من قبل؟! بوسطجي الغرام حمدون يتحرك أمامي باستمرار واستخدمته مِسكة لنقل خطاباتها دون حتى أن يدري هو بما يحمله، بينما أنا أتلحف بغبائي وأحكم ربطته حول رأسي، حتى غفلت بصيرتي وعمي بصري عنه، في حين كانت مِسكة قد دبرت ونفذت.

ابتسمت ابتسامة ساذجة خجلًا من نفسي، تمددت على فراشي ليلتها متنهدًا بعمق، أستعيد ذكرياتي في شجن، وتهيأت للاندماج في قراءة أولى خطاباتها، فتحت ورقتها المطوية وأنا أتشممها بعمق لأستنشق عطرها وأقرأ كلماتها حتى ذبت تمامًا مع أشواقي وتدثرت بحنيني، ولم تفلح رائحة الثوم والبصل التي عبقت ورقة خطابها الأول في أن تخرجني من حالتي الشاعرية تلك حتى نهاية الخطاب بل زادتني شوقا لها.

***

- عجيبة سر الختم...

اعتدت أن أردد اسمي ناقصًا، يبدو أنني أيضًا لم أعد أتذكر أوله، وربما أكون قد أسقطته متعمدًا من ذاكرتي مثلما فعل معي الجميع بعد موت أبي، لكنني استسلمت شبه راضٍ، حتى عندما كنت أهمس

باسمي بيني وبين نفسي أشعر أنني أتحدث عن شخص غريب عني، يشاركني حياتي لكنني لا أعرفه، يرافقني دومًا ولا أراه أبدًا، حتى مشاعري نحوه باتت محايدة، فأصبحت لا أحبه ولا أكرهه!
أنهيت دراستي أخيرًا وودعت أسوان وعدت للنوبة، وقفت متراخيًا أمام الرجل الصارم المتجهم بلا سبب، كجذع نخلة أنهكه السوس وخوّخه فأوشك على التهاوي بعدما ماتت جذوره ونضبت ثماره، تفحص عسكري الهجانة قليلًا في مانيفستو أمامه وهو ينقل بصره بين وجهي وأوراقه عدة مرات متلاحقة، بدا متعجبًا لوهلة من اسمي لكنه لم يعلق بشيء ثم سمح لي بالمرور لركوب باخرة البوسطة السودانية. كنت حريصًا طوال السنوات التسع من هجرتي إلى الشمال للدراسة بأسوان على زيارة عمي وبناته وإخوتي، كنت أفرح كثيرًا برؤية مِسكة وأسعد بأوقاتي في حلفا السودانية لكن كلما كبرت كان ينتابني شعور غريب بالاغتراب، الوجوه تغيرت والأحوال تبدلت إلا مِسكة، بقيت ملتصقة بي كروحي، أما الباقون فقد كان ينقصهم شيء ما.
قبل زواجي كنت أقيم في البناء الذي شيده عمي على الجبل ولم يستخدمه بسبب رحيله إلى حلفا السودانية. كان قد أخبرني بأنه بنى بيتًا في قرية دابود، فلما أنهيت دراستي وتوطنت به تاركًا قرية أدندان، وجدت البناء لا يعدو سوى كوخ صغير من الطوب اللبن لا يصمد أمام ريح
ولا يجرؤ على مقاومة زخات المطر، وفي الصيف يتحول إلى موقد صغير يجعلني أهج كل ظهيرة هربًا إلى ظل آمن.
لو أن قارئة كف أخبرتني بأنني سأعمل حارسًا على الخزان بمجرد انتهاء الدراسة، ما صدقتها أبدًا. ورغم حصولي على شهادة البكالوريا، ما كان يسمح بتعييني في وظيفة مكتبية محترمة، لكن المدير الإنجليزي دون تفكير أشر على الأوراق بأن أعمل بالحراسة بعد نظرة يتيمة لجسدي، وحجز الوظائف الأخرى لمعارفه، شعرت بأنني طوال تسعة أشهر من العمل أحرس التمساح الذي يخيفني منذ طفولتي ولا يزال. كنت أرى من مكمني ببرج الحراسة المأساة محفورة بعمق على ملامح مَن تبقى منهم كل موسم زراعي عندما يبادرون بزراعة الذرة في الفترة التي تنحسر عنها المياه خلف الخزان، ولكن للطبيعة دومًا رأيًا آخر، فما يكاد يقترب وقت النضج حتى تغلق عيون الخزان مرة أخرى لخزن المياه فتذبل أغلبها، وقبل موعد الحصاد يفتح مهندسو الري عيون الخزان وكأنهم متعمدون، فتغرق المزروعات أو ما تبقى منها وتضيع جهودهم هباء، ويخسر أهلي ما كانوا سيدخرونه علفًا لمواشيهم وأغنامهم فترة الشتاء. ولا معين إلا الله. لم أتحمل البقاء بوظيفتي تلك، فتركتها ولما لم أفلح في إيجاد وظيفة أخرى .. تزوجت !!
لا تزال ذكريات زفافي على عروسي مِسكة سر الختم عالقة بذاكرتي.. مع أنها كانت مبتسرة كجنين لم يكتمل! ففي عاداتنا يبدأ الفرح من بيت العريس، ولأن بيتنا غرق تزوجنا في حلفا بدار عمي الفسيحة هناك.
قبيل يوم الزفاف تجمع صبية وصبايا أمام الدار، كانت الليالي مُجمّلة بأضواء القمر التي تنعكس على الرمال، راحوا يتغنون بأغانينا باستعمال المتاح من آلات الرقص، كالدُّفوف، وأحيانًا صواني الطعام، لكن اللحن بدا شجيًّا حزينًا، والوجوه بدت متسولة للفرحة كأنها هجين ممسوخ من زفاف ومأتم.
في اليوم التالي بعد المغرب راحوا يضعون الحنة على راحتي يدَيّ وباطني قدمَيّ، اضطجعت على سرير موشى بملاءات من الحرير، تحيط به مجموعات من نساء وفتيات القرية يطلقن الزغاريد بفرح ويبتسمن في خجل، وأمامي منضدة كبيرة رصّت عليها أطباق الحناء والعطور من صندلية وغيرها، حلويات أنواعها شتّى، ومنديل كبير مفروش فوقه صحن به ماء حتى منتصفه بجانب البخور، لتملأ رائحته المكان نشوة وحبورًا وسعادة.
حُبست مِسكة بعيدًا عن أعين الجميع وأشعة الشمس يومين، وراحت بعض النسوة تعملن بهمة لتجميلها، وُضعت الحناء على يديها وقدميها، حتى كانت الليلة المنتظرة... فأتت مِسكة من حجرة

مجاورة قريبة بمفردها، ولم أذهب لأخذها من دارها، وكأننا نختزل زمن الفرحة متعمدين!
لم تفز مِسكة بالزفة التي حلمت بها في صباها، ولم نُقم احتفالًا لمدة أسبوع كعاداتنا، يوم واحد فقط وفي الثاني دخلت بها، كنا غرباء ومَن حولنا ليسوا أهلنا.. بدا لي أنهم يتظاهرون بالفرحة، في نظراتهم ريبة، وربما بين قلوبهم هاجس ببقائنا على أرضهم ومشاركتهم رزقهم، تجلّى الضيق على وجوههم، وشعرت أنهم يتمنون رحيلنا عنهم..
- يا ألله..
قلتها وزفرت طويلًا، أطلقت سراح التنهيدة أمام جموع الأكاذيب، ووسط عراك الأرواح من حولي.. فزادتني همًّا!
انفردت بمِسكتي أخيرًا بعد انصراف المهنئين، طوقتني بذراعيها ومسحت بحنو على جبهتي، قبَّلت باطن يدها، وهتفت بداخلي متمنيًا أن تبطئ البهجة من إيقاعها هذه الليلة، فأنا أريد أن أرتوي من نبع غرامها على مهل! رحنا نقترب ببطء، نتحسس بعضنا بعضًا برفق، نتشمم عطرنا في سعادة، رائحة جسدينا تثيرنا وتسكرنا، نزيح الخجل جانبًا على مهل، إلى أن دفعته الرغبة بعيدًا حتى توارى، خلعت عنها ثوبها فابتعدت عني وراحت تفتش عن الخجل مرة أخرى وهي تطلق ضحكاتها الشقية كأنها تستدعيه من مكمنه حتى تعثرت فيه فتدثرت به وظلت تمسك بذيل فستانها بيد مرتعشة، وارت به نصف وجهها وصدرها وهي ترجف من كسوفها ورغبتها، تتأمل جسدي خلسة وتعود مطرقة، ثم تنظر في وجهي منادية بهمس، لمعت عيناها الواسعتان، فاشتهيتها أكثر، تجردت من جلبابي واقتربت منها، فقفزت مبتعدة وأطفأت المصباح الوحيد بالغرفة. استغرقني الظلام ولم أعد أراها لوهلة، وعلى خيوط ضوء القمر المتسربة لبيتنا مضيت أتحسس خطواتي وأنا أنادي عليها مهتديًا برائحة عطرها، وهي تتوارى بعيدًا عني حتى فضحتها ضحكاتها المكتومة، هرولت نحوها ضاحكًا وأمسكت بها وهي تحاول الفكاك بميوعة وتقاوم بلين، احتضنتها من ظهرها ونهلت من رقبتها قُبلًا حتى ازداد ظمئي لشفتيها، التفتت نحوي وهي تضمني بشدة، تنهدت ودغدغت ظهري بأناملها، تلاقت شفاهنا، تلامست بقوة، شعرت بأنني أتذوق حلاوتها لما ذابت شفتها السفلى بين شفتَيّ شوقًا.
بدأت أتحسس جسدها كله، سخونته كانت تثيرني أكثر فتشتعل رغبتي، وتتقد شهوتها مع لمساتي، راحت تقترب مني أكثر وتلتصق بي كأنها ستخترق ضلوعي، تسحق نهديها في صدري وأنا أحتويها بين ذراعَيّ وأضمها بقوة لأملكها أكثر. مِلنا برأسينا ونحن غائبان في قبلة طويلة حتى هوينا على الفراش، تلاحمنا، جذبتها فوقي وهي هائمة نصف مغمضة، يتصاعد أنين رغبتها الخافت مع أنفاسي المتلاحقة العالية، كانت ناعمة ملساء وكأنها مشغولة من حرير! انسابت من فوقي في دلال، ثم دعتني لحضنها في لهفة، اعتليتها بهدوء، ثم اعتصرت جسدها شوقًا ورغبة. كنت أمتص رحيق زهرة الحياة منها، بينما هي تبث الروح في جسدي كله وتنثر فوقه البهجة بسخاء. أسكرتنا النشوة تمامًا بعدما استطعنا أخيرًا فك طلاسم ليلتنا الأولى كرجل وامرأة كاملة الأنوثة ذابا سويًّا كجسد واحد حتى انصهرا في بوتقة الغرام.

***

- بوسطة مهمة من مكتب دولة رئيس الوزراء يا باشا.

وضع السكرتير مظروفًا ضخمًا أمام شفيق باشا وزير الأشغال العمومية ذي الوجه المتعب والعينين المنتفختين إثر نوم مضطرب لما اكتشف بطريق المصادفة مهنة ابنه بدر وتجارته الجديدة فلم يغمض له جفن بعدها، صدمته في ولده استدعت صورة فدادينه الخمسمائة لمخيلته على الفور لتبدو بورًا مائلة للصفرة وقاحلة، وخُيل له أن الفلاحين يبنون عليها عشًّا صغيرة من الخوص، متناثرة بعشوائية، ويرفعون فؤوسهم عاليًا وكأنهم يهتفون ضده ثائرين مطالبين برحيله.

فرك شفيق باشا عينيه الحمراوين بشدة، ثم أمسك بخنجر السير ويليام ويلكوكس الفضي وفتح مظروف رئيس الوزراء بحرص، بعدما لمحت عيناه خاتمًا بيضاويًّا بلون أحمر قانٍ يحمل في منتصف دائرته

عبارة «سري للغاية» فازداد حذرًا وهو يفضه.
عنوان التقرير الذي كان «سد أسوان الثاني»، استوقفه كثيرًا وزاد من توتره، فمضى يقرأ ونبضات قلبه تتسارع وأنفاسه تعلو، حتى شعر قرب نهاية التقرير بأن رأسه يكاد ينفجر. استدعى سكرتيره طالبًا عقد اجتماع عاجل لوكلاء الوزارة وكبراء مهندسي الري بها، وعلى مدار سبع ساعات من النقاشات لم يتوصلوا إلى شيء، لم يختلفوا أو يتفقوا، إنما توجسوا جميعًا من الفكرة، التي ظل طارحها مجهولًا فلم ينسبها التقرير لشخص معلوم، فبقيت لقيطة تنتظر من يتبناها لكن الكل أعطاها ظهره.
تحجج معظم المهندسين بأنهم يريدون مهلة كافية لدراسة التقرير، ووقتًا أطول لإعداد رد عليه، بينما الوزير يريد الحفاظ على كرسيه الملتصق به منذ سنين ويخاف لو تركه أن تظهر عليه أعراض الشيخوخة والمرض مثل من سبقوه، ويعلم أن طرح مشروع بهذه الضخامة لإقامة حاجز مائي كبير وجديد سيتكلف نحو ثلاثمائة مليون جنيه مصري، لا بد وأن يكون قد تم عرضه على الملك فاروق ولن تصل إليه فكرة المشروع إلا بعد موافقات مبدئية من السرايا بدراسته وتكليف الحكومة بتنفيذه، ولا بد أن الإنجليز يريدون إقامته كعادتهم، وها هو الآن بين شقي الرحى، وتكاد الحيرة تفتك به أولًا!
شرد شفيق باشا قليلًا سارحًا في المهندس الإنجليزي ويليام ويلكوكس باني الخزان القديم بعدما لمح اسمه في نهاية التقرير باعتباره صاحب فكرة إقامة سدود بمصر المحروسة للحفاظ على زراعتها من القطن، متسائلًا: يا تُرى من الذي سيحل محله اليوم، ويتقدم لتنفيذ هذا المشروع الجديد؟ وكم قرية ستغرق من بعده؟ وما العائد من وراء ذلك كله؟!.. زفر بشدة قائلًا: يا ألله!
قطع شروده وتساؤلاته صوت كبير المهندسين الجالس عن يمينه، وكأنه كان يقرأ أفكاره ليُجيبه عليها، مؤكدًا وجود حلول كثيرة وبديلة لمشكلة الفيضانات التي أوجدت فكرة بناء سد جديد، فلما وجد الوزير مهتمًّا بحديثه استرسل قائلًا بثقة: يمكننا اقتراح حفر ترع جديدة أو إنشاء خزانات على جانبي النيل؛ لأن هذا السد الجديد من الممكن أن يمنع الطمي مع مرور الوقت يا باشا، وهذه مصيبة.
تشجع مهندس آخر وهو يقول بانفعال: منطقة البناء المقترحة
يا معالي الباشا في قلب أسوان، ومن الممكن أن تكون سببًا في مسح القرى النوبية المتبقية بكاملها من على وجه الخريطة، بل وتدمير الآثار الفرعونية بأسوان كلها، وربما اختفت تمامًا غرقًا في قاع النيل!
كان لوقع عبارة «مسح قرى نوبية من الخريطة» مفعول السحر في انتفاض الوزير من مقعده كمَن مسه الجان، فأنهى الاجتماع مؤقتًا، وأمهلهم أسبوعًا ليكتبوا رأيهم المبدئي، ثم هرول ناحية مكتبه ليتصل هاتفيًّا برئيس الوزراء بمنزله، وما إن سمع صوته على الطرف الآخر حتى بادره قائلًا: يا دولة الباشا أنا قرأت تقرير السد الجديد وأخاف إذا ما وافقنا أن نضع العربة أمام الحصان مرة أخرى، فالنوبيون...
قاطعه رئيس الوزارة ضاحكًا: اهدأ يا شفيق باشا وما تخافش كده منهم، دول ناس طيبين، أنت بتطلبني في البيت الساعة عشرة مساء علشان موضوع مش مستعجل خالص، ومافيش اعتمادات له في الميزانية لا السنة دي ولا السنة الجاية كمان بعد ما وسعنا كورنيش إسكندرية..
اهدأ ونام..
- تقبل اعتذاري يا باشا أنا سهران في مكتبي لأن التقرير وصلني منكم يا دولة الباشا واعتقدت أن...
- الإنجليز هم أصحاب الاقتراح وجلالة الملك طبعًا غير مرحب. اركنه دلوقت وما تفكرش فيه!
ارتبك شفيق باشا قليلًا ثم قال: لكن أنا شكلت لجنة فنية و...
- وماله، مافيش مشكلة، عظيم خالص، لكن ضم لعضويتها اتنين مهندسين رافضين المشروع يكون عندهم منطق وجيه، وبعدها شكّل لجنة جديدة تراجع على الأولى، وبرضه تطعمها باتنين تلاتة من ولادنا، إحنا مش مستعجلين يا شفيق، وعلشان كده بعتهولك في البوسطة، جمّد قلبك أومال، أنت جرى لك إيه اليومين دول يا راجل؟ باين ـك كبرت وعجزت زي خيل الحكومة.
ابتلع شفيق باشا ريقه بصعوبة بعد الجملة الأخيرة وراح شبح الخروج من الوزارة يتراقص أمام عينيه،

وتنهد بعمق لما لم يكررها رئيس الوزراء الذي علت قهقهته على دعابته الثقيلة، تمتم شفيق بآيات الشكرٍ وهو يضع السماعة بعدما تأكد من إغلاق رئيس الوزارة الخط من جانبه، وعاد بظهره في مقعده ممسكًا بخنجر السير الإنجليزي مقلَّبا إياه على جانبيه متأملًا رسومه مغمغمًا بسخرية: الله يلعنك يا سير ويليام مطرح ما رحت!

***

5

شيدنا بيتًا واسعًا على أنقاض كوخ عمي القديم وبمساعدة مالية كبيرة منه، على أمل أن يرزقنا الله بأطفال كثيرين، لكن القدر حتى هذه اللحظة لم يكن قد منحنا بِشارة مكتملة بعد. تفننت مِسكة في رسم جدران البيت من الخارج، كانت صباح كل يوم جمعة تضيف نقشًا جديدًا، تارة زهورًا وتارة نخيلًا، وثالثة لأشكال أخرى تسر الناظرين لكنها غير مفهومة، فلما سألتها عنها ابتسمت خجلا قائلة: تمنع عنا كل عين مدورة..!

كنت أتأمل رسوم التماسيح كثيرًا، أقف متسمرًا أمامها وقتًا طويلًا، أتخيل نفسي أقاتلها، وأحيانًا أخرى أجلس على مبعدة وألقي عليها بالحصى محاولًا إصابتها بين عينيها، بعدما عرفت أنها أضعف نقطة فيها بعد بطنها.

انساب من عمرنا أكثر من تسعين يومًا من السعادة، لكن في نهايتها أوشك المال المدخر من نقوط الزواج على التبخر فأطلِ القلق بعينيه يفتش عنا، لم أكن قد وجدت بعد وظيفة أخرى تعينني، فنحن نأكل مما نزرع، ونصطاد سمكًا ونربي ماشية صغيرة لا يتجاوز عددها أصابع اليد الواحدة، لم نذبح إحداها إلا مرتين، الأولى لما ضاقت بنا الحال فتضورنا جوعًا واشتقنا للحم المطهي، والأخرى عندما زارنا ضيف عزيز يستحق الذبح لأجل خاطره، وعوض ابن عمتي الكبيرة كان أولهم وربما آخرهم!

التقيته مصادفة بعد غياب طويل لما خرجت في نزهة طويلة على الأقدام، وجدته متمددًا في تراخ قرب النيل، تجاذبنا أطراف حديث ودّي طال أمده، حدثته فيه عن زواجي وسوء أحوالي المالية. تعجَّب من بطالتي، ثم راح يمزح معي بأن الحكومة لو أوقفتني على الحدود ساكنًا بلا سلاح لما جرؤ قطاع الطرق على الاقتراب منها، قالها وتبسم كاشفًا عن صفي أسنان بيضاء لامعة كاللؤلؤ. سألته عن القاهرة وعمله فيها، فمضى يحدثني بانبهار عن حوض ضخم مملوء بالماء يستحم فيه عِلية القوم ويمرحون ومساحته ثلث فدان على الأقل، ومن كل حديثه اختزلت القاهرة كلها بمخيلتي في هذا الحوض المائي الذي أثار فضولي بشدة، حاولت تخيله بدقة ففشلت، كدت أسأله هل الحوض آمن ولا توجد به تماسيح ثم أمسكت لساني بعدما تنبهت لحماقة سؤالي، يومها شعرت بأن كلامه نابع من قلبه مباشرة لما قال بجدية: تعالَ مصر، فيها شغل كتير، وتقدر تنام في المطرح بتاعي لغاية ما نلاقي لك مطرح مناسب.

- نسوان مصر جنيات، تسحر لك واحدة منهن وتخطف عقلك وفلوسك، إياك تشرب خمرة أو تلعب ورق على القهاوي و...

ابتسمتُ ولثمتُ شفتي مِسكة بقبلة طويلة لتسكتَ عن سرد باقي وصاياها السبع التي سمعتها من أمها ونقلتها بحذافيرها، حملتها كطفلتي ثم همست في أذنها بأنني سأزورها كل شهر ثلاثة أيامٍ كاملة بلياليها، لن أغيب أكثر، لكنها كانت متوجسة من الرحلة والغربة بمفردي، وراحت تردد مثلًا قديمًا تناقلته عن أمها وجدّتها بأن كل إنجازات الرجل أن يبلغ السابعة من عمره، ومن بعدها لا يفعل شيئًا إلا أن تطول قامته وأعضاؤه، ضحكت وودعتها ثم شددت رحالي إلى «مصر» قائلًا:

- أنا مش أول واحد يسافر.. مصيرنا نعود.

ودعتها ورحلت وطوال الطريق الطويلة التي يقطعها القطار في دأب كنت أفكر في القاهرة، بدت لي أنها ستكون اسمًا على مسمى وكأنني سأشيع لمثواي الأخير، لكن لم أعد أملك رفاهية التراجع عن قراري في تلك اللحظة، فاتجاهي صار إجباريًّا نحو الشمال منذ زمن بعيد!

***

- بدر شفيق بدر المُغازي... ألم يجد معاليه اسمًا أسخف من ذلك؟!

خرجت كلمات بدر ممزوجة بالسخرية متهكمًا على اختيار والده لاسمه، ثم ألقى ببطاقة نادي الجزيرة المجددة لتوّها على المنضدة في ضجر، لم يكن له من اسمه نصيب، فهو قمحي يميل للسُمرة، متوسط

الطول، نحيف لكنه يحتفظ بجسد رياضي متناسق، عيناه غائرتان بعمق في وجهه تلمعان ببريق أخاذ، ويفصل بينهما أنف معقوف، جبهته عريضة، له أذنان كبيرتان بشكل ملحوظ لكنه يحرص دومًا على مداراتهما بخصلات شعره الأسود الفاحم التي لا يكف عن العبث بها طوال اليوم، ورغم ملامحه الجامدة فإن قسمات وجهه تبدو أحيانًا وكأنه قد فرغ لتوه من الابتسام، أو كمَن يكتم ضحكة.

لم يكن يطيق اسمه أبدًا، كرهه كراهة التحريم، اضطر فقط لتحمله أيام الدراسة الأولى حيث كان يُتلى إجباريًّا على مسامعه كل يوم، لكن الآن لا أحد يعرف اسمه ثلاثيًّا، باستثناء المقربين ممن يعرفون أنه ابن وزير الأشغال العمومية. الجميع ينادونه حاليًّا باسم شهرته التي ارتاح لها «بدرو». صاحبة الفضل في ابتكاره صديقته السويسرية باتريشيا التي تعرّف عليها في جنيف العام الماضي عندما سافر للتزلج على الجليد وقضاء شهور الصيف الثلاثة مع والده مثلما يفعلان كل عام، جاءت باتريشيا للقاهرة بعدها بشهور لزيارته، أعجبها حاله وحياته رغم أنها تكبره بنحو ثلاث سنوات تقريبًا، لكن القاهرة بها سهر ومال وشباب وبلاد نظيفة وجالية يهودية كبيرة، من بينها خالتها السيدة مريام المقيمة في الإسكندرية، فلماذا لا تجرب حظها بها؟

كانت قد فرغت لتوها من دراسة العلوم السياسية بأحد معاهد مقاطعة لوزان السويسرية وبدأت في تعلم اللغة العربية ضمن برنامج لدراسة اللغات الشرقية لكنها لم تعمل بعد في وظيفة ثابتة. عاشت شهورًا بالقاهرة، راق لها الحال أكثر، فنسيت أين كانت تحتفظ بتذكرة عودتها. بطبعها هي مغامرة، طموحة، ليست على قدر كبير من الجمال لكنها بارعة في إظهار مفاتنها، حتى القبيح منها تعالج عيوبه ليبدو متواريًا، غامضًا، مثيرًا، وكان بدر شبه مقيم معها، فجسدها ورغبتها المتأججة باستمرار كانا يجذبانه ويجعلانه يضعها في مقدمة أولوياته على عكس طبيعته الملولة، لكنها الوحيدة التي سيطرت عليه وروّضته حتى أدمنها وبات من الصعب أن يقرب غيرها بذات الرغبة.

- المرأة مجموعة فتحات يا عزيزي، عيون كبيرة وصغيرة تشبع رغباتنا.. لكن باتريشيا مختلفة عن كل النساء، فأنت تأكل معها كل أنواع الفاكهة في أوقاتها طوال العام لكن...

خرجت الكلمات منه بافتخار وزهو وهو يحادث صديقه جالسين حول حمَّام السباحة بنادي الجزيرة، لكنه لم يكمل كلامه، فقد عاد للتفكير بنصفه السفلي وهو يتفرس ببجاحة جسد فتاة على مشارف العشرينيات تقف مع خطيبها وتتأهب لنزول الحوض، تتحسس المياه بأطراف أصابعها لتعرف درجة برودتها وهو يرقبها كصقر محنك دار دورته الاستكشافية حتى استقر على الفريسة ففرد جناحيه وظل محلقًا في مكانه، مستعدًّا في أي لحظة للانقضاض عليها والتهامها بتلذذ ذاق حلاوته أولًا بعينيه الجائعتين دومًا.

لا يكاد بدر يرى أي امرأة مع آخر إلا وتتأجج رغبة الاقتناء بداخله، تسيطر على عقله وحواسه تمامًا حتى تتملكه، مثل أي طفل يرغب في دمية يلهو بها غيره فيحصل عليها عنوة حتى يمل منها، فيتركها لتصبح مهملات، لكن بدر له قواعده الخاصة، فحتى دميته القديمة لا يرغب في أن يعبث بها غيره بعده، يتركها وحيدة منبوذة تجتر ذكرياتها معه، محرمة على الجميع بعدما حظيت بشرف كونها من محظياته. لا تختلف بقية الأشياء عن النساء في شيء، فهو لا يفرق بينهما، كل ما امتلكه محظور على غيره مجرد اشتهائه.

نجحت السويسرية باتريشيا في أن تفاجئه كل مرة بكونها امرأة متجددة، متقدة الرغبة، عندها هوس جنسي، وكان ذلك أشد ما يجذبه إليها. في آخر لقاء جمعهما علمته وضعًا جنسيًّا جديدًا، فأثارته تموجات جسدها صعودًا وهبوطًا وهي تلتفت له كل برهة متأوهة بشدة، رامقة إياه بنظرة شبقة لتستعر رغبته أكثر وأكثر، فلما فرغا، تمدد في فراشه كتمساح كسول يتقلب في الرمال الرطبة، بينما قفزت باتريشيا برشاقة من الفراش، وأخرجت من حقيبة يدها الواسعة كاميرا ضخمة تشبه المسدس، ذات شريط في حجم وشكل إطار الدراجة البخارية، يُركّب على ماكينة عرض متوسطة الحجم. جلس بدر عاريًا تمامًا على الفراش

مشدوهًا لما يراه، وباتريشيا تصوب العدسة نحوه لفترة وهو لا يزال على اندهاشه، فلما انتهت تعاونا سويًا لتثبيت ملاءة الفراش البيضاء بعناية على الحائط، ليشاهد صورته متحركة كالسينما وهو جالس القرفصاء على سريره كما ولدته أمه، ويبتسم في بلاهة، ومن لحظتها ظلت تلك الآلة الساحرة تعبث بذاكرته.

استعرت رغبته الجنسية نحوها ليلتها مرة أخرى وهي تتحرك أمامه عارية بالشقة، فأطفأها على ثنايا جسدها تباعًا، لكن ظل عقله يناوشه ويقطع لذته كلما اندمج، وهي تشده لأحضانها، لكن شيئًا ما كان قد امتلك تفكيره حتى استوت الفكرة في رأسه، بعدها راح يطارحها الغرام بقوة وعنف بعدما استراح عقله وكف عن التدبير، فقد انطلق القطار يعوض ما فاته لما أبطأ في منتصف الطريق.

***

أيقظني عوض قرب مدينة الجيزة، بعدما أقلق شخيري بقية الركاب، لتمر دقائق قليلة وصلنا بعدها إلى منطقة باب الحديد. غادرنا القطار وخرجت من المحطة أحملق في وجوه الناس منبهرًا بروعة القاهرة الساحرة، كنت أتحاشى عربات اليد الخشبية الجديدة التي يدفعها باعة جائلون ينادون في تناغم على بضاعتهم المنسقة، أتأمل السيارات الفارهة وهي تتهادى على الطريق كسفن ضخمة لامعة تشق صفحة النهر، نظافة الطرق جعلتني أتفحص ظهر حذائي مرتين كي لا أترك بها أثرًا. اقتربنا من تمثال لفلاحة يتوسط الميدان، تضع كفّها بثقة على كتف آخر نصفه أسد ووجهه لفرعونٍ قديم مثل الذي كنت أراه في «أبو سمبل»، وترفع رأسها المتطرحة في شموخ لتستشف بعينيها مستقبلًا بعيدًا لكنها تراه بوضوح.

جذبني عوض من يدي وهو يعدو لنلحق بعربة ضخمة صفراء من الصاج تسد بابيها أجساد بشرية متلاصقة وتتصل بعامود متصل بسلك كهرباء وتتحرك على قضبان مثل القطار مطلقة نفيرًا عاليًا، جلسنا متقابلين وأنا أنظر خلفي كل برهة لأراقب خط سير المركبة كي يطمئن قلبي، كنت أرى الصورة معكوسة، المارة والسيارات والعمارات والمحلات تظهر فجأة ثم تبتعد، وعوض لا يكُفّ عن الابتسام ويطمئنني كل حين بكلمات متقطعة بأن الكهرباء لن تضرنا. أوصلنا الترام - حسبما كان يطلق عليه الركاب من حولنا - قرب ميدان صغير، عبرنا بعدها جسرًا لننحرف يسارًا، سرنا على قدمينا بمحاذاة النيل لكنه بدا لي نحيفًا كترعة. كنت مأخوذًا للغاية من حركة الحياة وأمواج البشر، لم تتعود أذناي بعد على الضجيج المنتظم المتناغم، ولم يستوعب عقلي كثرة الخيالات المتحركة التي جاهدت عيناي لحفظ ملامحها بعدما أعيتني مراقبتها. شعرت لوهلة بأنني غريب، غير آمن، فأسرعت الخطى لأكون بجوار عوض الذي ابتسم في مودة قائلًا: هانت.. المطرح قريب من هنا، في بين السرايات.

شعرت بسكينة وغبطة في آن واحد على وقع العنوان بأذني، تخيلت قصورًا فارهة وحدائق واسعة وسرايا تطل على النيل، كالتي يسكنها الملك فاروق وابنه أمير الصعيد مثلما نسمع. لمحت عسكري مرور يقف بهيبة كبيرة ليمتثل له قائدو السيارات الضخمة وهو يكتفي بحركة يديه فقط، وصفارة حاسمة حازمة بين شفتيه تنطلق بحساب، ووجه صارم لا يعرف المزاح وعينين كالصقر، رحت أرقبه بانبهار وتمنيت أن أكون مثله، نقلت رغبتي لعوض في جزل كطفل على حافة المراهقة، فابتسم لكنه أجابني على غير ما اعتدته من تجاهل الناس لأسئلتي:

- حتشتغل في أحسن مكان في بر مصر كلها...

- فين؟!

- في نادي الجزيرة!

***

6

- عوض يا بن عمتي... دخلنا الجنة صُح؟!

أشجار موفورة عالية، تتمايل فروعها، حتى تحسبها تنحني لمثيلتها المواجهة لها في احترام، تظلل ممرًّا طويلا تتهادى فيه السيارات ذهابًا وإيابًا، لا أحد يمشي على قدميه لينعم بالظلال الوافرة سوى أنا وعوض فقط، مؤكد هي الجنة الموعودة، لكنها لم تجد مَن يستحقها بعد. كان عوض يسير بخطوة عسكرية لا ينظر حوله، بينما أتلكأ في سيري وألتهم بعينَيّ كل ما يقع بصري عليه من مناطق خضراء وزهور منسقة عطرة، نساء ورجال كلهم من أصحاب البشرة البيضاء، غالبيتهم يرتدون قبعات بأشكال وأحجام وألوان مختلفة، رائحة تبغ مميزة فواحة جذبتني لترصد عيناي غليونًا طويلًا من العاج بين فكّي رجل وقور بلحية رفيعة مدببة يقرأ جريدة أجنبية.

كنت أسير تقريبًا على أطراف أصابعي فلم أسمع أية ضوضاء منذ اجتيازنا بوابة نادي الجزيرة الذي وصلنا إليه عبر فلوكة من ناحية منطقة الدقي، ثم درنا حول أسواره لمسافة للدخول من بوابته الرئيسية حتى أصابني الملل وكلّت قدماي. انتبهت لصوت عوض ينهرني عن السير كل برهة بظهري مذهولًا حتى لا نلفت الأنظار أكثر فيتضايق منا الرواد، لاحظت أن بعضهم يتأملنا باندهاش ويكتفي بابتسامة، اشرأب عوض بعنقه لينظر لي، فبدأ الناس من حولنا يضحكون ونحن نسير جنبًا إلى جنب، ويقولون «عشرة»، بعضهم نطقها بالفرنسية مبتسمًا وهو يشير نحونا، اندهشت، فضحك عوض ووضع يده على عمامته وحاول القفز ليضع يده على رأسي كأنه يقيس أطوالنا، ثم قال: أنت الواحد وأنا الصفر، تعجبت ولم أعلق، فلطالما ظننت أنني صفر!

اقتربنا من مبنى ضخم له بوابة واسعة بلا حواجز، بدا لي من بعيد أطياف رجال ونساء بملابس الاستحمام يمرحون، وعلى أرائك متكئون، تدور عليهم صوان بشراب مختلف ألوانه، لكن من يخدمونهم أصحاب بشرة سمراء داكنة مثلي، لا بد وأنهم أهل الجنة الذين حدثني عنهم عوض، هؤلاء هم مرتادو الحوض المملوء بالماء، لكننا لم نصعد إليهم، فقد انحرف عوض إلى أقصى اليسار، حرنت قليلًا، ثم سرت خلفه كي

لا أفقد أثره، هبطنا درجًا صغيرًا بباطن الأرض، ابتسمت ساخرًا من موازيننا التي خفّت فهوت بنا أسفل السافلين، رفعت رأسي متوقعًا أنهم الآن يسبحون فوقنا، رحت أتخيلهم وتمنيت لو قفزت وسطهم لأنعم بماء بارد في تلك الأيام الحارة التي تزيدني كسلًا..!

تركني عوض جالسًا على مقعد خشبي صغير وغاب عني قليلًا، ثم عاد مرتديًا ملابس بيضاء وحذاءً من نفس اللون، فهمت منه أنه يعمل في تنظيف حجرة تغيير ملابس الاستحمام، ألححت عليه أن أعمل معه حتى أكون قريبًا من رؤية حوض السباحة حسبما تشير اللافتة الضخمة المعلقة على البوابة باللغتين الإنجليزية والعربية، وربما تسنح لي فرصة استخدامه! لم يرد عوض بل ولم يبتسم كعادته، إنما تقلب وجهه وزجرني بشدة على مجرد التفكير في التنطع حول حوض السباحة أو أي مكان آخر بالنادي.

ذهبنا سويًّا إلى مكتب سكرتير النادي متواريين سالكين ممرات خلفية، مررنا على مكاتب موظفي النادي، لفت نظري أن ليس من بينهم أسمر واحد، وغالبيتهم ليسوا حتى مصريين أو هكذا خُيل لي، كانوا يجلسون في قاعة كبيرة ذات سقف مرتفع أمتارًا عديدة، شددت قامتي وهندمت ملابسي ووزعت ابتسامتي عليهم، ولسان حالي يكاد ينطق: بعد قليل سأكون زميلكم الجديد، لا بد وأنني سأعمل بالبكالوريا في هذا المكان الرحب النظيف.

دخلنا مبنى مشيدًا بالحجر لونه أحمر قانٍ وسقفه أخضر من الخشب المعقوف، مثلنا في حضرة رجل إنجليزي على مشارف الستين، رياضي القوام يرتدي قميصًا قطنيًّا أبيض وبنطالًا قصيرًا من ذات اللون،

لمحت قبعة كبيرة فاخرة معلقة على حامل خشبي بجواره، كان الرجل يتحدث بلكنة مصرية ركيكة لكنها مفهومة، الجميع ينادونه «مستر بيلي». تفحصني باهتمام أنا وأربعة آخرين كانت بشرتهم سمراء فاتحة، عرفت أنهم من الصعيد فعاملتهم ببرود، عدا واحدًا، كان من أصول نوبية فوقفت بجواره وابتسمنا لبعضنا لنشد من أزرنا. اصطففنا منتبهين، دار السيد بيلي حولنا دون أن يوجِّه لنا أية أسئلة على غير المتوقع منا، ثم أمر عوض بالانصراف.

انتابني الضيق من نظراته التي طالت حتى كادت تجردنا من ثيابنا، لكنني كظمت غيظي مجبرًا. كنت والنوبي الآخر الوحيدين اللذين تم اختيارهما للعمل بعد كشف الهيئة، أما الآخرين فقد صرفهم بيلي بإشارة من يده مثلما يبعد هوام مزعجة عن وجهه، بعدما كشف عن أسنانهم، وطالبهم برفع طرف جلبابهم لرؤية سيقانهم، آمرًا كل واحدٍ منهم أن يتحدث عن نفسه لمدة نصف دقيقة فقط.

ظللنا واقفين في وسط المكتب كتمثالين بينما السيد بيلي منشغل مع آخرين من موظفي النادي ورواده، ثم التفت للنوبي الواقف بجواري وطلب منه التقدم خطوتين للأمام، بعدها عاد لأوراقه بعينيه فقط، لكن لسانه لم يتوقف عن إلقاء التعليمات الأخيرة: أنت تشتغل «جرسون» في منطقة «البرجولا»، الريس سعد سيحدد مكانك، ويسلمك قفطانًا وطربوشًا وسروالًا، لا تطلب الفاتورة من الأعضاء إلا إذا طلبوها منك، وقتها تبتسم لهم في هدوء وتنحني، وبعد الحساب تنحني بأدب وتقول «ميرسي»، احفظ الكلمة لأنك حتكررها!

هزَّ النوبي رأسه بالإيجاب مرددًا الكلمة الفرنسية عدة مرات همسًا ليحفرها في ذاكرته. انحشرت بينهما بلا داعٍ سائلًا السيد بيلي بغضب:

- ليه ينحنيً للأعضاء وهو بيطلب منهم الحساب؟

أزاح نظارته الطبية الرقيقة جدًّا قليلًا حتى نهاية أرنبة أنفه وهو يرمقني بحدة، ثم وجه حديثه للنوبي الآخر وكأنه السائل: لأن البقشيش أكبر من ماهيتك.

ثم استرسل بصرامة: الضوافر تكون نضيفة ممنوع تطوّلها، والدقن تتحلق مرتين، سنانك تنضفها بالفرشاة خمس دقايق كل يوم، لا هزار ولا حتى كلام مع الجرسونات وقت الخدمة، قفطانك يبرق طول الوقت ويكون مكويًّا ومفرودًا وإلا الخصم حيقطم ضهرك.

سكت برهة ثم قال بصوت عالٍ وهو ينظر نحوي هذه المرة: والغلطة الأولى هي الأخيرة!

رفع النوبي الآخر كفيه عاليًا عدة مرات من أسفل لأعلى محييًا شاكرًا السيد بيلي، وكأنه يغترف من الفراغ وينهل منه ليلقي به على رأسه، ولم ينسَ بالطبع أن يرميني بنظرة غاضبة، بسبب سيل التعليمات والتهديدات الذي هبط على نافوخه بسببي، ثم غادر الغرفة بظهره صحبة الريس سعد كبير الخدم بالنادي الذي لم ينطق حرفًا في حضرة بيلي مكتفيًا بهز رأسه بالموافقة على كل ما قيل.

ظللت لفترة متسمرًا حتى كلّت ساقاي، الجميع يرمقني بنظرة دهشة، وبعضهم يحييني بإيماءة خفيفة، فأردّها له بنصف ابتسامة مبتسرة، حتى خرج صوت بيلي لينهي وقفتي الصماء: عجيبة.. أنت تتولى حراسة الفيلا عندي.

رفعت يدي معترضًا قائلًا بنبرة يفوح منها الضيق: لكن أنا معايا بكالوريا!

بدا لي أن بيلي لم يسمعني، فأعدت عبارتي على مسامعه بصوت أعلى، لكنه ظل يتجاهلني، كان يلملم أوراقًا مبعثرة، ثم رفع رأسه ناحيتي فجأة قائلًا بصلف: وأنت رايح الفيلا عدّي على قاعة الموظفين علشان تعرف بنختارهم إزاي!

ثم عاد لأوراقه مرة أخرى وكأنني انصرفت من أمامه! قفزت إلى ذاكرتي على الفور بشرتهم البيضاء وأطرقت قليلًا ثم هززت رأسي بعنف رافضًا وكأنني أطرد تلك الفكرة السوداء من نافوخي!

***

انتقلت للجانب الغربي من نادي الجزيرة لاستلام وظيفتي الجديدة، في حقيقتها خادم لكن مسماها

الرسمي حارس لفيلا المدير الإنجليزي المقيم في وسط ملاعب شاسعة من النجيل، بساط أخضر ناعم ملمسه، فاقع لونه يسرّ الناظرين، شاسع المساحة، وددت لو تمددت فوقه وجعلته فراشًا. كانوا يلعبون لعبة عرفت فيما بعد أنها تسمى «جولف»، تابعتهم باندهاش غريب، ولم أفهم أبدًا لماذا يقذفون بالكرة بعيدًا حتى لا تكاد تُرى، ثم يقطعون مسافات طويلة سيرًا على الأقدام للبحث عنها، لكي يدفعوها برفق مرة أخرى في حفرة صغيرة قريبة، فيصفقون لراميها بحماس. ربما الفراغ هو الذي يدفعهم لذلك!

كنت أنظف نوافذ الفيلا من الخارج في الصباح، وأساعد البستاني في تنسيق الحديقة الخلفية لها، وفي المساء أتولى مراقبة محيط المكان حتى لا يتسلل أحد من خارج النادي من ناحية الحدائق الممتدة للنيل إلى داخله، ثم أخلد للنوم في كشك خشبي صغير، كنت مضطرًّا للتكوم في فرشتي به مثل جنين، كي لا تخرج قدماي من بابه لو تمددت نائمًا على ظهري وسقفي السماء كما تعودت في بلدتي.

مر عليّ أكثر من شهرين وأنا لا أرى عوض ولا أي بقعة أخرى من النادي، حتى ضقت ذرعًا بوظيفتي السقيمة، فأنا أحرس مكانًا لا أعرفه

ولا أنتمي إليه ولم أدخل مبنى الفيلا ولو لمرة واحدة، ولم يظهر في الأفق ما ينبئ أن خطرًا يحيق به في أي وقت، وباستثناء العاملين المصريين بالنادي وأسماء بعض المشروبات والمأكولات الرخيصة للغاية حتى لتحسبن الرواد من المساكين والعابرين وأبناء السبيل لم أسمع كلمة واحدة باللغة العربية، فغالبية المترددين على المكان يرطنون بلغات أجنبية، فشعرت باغتراب لم يستعدني منه سوى عوض عندما ظهر متحدثًا بلغتنا.

على مدار الأيام تأكدت أن الفرنسية التي تعلمتها في المدرسة

لا تَمُتّ بصلة لما يخترق أذنَيّ من موسيقى أشبه بتغريد عصافير، وأيقنت أنني كنت أنطقها مثل ثور يقلد مواء قطة ويظن نفسه رقيقًا! لكنني مع ذلك كنت أدرك الكثير من المعاني، وأفهم غالبية ما يدور حولي. تلصصت في أحيان كثيرة وتلكأت بجوار الموائد في استراحة ملاعب الجولف، وقرب التجمعات وقت سباق الخيل ووقت شاي الخامسة مساء بحديقة البرجولا، لتلتقط أذناي أطراف حديث من هنا وهناك، محاولًا سبر أغوار ما يدور في رؤوسهم وما يشغل تفكيرهم، فبدوا لي كأنهم قادمون من بلد آخر بعيد، ولا يرون منا إلا خيالات تتحرك أمامهم.

ظللت أحوم حول موائدهم مسترقًا السمع للحظات، فرحًا بإدراكي ما يقولونه حتى تبدلت نعمة معرفة اللغة فجأة لنقمة لما أبطأت خطواتي ذات يوم أمام عائلة مصرية كعادتي، ظننتهم خواجات بسبب بشرتهم شاهقة البياض والمشوبة بالحمرة وحديثهم بالفرنسية، استرقت السمع يومها أكثر مما ينبغي فلقيت ما لم يرضني أبدًا، كلمة «نيجرو» اخترقت سويداء قلبي بعد أذنَيّ، وتحولت ضحكاتهم لسياط تلهب مشاعري، جعلتني الكلمة أتسمر في مكاني لفترة وأدركت أنهم يسخرون من لوني، انتظرت حتى خفتت أصواتهم وسرت همهماتهم، التفتُّ نحوهم غاضبًا وأنا أتذكر زميلي السمين الذي سبني صغيرًا، ها هي الكلمة تتكرر مرة أخرى بصيغة مختلفة، يبدو أنها شائعة هنا، ولكن لماذا؟!

اشتممت رائحة ذعر يطل من عيونهم، وشعرت أنهم يغوصون في مقاعدهم خوفًا من رد فعلي، لكنني اكتفيت بهذا القدر وعدت أدراجي مرة أخرى. ومن يومها وأنا أسرع الخطى قرب تجمعاتهم كلما رأيتهم وهم يخفضون من صوتهم عندما يلمحونني، ولا يدرون أنني الخائف!

انتهزت فرصة ذهاب السيد بيلي للسفارة البريطانية في صباح مبكر وترجلت مسرعًا مرتديًا ملابسي الرمادية الداكنة التي تحمل شعار النادي كبيرًا باللونين الأصفر والأخضر مطرزًا على صدري، سرت بهدوء وثقة في أرجاء النادي متجهًا نحو حوض السباحة، أكبر تجمع للأجانب بالنادي، وقفت بأحد جوانبه منبهرًا أراقب نساء شاهقات البياض، أجسادهن ملساء كالمرمر، وأخريات بلون البرونز، وأتأمل دقة خصر كل منهن، جذبت عينَيّ بشدة نهود بارزة تكاد تفتك فتكًا بقطعتي الملابس العلويتين من زِيّ الاستحمام الذي ترتديه كل منهن.

رأيت لأول مرة امرأة تدخن السجائر وأخرى تشرب البيرة وثالثة تضحك مع الرجال في سلاسة، ضحكت ضحكة مكتومة وأنا أتخيل مِسكة لو أتت إلى هنا وشاهدت ما أراه، ستصدق أنهن جنيّات بالفعل، وجدت أجسادًا ممددة على أرائك خشبية على بطونهن، منهن من ترتدي قطعة ملابس واحدة بالكاد تستر عورتها، يتلمسن دفء الشمس ويتلفحن بأشعتها، ضحكت في نفسي قائلًا: طالما يبحثن عن سُمرة مفتقدة لماذا يتعالين على أصحاب بشرتها الأصلية إذن؟! عجبي!

يومها دس شيطاني فكرة شريرة في رأسي ثم فر هاربًا من عقلي فلم يدركه.

وكأنهم وطنوا النوبيين حول حوض السباحة بالنادي، عشرات الرجال من أهلنا يرتدون قفاطين حمراء وزرقاء يتوسطها حزام ذهبي عريض بخيوط متداخلة مشغولة بعناية، أما المستجدون فكانوا يتلفحون بالقفطان الأبيض حتى يثبتوا كفاءة فتتم ترقيتهم، رؤوس الجميع تغطيها طرابيش حمراء فاقعة، يهرولون لكن في نظام بغير ضوضاء، يسيرون على أطراف أصابعهم كي لا يزعجوا الممددين على الأرائك، الذين ينعمون باسترخاء لا ينبغي أن نشغلهم عنه حتى بطلباتهم.

العاملون يحملون صواني فضية، يرفعونها عاليًا، يدورون بها دوائر متقاطعة مثل المتصوفة، يخفـّون برشاقة لخدمة الأعضاء بمجرد نظرة عين فقط، غالبية الصواني تضم شراب الليمون بالصودا أو البيرة، كؤوس طويلة وأكواب عريضة بجوارها صحون صغيرة بها شرائح خبز تتراص فوقها صنوف طعام غريبة دقيقة الحجم لكن في تناسق بديع، لم أعرف منها إلا الطماطم بسبب لونها!

همست متوجسًا: هذه هي الجنة، لكنني سأخرج منها بسبب تفاحة فضولي!

ظلت فكرة نزولي حوض السباحة تراودني، وتدفعني لتجربتها بغير تبصّر لعواقبها، ولو لمرة يتيمة. «ستفعلها ليلًا يومًا ما عندما ينام الآخرون»، هكذا حدثني شيطاني همسًا مرة أخرى وفرّ هاربًا كعادته.

فجأة هبطت على كتفي كف بيضاء تشوبها حمرة وعروقها بارزة، استتبعها صوت أجش لا يليق بصاحبها، سألني بغلظة عن سبب تواجدي، التفتُّ لأصادف وجه مسئول الأمن القبرصي ذي الأنف الأفطس، لم يكن ضخمًا، لكنه مدكوك ومفتول العضلات بشكل ملفت، لم أشعر بهيبته لقصره إنما خفت من نظراته الحادة التي تكاد تجردني من ملابسي، وبدا أنه ينوي شرًّا، فلم أجرؤ على التفوه بكلمة عن حقيقة غزوتي لحوض السباحة ولزمت الصمت مستسلمًا في خوف للعقاب المنتظر لدخولي المنطقة المحرمة على أمثالي.

***

7

.. بلغ النقاش مداه بين وزير الأشغال العمومية وابنه الشاب اليافع بدر، كلاهما يحوم ويدور متحينًا الفرصة لتوجيه ضربة قاضية للآخر كي يخرسه، يطلق الأب دفعات متلاحقة من الأسئلة المشوبة بالتهكم والسخرية، فيرد بدر الهجوم بمراوغة لا تتفق وهيبة ووقار ومكانة أبيه، يستمتع ويتلذذ بشعور الفريسة وهي تتلوى في رقدتها الأخيرة قبل التهامها مباشرة، فالباشا عصبي ضيق الخلق، بينما بدر بارد، لديه مقدرة على إطالة الحديث وتفريعه إلى أمور تافهة يتوارى معها الموضوع الأصلي، يتمكن كل مرة من إدارة دفة النقاش المحتدم لصالحه، وينجح، ثم يقف عاقدًا ذراعيه حول صدره، يرقب في سعادة أثيمة ما يعتمل في صدر والده من ثورة وغضب وقلبه يرقص طربًا.

لم يدرس بدر الهندسة كرغبة الباشا، بل تعثر في تعليمه تمامًا، وظلت شهادة التوجيهية حلمًا بعيد المنال حتى طاله بأعجوبة، عاد والده يحارب في معركة إقناعه دخول كلية الزراعة كبديل للهندسة، لكن الفتى استهوته التجارة فالتحق بكليتها، بدد جزءًا من ثروة أبيه الذي أفرط في تدليله، ثم التفت حوله جوقة من المغامرين والأفاقين لفترة طالت، فالتصقوا به كظله حتى صار منهم، لا يقوى على الافتراق عنهم، فلم يُكمل تعليمه الجامعي، بدا في ظاهره صورة نمطية للشاب المدلل الفاسد، وراح يمضي لياليه في سهرات يبدأها بلعب القمار وينهيها في أحضان امرأة، كانت في الأغلب الأعم رفيقته السويسرية باتريشيا، بعدما استأجر لها شقة صغيرة بالزمالك قرب فيلتهم وليست ببعيدة عن مقر جريدة الجازيت التي التحقت بها مؤخرًا، لكنه في الأساس اختارها حتى لا يقود سيارته لمسافات طويلة وهو مخمور، بسبب الحوادث التي كلفته ثلاث سيارات جديدة في أقل من عام!

باءت بالفشل كل محاولات أبيه في إصلاح ما أفسدته يداه، لكن ما لم يدركه الأب أن بدر يضمر بباطنه طموحًا بلا سقف لتكوين ثروة بعيدًا عن ممتلكات والده، وكعادة كل نقاش بينهما طرق الباشا المنضدة بعنف وكأنه يعلن للجميع عن خسارته الجولة مرددًا العبارة التي ينهي بها نقاشهما وكأنها مشهد في مسرحية يتكرر كل ليلة دون خروج على النص أبدًا: أنت مفيش منك رجا.

ليبتسم بدر بعدها ببرود، يومها التفت كل رواد منطقة الليدو التي تضم حوض السباحة، وانشغلوا بمتابعة الباشا بدلًا من ثرثرتهم عن نزوات الملك فاروق، لم يكن بعضهم قد أنزل عينيه بعد عن مراقبته باعتباره وزير سابق كان ملء السمع والبصر لسنوات طويلة، عاصر فيها عشرات الوزارات وملكين على التوالي، صوره كانت تظهر كل يوم في أكبر الصحف السيارة، الأهرام والمصري، حتى أتى حريق القاهرة على طموحاته في البقاء وزيرًا ووأد أحلامه في أن يكون نائبًا لرئيس مجلس الوزراء. لم يصمد طويلا أمام التغيرات المتلاحقة في الشهور الستة الأولى من عام 1952 ، فكل بضعة أسابيع يشكل الملك وزارة جديدة، لعبة شطرنج حامية الوطيس، تنتهي في لحظات معدودات على غير العادة، ليعاد ترتيب القطع مرة أخرى على عجل، أغلبها في مكانه، لكن شفيق باشا أُكِل مبكرًا مثل عساكر الصف الأول، فلم يَعُد إلى الوزارة ثانية، واختفت صورته تمامًا وبات في انتظار ظهورها للمرة الأخيرة بصفحة الوفيات وربما في الصفحة الأولى إن تذكره رؤساء التحرير وقتها.

- الملك يموت لو مات وزيره، فحركات باقي القطع محدودة.. سيندمون قريبًا على التخلي عني.

هكذا كان شفيق باشا يردد كل يوم لرفقاء جلساته ولا يمل أبدًا من تكرار ما يقول. أصبحت شمس نادي الجزيرة الدافئة في الشتاء أولى به من تراس فندق سميراميس وسرايات الباشوات، يجلس تحتها كل صباح مجترًّا ذكريات أمجاده لأقرانه من الباشوات أصحاب المعالي والسعادة، مرددًا بحسرة أنهم سيندمون يومًا على خروجه من أروقة الوزارة، لكن مَن هم؟ لا يجرؤ أبدًا على تسمية أحد ممَّن يقصدهم كالعادة.

لم يجد بدر بُدًّا من وضع لمساته الأخيرة على النقاش هذه المرة، لكن بطريقة مبتكرة مفاجئة تضاعف

معها حنق الباشا وغيظه، ردد مقولته التي يعلم أنها تستفز أباه بأنه لن يصير فلاحًا يرعى مصالح الأرض، ثم خلع قميصه وسحب ساقيه من النعل الجلدي الأبيض بخفة، وهبَّ واقفًا أثناء غضبة الأب، وما هي إلا لحظات حتى كان قد ألقى بجسده في حوض السباحة المُدفأ، ليتعمد البقاء تحت الماء غائصًا لفترة ليخرج من نهاية الحوض بالجانب الآخر، متلذذًا بمشاهدة أبيه وهو يصب لعناته وجام غضبه على جرسون عجوز آمرًا إياه بسرعة استدعاء سيارة تاكسي بعدما كان قد صرف سائقه معتمدًا على بدر في توصيله للبيت. لكن أتت الرياح بما لا تشتهي السفن، فقد قرع الجرسون المسكين من فرط خوفه الجرس البرونزي المعلّق في المدخل عدة مرات، ليدق بدوره عند البوابة الرئيسية ثلاثًا، فيشير حارسها بيده للسيارات الثلاث الأولى المنتظرة في صف طويل أمام النادي قرب النيل، ليسمح لها بالدخول بعد أن يسجل أرقامها معتقدًا أن هناك ثلاثة زبائن ينتظرونها بالداخل، لتتسبب ثورة الباشا وخوف الجرسون العجوز منه في أن يخصم المدير القبرصي الذي هرع ناحيتهما يومين من راتب الحارس عقابًا له على إهماله ورعونته المتسببة في دخول سيارتين للنادي بلا داعٍ، بعدما أثار سائقاهما جلبة وضوضاء!

***

انتهزتُ فرصة انشغال المدير القبرصي مع حارس البوابة وآخرين بعدما تسبب سهوه في دخول سيارات أجرة بالخطأ، وتبخرت من أمامه في ثوانٍ، مرقت من بوابة غرفة تغيير الملابس مسرعًا لأجد نفسي في قاعة فسيحة تمتلئ بعشرات الأرائك البيضاء النظيفة، يرتفع سقفها لأكثر من عشرة أمتار. لوهلة شعرت بضآلة حجمي ومضيت باحثًا عن عوض، شرد عقلي وارتبك من كمّ الرجال العرايا الرائحين والغادين كل برهة، بعضهم يغطي عورته بمنشفة بيضاء كبيرة أما البعض الآخر فكان كما ولدته أمه يسير بغير حياء كأن أحدًا لا يراه. لمحت عوض من بعيد يحمل مناشف كثيرة بحجمه ويكاد يسقط على ظهره، فهرولت ناحيته. تقلبت ملامحه لما رآني، وعلا صوته قليلًا، كاد يسبّني وأنا أقف أمامه ساكنًا، وأمسك بتلابيبي غاضبًا وهو يردد: إيه اللي جابك هنا يا بجم؟!

امتعضت ورحت أرطن بالنوبية معلنًا احتجاجي، مبديًا غضبي، كتم فمي بكفه الصغيرة متلفتا حوله في قلق، تنحينا جانبًا خلف جدار من صناديق خشبية يضع أعضاء النادي بها متعلقاتهم الشخصية، راح يستجوبني بعنف عن سبب حضوري، ويكيل لي السباب مرة أخرى باعتبار أننا قد نفقد وظيفتنا في لحظات بسبب تهوري واندفاعي لرؤية حوض سباحة لن أستخدمه أبدًا، أطرقت ندمًا وخرست، بعدما أدركت أنني قد ابتلعت التفاحة مثل أبينا آدم، لكن الفارق أنني لم أعرف طعمها بعد!

- يا ليتني قفزت في الحوض يا عوض..!

قلتها متحسرًا.. بعد أن مرت بسلام غارتي الساذجة لتفقد حوض السباحة وآمنت بعدها للمرة الأولى والأخيرة بالمثل القائل بأن ما نخاف منه ليس هناك أفضل منه، ولم أتعرض أنا أو عوض للفصل، ولا حتى لمجرد اللوم كما كان يتخوف، لم يعرف أحد بوجودي في منطقة الليدو المحرّمة علينا، لكن بعدما زالت الغمة وانقشعت سحب الخوف، راحت فكرة نزولي حوض السباحة ليلًا تعود مرة أخرى لعقلي على أطراف أصابعها لتختمر به وتفتته قطعًا صغيرة، كل قطعة منها تشدني بعنف إلى ركن من أركان الحوض المبهرة.

فاجأني السيد بيلي بإلحاقي بمدرسة قريبة من النادي لأستكمل دراستي وأحصل على شهادة التوجيهية، كانت لفتة كريمة منه، كان يجلس في حديقة فيلته بداخل النادي يقرأ الجريدة، التفت ناحيتي قائلًا:

- إذا نجحت ستُعين في النادي موظفًا..

كان ذلك حافزا قويًا لي، وبالفعل تمكنت من اجتياز المرحلة الثانوية ولما حصلت على شهادة التوجيهية ذهبت لأزف له الخبر السعيد، لكنه كان مشغولًا مع أعضاء مجلس الإدارة بسبب تغيير مسمى النادي ليصبح نادي أمير الصعيد فلم يلتفت لي وقتها وصار بعدها يؤجل قرار تعييني بحجج مختلفة!!

جرى احتفال مهيب كنا حضورًا فيه أو جزءًا صغيرًا منه، وقوفا في الشمس من بعيد، تفصل بيننا وبين الأعضاء مقابر كلابهم، يومها وزعت علينا الحلوى وحصل كل منا على عشرة قروش إضافية بهذه المناسبة. اشتعلت كفوفنا بالتصفيق عدة مرات، رغم أن الملك لم يكن حاضرًا، لكننا عبّرنا بتلقائية شديدة عن حبنا للأمير ولي العهد لمجرد ذكر اسمه، وكأننا نحن الذين كنا ننتظر قدومه إلى دنيانا على أحر من الجمر!

تقلبت في رقدتي بالكوخ متململًا، وظل النوم يجافي عينَيّ تلك الليلة، رفست بساقَيّ ملًّا، فارتطمت قدمي بباب الكوخ فانفتح محدثًا صريرًا بطيئًا كعجوز علا غطيطه فجأة أثناء نومه المضطرب، استقرت الضلفة مواربة فراح ضوء القمر الفضي يتسلل على مهل من فتحتها كأنه يبحث عني خجلًا. نهضت من رقدتي، وخرجت من الكوخ أملأ رئتَيّ هواءً نقيًّا بعمق بقدر استطاعتي.

ابتسمت لوجه القمر المكتمل بدرًا، خيالات كثيرة تبدو على سطحه سرعان ما ميزتها بمخيلتي وشكلتها بما يريده قلبي وتشتاق إليه عيناي، ها هو وجه مِسكة الصبوح يطل على ملاعب الجولف بالنادي ليغمرها بنوره. الشوق بلغ مداه بي، اشتقت إليها أكثر من اشتياق الوليد لصدر أمه، ظللت أتطلع للقمر وأناجيها وجسدها يتشكل على سطحه الفضي، بدأت أتحسس خصرها ثم أطبقت عليه بقوة، رفعتها لتتلاقي شفاهنا، أمتص شفتها السفلي في نشوة وهي شبه مُغمضة، أسمع صوتها، به غنج مثير وهي تناجيني خجلة باسمي، عقدت ذراعَيّ حول صدري ضاغطًا على مقدمته بشدة والتصق فخذَيّ ببعضهما البعض وأغمضت عينَيّ، لفحت نسمة هواء وجنتَيّ كأنها كفّاها الناعمتان. جلست على الأرض بعد فترة هادئًا وصورتها لا تغادر مخيلتي، اتسعت ابتسامتي خجلا وأنا أشعر بلزوجة البلل في سروالي، فتمددت على العشب وتقلبت عدة مرات كحصان جافاه النوم وقضّ مرقده، فراح يتمرغ لاهيًا لعله يستريح ويُسري عن نفسه حتى يلتقي مهرته.

مع مرور الأيام بدأت أتمرد على وظيفتي بالميل للكسل والتراخي والتأخر في الاستيقاظ، ظنًّا مني بأنهم سينقلونني إلى وظيفة أخرى قد تكون قرب حوض السباحة، ففوجئت بمهمة إضافية تلقى على كتفَيّ، اقترحها بيلي بمكر وهو يهمس في أذن المراقب القبرصي بكلمات لم أسمعها، لكن كشفتها عيناه وبيّنتها الأيام، فصرت أعمل أكثر، وتبخرت أحلام التمرد والكسل وذهبت أدراج الرياح.

أمروني بالوقوف كشاويش الدورية كل يوم مرتين، الثالثة عصرًا والحادية عشرة مساءً بعد انتهاء مواعيد عمل الفترتين الصباحية والليلية، أتولى تفتيش العمال والسفرجية عند البوابة الغربية للنادي الملاصقة لمدرجات سباق الخيول. فتلك البوابة هي الوحيدة المخصصة لدخولهم وخروجهم من خلف تعريشة عالية من الخشب بفتحات صغيرة، وجوههم لا تكاد تُرى من خلالها، فقط تلمح أشباحهم تتحرك خلفها، يبدلون ملابسهم في قاعة كبيرة ويضعون متعلقاتهم في صناديق معدنية مثبتة على الجدران، ويغادرون آخر النهار من نفس المكان

فلا يراهم أعضاء النادي أبدًا إلا وهم بملابس الخدمة، الوحيدون المستثنون هم عمال حوض السباحة، لكنهم كانوا يدخلون من المنطقة المخصصة لركض كلاب أعضاء النادي!

كنت أبسط أمامهم مفرشًا أحمر كبيرًا ليضعوا كل ما في جيوبهم أو صرّاتهم عليه، حتى أتأكد أنهم لم يسرقوا شيئًا من النادي. منذ اليوم الأول اكتشفت أن لا أحد منهم يخرج خاوي الوفاض أبدًا، فمن بقايا طعام رُصَّت بعناية في علب كرتون، أو كوب زجاجي مشروخ شرخًا بسيطًا لا يرى بسهولة، إلى كأس من الكريستال نالها كسر صغير بحافتها، أو صحون حروفها متآكلة قليلًا، ومن منشفة قديمة ممزقة، إلى سروال مقطوع أو قميص ذي بقعة كبيرة لا تسر الناظرين فنسيه صاحبه متعمدًا، حتى الجوارب القديمة المختلفة كانت ضيفًا دائمًا على صرّاتهم. المدهش أنني في كل مرة أكتشف فيها ممنوعات كما يطلق عليها السيد بيلي، كنت أغض البصر وأترك صاحبها يمر بسلام وكأنني لم أرَ شيئًا، اكتفيت دومًا بابتسامة مطمئنة أطلقها في عيني السارق، لتبدأ ملامحه في الارتياح ويرد لي الابتسامة بأخرى شاكرة

ممتنة.

ومع مرور الوقت صار «الطيب» لقبي ولم يعد يخاف مني أحد، وراح بعضهم يطلق الابتسامة مبكرًا تفاديًا للتفتيش، وكنت أبادلهم إياها عن بعد، فصاروا يمرون من جانبي أحيانًا وكأنني تمثال للخيبة حتى راحت الهيبة وتبخرت. ولم أفق من غفلتي إلا على كلمات المدير الإنجليزي:

- النادي بيتسرق كل يوم.. لازم تكون أنت شريكهم يا عجيبة!

عبارة جرحت كبريائي، أطلقها مستر بيلي بغضب لما زادت الممنوعات عن الحد حسبما أبلغه سعد رئيس الخدم، فاقت أعداد الأشياء المخبأة في صرّاتهم حجمٍ متعلقاتهم، وعلت الشكوى من اختفاء أشياء كثيرة. انتفضت من سباتي ووقفتي الساكنة، وأجريت تفتيشًا صارمًا، فعثرت بالمصادفة على طاقم مائدة كامل، أربعة وعشرين قطعة من أدوات الطعام بحوزة أحدهم، ظل وجهي جامدًا والسارق يتأهب لمبادلتي بابتسامة الشكر كالمعتاد، لكنني لملمت الصرة الحمراء وأطبقت على ذراعه في غلظة، وهو يتمتم طوال الطريق بجمل متفرقة عن تجهيز ابنته والفقر والعوَز حتى انتهى به التوسل إلى عرضه السخي بتخلّيه مجبرًا عن نصفها لصالحي، سلمت اللص للسيد بيلي الذي كافأني بجنيه كامل على دقتي وصرامتي. ومن يومها لم يجرؤ أحدهم على تسريب بضع لقيمات من الخبز لأطفاله، لكنني فقدت لقب «الطيب» إلى الأبد!

***

8

خرجت باتريشيا من المعبد اليهودي متأبطة ذراع خالتها السيدة ميريام، التي أصبحت معروفة بمدام بارديان بعد أن استخدمت لقب زوجها المهندس الذي توفي منذ عامين فقط. سارتا بشوارع وسط القاهرة متسكعتين قرب الدكاكين التي كانت تعرض موديلات الخريف القادم في واجهتها فجذبتهما إليها. دخلتا أكثر من ثلاثة محلات كبرى فلما كلّت أذرعهما بحقائب المشتريات، اقترحت بارديان العودة ناحية المعبد اليهودي مرة أخرى للجلوس على مقهى «بيتي كوان دو فرانس» الذي يذكرها بلقائها الأول بزوجها من سنين بعيدة فوافقت باتريشيا وهي تضحك على رومانسيتها الكلاسيكية، ومع فنجان القهوة وكأس الشوكولاتة المثلجة دارت ساقية الحديث وهما جالستان بتراس المقهى، سألتها خالتها بقلق عن علاقتها ببدر، لكن باتريشيا راوغتها ببراعة محوّلة دفة الكلام صوب عملها الجديد كمديرة لمكتب رئيس تحرير «جورنال ديجيبت» موسى بركات واطّلاعها على أسرار كثيرة عن القصر ومكتب رئيس الوزراء بعدما تورط الصحفي الشهير معها في علاقة عاطفية، لكنها أخفت كل هذه التفاصيل عن خالتها، وأوحت لها فقط بأن رئيس التحرير موسى بركات يرغب في الزواج منها، كاشفة لها عن ترحاب مزيف مغلف بخجل أجادت اصطناعه بدقة على وجنتيها لتبعد ذهن خالتها عن بدر، فباتريشيا تدرك جيدًا أن مريام أصبحت مثل المصريات في كل شيء من فرط طول إقامتها هنا منذ أن غادرت بلادها وتزوجت المهندس حاييم وهي لاتزال صبية صغيرة لم تنضج بعد.

ارتاحت قسمات السيدة مريام وهي تقول بلهفة: وهو مسيو موسى من أصل مصري؟

قبل أن تكمل عبارتها قاطعتها باتريشيا بحماس: طبعا مصري يهودي وعرض الزواج عليّ مرتين.

- وبدرو؟!

- مجرد صديق مخلص ساعدني حتى وجدت وظيفة، وحاليًا لا أراه إلا في المناسبات عندما يدعوني أنا ومسيو موسى على العشاء في بيته.

بدت خالتها مطمئنة للغاية لعلاقتها بموسى ولترددها على بدر بصحبته، فانفرجت أساريرها وهي تسألها بلهفة أكبر عن ترتيبات الزواج المنتظر وباتريشيا تستجيب لأسئلتها بليونة، تتعثر في بعض الإجابات وتتلجلج في أخريات عمدًا، لتبدو أكثر خجلا وأقل خبرة فتغرس جذور الثقة أكثر لدى خالتها وتقاوم رياح الشك مهما هبت بشدة، حتى بدأت مدام مريام تتخذ مقعدها أمام عجلة القيادة واهمة أنها تقود دفة الحديث وتوجه باتريشيا لتنهمر من شفتيها نصائح كالسيل عن ضرورة إتمام مراسم الزواج بسرعة، وتركتها باتريشيا تفيض بالنصائح حتى أغرقتها وهي نصف مغمضة مستمتعة، فقد كانت شاردة في سفرها إلى سويسرا بعد أيام قليلة، لكنها لم تخبر خالتها هذه المرة بأسباب سفرها إذ لم تكن متأكدة بعد إذا كانت ستكمل السير في هذا الطريق الجديد أم ستتراجع، فالمهام الجديدة التي كلفت بها حتى أصبحت تتقنها توجب عليها الكثير من الحرص والحذر حتى لا تطير رقبتها!

***

- سأفعلها الليلة!

قلتها بثقة، محفزًا نفسي أكثر، ثم تسللت من كوخي بعد منتصف الليل بقليل، متلفتًا حولي كاللصوص. عقدت العزم على خوض المغامرة والانتقام ممن أهانوني بالنادي وسخروا من لون بشرتي، في ضربة واحدة ضاقت بها ضلوعي ولم يعد عقلي يحتملها أكثر من ذلك، نضجت الفكرة وآن لها أن تخرج.

اقتربت من منطقة «الليدو» حيث حوض السباحة، تأكدت أولًا أن

لا أحد يتبعني، ثم صعدت الدرج الحجري الطوبي بسرعة، جلست متوترًا على حافة أريكة خشبية بيضاء ذات عجلات صغيرة، ألهث بشدة بلا تعب، لمحت خيالًا يتحرك من بعيد، فرقدت على بطني متلصصًا عليه، مرق المدير القبرصي بعضلاته المفتولة من البوابة الأخرى. كانت ليلة قمرية بديعة، سحرني ماء

الحوض، ستار فضي شفاف يلمع على ضوء القمر ويناديني فألبي النداء.
تجردت من ملابسي كلها، وكوّمتها أسفل الأريكة في عجالة، اقتربت أكثر، وانتصبت على حافة الحوض تمامًا مثلما رأيتهم يفعلون في غاراتي السابقة، شاهدت صورتي على صفحة الماء تتراقص ببطء، ابتسمت فبادلتني الابتسام، ضحكت بشدة فسمعت صدى صوتي، رفعت ذراعَيّ بمحاذاة كتفَيّ، استنشقت نسيم حرية مفتقدة، ثم ألقيت بنفسي مغمضًا عينَيّ.
تلقيت ما يشبه لسعة السوط مزقت بطني وعكّرت مزاجي قليلًا، ومع ذلك شعرت لبرهة أنني أريد البقاء هنا، أبي وجدي ماتا في مكان مشابه، هاجس طيف الغرق مر بعقلي ثم توقف معلنًا أنها محطته الأخيرة، فدفعت بقدمَيّ الماء لرفع جسدي مبتعدا عن هواجسي، رحت أستنشق الهواء النقي. أغمضت عينَيّ ثانية ثم بدأت أتبول ببطء في حوض السباحة، ومخيلتي تعرض تباعًا وجوه بعض رواد النادي ومرتادي الحمام الذين وصفوني بالبربري بكل لغات الدنيا، كنت على وشك الانتهاء وأنا متلذذ بسخونة الماء المختلط ببولي منسابًا بين فخذَيّ، لكن فجأة اخترقت أذني ثلاث كلمات حاسمة أطلقها بيلي بلكنته التي لا أخطئها أبدًا، فقطعت شهوة الانتقام حتى مزقتها إربًا.
- عجيبة، اخرج حالًا يا حيوان!
بدت كلماته مثل رصاصات قاتلة قضت على متعتي بحوض السباحة، وأحالتني لجثة طافية، لايزال بها بصيص من روح لكنها لا تقوى على الحركة، أخرجت كلماته شبح الرفت من قمقمه ليتراقص أمام عينَيّ. التفتُّ خلفي فوجدت بيلي وبصحبته المدير القبرصي وأربعة من رجال الحراسة الليلية، أحدهم يمسك كلبًا ضخمًا لم يتوقف عن النباح حتى ارتديت ملابسي والسباب ينهال فوق رأسي كالمطر، ظل الكلب ينبح بضراوة ويثب بقدميه الأماميتين محاولًا الهجوم نحوي والرجل يحكم قبضته على طوقه. شعرت لوهلة أن المدير القبرصي يبتسم ابتسامة ذات مغزى وهو يعبث بشاربه، كان يتأمل ببجاحة نصفي السفلي أثناء خروجي من الحوض، برقت عيناه ولمعتا، فأطرقت خجلًا وقرفا، البلل طال ملابسي التي ارتديتها في عجالة لأستر عورتي من سهام نظراته، فالتصقت كلها بجسدي. هرولت نحو كوخي حافيًا، مشبعًا باللعنات، أجر خيبتي بين فخذَيّ وهم خلفي غاضبون، سبابهم يهبط فوق رأسي كحجر ضخم، وشتائمهم تهيل التراب على كرامتي، ووعيدهم بالعقاب الرادع العاجل يمزقني إربًا من الخوف، والكلب لا يزال ينبح!
كانت ليلة عصيبة تركني بيلي في نهايتها لأبيت ليلتي الأخيرة بكوخي على أن أخضع للتحقيق في الصباح. نمت نومًا متقطعًا مضطربًا، صار الكلب الشرس بطلًا لكوابيسي، حتى عندما قفزت في حوض السباحة لاستكمال حلمي الذي ابتسره الواقع، قفز ورائي سابحًا ليطاردني.
استيقظت صباح اليوم التالي من أيام شهر يوليو على طرقات شديدة تكاد تقتلع باب الكوخ، كانت عقارب الساعة تقترب من التاسعة، يزداد الطرق ويعلو، وتهتز الضلفة كالورقة في مهب الريح، ألمح حذاء بيلي الأبيض من تحت عقب الباب، لماذا ينوون فصلي مبكرًا هكذا؟ ألا ينتظرون حتى أتناول إفطاري؟ قد يشفقون عليّ إذا ما عرفوا دوافعي! هكذا تمنيت بينما كنت أفرك عينَيّ بتكاسل وأنا أفتح الباب، لكن فجأة اخترق أذني خبر مدوٍّ مبتسر بلا تفاصيل.
- اصحى بسرعة! الجيش استولى على الإذاعة ومتحكمين في البلد، والشوارع كلها دبابات وعساكر.
- ليه؟!
تساءلت وقد داهمتني دهشة عارمة كإعصار مفاجئ!
- مش شأنك ولا شغلك، المهم تحرس زوجتي وأولادي، لا أحد يقترب من هنا حتى أرجع من السفارة، عندك بندقية خرطوش في الفيلا، استخدمها وقت اللزوم ولا تتردد!
لم أفهم أي شيء من بيلي المضطرب، تركني وانصرف متجهمًا قلقا مبرطمًا بالإنجليزية هذه المرة. رحت أطفو على سطح بحيرة من التساؤلات، تهللت أساريري وأنا أرتدي ملابسي، فقد أنقذني ضباط

الجيش من رفت مؤكد!

مضت ثلاثة أيام ضبابية غامضة ثم رحل الملك فاروق فجأة متنازلًا عن العرش لابنه الوليد الصغير. كانت مشاعري متضاربة، لم أفرح ولم أحزن، ظللت حائرًا في المنطقة الفاصلة بينهما، فأنا قادم من مكان بعيد لا يهتم بهذا أو بهؤلاء، وحتمًا سأعود.

أغلق النادي أبوابه أسبوعًا أمضيته في النوبة، امتد بعدها لآخر ثم لثالث، كنت أحسبه سيغلق للأبد مما كنا نسمعه في الراديو الصغير الذي اشتريته مؤخرًا عن فضائح الملك الفاسد كما قيل لنا، سهراته الماجنة وكأنهم كانوا معه، أموال الفقراء التي سرقها مع أنه يملكها، وكيف صوروا لنا أن الشعب والجيش معًا يكرهانه كراهة التحريم، مع أنهم قالوا لنا في المدرسة إنه مليكنا المفدى المحبوب الذي يملك مصر كلها ويعطف على المساكين، لماذا نكرهه؟ وكيف يتهمونه بسرقة مُلكه إذن؟! يا أللّه..

لم أرَ الملك فاروق طوال حياتي سوى ثلاث مرات، جميعها بداخل النادي في مناسبات مختلفة، بالطبع كنت محظوظا، فهناك من عاش ومات وهو يسمع عنه فقط. لكنني طالما رويت قصصًا خيالية عنه أمام رواد النادي النوبي في وسط القاهرة متفاخرًا ومتباهيًا باعتبار أن غالبيتهم لم يروه أبدًا حتى مَن كان يعمل بالسراي، وكنت كل مرة أضيف للقصة فصلًا من خيالي، حتى أنهيتها مرة قائلًا إنه أوقف موكبه الملكي وسط النادي سائلًا المدير الإنجليزي بلهفة: أومال عجيبة أفندي فين النهارده يا مستر بيلي؟

كان رجلًا ضخمًا بدينًا ذا هيبة، وقورًا، يستخدم النظارة المكبرة وقت سباق الخيل، يلتف حوله الأمراء والوزراء والكبراء لكن بمسافة، إلى الوراء قليلًا. أيدينا كانت تلتهب بالتصفيق كلما لوح لنا محييًا من بعيد، ولما كنا نذهب إلى السينما كان مجرد ظهوره على الشاشة في الجريدة الناطقة كافيًا لكي تدوي القاعة ترحيبًا به، بل إن بعضنا كان يقف لا إراديًّا مصفقًا بحماس، وفي الشوارع كنا نصطف في طابور منتظم هاتفين بحياته، وهو يمرق بموكبه وسيارته الحمراء، ولما كان يزورنا بالنادي أيضًا، كنا نهلل فرحين كلما فاز فرسه المُراهن عليه كالمعتاد، فلم يكن يخسر أبدًا!

- كنت تكرهه يا عجيبة؟!

سألتني مِسكة بلا مبالاة وهي منشغلة بطهو الطعام، كانت تفتح موضوعًا للثرثرة والسلام، فاعتدلت في جلستي على الأريكة جاذبًا انتباهها بالحديث عن فضائل مولانا بإسهاب، وكأنني شماشرجي الديوان الملكي الذي لا يفارقه ليل نهار. أطلقت لخيالي العنان مثلما اعتدت بالنادي النوبي، ثم أغمضت عينَيّ قائلًا بثقة العارف ببواطن الأمور وبلغة فصحى مقلدًا طريقة أداء البكباشي محمد أنور السادات وهو يلقي بيان الجيش: لقد كان مولانا على وشك توقيع مرسوم بعودتنا كلنا لأرضنا وهدم الخزان لولا حركة الضباط التي قامت ونحن نيام يا مِسكة..

رمقتني بنظرة متنمرة لوهلة وأنا ما زلت أتصنع الجدية، ثم انفجرنا في الضحك بعدها حتى البكاء.

***

.. بمجرد أن وطئت قدما بدر فندق أمباسادور بمدينة جنيف، توجه مسرعًا لمكتب الاستقبال سائلًا بنبرة مترددة عن وجود حجز باسمه. كان مندهشًا للغاية بسبب عدم انتظار باتريشيا له بالمطار وفقا لاتفاقهما، حاول الاتصال بها من كابينة تليفون صغيرة فور وصوله، لكنه لم يتلقَّ ردًّا، وقف ينقر بأصابعه في عصبية حتى ابتسم له موظف الفندق مؤكدًا على حجز الغرفة، وسلمه مع مفتاحها مظروفًا متوسطًا مغلقًا بإحكام، دفعه الفضول لفتحه بالمصعد وهو في طريقه لحجرته، كان خطابًا قصيرًا بخط يد باتريشيا تحدد له فيه موعد ومكان اللقاء على ضفاف بحيرة ليمان، لكنه وجد داخل المظروف ما أثار دهشته أكثر، شيكًا بنكيًّا بمبلغ 2644 فرنكًا وخطاب شكر صادرًا باسمه من مجلس إدارة بنك كريدي سويس بزيورخ على جهوده التي كللت بالنجاح وضمت إلى عملاء البنك ثريًّا شرقيًّا من دولة الهند أودع مبلغ خمسين ألف دولار بحساباته وصار من كبار العملاء لديه!

شعر بدر أنه لا يفهم شيئًا مما بين يديه، فقد سافر إلى جنيف من أجل الاتفاق النهائي للحصول على

توكيل جديد لكاميرات التصوير السينمائي الصغيرة في القاهرة حسبما أخبرته باتريشيا، فما علاقة ذلك بثري هندي لا يعرفه وعمولات لم يجلبها؟!

بقيت تساؤلاته في رأسه لكنه دسَّ الشيك في حافظته وأحرق الورقة بيد مرتعشة من القلق والتوتر مثلما طلبت منه باتريشيا في نهاية خطابها الغامض القصير.

قبل الموعد المحدد بنحو نصف ساعة تحرك من الفندق في طريقه للبحيرة التي لا يفصله عنها سوى جسر صغير، ظل يجول ببصره بين الأرائك الخشبية المتراصة بطول الشاطئ لعله يرى باتريشيا، لكنه لم يجدها، فلما أعياه البحث وحان الموعد المتفق عليه جلس على الأريكة الخامسة وفقا للتعليمات التي قرأها بالورقة، ليفاجأ برجل خمسيني أشيب بدين يجلس فجأة بجواره ويتعمد لفت نظره، فلما التفت ناحيته وجده ترك جريدته مطوية ودفعها برفق ناحيته ثم انصرف، تلفت بدر حوله عدة مرات قبل أن يلتقطها خلسة بأصابع مرتعشة وكفين غارقتين عرقًا ليعثر بين طياتها على ورقة صغيرة مدون بها عنوان لم يكن يعرفه من قبل، لكن التعليمات بخط أصغر أسفل العنوان ترشده لأن يستقل الترام الأحمر رقم 2 باتجاه المدينة القديمة لثلاث محطات فقط ليهبط بعدها بالميدان، عندها سيجد مَن يتعرف عليه ويدله على المكان المنشود للقاء باتريشيا.

أغمض بدر عينيه وبدأ ذهنه المضطرب يتأرجح بين التراجع والاستمرار، انتفض فجأة بعد أن قرر البحث عن الرجل الذي كان يجلس بجواره وتركه محاصرًا بالتوتر من كل جانب، ليتحدث معه ويفهم منه ما الذي يدور حوله، تلفت عدة مرات باحثا عنه، حتى لمح بالكاد طيفه وهو يهبط ناحية مرسى القوارب من بعيد فهرول خلفه، اختزل الدرج الحجري في خطوتين واسعتين وهو يجول بعينيه في كل الاتجاهات بسرعة، فجأة استرعى انتباهه صوت محرّك بحري يدور فالتفت نحو مصدره حتى رآه على مبعدة يقف ساكنًا كالتمثال وسط قارب بخاري صغير يعبر به مسرعًا باتجاه الشاطئ الآخر من البحيرة.

عاد أدراجه مرة أخرى بخطوات ثقيلة إلى منطقة وسط المدينة واستقل عربة الترام التي حددوها له، وجلس في مؤخرتها قرب النافذة، ظل يتفرس في وجوه الركاب والصاعدين بالمحطات كل برهة منتظرًا أن يقدم أحدهم على الحديث معه، لكن انقضت المحطات الثلاث ولم يلتفت له أحد، حتى لاح الميدان من بعيد أمام عينيه فبدأ يستعد لمغادرة مقعده، وما كادت أبواب عربة الترام تنفتح تلقائيًّا في المحطة الثالثة حتى صعد الصحفي موسى بركات مبتسمًا في وجه بدر المتأهب للنزول، فجذبه موسى من ذراعه وبدر مندهش مستسلم كالسائر وهو نائم، حتى جلسا متجاورين في نهاية العربة والترام يكمل السير إلى منطقة مجهولة، على الأقل بالنسبة له.

- لا تقلق يا بدرو، نحن الآن في أمان.

رفعت عبارة موسى بركات من درجات القلق عند بدر حتى بلغت مداها، فظل يهز ساقيه بسرعة ويتلفت خلفه بعينين زائغتين. لم يفهم صلة صحفي كبير مثل موسى بركات بتوكيل كاميرات سويسرية، ولماذا يحاط اتفاقه على عمل تجاري بكل هذا السياج من الغموض والسرية وما الذي يعرفه موسى وأين باتريشيا؟

لكن موسى لم يجبه عن تساؤلاته، إنما استرسل معه في حديث طويل عن أهمية تدفق رؤوس أموال أجنبية لمصر بعد الثورة، وأعاد عليه نفس حديث باتريشيا الذي قالته له في القاهرة بصورة بدت أكثر عمقًا وإقناعًا بأهمية دور مجتمع النصف في المائة الذي ينتمي إليه، لكن بدر شرد تمامًا واضطرب تفكيره فلم يعد يسمع ما يقوله موسى وكأنها شفاه تتحرك أمامه دون أن تصدر صوتًا، وراح يربط الخيوط ببعضها.

عاد بذاكرته للوراء شهورًا وقفزت صورة باتريشيا بصوتها الدافئ ذي البحة المثيرة لمخيلته المجهدة وهي تقنعه بمعاونتها في كتابة تقارير عن الرأي العام ومزاج المصريين حول النظام العسكري الجديد واضطهاد المسيحيين واليهود والتعسف مع الباشوات والبكوات وتعمد إذلالهم، يومها هز كتفيه لها معبرًا

عن دهشته مما تطلبه وقد ظن أن الخمر قد لعبت برأسها، فاقتربت منه أكثر حتى التصقت بوجهه وهي تذكره بأنه طالما أخبرها بما يقال في نادي الجزيرة عن مخاوف أعضائه من الضباط الأحرار وأنهم سينقلبون على كل ما هو ملكي وسينكلون باليهود والأقباط مختتمة بابتسامة مغرية: هذا لمصلحتك بالمناسبة..!

يومها خرجت كلماته مغموسة بدهشة وهو يتساءل:

- كيف يكون نقل أخبار ونميمة أعضاء نادي الجزيرة لمصلحتي أنا؟!

- طبعًا، لأن هناك شركة كاميرات سويسرية كبيرة تفكر في فتح فرع لها بمصر وطلبوا مني ترشيح وكيل تجاري محترم موثوق فيه، وأنا رشحتك لخبرتك ولا بد من سفرك للقائهم والتفاوض معهم.

- وما علاقة شركة تجارية بالأخبار الخاصة بالنادي واليهود والمسيحيين؟!

- رأس المال جبان يا بدرو والشركة كبيرة ولا بد أن يتأكدوا من أن استثماراتهم ستكون في أمان بمصر بعد ثورة على الملك وإجباره على التنازل عن العرش، وطبيعي أن يعرفوا أكثر عن عملائهم، وأن السوق هنا بعيد عن أي نظام شيوعي.

- لكن اللوا نجيب قال...

لثمت شفتيه بقبلة طويلة وهي تسترسل: نجيب واجهة يا بدرو، ونادي الجزيرة هو عقدة ناصر ويعمل لأعضائه ألف حساب ويخاف منهم وواضح أنه الوحيد في كل هؤلاء الضباط الذي يخطط ويدبر، ولو أن الباشوات سيساعدون الملك على العودة والناس كارهة للثورة فالشركة الكبيرة تاخد قرار مضبوط بناء على كلامك..

ثم نفثت دخان سيجارتها مسترسلة: وفي كل الأحوال ستظل أنت العميل المخلص لهم وسيعتمدون عليك دائمًا، صدقني هذه فرصة

لا تأتي مرتين.

- لكن عبد الناصر يكرهنا ولا يخاف منا، يهاجمنا ليل ونهار ووصفنا في آخر خطبه بأننا مجتمع النصف في المائة الذي نهب خيرات البلد حتى قال ما معناه إنهم قاموا بالثورة أساسًا ليتخلصوا منا.

فلما وجد باتريشيا لا ترد على كلامه عاد يقول وهو يجيب عن أسئلته بدلًا منها: كيف يخاف منا؟ هذا رجل لا يخاف من أي مخلوق في ظني..

ارتسمت اللا مبالاة على ملامح باتريشيا وهي ترد عليه دون أن تنظر نحوه: كما تشاء لكن تذكر أن الفرصة كانت بين يديك وخوفك من ناصر أطارها.

تركته فترة ينضج على نار هادئة، بعدها التفَّت بجسدها نحوه وهي تنظر في عينيه وتتحدث شبه هامسة، طالبة منه التفكير في مستقبله وإنقاذ ما يمكن إنقاذه من نظام شيوعي قادم وصفته باشمئزاز شديد وهي تبتعد عن بدر قليلًا: نظام كارثي يا بدرو سيقلبكم بهدوء على نار الفقر والذل، فكّر في أفكار ناصر الماركسية، انظر كيف يستقبله البسطاء في الشوارع؟ اسأل نفسك لماذا لا يحتفون إلا به مع أنهم ثلاثة وثلاثون ضابطًا؟ وفكّر لماذا أُعلن أن نجيب استقال وبعدها أخذ قرارًا بعودته، فكّر جيدًا وأنت تفهم أنه ليس مجرد وزير داخلية ولا رئيس وزراء، ناصر يحكم مصر كلها بما فيها الجنرال نجيب.

- لكن الناس تحب محمد نجيب ورجوعه كان تحت ضغط شعبيته والاشتراكية التي يتحدث عنها الضباط غير الماركسية.

- المصريون يحبون القوي يا بدرو، وفي النهاية سيسيرون وراءه من غير تفكير ولا أظن أنهم يفهمون الفرق بين الاشتراكية والماركسية، المهم أن يأكلوا ويشربوا ويكسبواويناموا بأمان.

قبل أن يرد عليها بدر، أضافت بسرعة: ومن سيفهم سيصمت حتى لا يقطع لسانه!

يومها انتهت سهرتهما في فراشها وبعدها أعلن بدر استسلامه لما طلبته باتريشيا، لم يقوَ كثيرًا على الصمود أمامها، هز رأسه مرتين كمَن يقلب الكلام فيها، وطاف بمخيلته كيف كان ينقل لها من باب

الثرثرة تفاصيل الحكايات التي يسمعها بالنادي كل يوم صباحًا وفي الجلسات الخاصة بالبيوت مساء، لكنها فاجأته بأنها لم تكن تعير كلامه اهتمامًا وطلبت منه أن يدونه ويرسله إلى صندوق بريد محدد أفهمته أنه خاص بشركة الكاميرات، ولم يمضِ أسبوعان حتى طلبت منه السفر لتوقيع عقد الوكالة والتوزيع في مصر. هز رأسه مرة ثالثة وهو يتذكر مكاسبه من بيع الكاميرات القديمة خاصة بعد طرد أبيه الوزير السابق من عضوية عشر شركات مساهمة كانت تدر عليهم دخلًا خرافيًّا بخلاف الأطيان الزراعية، ثم همس لنفسه: باتريشيا محقة، أنا فعلًا محتاج لـتأمين مستقبلي في أيامنا السوداء القادمة.

- بدرو، أنت سرحان؟!

أخرجه تساؤل موسى بركات من ذكرياته مع باتريشيا والتفت له قائلًا وهو يشعل سيجارة:

- لا، أنا سامعك مسيو موسى، كمّل كلامك من فضلك.

ربت موسى فخذه مطمئنًا ثم أخرج من حقيبة يده أخرى أصغر منها قليلًا، جلدية سوداء، ووضعها بين كفّي بدر فارتعشتا وانتفض كأنه تكهرب من سلك عارٍ، لكن موسى تجاهل ارتباكه وسأله ببرود:

- أنت خايف ليه؟!

- الشنطة فيها إيه يا موسى؟

تعالت قهقهة موسى عالية في الترام حتى لفتت الأنظار فظل يكتم ضحكاته بعدها وهو يقول بصوت خفيض:

- الله يخيبك، تفتكر فيها إيه يعني، قنبلة مثلًا؟! شوف يا سيدي، فيها أوراق ودفاتر صغيرة استخدمها في كتابة تقاريرك وابعتها على صندوق بريد جديد عنوانه مكتوب عندك، والعنوان طبعًا تحفظه ولا تحتفظ به!

بعينين ظلتا زائغتين وشفة مرتعشة ولسان بدأ يتلعثم في النطق، خرجت الحروف من فم بدر لاهثة تائهة وهو يقلب محتويات الحقيبة دون أن يجرؤ على إخراجها منها: وليه كل ده؟ أنتم طلبتم أخبار عادية ورأي الناس عن عودة الملك يعني مش أسرار عسكرية، أنا مش جاسوس يا موسى!

- جاسوس؟ مين قال إنك جاسوس؟ إحنا خايفين عليك، إنما المعلومات المطلوبة عادية، كلها كلام الناس بتفضفض بيه في النوادي وقعداتها الخاصة وده مش متاح حتى للصحفيين بسهولة، وفي الآخر الشركة حتسلمك التوكيل بناء عليها.

- لكن أنا...

قاطعه موسى قائلًا بحسم لكن بصوت خفيض: لو الملك رجع تاني تفتكر ممكن يعمل إيه مع الضباط اللي بيحكمونا الآن؟

تلقائيًّا أجاب بدر بسرعة: يعدمهم طبعًا!

- بالضبط هو ده نفس اللي حيفكروا فيه لو قبضوا عليك، علشان كده لازم نأمّن موقفك ونضمن سلامتك، فهمت ولا ناوي تسلم لهم رقبتك؟

- Mon Dieu!

قالها بدر وتحسس رقبته بقلق، لكن قبل أن يشرع في إفراغ باقي هواجسه ومخاوفه أو طرح أسئلة جديدة، باغته موسى باترًا المناقشة:

- الليلة حيمر عليك في الأوتيل واحد من مكتب الشركة السويسرية، حيعرض عليك عينات الكاميرات الجديدة والأسعار وعقد الوكالة، وحيتكلم معاك شوية عن الوضع في مصر، لكن لو فكرت ترفض بلغني أولًا، لأن عندي أصدقاء يهمهم إن التوكيل يكون من نصيبهم.

أطرق بدر، وأشعل موسى سيجارة ونفث دخانها نحوه مسترسلًا ببرود: ولو الوقت سمح حيعلمك تكتب التقارير على دفاتر صغيرة رقيقة، وعندهم طريقة مبتكرة لإرسالها حتعجبك، المهم المصريين يتكلموا معك وهمّ واثقين فيك. والمندوب بالمناسبة حيبلغك بميعاد رجوعك لمصر.

- هو أنا حاقعد هنا كتير؟
- أسبوع أوعشرة أيام، أنت داخل على صفقة كبيرة محتاجة تفرّغ، بعدها حتسافر مرسيليا ومنها تاخد الباخرة للإسكندرية.. ما ترجعش بالطيران لأنهم حجزوا لك العودة بالمركب.
- ليه؟
- ما عرفش، اسألهم.. يمكن الباخرة أرخص.
أمسك بدر بذراع موسى وكأنه لا يريده أن يتركه بمفرده، وقال وهو يضغط على مخارج ألفاظه ليضمن كلمات واضحة متماسكة: أنا ممكن أنقل لك الأخبار شفوي أو حتى أبعتها في جوابات عادية، لأن أعصابي بصراحة لا تحتمل كل التوتر والقلق دول.
- اسمعني كويس يا بدرو، لو عاوز تنجح لازم تضحي بأعصابك شوية، فما سترفضه اليوم غيرك حيقبله بكرة وينافسك فيه وتفلس تجارتك بعد بكرة. أنا شخصيًّا ماعنديش مصلحة وباتريشيا هي المتحمسة لك وهي رشحتك للشركة، أنا مجرد مستشار صحفي لهم ودوري انتهى.
- وليه بيستخدموا دفاتر وطرق سرية في نقل المعلومات طالما هي أخبار عادية؟
- شركات كبيرة يا بدرو عندها أسرار صناعة بالملايين والمنافسة شرسة ده أمر طبيعي في أورُبا.
صمت موسى برهة لينفث دخان سيجارته ثم استرسل بصوت أعلى:
- وكمان لازم تعرف إن فيه رقابة على البريد في مصر وأحيانًا بيفتحوا الجوابات، والنادي كله مخبرين ومش بعيد يكون الخدامين اللي في بيتكم بينقلوا كلامكم لازم تكون حريص جدًّا!
- لكن أنا...
- ما تخافش، إحنا عاملين حساب كل حاجة، والشيك اللي أنت استلمته النهارده حيكون غطا كويس لك باعتبار إنك بتجيب عملاء لبنوك أجنبية وبتاخد عمولة.
سكت موسى قليلًا مرة أخرى ثم قال ضاحكًا باستنكار: هو أنت صدقت إنك جاسوس وحيتقبض عليك ولا إيه؟ دي شوية أخبار من نادي الجزيرة يا راجل، جمد قلبك أومال علشان تاخد التوكيل وتعمل لك قرشين ينفعوك.. اللي بيخاف من العفريت بيطلع له زي ما بنقول.
- هو صحيح يا موسى.. عبد الناصر بيحكم مصر واللواء نجيب مجرد واجهة؟
- شوف يا عزيزي، كل الشواهد بتؤكد الرأي ده. نجيب كان ضد خروج فاروق، لكن عبد الناصر صمم، وأكيد خوف ناصر من بقاء فاروق معناه إن الملك له شعبية وممكن يرجع، ودورك هنا إنك تؤكد لنا الكلام ده وبسرعة...
صمت موسى متفرسًا عيني بدر الحائرتين، ثم أضاف مستدركًا ليطمئنه: أو تنفيه.
أطرق بدر محبطًا فعاجله موسى بسرعة: قل لي هو أنت تعرف إبراهيم باشا عبد الهادي أو فؤاد سراج الدين اللي كان وزير داخلية في حكومته، معرفة جيدة؟
- طبعًا.. الاتنين أصدقاء والدي وموجودين في النادي باستمرار.
- عظيم، ركز مع كلامهم، قرب منهم أكثر لأنهم فاهمين في السياسة، واستخدم الباشا الوالد لو لزم الأمر!
برقت عينا بدر لكن موسى أدار وجهه الناحية الأخرى قائلًا: طبعًا من غير ما الباشا الوالد يعرف أو يشعر بحاجة، ده لمصلحتك ومصلحة مصر..
لم يجد بدر ما يقوله، وشعر أنه يدور في حلقة مفرغة وهو يقول بصوت خفيض:
- فين باتريشيا؟ المفروض أنها كانت تقابلني هنا في جنيف.
اتسعت ابتسامة موسى وقتها منهيًا الحديث بها، ونهض دون إجابة بينما كان الترام يخفض من سرعته. همّ بدر بالقيام خلفه أيضًا، لكن موسى دفعه برفق للجلوس مرة أخرى قائلًا بحسم بعدما تبخرت الابتسامة فجأة من على شفتيه:

- لا، أنت تنتظر وتنزل بعد محطتين، سلام.
تحركت العربة بينما موسى يبتعد تدريجيًّا عن عيني بدر الدائخ وحقيبة موسى الصغيرة ترقد بجواره، ليفاجأ بعدها بأن الترام قد وصل بعد محطتين لنهاية خط السير المقرر له، وما إن غادر العربة مرتبكًا حائرًا حتى وجدها أمامه مبتسمة وبجوارها رجل على مشارف الخمسين ممتلئ قليلًا، أصلع، يرتدي نظارة طبية سميكة للغاية ويمد يده نحوه مبتسمًا وهو يخاطبه بالفرنسية: هانز بولوديسكي، مهاجر من بولندا ورئيس شركة فونيكس لآلات التصوير، باتريشيا حدثتني كثيرًا عن خبرتك الكبيرة في مجال بيع الكاميرات ونتطلع للتعاون معك، تشرفنا مسيو بدرو!

***

9

عدت بعد شهور طويلة للنادي متكاسلًا، ملولًا، غير راغب في العمل. بدا الحال غريبًا، فقد رحل نهائيًّا السيد بيلي، كما سافر آخرون غيره إلى موطنهم بغير رجعة على ما يبدو. بقيت أنا وعوض وآخرون من أصول نوبية وأسوانية وبعض السودانيين، حتى جاء مدير جديد مصري فاستبشرنا خيرًا، لكن أولى قراراته كانت التخلص من رجال بيلي وأعوانهم، وحسبني واحدًا منهم، عبثًا حاولت إقناعه أنني لم أكمل عامًا بنادي أمير الصعيد وقبلها عامين تقريبًا لمّا كان اسمه نادي الجزيرة، إلّا أنه استمع لوشايات العاملين الذين ملئوا أذنيه بأنني رجل الإنجليز الذي كان يحرس فيلا بيلي وزوجته وأطفاله يوم الثورة رافعًا السلاح في وجه من يقترب منهم، وأخبروه أنني تسببت في رفت بعض العاملين المصريين الغلابة من النادي، وأغفلوا أنهم كانوا من السارقين. يا ليت السيد بيلي فصلني عندما ضبطني في حوض السباحة عاريًا، أتبول به، ربما كنت الآن من الأحرار!

طوقت الشكوك عنقي حتى خنقتني، فنقلني الضابط المصري الذي حل محل بيلي إلى البوابة الخارجية مؤقتًا لحين النظر في أمري، فتوقعت أن يتم ترقيتي لوظيفة مكتبية تلائم شهادتي الدراسية لكن عملي الجديد لم يزد على مجرد الانحناء لتحية الداخلين، مجرد وقفتي بقامتي الطويلة المنتصبة كانت تجبر أي سيارة على التهدئة وإلقاء السلام على مسامعي وإبراز بطاقة العضوية إذا ما طلبتها، لكن وجودي أيضًا كان يدفع المتلصصين للابتعاد لمسافة آمنة يعيدون فيها حساباتهم عن كيفية دخول النادي، فأغلبهم صحفيون من صغار المحررين أصحاب الفضول، الحالمين بسبق صحفي يتصدر الصفحات الأولى عن فضائح أولاد الذوات بالنادي أو أذناب العهد البائد حسبما أسمتهم كل الصحف مؤخرًا، بعدما كانوا من الوجهاء وأصحاب المقامات الرفيعة، وكأن كاتبها كلها شخص واحد..!

اضطررت لمغادرة الكشك الذي كنت أقيم فيه. كانت زوجة السيد بيلي قبل رحيلهم من مصر قد أعطتني عشرة جنيهات إكرامًا لخدمتي عندها، فاستأجرت بثلاثة جنيهات ونصف الجنيه غرفة بحي عابدين. ومع مرور الشهور الأولى بدا لي النادي أكثر حميمية، وبدأت أعتاد الوجوه الجديدة وغالبيتها من المصريين. لكن شيئًا ما تغير بعد ذلك في سنوات قليلة، الضوضاء والعشوائية والتراخي عرفوا طريقهم إلينا وتوطنوا بالمكان، الملابس والأزياء اختلفت، الوجوه تبدلت، الحديث باللهجة المصرية بدأ يتردد على استحياء في جنبات النادي ثم علا، انحسر النظام وتراجعت نوعية الطعام، أما الإكراميات فقد تبخرت، لهجة الحديث معي ومع عوض وغيرنا من العاملين بات فيها قدر من الاستعلاء والعنجهية، وفوجئنا بأعضاء جدد انضموا للنادي والغالبية تخاطبهم بلقب باشا أو بك، لكنهم مختلفون عن الباشوات والبكوات الذين كنا نراهم من قبل.

كل شيء تغير، حتى الحركة المباغتة التي قاموا بها من أجلنا صار اسمها ثورة!

قلتها يومًا لعوض مازحًا وسط جمع من العاملين بالنادي وضحكت لكنه تجهم ولم يبتسم مثلهم وإن غمغموا. ظهر مدير النادي فجأة وسطنا بهيبته وانضباطه فخرس الجميع، نبه علينا المدير أن نتواجد جميعًا صباح باكر في السادسة تمامًا لأمر جلل. ولم نعد نسأل لماذا، فلا أحد يجيبنا.

اصطففنا بعشوائية لمدة ثلاث ساعات حتى نال منا التعب والإرهاق مرادهما، وقرب التاسعة ظهر موكب كبير يتوسطه رجل وقور يدخن غليونًا ويرتدي الزي العسكري، البشاشة تطل من وجهه ويبتسم في مودة للجميع، تفقد مع رجاله الكثيرين الملتفين حوله أروقة النادي وملاعبه، ثم صعد إلى منصة خشبية عالية أعدت خصيصًا له، ونحن نقف بعيدًا بمسافة كبيرة، فلم يسمح لنا يومها بالاقتراب. وعرفنا بعد انصرافه أنه أعلن عودة المسمى القديم للنادي، ليصبح نادي الجزيرة كما كان، ووأد مسمى أمير الصعيد في مهده، لترتفع الأيدي بالتصفيق في وقار بهدوء ونحن لا نفهم لماذا يصفقون، لكن اقترب منا ضابط شاب وأشار لنا بكفه غاضبًا لكي نصفق، علا التصفيق مدويًا بعشوائية مصحوبًا بهتافات مرتجلة

غير منتظمة، واهتمت الصحافة بالتقاط صورتنا ونحن على تلك الهيئة، مهللين، مصفقين، فرحين بما لا نملك فيه ناقة ولا جملًا.

***

- لماذا يهلل كل هؤلاء الرعاع يا ترى؟!

خرجت الكلمات ساخطة من بين شفتي بدر، وهو يكاد يبصق عليهم من شرفة الطابق الثالث المطل على ملاعب الجولف بنادي الجزيرة من الناحية الغربية، كان يراقب بمنظار مكبّر صغير، يستخدمه في متابعة سباق الخيل، جموع العاملين بالنادي وهم يحيون رئيس الجمهورية المصرية اللواء محمد نجيب والذي راح يلوح لهم بعصا أبنوس قصيرة وغليونه لا يفارق فمه.

قفزت في رأس بدر فكرة، فغاب بالداخل لوهلة، فتش في درج كبير بجوار الفراش الذي تستلقي عليه باتريشيا عارية، كانت تتثاءب وهي تتابعه بنصف عين كسولة وأخرى مندهشة، راح يُخرج الكاميرا السويسرية الجديدة - التي حصل عليها كعينة تجارية - من جرابها ويجهزها بسرعة، ثم يقف على حافة الشرفة ضاغطًا الزر، مسجلًا لحظة تحوّل بدت له فارقة ومثيرة.

منذ أن افتتح بدر محله قبل الثورة في وسط البلد لبيع الكاميرات السينمائية الصغيرة التي جلبتها له باتريشيا من بلادها، لاقت بضاعته إقبالًا واسعًا في أوساط الطبقة الراقية، القصر وحده وقتها اشترى منه مائة آلة للملك والأمراء وكبار الموظفين، فأسدى له صنيعًا جميلًا بهذه الدعاية التي كسب بدر من ورائها الكثير، وهو الآن يسعى جاهدًا للحصول على التوكيل الجديد من الشركة السويسرية بعد لقاء بولوديسكي وبات يمنّي نفسه بأرباح مضاعفة، بعدما راح يخصص وقتًا طويلًا لجمع المعلومات المطلوبة عن تغيّر المجتمع بعد الثورة واحتمالات عودة الملك حتى يفوز بالتوكيل مثلما أخبروه واتفق معهم بجنيف، وشعر مؤخرًا من حديث باتريشيا معه أنه بات قاب قوسين أو أدني من الفوز به بعدما لاقت تقاريره الثلاثة الأولى استحسانًا عظيما لدى إدارة الشركة السويسرية حسبما قالت له.

ساعده نجاحه على التقدم خطوة أخرى والوقوف أمام رغبات أبيه في نقاشهما العقيم حول الأطيان ورعايتها، راحت كلمات والده التي

لا يمل من تكرارها تخترق أذنيه وكأنه لا يزال يقف على كتفيه: أنت ابني الوحيد ولا أريد أن تذهب الأرض لأبناء أخي من بعدي، وأنا صحتي في النازل من فترة!

هز رأسه بسخرية وهو يتذكر مقولة أبيه الشهيرة عن تجارته في الكاميرات: ابني الوحيد، حفيد المغازي باشا يشتغل بياع أدوات تصوير في محل!!

راح بدر يقلب الأسئلة بعقله، لماذا يزرع خمسمائة فدان؟ لا بد وأن يكون مجنونًا مثل أبيه كي يجلس وسطها مع الفلاحين بلا عمل سوى انتظار جني محصول وقطف ثمار، قال لنفسه سأبيعها ويكون لديَّ خمسمائة توكيل تجاري بدلًا منها، حتى هذه الشركة السويسرية الجديدة تدفع مقابلًا مجزيًا للأخبار العادية التي أنقلها لهم من ثرثرة باشوات، زفر بضيق وهو يقول: العالم يتغير والباشا يتمدد في الصندرة!

بعد ثلث ساعة تقريبًا، قطع تفكيره طرق شديد على باب الشقة

لا يتوقف، فتح متوترًا، مستعدًّا لأن ينهال بالسباب على رأس الطارق المزعج، ليفاجأ بضابط بوليس وخمسة رجال أشداء غالبيتهم يرتدون ملابس بلدية، هوى أولهم على وجهه بصفعة هائلة طرحته أرضًا، لكنه قاوم بشدة رغم ضآلة جسده مقارنة بهم، لكن الكثرة تغلب الشجاعة، وسرعان ما تكوم خانعًا في ركن الصالة الصغير، منهكًا، مثخنًا بجراحه، وجهه ينزف من كل فتحاته دون استثناء وكأن رأسه قد فاض دمًا. انتشر المخبرون كالجراد، بعثروا كل محتويات الشقة وأتوا بباتريشيا ملفوفة بملاءة الفراش وتصرخ في هلع بالفرنسية متسائلة عما يحدث وبدر

لا يجيبها، ضبطوا الكاميرا فعَلت الابتسامة الوجوه المكفهرة. كان واضحًا أنهم قد أتوا لهدف وحيد وأصابوه من أول رمية!

دقائق قليلة وكان ثلاثتهم، بدر وباتريشيا وكاميرته، متكومين في صندوق خلفي لعربة شرطة رمادية متوسطة، بينما أعين المخبرين تلتهم في نهم ساقي باتريشيا الملفوفتين وثدييها المهتزين، حتى بلل لعابهم أطراف شواربهم والسيارة تترجرج بإيقاع متبادل مع نهدي باتريشيا وهي تشق شوارع الزمالك في طريقها لقسم شرطة قصر النيل بحي
جاردن سيتي.

ساعات بطيئة مضت وبدر لا يزال قابعًا في زنزانته متجنبًا كل من حوله، متأففًا، مذهولًا. شعر أنه قد سقط بسهولة مثل ذبابة على خيوط العنكبوت، لا بد وأنهم سيتهمونه بالتخابر مع دولة أجنبية وسيعلقون رقبته بحبل المشنقة بسبب الأخبار التي يجمعها عن إمكانية عودة الملك فاروق، ولا بد أن باتريشيا انهارت مع التعذيب الآن واعترفت، رغم أنها بدت متماسكة وهي تغادر السيارة ونبهت عليه بالفرنسية ألا ينطق بحرف مهما فعلوا معه. أسند ظهره إلى الحائط وهو جالس على الأرض والعرق يتفصد منه بغزارة، شعر أنه يريد أن يبكي بشدة ويعترف لهم بكل شيء قبل أن يجبروه على الكلام بوسائل عنيفة لن يتحملها. ظل بزنزانة الحجز ساعات طويلة لا يعلم ما يدور بخارجها، حضر شفيق باشا ليخرجه من سجنه، لكن ضابط القسم صغير السن والرتبة معًا لم يتزحزح عن موقفه قيد أنملة، تعمد إبقاء الوزير الأسبق واقفًا أمامه، متجاهلًا إياه تمامًا، منشغلًا في محادثة هاتفية طويلة، وما إن فرغ منها ووضع السماعة بتكاسل، حتى ألقى على مسامع الأب درسًا قاسيًا في الوطنية وكيفية تربية الأبناء، حتى تاه الموضوع الأصلي، وبات الأب مدافعًا عن نفسه دون أن يعرف سبب القبض على ابنه الوحيد، وفي النهاية أشاح الضابط مرة أخرى بوجهه عنه منشغلًا في أوراقه معتبرًا أن زيارة الباشا للقسم قد انتهت.

خرج الوزير الأسبق السيد شفيق المغازي حسبما كان الضابط يخاطبه منذ قليل مطرقًا مذهولًا مما قاله له من في سن ابنه بصلف ووقاحة، ومضى تائهًا بخطوات عشوائية متثاقلة كشيخ مسن فقد ذاكرته والتبست عليه الأماكن واختلفت الوجوه، يفتش بعمق في ذاكرته عن المعارف وكبار المحامين فلا تعينه بتاتًا على تذكر من يتشجع ويساعده أو حتى يجرؤ على أن يتعاطف معه.

ابتعدت سيارة الباشا ببطء في طريقها لنادي الجزيرة كالمعتاد فهو لم يوجه سائقه، قادته قدماه لمنضدة قرب حمام السباحة فجلس منكمشًا في مقعده مع باشوات سابقين، والحسرة قد زادته همًّا لتخرج كلماته متلعثمة متحشرجة: مين من ولادنا في البوليس اليومين دول
يا مرتضى باشا؟

تلقى جليسه وزير الداخلية الأسبق السؤال ببرود وأعاده بمثله مشفوعًا باليأس قائلًا: وهم دول ولادنا يا شفيق باشا! دول أغراب عنا، لا نعرفهم ولا عمرنا شفناهم!

من بوابة قسم البوليس التي غادرتها سيارة شفيق باشا الكبيرة مضطرة على استحياء، اقتحمتها مسرعة بجرأة سيارة أخرى سوداء متوسطة، ترجّل منها رجل طويل القامة في نهاية العشرينيات من عمره، وسيم، ذو شارب منسق وشعر قصير فاحم، مضى بخطوة سريعة منتظمة تشي بهويته لكنه كان يداريها بمهارة أسفل بذلته الأنيقة ووجهه المبتسم، ليدور حوار هامس بينه وبين ضابط القسم، أطلعه في بدايته على بطاقته بصورة خاطفة لكنها كافية لجعل الضابط ينتفض واقفًا ويحييه باحترام، ثم يأمر رجاله بإخراج بدر من غرفة الحجز فورًا، ليستقر بعدها بقليل في الأريكة الخلفية للسيارة السوداء بصحبة الرجل الوسيم والذي ظل لفترة صامتًا، حتى قدم سيجارة لبدر قائلًا بهدوء تغلفه نبرة الآمر الناهي بطبقة شفافة لا تكاد ترى: تجارتك في آلات التصوير نجحت، وأكيد عاوز تكمل مشروعك.

أومأ بدر بالإيجاب وهو ينفث دخان السيجارة بعيدًا عن وجه محدثه تأدبًا وارتباكًا، فاسترسل الرجل دون أن يتخلى عن ابتسامته البلاستيكية: اكتشفنا من تفتيش محلك أنك تحتفظ بفواتير بيع فقط لخمسمائة آلة بدون أسماء المشترين!

تحدث بدر لأول مرة بصوت منكسر: بناء على طلبهم، موش عاوزين حد يعرف أنهم...

أكمل الرجل الوسيم العبارة مبتسمًا بمكر: أنهم بيصوروا ستات عريانة.
صمت الرجل برهة ثم أردف وهو يتفرس في بدر بابتسامة صفراء، ثم يتأمل أظافر يده في برود: وأنت كمان اتصورت ملط، بلّغوني في القسم أنهم وجدوا شريط يخصك في شقة باتريشيا وقت التفتيش...
سادت فترة صمت كانت مربكة أكثر لبدر كلما طالت، وبدا كأنه يتعرى قطعة قطعة من ملابسه أمام الرجل وهو لا يعرف سبب ضبطه، حتى أنهى الوسيم العرض بلهجة بدت حازمة نوعًا ما:
- عاوزين أسماء وعناوين من اشتروا منك، علشان تقدر تشتغل تاني وتبيع أكتر.. أنت مش مقصود بأي إجراء، أنت أتفه بكتير، لكن أكيد مصلحة بلدك تهمك!
امتعض بدر من الإهانة الصريحة، لكنه راح يقلب الموضوع برأسه بسرعة، لم يكن الأمر يحتاج الكثير من التفكير كي يختار أن يرفع أشرعته مع تيار نظام جديد يهدد بقاءه لو سبح ضد التيار. تنهد بعمق وغمغم حامدًا ربه أن أمر الشركة السويسرية والمعلومات لم ينكشف، وبدا مستعدًّا لعمل أي شيء بعدها. لم يكن يعرف الجهة التي يمثلها الرجل، ظن أنها البوليس السياسي فخاف أكثر، وقال لنفسه لن أكون ملكيًّا أكثر من الملك، لقد غربت شمسه وزال سلطانه مؤقتًا، استراح لهذا التفكير، واستعاد ثقة مفتقدة من ساعات، ودبت روح المساومة بعروقه وهو يقول بنبرة تحاول اجتياز حاجز الثقة: وموضوع المحضر وباتريشيا ومحل الكاميرات بتاعي؟
ابتسم الرجل ملقيًا بعقب سيجارته من نافذة السيارة: باتريشيا خرجت قبلك وزمانها وصلت الجارسونيرة بتاعتكم في الزمالك، والمحل كمان مفتوح من ساعة، والمحضر في جيبي.
قال عبارته وهو يضع كفه على صدره، ثم أخرج من جيب سترته أوراقًا مطوية، أطلعه عليها لثوانٍ ثم أعادها مكانها دون أن يرفع عينيه الجادتين عن وجه بدر الذي أطرق قليلًا ثم خرجت كلماته بنبرة مستسلمة ليذكر له بعض أسماء من اشتروا منه.
قاطعه الرجل مرة ثانية بتهكم: لا، لا.. أنا ذاكرتي ضعيفة لا تحفظ الأسماء، أنت تروح بيتك وتستريح، وبكرة حيقابلك واحد من مكتبي تسلمه البيانات كلها مكتوبة بخط إيدك.
كانت السيارة قد وصلت إلى الزمالك مرة أخرى وتوقفت أمام «الجارسونيرة»، لينهي الرجل الوسيم اللقاء قائلًا بحدة والسائق يفتح الباب الخلفي لبدر: بكرة تمانية صباحًا حيجيلك مندوب من عندي، نام بدري وبلاش سهر الليلة... ثم صمت برهة وهو يتأمل كدمات وجهه ليضيف بابتسامة صفراء: وتقبّل اعتذارنا لو المخبرين كانت أيديهم تقيلة عليك، البلد بتمر بظروف صعبة والأعداء أكتر من الأصدقاء.
ظل بدر واقفًا يتابع السيارة السوداء وهي تسير مبتعدة حتى اختفت. تلفت حوله ذاهلًا، شعر أنه لا يزال في كابوس ثقيل ويريد أن يفيق منه بأي وسيلة. انتابه إحساس بأنه لا يعرف أحدًا، حتى حارس عقاره بدا غريبًا عليه وهو متربع بدكته في كسل، يرمقه بازدراء من بعيد، اقترب منه بدر فبدأ الرجل العجوز يفرد ساقيه ببرود وتراخ ويتأهب للوقوف، تبادلا نظرات صامتة، تحمل شماتة من ناحية، وغلًّا من الناحية الأخرى، غاب بدرٌ بعدها في المصعد صاعدًا لشقته الأنيقة، بينما ظل الحارس قابعًا على الدكة الخشبية في مكانه لا يبارحه.

***

10

ارتقيت درجة السلم الأخيرة لاهثًا، أكاد أشعر بأن روحي على وشك الصعود لبارئها، دفعت باب حجرتي برفق، وجدت مِسكة جالسة على الفراش، متبرمة كعادتها منذ أن اصطحبتها معي للقاهرة في آخر زيارة لي للنوبة حتى تزور الطبيب لنعرف سبب تأخر الحمل، أحمل تزكية من أحد باشوات النادي السابقين بوساطة من عوض لكي نذهب لعيادته بباب اللوق، الكارت يحمل توقيعًا وكلمات توصية رقيقة للطبيب الشهير حتى لا ندفع قيمة الكشف المرتفع، جنيهًا كاملًا.

تمددت بجوارها أستجمع أنفاسي وهي لا تزال على تبرمها وعصبيتها منذ أن وطئت قدماها غرفتي الضيقة المتواضعة، أثاثها كله عبارة عن مرتبة بالية ووسادة بلا كسوة وملاءة قديمة بهت لونها وقلة فخارية مشروخة قرب فوهتها فلا تمتلئ أبدًا وصوان خشبي يرتكن على الحائط مائلًا للخلف قليلًا كعجوز يلتقط أنفاسه، وتقبع في ركن قصي أعلى سطح عقار قديم من تسعة أدوار بحي عابدين.

كانت مِسكة تمضي أغلب نهارها مع النساء الأخريات القاطنات في غرف مجاورة لغرفتي يتجاذبن أطراف الحديث، متأملة المارة والطريق من علٍ، فالغرفة تطل على حدائق قصر عابدين، تراها لكن على استحياء، تسرق بعينها مناظر خضرتها خفية وتختلس بعضًا من رونقها من زاوية ضيقة، لا يلمحها أبدًا أصحاب القصر ولا يرونها منها.

ظلت مِسكة مبهورة بالقاهرة حتى راحت دهشة البدايات. كانت تعد طعامي وتغسل ملابسي إلى أن تغيب الشمس فينقلب المكان إلى غرزة، يأتي الرجال بعد العِشاء، فيعقدون حلقة لتدخين الشيشة بعد يوم عمل طويل، وتدور زجاجات البيرة، وتُغمس أطراف الأحجار بقطع بنية داكنة من الحشيش المغربي طيب الرائحة، تعلو سحب الدخان كثيفة، فتدخل مِسكة جُحرنا عابسة متكدرة، لتبدو كنزيلة زنزانة انفرادية انتهى وقت فسحتها.

أغلقت باب حجرتي بقدمي وأنا مستلقٍ على فراشي، وتناولت قُلة الماء من ركنها القصي، رددت الباب بعنف ثم طوقت مِسكة برفق وحنان وضممتها إلى صدري لكنها ظلت عصية، تأملت كفها المزينة بالوشم ونقوش ليلة حناء لم تمض عليها أسابيع قليلة، عبثت بها بأصابعي مداعبًا إياها فسحبتها برفق، شعرت بها متيبسة بين ذراعيّ كقطعة حجر، فشلت في جعلها طيعة، وبدورها لم تكف عن تكرار نفس السؤال بصيغ مختلفة لكنه بنفس المعنى: حتعود للنوبة؟

لا أعرف لسؤالها جوابًا... ماذا سأعمل إن عدت؟! لا مجيب... تذكرت عبارة عمي الشهيرة فرددتها على مسامعها: «إن شاء الله»، فنظرت لي بتوجس وعبست أكثر.

بعد ساعات قليلة من زيارتنا الطبيب الشهير للمرة الثانية، كنا قد أجرينا الفحوص التي طلبها، ووقفنا أمامه لنتلقى النبأ، وبعدها تبددت كل أسئلتها عن عودتي وتحول مسارها إلى «متى تتزوج بأخرى؟ ومن هي؟ وهل ستقيم معها هنا أم معنا هناك؟»

- مين عارف، ما يمكن العيب عندي أنا، الدكتور قال إنك صالحة للإنجاب.. لكن أنا عمري ما حاسيبك أبدًا.

قلتها وأنا أضغط على كفها برفق، وهي تلتصق بي أكثر أثناء سيرنا بشوارع وسط القاهرة وترد قائلة: الدكتور قال الرحم ضعيف، يعني أنا المعيوبة.

لم أرد عليها وشردت فيما قاله الطبيب، يا ترى هل يعاندنا القدر أم يحنو علينا حتى لا يُهجِّر أطفالنا من بعدنا؟!

تهنا وسط مئات البشر، ومن حولنا أضواء المحلات ولافتاتها تتلصص علينا، تحاصرنا ضوضاء السيارات الصاخبة ونداءات الباعة الجائلين المنغمة، نرى زحامًا حول سينما الكورسال بسبب إعادة عرض فيلم غزل البنات بعدما أعلنت بطلته المطربة ليلى مراد اعتزالها التمثيل، تسقط سنجة الترام

فتحدث شرارة يلتفت لها المارة ويجري خلفه صبية يتصايحون، أحدهم يقذفه بحجر ويتوارى مسرعًا في حارة جانبية وصحبته تشير للكمساري صوب مكانه درءًا للتهمة عنهم، بالقرب منا سيدة بملاءة لف سوداء تمشي بدلال، يبتسم لها رجل أربعيني وهو يستعدل طربوشه ويعبث بشاربه الرفيع ويسير أمامها في خيلاء، تتجاهله وتحكم ربطة الملاءة على جسدها فيظهر تكور مؤخرتها الرجراجة بهيًّا، لتتجذب العيون نحوها، فيتغير خط سير الرجل المعجباني إجباريًّا ويبطئ خطواته ليختلس نظرةً من الخلف على الشحوم الطرية، تلتفت له السيدة متنمرة، فيسمع منها ما لا يرضيه، ليبتعد عنها مطرقًا متعجلًا متواريًا في خزي كما يضعِ الكلب ذيله بين فخذيه.

لمحت عبارات خُطّت على الجدران هنا وهناك، رحت أتسلى بترديدها على مسامع مِسكة، إحداها بطلاء أحمر داكن «لا مفاوضات إلا بعد الجلاء»، عبارة أخرى قديمة مرت عليها سنوات من طلائها الباهت ومكتوبة بخط مائل متعرج صغير وحروف متباعدة قليلًا تسخر من عساكر الإنجليز « يور كينج إيز وومان»، لافِتات تأييد للضباط الأحرار وصورة مجمعة لهم. تتساءل مِسكة فجأة عن معنى الجملة الإنجليزية، أُخبرها بأن ملك إنجلترا امرأة ونحن نعايرهم بذلك من أيام الملك فاروق، تبتسم نصف ابتسامة رغم حزنها، وتداري وجهها بطرحتها الخضراء الشفافة خجلًا من المارة. مع استمرار سيرنا تحيط بنا صور جمال عبد الناصر بمفرده مرتديًا الزي العسكري، لتتزين بها غالبية واجهات الدكاكين، بعدما تنحى الرجل الطيب محمد نجيب، وعرفنا من الجرائد أنه أراد أن يستريح، فأراحوه!

قادتنا أقدامنا نحو تجمع كبير غالبيته من الشباب وبعضه من الصبية الضاحكين، كنت قد لمحت من بعيد ستارًا أخضر قديمًا يحمل الهلال والنجوم مشدودًا إلى قائمين من الخشب ومن ورائه يظهر الأراجوز، دمية كبيرة للمنولوجست شكوكو بالجلباب والطاقية والعصا وابتسامته الشهيرة قد حيكت بعناية أسفل شاربه المخطوط كخط مستقيم، وقفنا على مسافة تسمح بالرؤية وسماع الصوت بالكاد من فرط الزحام، لنستمع لصوت الأراجوز الرفيع ونراه رافعًا صورة جمال عبد الناصر بيد وبالأخرى ينهال بالعصا على رأس دمية لشخص بائس ملتح، قائلًا بحماس:

- يا اللي سلامتك فيها سلامتنا/ يا اللي بتتّعب لأجل راحتنا
بالروح والمال نفديك يا جمال/ وتعيش وتكمل نهضتنا
الشعب بحاله بعت قال لك/ أنت اللي هتحفظ كرامتنا

وعندما نال الموال إعجاب الجمهور وتصفيقه ونحن معهم قال لنا موالًا آخر:

- الخاين اسمه حسن/ مرشد علي هضيبي...
أحطه هو وجهازه السري في جيبي
المرشد العام ده مفسد عام على معتوه/ وجنبه عودة وخميس والطيب المكروه
يا ريس المحكمة إنس أنت ولا جان/ عفارم عليك عرفت تكشف نية الإخوان

ابتعدنا من فرط الزحام، والصياح والتصفيق يدويان من خلفنا. ركبنا الترام من العتبة حتى باب الحديد، اشتريت سميطة وبيضتين وشريحة جبن رومي رفيعة للغاية من بائع متجول بقرشين بعد الفصال ظنًّا منه أننا أغراب، رفضت مِسكة مشاركتي الطعام، جلسنا متقابلين صامتين طوال رحلة العودة. حاولت أكثر من مرة أن أتجاذب معها أطراف حديث أو ألفت نظرها لشيء ما عبر النافذة لكنها أبت وتلحفت بالصمت أكثر، وحدث عدة مرات أن مالت بجسدها للأمام ناحيتي مع اهتزاز عربة القطار وفي كل مرة أظن أنها ستتكلم معي فأقترب منتبهًا مقبلًا عليها بلهفة، لكن ملامحها الجامدة الحزينة تصدني وتعيدني لوضعي، حتى وصل القطار أسوان واستخدمنا أكثر من وسيلة نقل، آخرها كانت دابة عجوز بطيئة حتى وصلنا بيتنا قبلها سائرين على الأقدام في الأمتار المائة الأخيرة.

ارتاحت قسمات مِسكة على الفور لما وصلت بيتها، نامت ليلتها بعمقٍ، وظللت يومين كاملين شبه نائم في أحضانها، همست في أذنيها أنها أمي وأختي وحبيبتي، كنت صادقًا، لا أفكر في الزواج بغيرها، وإن

كنت أتوق لإنجاب طفل ذكر. ضمّت رأسي بشدة لصدرها ومسحت بكفها على شعري المجعد في حنان، تعاهدنا على ألا نفترق أبدًا، تجردت من ملابسي وخلعت عنها جلبابها وهي مستسلمة في شرود فشجعني ذلك السكون على الاستمرار، التصقنا لكن ظلت أرواحنا لأول مرة بعيدة هائمة تحلق وتدور ولا تهبط أبدًا، تحرك جسدانا ببلادة
وبلا لذة حتى بلغنا نشوتنا بالكاد أو هكذا خُيل لي، كنا كمَن يصعد منحدرًا حادًّا فوصلنا منهكين.
رقدت بجوارها وملت برأسي نحوها فلمحت مسحة الحزن قد تشعبت وكبرت حتى كست بشرتها الأبنوسية اللامعة، ترقرقت دمعة حائرة بعينيها، ترددت قليلًا حتى انسابت بين أخاديدها الرقيقة التي تزيد وجنتيها جمالًا. خفت بريق عينيها رويدًا، لمّا صارت تتأمل أطفال قريتنا في شجن، ولم أفلح في مداواة أحزانها، فهي عنيدة، صلبة، لا تلين بسهولة أبدًا..
تردى الحال بمسكة بسرعة حتى لجأت للنذور، وفي يوم لملمت أتربة من مقام قريب لشيخ شهير، ثم نثرتها بحوش الدار، رشت بعضها على رأسها، لكن مسها الضُّر فجأة، فراحت تبكي بحرقة وهي تهيل التراب على وجهها، ولم تهدأ إلا عندما احتويتها بين ذراعَيّ، لتسكن في حضني كطفلة صغيرة آمنة. لم أعهدها هكذا أبدًا، اضطربت أنا أيضًا قليلًا، فقد كنت دوما المُحتاج!
أمضيت معها أسبوعًا أو يزيد حاولنا خلاله زيارة عمي في حلفا السودانية، لكننا اكتشفنا انفصالها عن مصر بقرار فوقي، فصارت تابعة للسودان. احتاج الأمر لموافقات من أصحاب الزي الكاكي الذين أتعبونا كثيرًا، فالأمر لم يعد سهلًا كما كان، ولم أفهم وقتها لماذا رسموا حدودًا، ووضعوا عساكر مدججين بالسلاح بيننا وبين أبناء عمومتنا. مَن يحمي مَن؟ وممَّن؟!
جاءت الموافقة بعدما انتهت إجازتي، فقررنا أن تسافر مِسكة وحدها بباخرة البوسطة السودانية، فلا بد من عودتي للقاهرة حتى لا أفقد وظيفتي. ودّعتني يومها بعينين دامعتين وقالت بشفتين مرتعشتين: قلبي واجعني عليك، صحيح مشوار مصر بيجيب الخير، لكن كل ما أفكر أنك شقيت كتير في تنضيف فيلا الخواجة وحراسة النادي، أقول يا ريتني أقدر أشيل عنه ويرجع ملك في أرضه هنا.
- مين عارف الخير فين؟ يمكن تيجي تعيشي معايا في مصر.
- أنا عمري ما حسيب أرضنا، أنت لازم يوم تعود.
- ما هو عوض ابن عمتي كان ب-...
- لو بتفكر زي عوض يبقى عليك العوض..!
سافرت مِسكة وهي غاضبة لم أفلح في مصالحتها وعلمت بعدها بأيام قليلة من خطابها أن عمي مات.
لم أتمكن من رؤيته قبلها أو حضور جنازته، واستحال علينا دفنه مع أهلنا في النوبة، فوارى تراب حلفا جثمانه في صمت وحيدًا، حسبما أخبرتني مِسكة، فلم تنُح عليه نائحة. وظل عوض يواسيني بعدها بأن الله أكرمه بالتراب بدلا من الرقود تحت الماء مثل الآخرين، سكت قليلًا ثم قال: الموت علينا حق، على الأقل التماسيح مش حتنهش جتته!

***

11

- باتريشيا، يمكنك الحديث الآن.. تفضلي.

.. فتحت باتريشيا الملف الضخم أمامها ووضعت نظارتها على عينيها، وهي تعدلها كل برهة محاولة طرد التوتر الذي التصق بأعصابها والتشبث بتركيزها المتسرب من عقلها كالدخان في مهب رياح خفيفة، كانت قد طلبت الكلمة ردًّا على اتهام بولوديسكي لها بأن بدر المغازي مجرد صفقة فاشلة لم يستطع إرسال معلومات ذات قيمة كبيرة طوال العامين الماضيين مقارنة بآخرين بمنطقة الشرق الأوسط وإفريقيا استعرض ملفاتهم جميعًا باجتماع المنظمة نصف السنوي بمدينة جنيف واقترح التصويت على إنهاء خدمة بعضهم. استجمعت باتريشيا قواها وشحذت همّتها وهي تدافع عنه بقوة لفتت الأنظار بشدة لما مال منطقها وحاد عن طريق الإقناع متلمسة أعذارًا واهية حتى رجحت كفة الشك على الثقة، وبدأت عقول أعضاء المنظمة المتابعين لكلمتها يتحيرون فيما يسمعونه منها، نبرتها اختلفت وصارت حانية أحيانًا ثم علا صوتها بلا مبرر في أحيان أخرى، حُججها متكررة تغلفها بكلمات مختلفة وتعيدها على مسامعهم مرة تلو الأخرى، حتى بدا الموضوع وكأنه شخصي، فانشغلوا في تقييمها حتى اختلط عليهم الأمر، من التي تحدثهم الآن؟ أهي عضوة المنظمة ونائبة موسى بركات بالشرق الأوسط التي جمعت معلومات قيمة على مدار أكثر من ست سنوات وخدمت في عملها بإخلاص، أم مسئولة عمليات تبرر أخطاء عميلها لتحفظ ماء وجهها، أم أنثى تدافع عن فتاها وترى نصف كوبه الممتلئ دائمًا؟!

لكنها لم تعبأ بنظراتهم ولم يثنها ما قد يدور برؤوسهم فهي تعني ما تقوله وتعرف ما تريده، بدت شرسة أكثر وهي تختتم كلمتها شارحة أهمية معلومات بدر المغازي ووجهة نظر باشاوات مصر السياسيين والاقتصاديين في سياسات عبد الناصر، لكن لم يُبدِ أي من الحاضرين تعاطفًا معها سوى نائب الرئيس الجالس بجوارها مباشرة الذي راح يهز رأسه تشجيعًا لها طوال حديثها، حتى اختتمت بعصبية قائلة: لا تنسوا أنه أول من نبهنا للغدر باليهود المقيمين بمصر، وبعدها بدأ ناصر في طردهم ومصادرة ممتلكاتهم تباعًا عكس ما توقعتم كلكم من نظام الضباط، ألا تكفي تلك المعلومة لمكافأته بإعطائه التوكيل التجاري الذي ينتظره وتشجيعه على الاستمرار؟

هز بولوديسكي رأسه بحركة لا يبدو منها موافقًا أو رافضًا، لكنه رفع إصبعه في مواجهتها قائلًا: ولكن لا تنسي أيضًا أن كل ما تنبأ به السياسيون السابقون ونقله لنا بدرو لم يتحقق منه أي شيء، ما قيمة الاستمرار في دعم هذا المصري على معلومة وحيدة لم نستفد منها في وقتها؟

التفت بعدها بولوديسكي ناحية نائبه قائلًا بنبرة واثقة متعالية ليلومه على تعاطفه مع باتريشيا: بينما لدينا عميلنا الجديد سمير خليل وهو من نفس الطبقة الأرستقراطية المصرية ومعلوماته الاقتصادية أدق خصوصًا عن نوايا تحوّل مصر لمجتمع صناعي وإعادة توزيع الملكية الزراعية وهو ما أعتقد أن ناصر سيفعله في الفترة المقبلة، على الأقل في صناعات صغيرة.

- وهل يعقل أن يتحوّل بلد زراعي بحجم مصر إلى دولة صناعية بلا مقومات؟ هذه معلومات أقرب للهراء لأنها لو صحت سيفقدون الرقعة الزراعية للأبد ولن يتركوا بصمة في أي صناعة.

كان المقاطع للحديث هو نائب الرئيس المتعاطف مع باتريشيا والمتابع لنشاط بدر، وبدا متحيزًا أكثر لباتريشيا وهو يستكمل حديثه مفندًا تقارير المصري سمير خليل الذي استقطبه موسى بركات مؤخرًا أثناء وجوده في بيروت وقدّم لهم تقارير كثيرة عن المصانع المزمع إنشاؤها وملامح بسيطة غير مكتملة عن خطة خمسية تنوي الحكومة المصرية تطبيقها.

ابتسم بولوديسكي مستنكرًا وهو يعقب بهدوئه المعتاد: قراءة قرارات ناصر وخطبه الأخيرة تقول عكس رأيك، لكن دعني ألفت انتباهك لملاحظة قد تبدو بسيطة لكنني أراها ذات دلالة.

- وما هي تلك الملاحظة؟
تساءل النائب بحدة وقد بدا متحفزًا غير قابل للاقتناع بأي شيء.
- المصريون هم الوحيدون بالمنطقة الذين يرتدون زيًّا مطابقًا لنا، الوحيدون الذين لديهم نظام تعليم متطور وخدمات صحية جيدة وعاصمتان متحضرتان، لديهم دولة حقيقية بينما باقي البلدان العربية تقريبًا تحكمها قبائل وعشائر حتى الآن.
تراجع النائب بظهره في مقعده وقد خفت حماسه كلهب شمعة انطفأ فجأة، وانشغل بترتيب أفكاره إن اقتضى الأمر منه تعقيبًا لكنه وجد نفسه في حاجة أكثر للصمت مع ضرورة مراجعة تقارير أخرى عن طموح القائد العسكري ناصر لتطوير بلده، ومع سكوته علا صوت باتريشيا مرة أخرى:
- أعطوا بدرو فرصة أخيرة، فليس لدينا رفاهية إقناع عملاء جدد خاصة بعدما خسرنا مؤخرًا جهود موسى بركات للأبد في ظل إنشاء القاهرة لجهاز استخبارات جديد، وكدت ألقى نفس مصير موسى، وبصفتي المسئولة عن هذا الملف سأتحمل المسئولية أمامكم، واستقالتي مقابل فشله..!
سرت همهمة وابتسامات خفية بعضها مستنكرة إثر تعقيب باتريشيا الذي كان آخر ما في جعبتها وبدا أقرب للرجاء، لكن رئيس المنظمة هانز بولوديسكي لم يجبها في حينه إنما تجاوز كلماتها ببرود، وانتقل لمناقشة أوضاع بعض الأقليات بإقليم كشمير طالبًا زيادة الدعم المخصص لهم وإبراز قضيتهم إعلاميًّا بصورة أوسع، بينما بدأت باتريشيا تعض أحد أناملها وتقرض ظفرها بعصبية و لا تكاد تسمع شيئًا مما يقال حولها، كانت تنتظر فقط سماع الموافقة على استمرار بدر في عمله معها. بعد نصف ساعة انتهى بولوديسكي من مناقشة بنود الاجتماع، ثم قال بهدوء وهو يطوي أوراقًا أمامه: حسنا.. لا مانع من منح فرصة أخيرة للمصري بدرو لمدة ستة شهور قادمة فقط.
سكت قليلًا ثم أردف وهو يهم بالنهوض، موجهًا حديثه لباتريشيا التي تورد وجهها قليلًا بعدما كان قد مال للاصفرار: بعيدًا عن العواطف أعتقد أنه يمكنك مساعدته بصورة أفضل لتطوير أدائه، لا داعي لاستقالتك فنحن ما زلنا نحتاج لجهودك، وإذا فشل نلجأ للتصويت على إحضاره إلى سويسرا، أو نكشف أمره للسلطات المصرية ليقبضوا عليه كعربون صداقة مع النظام الجديد وجهاز استخباراته.

***

جاء عام 1956 وبالًا ثلاثيًّا علينا جميعًا، رسبت في كلية الحقوق كالعادة وأخبرتني مِسكة أن الفيضان أغرق زرعها، ثم قلصوا عدد العاملين بنادي الجزيرة بدون مقدمات، ففقدت أنا وعوض وظيفتنا بالنادي لسببين مختلفين، تحججوا بسنه الكبيرة التي جاوزتٍ الستين، بينما تلككوا بحداثة عهدي بالنادي فكانت سببًا قويًّا للاستغناء عني. لكن عوض كان محظوظًا لما عثر على وظيفة حارس عقار مواجه للجهة الغربية من النادي بعدما توفي حارسها القديم، فلم يشعر بغربة كبيرة، صحيحٍ أنها آلمته في البداية لكنه تعوّد عليها مع مرور الوقت، كان يأتي من حجرته بالدقي كل يوم، لكن بدلًا من أن يعرج يمينا كما اعتاد، راح ينحرف يسارًا، ليجلس بمدخل صغير ضيق يتأمل بوابة النادي من بعيد، صار مطرودًا من الجنة، مع أنه لم يأكل من التفاحة أبدًا!
أما أنا فقد تفحصني موظف هيئة الشباب والرياضة مع أعضاء لجنته الأربعة بعدما تقدمت لوظيفة إدارية بناء على إعلان بالجريدة يطلب كتبة ومعاونين للخدمة. لم يكونوا بدقة مستر بيلي وبدوا متعجلين. أشار لي رئيس اللجنة مع ثلاثة آخرين أن نتقدم خطوة للأمام مع أننا في الحقيقة كنا نشعر بتراجعنا خطوات للخلف من جرّاء أسئلته البلهاء وحاله المتردية، ظل ينظر لنا بوجوم ثم نقلنا إلى مركز شباب الجزيرة الرياضي الملاصق لنادي الجزيرة، بعدما اقتطعوا له فدادين كثيرةٍ من أرض النادي خاصة الحدائق وملاعب الجولف المحيطة بمضمار سباق الخيل، وكأنهم أخرجوا جنينًا من رحم أمه قبل أوانه، فولد مشوهًا. وبعد أن كانت الخضرة تسر الناظرين من الفرسان على خيولهم وهم يركضون بها والمئات يتابعونهم، تحولت في شهور قليلة إلى مبانٍ أسمنتية قبيحة غير متشابهات هي التي تصادف

أعينهم كل صباح.
في البداية كنت متحمسًا لقرار الرئيس جمال بإنشاء المركز فكلنا أولاد تسعة وأعضاء نادي الجزيرة ليست على رؤوسهم ريشة كما يقال، وكنت أكره غطرستهم وتعاليهم، وقلت في نفسي سيكون لنا نادٍ مثلهم، لكن مع الوقت انتابني شعور غريب، فقد شعرت بتعاطف كبير معهم
لا يحسّه إلا من فقد قطعة من أرضه لكنني أيضًا وبنفس الغرابة بعد فترة وجيزة طردت هذا الشعور من عقلي ولم أعرف السبب في تقلب حالي بهذه السرعة وهل كان مرجعه ما نقرأه ونسمعه عن فضائحهم بالجرائد والإذاعة أم أمرًا آخر، لست أدري!!
كانت وظيفتي الجديدة عامل نظافة لغرفة ملابس الرياضيين من أصحاب المواهب الذين أنشئ المركز خصيصًا لهم، ليرفعوا علم مصر في دورة الألعاب الأوليمبية القادمة كما قيل لنا، بالإضافة لتكليفي بنظافة دورات المياه لمعهد للتربية البدنية للبنات والذي ظل مغلقًا طوال فترة عملي هناك، فلم يستخدمها سواي! أما شهادة التوجيهية التي حصلت عليها فلم يعد لها لزوم فيما يبدو سوى مسح مؤخرتي بها، حسبما قال لي رئيس اللجنة متهكمًا على مطالبتي بوظيفة مكتبية تليق بشهادتي الدراسية.
مضت شهور طويلة لم يحضر فيها رياضي واحد، أو صاحب موهبة مبكرة أو حتى متأخرة. وفي صباح كل يوم كنت أجلس وزميلي طوال النهار نستمع للراديو، نأكل من صحن فول كبير وقالب جبن أبيض غير مكتمل وثمرات خيار طازجة، طعام يكفي خمسة أشخاص على الأقل نلتهمه في ساعة مع أكواب الشاي الثقيل، كنا نقرأ كل يوم جريدة اسمها الجمهورية صدرت حديثًا ويوزعونها علينا مجانًا، بعدها نتجاذب أطراف حديث عن كرة القدم وسباق الخيل المجاور لنا، ثم ننصرف في الثانية ظهرًا تمامًا بعد أن نوقع في دفتر كبير أنيق أعد خصيصًا لمتابعتنا وانتظامنا في عملنا أمام مدير إداري بدين للغاية وذي ردفين كبيرين، كل وظيفته أن يبتسم لنا ونحن نوقع حضورًا وانصرافًا ثم يجلس ليجفف عرقه المنهمر صيفا وشتاء!
بعد مرور عام تقريبًا، تجرأ حارس بوابة المركز وبدأ يؤجر حجرتين لبضع ساعات بعد صلاة العشاء لأصحاب النزوات العابرة من الشباب نظير خمسين قرشًا للساعتين. كانا يفترشان مرتبة إسفنجية لينة خاصة بفريق الجمباز المفترض، ليمارسا الجنس فوقها بحرية تامة كأنهما في بيتهما. الغريب أنه كان حريصًا على قطع تذكرة زيارة لهما بخمسة قروش، ويصر على تحصيل قرشين منا كل مرة لكي نستمتع أنا وزميلي بمشاهدة حية لوقائع مباشرة الجنس من خلال فتحة مغطاة بالخوص تسمح لي بأن أدخل رأسي فيها، أعدها الحارس خصيصًا بالغرفة الملاصقة لها لكنها أعلى منها قليلًا. كنت مشدوهًا في كل مرة مما أراه، البدايات والنهايات كانت تثيرني جدًّا أكثر من أي تفصيلات أخرى.
كنت أتلذذ بمشاهدتهما وهما يخلعان ملابسهما والرغبة تتأجج بداخلهما، يتحسسان بعضهما في شهوة وشبق، يلتحمان بعنف كالمتضورين جوعًا في الولائم، حتى يأتي مشهد النهاية وكلاهما يغترف من نهر اللذة بنهم، ثم يرقدان هامسين مبتسمين، أحيانًا كانت تفلت ضحكة رقيعة من الفتاة فيكتم الفتى فمها، ويصمت برهة متلصصًا مرهفًا السمع كي يطمئن قلبه، ثم يضاجعها ثانية متعجلًا.
لكن مع الوقت صار الأمر مكررًا، وبعدها بدا مملًّا، ثم بات مقززًا، شعرت وكأنني أراقب كلاب الشوارع في الخرابات المهجورة. اشمأززت من نفسي، فتوقفت عن متابعة هذا البرنامج الليلي، واستبدلت به زيارة للسينما كل أسبوع فلم يكن فارق سعر التذكرة كبيرًا بينهما. وفي كل مرة أشاهد فيها فيلمًا كنت ألوم حكومة الوفد مئات المرات على قرارها بإلغاء الدعارة، فأغلبنا صار يمارس العُهر في الخفاء!
عدت من السينما مساء يوم إلى غرفتي متكاسلًا لا أرغب في مواصلة الاستذكار، رحت أقلب في كتبي المتراصة على الأرض وتمثل سدًّا عاليًا بين سريري ودولابي الخشبي الصغير، كنت في السنة الأخيرة بكلية الحقوق، أعيدها للمرة الثالثة، ورسبت بسبب ما دونته في ورقات الإجابة، رسمت تمساحًا صغيرًا على طرف الورقة فاتحًا فكيه وبينهما رجل طويل ذو ملامح حادة وأنف معقوف، ودونت أسفلها عبارتنا

الشهيرة بخط صغير «حتمًا سنعود».
وفي امتحان مادة القانون الدستوري لم أجب عن الأسئلة وكتبت بخط كبير للغاية: «إن مصر بلا دستور مثل امرأة تكشف عورتها للغرباء»، كانت مقولة أعجبتني ودونتها في مفكرة صغيرة بعدما سمعتها في النادي النوبي بعابدين، قالها مفكر يساري نوبي أظن أنه زكي مراد، لم أعد أتذكر جيدًا الآن كل أسمائهم فقد كانوا كثيرين، لكنني حفظت مقولته لما سجنوه بسببها. ومن يومها حرصت على ندوات اليساريين بالنادي النوبي، وقررت أن أشارك معهم لعلنا نعود يومًا ما، لكن طوال الوقت شعرت أنهم مختلفون عني، تشغلهم قضية العودة وتؤرقهم ويناضلون من أجلها، ومع ذلك يعيشون حياتهم بالقاهرة بصورة طبيعية، يتكلمون بثقة فيسكت الجميع احترامًا وتوقيرًا ليسمعوهم، تهتم بهم الصحف السيارة والإذاعة ويأتي إليهم مريدون كثيرون مثلي، لكنهم لا يحركون ساكنًا كأنهم يخاطبون أنفسهم!
لم ينقضِ أسبوع على ظهور نتيجة الليسانس حتى أيقظتني من نومي طرقات متتالية ثقيلة على باب حجرتي، تقلبت في فراشي لأنهض، لكن من كانوا خلف الباب سبقوني وفدغوا ضلفتيه بأكتاف مخبرين عتاولة، اقتحموا الغرفة مع ضابطهم واثنين آخرين فامتلأت عن آخرها بهم حتى نفد هواؤها، ورغم فظاظتهم إلا أنهم تراجعوا قليلًا لما جلست على فراشي، دهشتهم بادية في عيونهم واستغرقتهم لوهلة وهم يتفرسون في جسمي، حتى بادر كبيرهم آمرًا لكن بنبرة مغلفة بالحذر: بطاقتك فين؟
دسست يمناي أسفل الوسادة وقدمتها له، تفحصها بدقة وهو يتفرس في وجهي قائلًا: منين من النوبة؟ أجبته، ثم استفسرت منه عما يجري مؤكدًا أنني لم أرتكب جرمًا منذ وطئت قدماي القاهرة، ابتسم ابتسامة مبتورة ثم أفسح لي مساحة قائلًا: خير إن شاء الله، قوم انزل معانا من سكات حناخد منك كلمتين وتروّح بعدها على طول!
ارتفعت عينا الضابط متفحصة ذراعَي وأنا أرتدي قميصي، فآثر السلامة وبدا متحضرًا رغمًا عنه ونهى مخبريه عن استخدام العنف معي بإشارة من يده، لكن لم يخطر ببالي السبب الذي يدعوهم لاقتحام غرفتي قرب الفجر واصطحابي معهم لقسم بوليس عابدين. قبل أن ينصرفوا فتشوا الحجرة في دقائق معدودات وأخذوا معهم بعض كتبي الخاصة بدراسة القانون وكتابين عن الماركسية والرأسمالية لم أقرأ فيهما حرفًا، وكتيبًا صغيرًا بعنوان «وصايا الإمام الشهيد حسن البنا» كانوا يوزعونه مجانًا بعد صلاة الجمعة، فازدادت حيرة كبيرهم في أمري وهو يقلب صفحاتها! عبث أحدهم بعدها أسفل فراشي وخرجت كفاه تحملان عدة مظاريف بريدية فضّها الضابط بعنف ليجد بداخل كل منها عملة معدنية وكارت بوستال تذكاري، قبل أن أجيبه رمقني باحتقار قائلًا بسخرية: وعندك هوايات كمان!
طوال الطريق سألتهم أكثر من مرة عن سبب القبض عليّ، لكن لم أتلقَّ منهم سوى صمت مطبق كأنهم فقدوا ألسنتهم بحجرتي! فلما وصلنا تركوني في غرفة الحجز حتى مساء اليوم التالي، ثم أخذوني إلى مكان بعيد لا أعرفه، بعد وضع عصابة سوداء على عينيّ، وعندما رفعوها وجدت نفسي أمام رجل وقور، شديد الأدب، رقيق كالشعراء، أنيق كنجوم السينما، متبسم دائمًا وخفيض الصوت كالهامسين، وبجواره كاتب لا يرفع عينيه عن الورق الذي أمامه أبدًا، ويدوّن كل حرف يخرج من شفتَيّ كأنه ماكينة مبرمجة. سألني المحقق عن توجهاتي السياسية فنفيت أي توجه، فعاد يسأل عن سبب تدويني عبارات مناهضة لنظام الحكم في أوراق الإجابة بليسانس الحقوق، أجبته بأنها عبارات سمعتها في النادي النوبي بعابدين وأعجبتني ولا شيء أكثر، سألني عن صلتي بصاحبها وذكرني باسمه «زكي مراد» فابتسمت وقلت له كاذبًا خائفًا إنني نسيته، طلب مني ذكر أسماء المترددين على النادي فتلوت على مسامعه من تذكرته منهم مردفًا أن جميعهم في السجن الآن على ما أسمع، بخبث شديد سألني عن عثمان الأحمر وهو يضحك فبادلته الابتسام، فاعتبرها إجابة فاكتفيت بدوري بها أيضًا.
- أنت بتجمع عملات وبتتراسل مع أجانب؟
- لأ.. دي جوابات واحد من البهوات ساكن في الزمالك وقريبي بيشتغل عنده وطلب أن...

أشار لي الرجل الوقور بالسكوت، مكتفيًا بردودي المبتورة ثم أخرج من بين ملفاته ورقة إجابتي بالكلية، وأشار للرسم الذي يظهر فيه تمساحٍ يلتهم رجلًا له أنف معقوف منتظرًا تفسيري، لكنني لذت بصمت مريب، لم أقوَ على الكذب، وجبنت أيضًا عن قول الحقيقة فتلعثمت..!

أعاد الورقة لمكانها بهدوء فلزمت الصمت مجددًا، لكنه نهض فجأة، واقترب مني وهو يربت كتفي برفق حتى لا أقف احترامًا له، وباغتني بسؤاله الأخير، بينما عيناه مثبتتان على عينيّ: أنت بتحب عبد الناصر

ولا بتكرهه؟

***

12

«لا أحد يحب عبد الناصر والأغلبية تتمنى رحيله وعودة الملك!»

تأمل بدر الجملة الختامية لتقريره الثالث مرة ثانية، ثم حذف علامة التعجب وأعاد صياغتها مرة أخرى بإضافة كلمتي رئيس الجمهورية قبل اسم عبد الناصر، ووضع التاريخ دون أن يوقع باسمه ثم طوى الأوراق الرقيقة التي بات يستخدمها حتى أصبحت في حجم طابع بريد منتفخ. ثم أخرج من درج مكتبه عملة معدنية لدولة سويسرا لكنها كبيرة نسبيًا، وبدأ يشق حرفها بمبرد صغير فانشطرت نصفين بعد فترة، وضع بها الورقة الصغيرة المطوية التي تحمل تقريره وأحكم إغلاقها بالضغط عليها بقوة، حسبما علّمه مندوب الشركة السويسرية في جنيف، لتعود كما كانت تمامًا.

استراح قليلًا وهو يتأمل العُملة ثم وضعها بحرص مع أربع أخريات عاديات في مظروف بريد مع كارت «بوستال» لمعبد الكرنك دوّن على ظهره بالفرنسية عبارات عن ولعه بجمع العملات وتبادلها مع صديقه البلجيكي المفترض، وبالآلة الكاتبة كالمعتاد دوّن على ظهر المظروف عنوان المرسل إليه «صندوق بريد BV3346 بروكسل – بلجيكا»، ثم لملم زجاجة الحبر وقلم الحبر الإستينو الذي يستخدمه ودفتر الخطابات ذا الأوراق الرقيقة المائلة للصفرة ومبرد العملات المعدنية، ووضعها جميعها في خزانة صغيرة يخفيها بحجرة نومه، بعدما أعاد تغيير حروف قفلها حتى لا تُقرأ كلمة السر التي اختارها «باتريشيا»، ثم هوى بجسده على فراشه وهو يلهث كأنه كان يركض.

انتفض فجأة لما دق جرس الباب، لكنه لم يفتح إلا بعدما تأكد من العين السحرية أن عوض البواب خلفه. سلمه عوض الجرائد وعلبة سجائر واستدار ليغادر فاستوقفه بدر وأحضر مظروفًا سلمه له قائلًا: ابعت الجواب ده من البوسطة اللي جنب بيتكم من فضلك.

قالها ثم أنقده خمسة وعشرين قرشًا إكرامية له، تهلل لها وجه عوض ورفع كفيه بالدعاء رافعًا صوته قليلًا بعدما تلفت خلفه أولًا وهو يقول: ربنا يرفع عنك الغمة ويزيل كربك بسرعة، آمين يا رب العالمين.

- ميرسي ليك يا عوض، كتر خيرك.

في الأسفل كان عجيبة يجلس على الأريكة الخشبية المتصدرة مدخل البيت في انتظار قريبه كعادته، فلما اقترب عوض ألقى له بمظروف بدر بلا مبالاة، فتلقفه عجيبة وقلّبه في يده مندهشًا ثم قال: إيه ده؟

- جوابات بدر بيه اللي ساكن في الدور التالت، ابقى ارميه في أي صندوق بوسطة يقابلك في طريقك وأنت مروح. زي كل مرة.

- وليه وزنه تقيل كده المرة دي؟

ظل عجيبة يؤرجح المظروف على كفه وهو يضحك وقد أخفى عن عوض أنه نسي إلقاء بعض الخطابات السابقة بصندوق البريد حتى قبضوا عليه ووجدوها بغرفته فظنوا أنها هوايته.

- البيه بتاعنا يا سيدي غاوي يلم ريالات فضة ويبدّلها مع الخواجات في بلاد بره وتلاقيه باعت أكتر من واحدة في الجواب ده.. الفضا وكتر الفلوس يعملوا أكتر من كده بعيد عنك وعن السامعين!

***

كان راتبي بمركز الشباب أكبر مما كنت أتقاضاه في النادي بنحو جنيه تقريبًا، لكن لا توجد هنا إكراميات، بل لا يوجد أعضاء ولا حتى عمل! مما دعاني لاستغلال فترة العصاري كل يوم للبحث عن وظيفة أخرى بدخل أكبر، لكنني دومًا كنت أتلقى ردًا من اثنين لا ثالث لهما، إما أن يقال لي لا توجد وظائف خالية، أو تطوّع في الجيش!

وباستثناء يوم افتتاح مركز الشباب، لم يزرنا أحد على الإطلاق وكأنهم نسونا، مع أن مظاهر الاحتفال ذلك اليوم كانت تشي بأن الرياضيين متكدسون على الأبواب. سلمونا يومها ملابس جديدة وأدوات رياضية وكرات متنوعة وقّعنا عليها كعهدة ثم أدخلناها المخازن حتى أكلتها الفئران، التي صارت مع

مرور الوقت في حجم القطط وربما فاقتها ضخامة ووحشية، كنت أرى في عيني كل فأر منها آيات الشكر والعرفان لاشتراكيتنا العظيمة، التي ساهمت في سمنتهم وحفظت بقاءهم على قيد الحياة ومنعت انقراض سلالتهم.

زوّدوا المركز بجيش صغير من موظفين حكوميين يرأسهم ضابط سابق حسبما سمعت، فاحتلوا أغلب المنشآت الخاصة بممارسة الرياضة حتى ضاقت بهم، طغوا على المساحات الخضراء المتبقية حتى يبست ولم يعد هناك موضع لقدم تشاركهم في أي شيء. رُفعت درجة الاستعداد القصوى قبل يوم الافتتاح المنشود، وحضر الاحتفال مسئولون كثيرون وضباط أكثر. ظللنا نلوّح لهم بأيدينا ونصفق مع مئات آخرين من أشخاص لا نعرفهم، جلبوهم للمركز في حافلات نقل كبيرة وانصرفوا بعد الاحتفال مباشرة بعدما شقت حناجرهم من الهتاف وكلّت كفوفهم من التصفيق وفي نهاية اليوم حصل كل منهم على عشرة قروش ووجبة ساخنة، ونحن أيضًا!

وقفت أتأمل مضمار سباق الخيل في حسرة. تبدلت المنصة الرئيسية والمقصورة الملكية، وهُدمت المقاعد الخشبية الخضراء، واستبدلت بمصاطب من الأسمنت الرديء، اختفت البدل الرمادية والسوداء ورابطات العنق الوقورة والطرابيش الحمراء القانية والفساتين الملونة والقبعات الزاهية، غلب اللون الكاكي على المكان وعلى بلدي كلها، وكأنه نذير عاصفة ترابية شديدة ستسود لفترة طويلة وقد تحجب الرؤية لسنوات كثيرة قادمة..! يا ألله!

كنت أستمتع كثيرًا بمتابعة السباق من بعيد وتمنيت يومًا المشاركة فيه لكنه كان محظورًا علينا مجرد الاقتراب من مضماره وها هو اليوم يصير مشاعًا لكل من هبَّ ودبَّ ليراهن بأمواله على خيول أصحاب السعادة والمقام الرفيع والبهوات من زمن فات، تواروا جميعهم وبقيت خيولهم تدل عليهم..!

مال زميلي على أذني هامسًا بدهشة: عجيبة.. مش بتصقف ليه؟

طرقت كفيّ مصفقا في وجوم على وتيرة بطيئة، وكدت أنطق بما يجول بخاطري، لكني جبنت!

***

- مات الملك، فليحيا الثلاثة وثلاثون ملكًا!

.. منذ وفاة والده وزير الأشغال الأسبق حزنًا على أرضه، وبدر يرددها كل يوم أثناء قراءته لجرائد الصباح ومطالعته لصور أعضاء مجلس قيادة الثورة وقراراتهم. كان يتخبط مثلهم، كأنه يقبع في قارب بلا مجداف، تتقاذفه الأمواج وفق هواها، ولا يملك من أمر نفسه شيئًا وهو على مشارف الثلاثين الآن. اعتاد السحب من رصيد كان يظنه لا ينفد أبدًا حتى جاء يوم الحساب مباغتًا، لما فـرضت الحراسة على أملاك عائلته، ترك الفيلا الصغيرة المطلة على نيل الزمالك مجبرًا ليقيم بصفة دائمة بشقة باتريشيا ذات الإيجار المنخفض. باع سيارته الكاديلاك الفخمة واشترى أخرى إيطالية صغيرة رخيصة مستعملة، توقف إيراد الأطيان الزراعية مؤقتًا، حتى توكيل الكاميرات السينمائية القديم لم يستمر كثيرًا، فبعدما سلّمهم كشفًا بأسماء المشترين، طالبته الضرائب بمبالغ تفوق مبيعاته بالضعف، فأعلن إفلاسه مبكرًا وأغلق محله مؤقتًا ثم باعه بثمن بخس. حاول الاتصال بالضابط الوسيم، فاكتشف أن لا أحد يحمل هذا الاسم، حتى الهاتف المدون على بطاقة تعارفه الشخصية وجده يخص دكان حانوتي بمنطقة العتبة!

أما الشركة السويسرية فلم ترد عليه حتى الآن بالموافقة على منحه توكيل جديد وأيضًا لم ترفض، كل مرة يأتيه الرد على خطاباته بالعملة المعدنية بذات العبارة «نريد مزيدًا من المعلومات في أقرب وقت»، فلم يفهم ما الذي يريدونه أكثر مما يرسله!! استطاع بمعاونة الصحفي الكبير موسى بركات وعلاقاته بمجلس قيادة الثورة في الشهور الأولى قبل أن ينقلبوا عليه، بيع بعض أملاكه لصالح باتريشيا وأقارب موسى قبل فرض الحراسة عليه، لكنه استيقظ صباح يوم على قرار بمصادرة أملاك غالبية اليهود في مصر وطردهم منها. يبدو أن النظام بات الآن يقرأ أفكار المواطنين، قالها في صمت صاغرًا خانعًا، كان يتوقع قرارًا بذلك وسمعه من سياسيين محنكين، لكنه لم يتوقع سرعة إصداره.

فجأة تلقى ضربة أخرى مباغتة تحت الحزام، فقد رحلت باتريشيا إلى بلادها بغير تخطيط كما جاءت بالضبط، أخبرته في البداية أنها ستقيم لفترة في الإسكندرية لدى خالتها مريام، لكنها اختفت بعدها تمامًا، ولم يبقَ من ذكراها سوى رقم بريدي بمدينة زيورخ السويسرية، كانا يتراسلان عليه بأسماء مستعارة وفقًا لاتفاقهما، لكنها أيضًا توقفت عن المراسلة منذ فترة..!

همَّ بأن يصب لنفسه كأسًا أخرى فوجد زجاجة خمره قد نفدت، في طريقه للمطبخ وقعت عيناه على صندوق خشبي كبير يخص أوراق والده وبعض متعلقاته الشخصية، رمقه بامتعاض ولام نفسه أنه نسي تذكير عوض البواب بجرده والتخلص من بعض محتوياته. في طريق عودته حاملًا زجاجته الجديدة توقف أمام الصندوق وقد راودته فكرة الجرد ليقضي على ملله، افترش الأرض بجوار الصندوق المفتوح بعدما أفرغ كل محتوياته بالصالة، لتصادف عيناه ملفًّا ضخمًا دوّن عليه بالحبر الأحمر من أعلى عبارة «سري للغاية»، ترك كل شيء حوله وانجذب للملف متفحصًا أوراقه باهتمام لبضع ساعات. برقت الفكرة في رأسه وهو يقرأ تفاصيل بناء خزان جديد يشكل سدًّا ضخمًا لتجميع الماء من خلفه واستغلاله كبحيرة صناعية، وعشرات اللجان تدرس، لكن غالبيتها ترفض وبعضها يتحفظ وقليل منها يوافق على استحياء وتوقيع والده شفيق باشا المغازي مشفوعًا بخاتم وزير الأشغال العمومية يعتمد كل القرارات ويوافق على كل الآراء..!

احتضن الملف بحرص شديد كمَن يقبض على كنز وجده بعد عناء، ومضى نحو فراشه مبتسمًا وقد قرر تلخيص آراء المهندسين الفنية به من الغد وإرسالها تباعا لهانز بولوديسكي على أن يتولى عوض التخلص من الصندوق ومحتوياته بالكامل فلا حاجة له بباقي متعلقات والده..!

أتم بدر كتابة عشرة تقارير وضعها في مظاريف تحوي كل منها عملة معدنية كبيرة نسبيًّا بداخلها ورقة طويلة مطوية ببراعة عن فكرة قديمة لإنشاء السد الجديد الذي تفكر الحكومة في تشييده الآن حسبما ترامى إلى مسامعه، وكان كل أسبوع يسلم مظروفًا منها لعوض والذي يناولها بدوره لعجيبة لإلقائها بصندوق البريد كالمعتاد بعدما سئم القيام بتلك المهمة مجددًا مكتفيًا بمرات ثلاث أولى فقط منذ فترة. وبقي بدر في انتظار مكافأته على المعلومات القيمة التي أرسلها وبات يمني نفسه بأحلام كثيرة تحلق به في آفاق بعيدة، حتى استيقظ من نومه ذات صباح على تفجيرات تضرب جنبات وسط القاهرة، لتعلن الحكومة عن ضبط شبكة «لافون» من اليهود وأعوانهم الذين كانوا وراءها ووضعوا قنابل ببعض دور السينما والمحلات العمومية لإحداث فوضى، وفي الصفحات الأولى لكل الجرائد كانت تفاصيل العمليات تكشف تباعًا وأخبار التحقيقات تنشر بالتفاصيل حتى قدّموا المتهمين للمحاكمة بعد وقت قصير، قلب بدر صفحات الجريدة باهتمام فوجد اسم الصحفي موسى بركات يتصدر قائمة المتهمين، انتابه الهلع وارتعشت كفّه الممسكة بالجريدة ومضى يقرأ حتى وقعت عينه على اسم باتريشيا في نهاية القائمة، لكن بجواره دوّنت بخط صغير كلمة «هاربة».

ارتبك بدر أكثر، ظل ينظر من وراء النافذة ثم يبتعد عنها ليقف بوسط الصالة حائرًا في حركة ديناميكية متكررة وبدأ العرق يتسرب لجبهته غزيرًا، كان ينتظر مع كل دقة باب أن يتم القبض عليه ومحاكمته بسبب تقاريره للشركة السويسرية وعلاقته بموسى بركات وباتريشيا. تحولت حياته إلى جحيم مستمر، وعلى مدار أربعة وعشرين ساعة لم يذق فيها طعم النوم، أحرق كل الأوراق التي كان يحتفظ بها، وتخلص من زجاجة الحبر والقلم الإستينو والعملة المعدنية المفرغة المتبقية عنده بإلقائها تباعًا في المرحاض بعدما فتت القلم لأجزاء صغيرة بكعب حذائه، ثم تبول فوقها كأنه يحتقرها ويتبرأ منها. ظلت صورة العملة تتراقص أمام عينيه فوزنها الخفيف جعلها تطفو مرة أخرى، مد يده متأففًا بعض الشيء واستخرجها، ظل مرتبكًا لفترة حتى هداه تفكيره لإلقائها في بالوعة الصرف لدورة المياه لتشفط للأبد، فهدأ قليلًا.

ظل بعدها لأسابيع لا ينام بعمق، يتلفت وراءه كلما سار في طريقه من البيت للنادي، حتى وسط

أصدقائه الذين اعتاد عليهم بنادي الجزيرة، شعر مع كل إيماءة منهم أنهم تبدلوا معه وربما ساورتهم الشكوك في أسئلته المتكررة وإلحاحه عليهم بفكرة عودة الملك فاروق مرة أخرى لعرش مصر. فبدأ يضيق من دائرة معارفه رغمًا عنه حتى صار وحيدًا، حسم أمره وعقد العزم على مغادرة مصر للأبد ليلحق بباتريشيا، لكنه فشل في الحصول مجددًا على إذن بالسفر، لم يكتفوا بمصادرة أمواله بل وحبسوه في بلده الذي بات يكرهه، أدرك أنهم حتمًا ولا بد في طريقهم للقبض عليه لكنهم لم يفعلوها حتى الآن.
ومع الوقت بدا مترهلًا حزينًا شاردًا ينتظر إعدامه، مثل الفيل الذي يقبع في حفرة كبيرة بانتظار الموت، ومع كل دقة على باب مسكنه يظن أن القبض عليه قد بات وشيك الحدوث فيرتعد وترتفع دقات قلبه وترتعش يداه وهو يمسك بالمقبض حتى يطمئن بأنهم لم يفكروا فيه بعد.
كان بدر قد اعتاد يوم الجمعة من كل أسبوع أن يستلقي ممددًا على أريكة من الخوص بملعب الكروكيه بنادي الجزيرة، يدخن سيجاره ويحتسي زجاجة بيرة، يتجاذب أحيانًا أطراف حديث هامس مع آخرين من أصدقائه المقربين للغاية ويتمنون في نهايته، وكأنهم في حالة دعاء جماعي عقب الصلاة، أن تدك طائرات الإنجليز والفرنسيين رأس
عبد الناصر وثواره عقابًا لهم على تأميم القناة ومصادرة ممتلكاتهم، لكنه الآن توقف تمامًا عن الحديث في السياسة، وصارت الابتسامة المضطربة تتصدر شفتيه كلما جاءت سيرة جمال عبد الناصر، وظلت السنوات تمر وكل الرؤوس تنحني أمامه وتدك أيضًا.
أما الأيام الأخرى فقد أنهكه فيها التردد على مجمع التحرير لشهور طويلة لمتابعة إجراءات فرض الحراسة ولجان الإقطاع.
مع مرور الأسابيع خفت خوفه من ضبطه وتبدد قلقه ونسيهم كما نسوه، وانشغل بمحاولاته لاسترداد أملاكه التي تبخرت وأراد حمايتها من خلال اليهود فآلت للدولة ثم نهبت من بعض صبيانها، فقرر الوقوف في طابور الشماشرجية، لعل بعضها يعود إليه ثانية. وبدأ يشعر بإحساس غريب مريح وكأنما ولد من جديد لما لم يقبضوا عليه، حتى فوجئ ذات يوم بأن عليه أن يعيد دورة الأوراق الحكومية مرة أخرى في مكان آخر مع موظفين آخرين، بعد أن نقلت إليه إدارة الأموال المصادرة.
- وفين مقر الإدارة الجديد لو سمحت؟
- فيلا 17 ب شارع الصالح أيوب بالزمالك.
لم يصدق أذنيه وهو يسمع عنوان فيلتهم القديمة التي صارت الآن إدارة حكومية للأملاك المصادرة، أملاكه وأملاك أبيه!!

***

13

منذ أن عبر بوابتها الخارجية شعر بأنه يعيش كابوسًا حقيقيًّا، كمَن اجتاز ستارًا شفافًا يفصل بين الحاضر والماضي. هنا كان يلعب صغيرًا، وهنا كانت ترقد أرجوحته الخضراء ذات الغطاء القماشي الكبير، يجلس مكانها اليوم رجل تحت مظلة كُحلية قاتمة كبيرة يبيع طوابع دمغة، لم يكد يصعد الدرج الرخامي الأبيض حتى وقعت عيناه على رجل بسترة صفراء باهتة يسير ملتويًا وسط طابور من أشخاص كثيرين يبدو عليهم السخط والضجر، بعضهم كان يعرفه ويلقاه بنادي الجزيرة، لكنهم جميعًا يتفادونه الآن، بل يتجنبون تحية بعضهم بعضًا وكأنهم جميعًا غرباء!

لمح صبيًّا يحمل صينية من الفضة عليها أكواب مثخنة ببقايا شاي، شعر بدر بأنها ليست غريبة عن ذاكرته. اختفت اللوحات والسجاد والثريات الضخمة، نالت الشروخ من بعض التماثيل الكبيرة التي كانت تزين الأركان، أما التحف الصغيرة فجميعها تبخر، أخشاب الأرضيات تشققت معلنة عن تذمرها من الوضع الجديد، مصابيح صغيرة تدلت بأسلاك عارية من السقف بدلًا من الثريات الكريستال، الأركان تحتضن على مضض دواليب من الصاج مكتظة بالأوراق والملفات، وتشققات السقوف أشبه بثعابين كبيرة متشابكة.

ظل بدر واقفًا في الردهة الرئيسية رافعًا رأسه وهو يدور في مكانه حائرًا تحيط به الجدران التي تحولت إلى واجهات زجاجية مصنعة حديثًا، مكسوة بخشب رخيص فاتح لونه، معلق بها كشوف مثبتة بمسامير ملتوية، محررة بخط يد لا يكاد يقرأ من فرط رداءته، تسمر أمامها تائهًا يبحث عن اسم والده الوزير الأسبق ليستدل على رقم الملف حسبما طلبوا منه، لكنه لم يستطع أن يفسر شيئًا من حروفها الصغيرة المتعرجة.

فجأة هبطت كف خشنة على كتفه فالتفت فزعًا ليجد صاحبها ساعيًا بالإدارة يعرض عليه أن يعينه على العثور على اسم الباشا السابق مقابل بضعة قروش فامتثل صاغرًا. لم تقوَ قدماه على حمله للدور العلوي حيث غرفته وغرف نوم والديه، وحمد ربه أن الطابق الثاني خصصوه لإدارة المعاشات فلن يحتاجها الآن على الأقل. التفت بجسده كله ليمضي مبتعدًا، لكن شيئًا ما بداخله اتقد فجأة، أيقظه من سبات الحزن ودفعه برفق نحو الحنين، ظل متسمرًا مكانه للحظات بعدها راح يجر قدميه جرًّا على الدرج صاعدًا نحو غرف النوم. أخرجته حركة المترددين على حجرات الدور العلوي من شجونه، انتبه لصوت حشرجة فوجد سيدة بدينة تنافس فرس النهر في كثافة شحومه تتدحرج ببطء مغادرة حجرة نومه وتكاد تنحشر بين قائمي بابها العريض بعدما خلعوه تمامًا وتركوها مفتوحة على مصراعيها، وقف بعتبتها لا يجرؤ على الولوج فيها، ثم راح يبتعد خطوات للخلف وكأنه يرى نارًا تأكلها وتكاد ألسنتها تطاله، ظل يتراجع بظهره حتى استند على القائم الخشبي المؤدي للدرج، وبمجرد أن ارتكن بثقل جسده عليه حتى سمع طقطقة متقطعة وشعر بأنه يكاد يجذبه ويهوي من فرط ضعف ضلوعه وانفكاك قوائمه... يا ألله!

تمتم بها بدر لأول مرة، وقد أحس بدوار بسيط فراح يفرك جبهته بشدة. وقعت عيناه على حجرة والده وقد ثبتت عليها لافتة نحاسية ضخمة نقش عليها بخط كوفي منمق «إدارة الأرشيف والمحفوظات»، أفلت منه شبح ابتسامة، فوالده بالفعل صار في طي النسيان. استجمع قواه وهبط للدور الأرضي مرة ثانية وراح يتنقل بين غرف صالون البيت ومنها إلى حجرة الطعام، يتأمل في حسرة ما فعلوه بها، حتى استقر في مكتب أبيه، الذي يشغله الآن مدير الإدارة الأستاذ أشموني بعدما جرده من كل ما هو إنجليزي عتيق، فتحول إلى إدارة حكومية مصرية خالصة مصغرة، تضم خمسة مكاتب معدنية من الصاج صغيرة يجلس على رأسها وأكبرها الأستاذ أشموني، رجل بدين للغاية ولا يكف عن الكلام، وعلى طرف مكتبه بقايا طعام أفلتت من أنيابه بعدما انتفخ بطنه وعبأ الغرفة بغازاته.

احتاج الأمر منه إلى أربع زيارات على مدار شهرين، حتى وافقوا له على صرف إعانة شهرية لم تتعد

خمسة عشر جنيهًا، ومع ذلك اعتبروها تبذيرًا، وظنوا أنه موصى عليه من مسئولين كبار ليحظى بتلك المنحة الضخمة. لم تكن تلك هي معضلته التي تؤرقه كل ليلة، فقد كان يدخر مبلغًا من المال تجاوز ثلاثة آلاف جنيه مصري حصل عليه من موسى بركات قبل القبض عليه بأيام قليلة، وظل ينفق منه مقطرًا، فلم يكن شاطئ الاستقرار قد لاحت رماله بعد أمام عينيه، ولا يزال قاربه الصغير يترنح من جراء أمواج التغيير العاتية. لكن التلويح بمائة جنيه كاملة كان مغامرة تستحق أن يخوضها مع الأستاذ أشموني كبير موظفي فرض الحراسة المعين من وزارة الخزانة، إذ ربما يسترد بعضًا من ثروة أبيه.

- نورت الإدارة يا أستاذ بدر، إحنا زارنا النبي النهارده..

خرجت الكلمات من فم أشموني الجالس على مكتب والده الوزير الأسبق بطريقة فجة متهكمة نوعًا ما وكأنه يجس نبض زبونه، بدا قابلًا للارتشاء، عيناه تفضحانه، وكلماته المغموسة في تلميحات صريحة تعريه. وكان بدر مهيأ، فمنذ التحفظ على ممتلكاته وهو يلقي بسنارته كلما دلف إدارة حكومية لعل أي شيء يعلق بها، حتى ظفر بهذا الأشموني، كان صيدًا ثمينا ولا شك، تأخر قليلًا، لكنه ابتلع الطُّعم مع كثرة تردده على إدارة الحراسات وجرّه للكثير من أذيال الخيبة على مدار المرات السابقة فلفت الأنظار له. اتصل الود بينهما بالتدريج حتى باح أشموني بمكنون سره في الزيارة الثالثة، أبدى تعاطفًا مبالغًا فيه مع موقف بدر، خاصة لما عرف منه أنهم يشغلون فيلتهم المصادرة، فتح الرجل عقله ودرج مكتبه في آن واحد، ليلقي فيه بدر ورقة مالية ضخمة، عشرة جنيهات كاملة عربونًا للثقة وأساسًا لجسر متين ستعبر فوقه عشرات مثلها، لينطلق لسان الموظف ليلتها في ركن منزوٍ بمقهى في حارة ملتوية على نفسها من حارات الجيزة، عانى بدر كثيرًا حتى وصل إليه.

شرح أشموني بهمس لا يكاد يسمعه بدر نفسه ما ينبغي عليهما تدبيره، فلما وجد منه قبولًا للفكرة، بدأ يسرد باقي خطوات الاسترداد قائلًا: وبعدها سنوقع عقدًا بتاريخ قديم قبل الثورة ونختمه بخاتم الإدارة، وبعدين نبدأ نفرج عن المجوهرات والأموال والأراضي بالتدريج، لغاية ما تتحصل على تلت ثروة الباشا الله يرحمه ويبشبش الطوبة اللي تحت راسه.

- والتلتين بيروحوا فين؟

- الدولة بتصادر النصف تقريبًا، وإلا ننكشف يا بدر بيه وأنت أبو المفهومية.

- والباقي يا أستاذ أشموني؟!

- كل سنة وحضرتك طيب يا أستاذ بدر!

قالها الرجل بثقة، وسكت منتظرًا الرد على عرضه، لكن بدر ظل واجمًا لوهلة. لم يكن مترددًا من تزوير الأوراق وتقليد الأختام طالما الرجل سيزيفها بعيدًا عنه، صحيح أن ثلث الثروة يشكل قيمة كبيرة تستحق المخاطرة لكن من هؤلاء الذين يشاركونه بالثلث تقريبًا؟ وهناك أيضًا أمر بدا له صعبًا لكنه ينبغي عليه القيام به بمفرده أولًا حسبما أبلغه أشموني. فماذا هو فاعل والكرة الآن في ملعبه؟

مع نظرات الرجل الثاقبة لوجهه خشي أن تبدو عليه ملامح الحيرة أكثر، وقد تفسر على أنها ريبة، فيتسرب الشك لقلب أشموني وتضيع الفرصة منه. بعد تفكير قصير صافحه بدر قائلًا: وأنت طيب يا أستاذ أشموني.. إديني شهر بالكتير أدبر المطلوب.

على مدار ثلاثة أسابيع هوى من بدايتها لنقطة الصفر، طالت لحيته من كثرة جلوسه بلا عمل أو سهر، بعدما نهشه القلق في انتظار أن يقبض عليه مرة أخرى كلما اهتمت الجرائد بالقضية المتهم فيها موسى بركات وباتريشيا ونشرت أخبارًا عن المؤامرة والمحاكمات لمن يقبض عليه من الهاربين، لكن هذا الأمر كان لا يحدث أبدًا، بينما سيف الانتظار يمزقه إربًا صغيرة كل ليلة في دأب غريب، كان يجلس في حديقة نادي الجزيرة غالبية الأسبوع يقلب موضوع شراكته مع الدولة وموظفيها بالثلث في أملاكه ليكتشف كل مرة أنها لصالحه. لكن كيف يدبر ما طلبه منه أشموني؟ هذا ما كان يشغله أكثر من أي شيء آخر!

في ذهابه وإيابه إلى ومن نادي الجزيرة في الأيام الأخيرة من عزلته، لمح عوض البواب جالسًا مع شخص أسمر ضخم الجثة مبتسم دائمًا، عرف فيما بعد أنه ابن عمومته، عامل بمركز الشباب القريب من بيته، ويزور عوض بصورة شبه يومية، ويعاونه أحيانًا في تلبية طلبات السكان وقتل الوقت بدلًا من غرفة خانقة يستأجرها في حي عابدين. سأل بدر عوض عنه لما لاحظ تردده الكثير على البيت، مبديًا له مخاوفه من كونه ضخمًا للغاية وقد يؤذي أحدًا أو يسرق السكان.

- خلقته غير مريحة يا عوض والدنيا اتغيرت.

- يا بدر بيه أنا كبرت في السن، وعجيبة ابن عمتي وبيساعدني في الخدمة، أما جسمه فخلقة ربك، لكنه طيب وقلبه أبيض، والنوبي عمره ما يسرق ولا يخون واللي يقول لك غير كده قطع لسانه.

لم يتردد بدر كثيرًا بعدها، ففاجأهما صباح اليوم التالي وهما جالسَين على الدكة الخشبية طالبًا من عوض في لا مبالاة أن يبحث له عن شخص يعمل لديه، مضيفًا بأنه لا يهمه ميعاد حضوره، معقبًا ببرود أكثر وهو يركب سيارته: ممكن بعد الضهر أنا مش باصحى بدري اليومين دول.

كانت كلمات بدر طوق نجاة تعلق به عجيبة بكلتا يديه، ظل واقفًا خلف عوض يستمع لبدر الجالس أمام المقود، ويكاد كل برهة أن يتقدم خطوة معلنًا عن نفسه. أدار بدر مفتاح التشغيل ببطء وهو ينتظر ردًّا سريعًا على غارته المفاجئة، لكزه عجيبة في ظهره فانطلق لسانه على الفور: عجيبة قريبي أمين ونضيف وفي خدمة معاليك.

التفت بدر ببطء ناحيته وكأنه يراه لأول مرة ثم رمقه بنظرة ميتة قائلًا: أوكى، اسمك أوريجينال خالص، تقدر من النهارده تعتبر نفسك في خدمتي، وماهيتك خمسة جنيه كمان، مبسوط يا عجيبة أفندي؟

كاد عجيبة يقفز فرحًا، خرجت كلمات الشكر مختلطة بالدعاء لبدر مزينة بقطرات من لعابه، ثم شجعه عدم تحرك السيارة، فاقترب قليلًا من النافذة وهو يسأله خافضًا رأسه مطبقًا كفيه على مقدمة صدره: حاشتغل إيه يا سِيدي؟

أفلتت نصف ابتسامة من بين شفتي بدر وهو يفكر بسرعة ثم علت ضحكاته مع دخان سيجاره قائلًا: باتلر..!

ثم تركهما وانطلق فجأة بسيارته محدثا أزيزًا عاليًا بإطاراتها، وعجيبة يحاول إعادة نطق الكلمة التي قالها بدر فخرجت بتعبيرات غريبة، ضحك عليها عوض حتى كاد يستلقي على قفاه. جلسا بمدخل البيت بعدما أعد عوض برادًا من الشاي ليبادره عجيبة سائلًا بجدية وقد تقلبت ملامحه وذكريات أليمة تطوف بذاكرته وتشوّش على تفكيره: يعني إيه بربر يا عم عوض؟!

رجع عوض بظهره في الدكة مبتسمًا بشدة، واضعًا إحدى ساقيه فوقها، عابثًا في أصابع قدمه من أسفل وهو يرد بنبرة العارفين ببواطن الأمور، الذين تمرسوا في خدمة الحي الراقي: اسمها بندر يا جاهل.. الأستاذ بدر يقصد إنك حتكون ست البيت مؤقتًا لأنه مش متجوز!

***

14

مثلما تأتي المصائب مجتمعة، تولد الأخبار السعيدة تباعًا بلا فروق كبيرة بينها في لحظات فارقة من الزمن، كدت يومها أرقص طربًا في مدخل العقار أمام المارة، ورحت أعيد للمرة الثالثة قراءة التلغراف الذي وصلني من مِسكة على عنوان عمل عوض بالزمالك، باعتباره أسهل من عناويننا الضاربة في أعماق حواري عابدين وبين السرايات. كنت قابضًا على عدد جريدة الأهرام بيدي الأخرى، أخيرًا سيكون لي ولي عهد،

ولا أصدق أنني سأعود أيضًا!

دمعت عيناي ورحت أقبّل عوض وأحتضنه، ظللنا نتقافز فرحًا، لكن ملامح جدية ارتسمت على قسمات وجهه فجأة بلا تكلف وهدأت فورة فرحته قائلًا: أظن يصح إنك تبقى في شغلك في مركز الشباب وبعد الضهر تتفرغ لبدر بك وهو بيصحى متأخر، أنت محتاج كل قرش علشان العيّل الجديد..

- أنا لا حاشتغل مع بدر بيه ولا في مركز الشباب، أنا حازرع الأرض وأربي ابني.

علت الدهشة وجه عوض، وأزاحت برفق جديته، فأردفت متحمسًا وأنا أفتح الصفحة الأولى من الجريدة وصورة جمال عبد الناصر تتصدر الخبر: سيعيدون توطيننا خلال شهور، كل واحد حيستلم خمس فدادين زينا زي فلاحين بحري، الريس قالها يا عوض «ارفع رأسك يا أخي»، وأنا وأنت لا نجرؤ على رفع عيوننا في الزمالك أو في مصر كلها، أما في أرضنا حنكون أسياد.

- لكن...

- بلاش الكلمة دي ورحمة جدودك، بسببها أهلنا بيخدموا في البيوت، بيسقوا البهوات في البارات، بيسوقوا عربيات الباشوات وبيفسحوا كلابهم، ولادك ومراتك هناك مهجرين في إدفو وأنت وحيد هنا، أهل مصر حجزوا لنا مكان في قعر المجتمع بتاعهم مع أننا اتعلمنا في المدارس ودخلنا الجامعة، ولما جينا القاهرة ضيوف عليهم، قفلوا علينا كل الأبواب وبعدها رموا مفاتيحها في النيل.

- يا عجيبة الحكومة عملت السد وحيحفروا بحيرة والأرض حتغ...

- قالوا مش حتغرق، السد المرة دي لحمايتنا من العطش والجوع، وحتى لو غرقت دابود حناخد أرض بدالها، اقعد أنت هنا مع الرفيق عثمان الأحمر وسيبني أرجع أشوف حالي!

- الرفيق عثمان الأحمر؟! أنت بتتمسخر؟!

سألني عوض في دهشة وغضب لأنه لم يكن يحب التردد على النادي النوبي أو المقاهي ولا يعرف المزاح طريقًا لقلبه، بينما كنت أسخر من عثمان الذي أعرف شكله ولا أعرف بقية اسمه، كان عثمان الأحمر يصول ويجول بالنادي النوبي كل ثلاثاء، وما إن تأتي الساعة الثامنة حتى يتسرب من بين أيدينا فجأة، ولا نعرف أين يذهب أو ماذا يعمل. عثمان الأحمر نوبي، لكن لا أحد يعرف البيت أو النجع الذي خرج منه، أربعينيّ أو ربما أكبر، طويل القامة ممتلئ قليلًا لكن بظهره انحناء بسيط، كأنه يحمل ثقلًا فوقه طوال الوقت.

رغم إطراقه وشروده دائمًا وهو يسير إلا أنه يلهب حماس رواد النادي ببراعة ويحفز هممهم كلما تكلم، عضويته بحركة «حدتو» اليسارية، حسبما يشاع عنه، جعلته يتحدث عن الاشتراكية بحماس شديد ويدعو إلى الثورة على الظلم وكانت سببًا في اكتساب لقب الأحمر الذي عرف به، كل شهر يحصل على مئات التوقيعات بحجة رفعها للرئيس جمال كي نعود إلى ديارنا، ولم نعرف أبدًا مصير تلك المَظلمة الشهرية التي ظل يجمعها بهمة ونشاط لسنوات طويلة!!

حتى جاء يوم وكان النادي النوبي مكتظًا عن آخره بنا بسبب مباراة الأهلي والزمالك المذاعة بالراديو ولا يوجد موضع لقدم، وفجأة وقف عثمان فوق مقعده بعدما أنهى حجر الشيشة الثالث مع صفارة الحكم الأخيرة وهزيمة الزمالك، وألقى خطبة عصماء عن العدالة الاجتماعية وحق العودة، وتجلى يومها حتى

طالب بهدم الخزان ووقف استكمال أعمال بناء السد العالي فورًا. كان التصفيق يقاطعه كل حين استحسانًا، فلما وجد تجاوبًا منقطع النظير من الحضور، راح يؤنبهم بغلظة ويفتح جراحهم بقسوة، يلقي فيها بالملح لتزيدهم ألمًا، علا صوته ونفرت عروقه وهو يعايرهم بخدمتهم في البيوت وبوابات العمارات الشاهقة وفي المطابخ وخلف عجلات القيادة، رغم أنهم متعلمون، أخذته الجلالة تمامًا وهو يصيح: هكذا أنتم دومًا، تعيشون على الهامش وفي الخفاء، تقولون يا سيدي لغيركم وكنتم الأسياد في أرضكم، تقتاتون الآن على القهر والخنوع، تدخلون الحياة من أبواب جانبية، وفي نهايتها تصعدون إلى السماء من السلالم الخلفية، لم يشعر بكم أحد،
ولا يُسمع لكم صوت، متى تكونون مؤثرين يومًا بدلًا من أن تظلوا متأثرين دائمًا؟!
انفعل البعض وغضب آخرون وهمهمت الأغلبية وهب كثيرون من مقاعدهم احتجاجًا على حديثه، وناشدوه بالخروج فورًا على رأس مسيرة لقصر عابدين لعرض مطالبهم والاعتصام هناك حتى الاستجابة لها، سرت العدوى بين الجميع فتجمعوا حوله وضيّقوا عليه الحلقة، ثم تطوع بعضهم وحملوه على الأكتاف هاتفين بحياته، ظل يرفض ويرفس مبديًا تذمره، لكنهم ساروا به وخرجت المسيرة حاشدة وهو يرطن بعبارات غامضة لم يفهموا منها شيئًا فهتفوا باسمه ورددت الجموع وراءه بحماس، ولما شعر بأنهم اطمأنوا لوجوده معهم انتهز فرصة تراخيهم وقفز من فوق الكتفين اللتين تحملانه ليستقر على مؤخرته، فتجمعوا حوله مهللين، بالكاد تملص منهم حتى نهض واقفًا، فلما رسخت قدماه نظر في ساعته قائلًا بدهشة بالغة وهو يضرب جبهته: يا خبر أبيض الساعة بقت تمانية ونص، أنا كده اتأخرت على ميعاد العشا بتاع سعادة البيه، الله يخرب بيوتكم!
أطلق بعدها لساقيه العنان وسط دهشة الجميع وذهولهم، كان وجه عثمان ينطق بأسى يضاهي مجموع أعمار من يسمعونه ويلتفون حوله مجتمعين، ومن يومها اختفى عثمان الأحمر من النادي النوبي لفترة طالت، حتى عرفنا أنه كان يعمل سفرجيًّا لدى أحد كبار الضباط بحي جاردن سيتي ويخشى غضبته، وقبلها كان مشرفا على جميع جرسونات تراس فندق شبرد وظل في وظيفته حتى قامت الثورة فالتقطه الضابط الكبير ليخدمه بشقته الجديدة الواسعة المطلة على النيل بجاردن سيتي، رضخ له عثمان متخليًا عن وظيفته الرفيعة لكنه لم يتخل رغمًا عنه بعد عن طربوشه الطويل وسترته البيضاء ذات الأزرار الفضية وظل يرتديهما وهو يخدم فى بيت الضابط والذي كانت تروقه هيئة عثمان الوقورة بزيه الرسمي ويتباهى بوجوده في خدمته عليها، وكأنه عجيبة من عجائب الدنيا!
تبخر عثمان تمامًا بكل ما يجسده من ألم ومعاناة مررنا بها جميعًا بالقاهرة وبقيت مقولته الشهيرة تتردد بيننا « أنتم لا ترفعون رؤوسكم أبدا إلا لتراقبوا محتويات الصواني التي تحملونها»، حتى صارت مثله مع مرور الوقت، مجرد ذكرى، تحولت مع دوران الزمن لحكاية يرويها الكبار للصغار المتحمسين من شبابنا، ليخطوا بها نحو الكهولة من أقصر طريق ويستريحوا بعدها، إذ ربما يظهر من بيننا عثمان أحمر حقيقي، هذا إن ظهر!
تركت عوض يضرب أخماسًا في أسداس بعدما رويت له حكاية عثمان الأحمر، وذهبت لمركز الشباب لأسلم عهدتي، أخبرت زميلي الذي كان يقاسمني طبق الفول كل يوم بنيتي في الاستقالة، فنظر لي بشرود وهو يعبث بشاربه، ثم قال بعد تفكير عميق: أنت أولى بالماهية يا عم عجيبة..
- لكن أنا نويت أشد الرحال على النوبة.
- يا سيدي ارحل وربك يحلها من عنده!
بعد وسوسة لم تستغرق وقتًا طويلًا، عرض عليّ أن يقوم بالتوقيع بدلًا مني في دفتر الحضور والانصراف يوميًّا، على أن يُحوّل لي مرتبي بالبريد كل ثلاثة أشهر مخصومًا منه ثلاثة جنيهات في كل مرة، نظير تحمله المسئولية بمفرده لو انكشف أمرنا. فوافقت على عرضه فرحًا، واقتنعت بأنه حلال فأنا لم أكن أعمل وأقبض، على الأقل الآن سأزرع أرضي الجديدة بهذا المال.

أعطاني عوض جنيهين من مدخراته حلاوة المولود المنتظر، اشتريت بمعظمها ملابس تصلح لطفلي القادم وأنا لا أعرف نوعه لكنني تمنيته ذكرًا، كستور فاخر منٍ شركة بيع المصنوعات، ولمَ لا أبر نفسي وأختار لابني أفضل الثياب مِن أرقى مكان؟ يومها قررت أيضًا أن أفعل مثل أولاد الذوات، فذهبت إلى محل جروبي، ووضعت ساقًا على ساق بعدما لمّعت حذائي بنص فرنك، ثم طلبت قهوة بثلاثة قروش ونصف، ابتسمت وأنا أحتسيها متذكرًا ملامح عوض، متخيلًا إياه يصرخ في وجهي: يا بن المجانين ده فنجان القهوة بقرش صاغ في كل حتة، حد يروح يشربها في جروبي بتلاتة أبيض ونص؟!

مع اقتراب الفجر حملت حقيبتي مغادرًا حجرتي بحي عابدين، تأملت الغرفة جيدًا لعلي أكون قد نسيت شيئًا، فوقعت عينيّ على عدة خطابات متراصة فوق بعضها بعضًا، فتحت أولها لأكتشف أنها تخص بدر المغازي، كانوا أكثر من سبعة خطابات، ضربت جبهتي بيدي فقد نسيت مرة ثانية أو ربما عاشرة إلقاءها بصندوق البريد حسبما كلفني عوض، تأملت العملات الموجودة فيها بإعجاب، ثم أعدتها لمكانها ووضعت الخطابات بحقيبتي إذ ربما أجد في طريقي صندوق بريد ألقيها به، وانصرفت، كنت محتفظًا بورقة بيضاء دوّنت عليها بيانات بطاقتي الشخصية، أما الأصل فأعطيته لبدر بناء على طلبه إياها من عوض حتى يتأكد أنني بدون سوابق جنائية. لا يهم سأستخرج أخرى بدلا منها بعنواني الجديد بالنوبة، هكذا حدثت نفسي ويا ليتني ما فعلت!!

***

أثناء خروجي من بوابة البيت الضيقة المطلة على حارة خاتم المرسلين بعابدين، لفت نظري ملصق كبير وضعه أحد السكان على المدخل من جهة الداخل ليكون في مواجهة كل مغادر، لم أره من قبل رغم حاله المزرية التي تشي بلصقه منذ سنوات بعيدة حتى عفا عليه الزمن. كان يحمل ستة بنود على التوالي تحت عنوان كبير «أهداف ثورة يوليو»، لكنه ممُزق من أسفله، فلم يتبق سوى ثلاثة أهداف فقط للثورة!!

توقفت كثيرًا عند أحدها ولم أفهم معناه: «القضاء على الاستعمار وأعوانه»!

- من هم هؤلاء الأعوان يا ترى؟! وهل قضوا عليهم أم تركوهم حتى الآن؟

تساءلت في حيرة، وسمعت فجأة كلابًا تنبح بشدة لكنني لم أرها من مكاني، وكلما علا نباحها ارتجفت وانتابتني رعشة وتفصد عرقي باردًا. ظللت واقفًا بمدخل البيت أطل برأسي كل برهة حتى خفت النباح وابتعدت، فخرجت بحذر حتى لمحتهم من بعيد يدورون حول أنفسهم لاهثين، لكنهم لمحوني وراحوا ينظِرون نحوي ولعابهم يسيل من بين أنيابهم، فهرولت مسرعًا وهم يعدون خلفي وينبحون، فأطلقت لساقيّ العنان، حتى تواريت خلف صناديق قمامة بإحدى الحارات الجانبية، وارتكنت على الجدار متترسًا بالصندوق الكبير وقد توترت بشدة، في حين كان عرقي لا يزال ينساب من جبهتي بغزارة!

حركت ذراعي عدة مرات وركلت بساق-ي في الهواء لأطمئن نفسي بعدما خيم على مخيلتي ظلال اليوم الذي تم ترحيلي فيه لمعتقل الواحات بعد انتهاء التحقيقات معي بمعرفة الرجل الوقور المهذب الهادئ. تذكرت كيف جرّدوني من ملابسي تمامًا، ثم شدوا وثاقي على قائم خشبي على هيئة صليب، بعدها انطلقت عشرات الكلاب الضخمة المخيفة تقترب مني ومن آخرين مصلوبين بجواري، كنا نصرخ بشدة ليضيع صراخنا ويتلاشى مع النباح الشرس لتلك الوحوش السوداء وضحكات الجلادين، في الدقائق الأولى لم أقوَ على منع نفسي من التبول، تسربت قطرات لا إراديًا مني، ثم سرعانٍ ما أغرقت أسفل قدمَيّ بسيل مندفع، بعدها شعرت برغبة ملحة في التبرز لما جثم كلب منهم على فخذَيّ واضعًا قائمتيه الأماميتين عليهما، ولم يتركني إلا بعدما أحدث بساقَيّ جروحًا طولية متعرجة، ظلت متقيحة طوال ثلاثة أشهر قضيتها في ضيافة الدولة، وبئس المُضيف!

بعد أسبوع أيقنت أن تلك الكلاب مدربة على التخويف فقط، وإلا ما الذي يحول بينها وبين نهش لحومنا ولحوم من سبقنا؟ لكن ما بين التفكير بالزنزانة ليلًا وأنا ألعق جروحي وأحاول تحريك مفاصلي المتيبسة

من جراء الصلب وبين مواجهة تلك الوحوش عاريًا صباح كل يوم هناك مسافة واسعة عميقة كالجُب، يضيع معها كل إدراكٍ وتعقل، ليستمر الفزع سيد الموقف، ويظل الخوف من احتمال نهشها للحمي قائمًا، حتى ولو كان ضئيلًا، ضحكات الجلادين تعلو وترتفع لتغطي على صراخي، وعبثًا حاولت إقناعهم بأنني لم أفعل شيئًا لكن ضحكاتهم كانت تتزايد. وبعد أربعة أيام توسلت إليهم أن أعترف بأي شيء مقابل العفو عني أو حتى تركي محبوسًا في الزنزانة بعيدًا عن الكلاب فنلت جرعة تعذيب مضاعفة عقابًا على كلامي، وفي اليوم الأخير من الأسبوع قدمت لهم عرضًا مغريًا بالاكتفاء بجلدي مائة جلدة بدلًا من إخافتي بهذه الكائنات المرعبة ذات الأنياب الطويلة والأظافر الحادة، وفي كل المرات لم أسمع مجيبًا، فلا حياة لمن أنادي!

ومثلما دخلت المعتقل بلا سبب، خرجت منه بذات الطريقة وكأن شيئًا لم يكن! غادرت بذاكرة ممحاة تمامًا من التفاصيل فقد حبست انفراديًّا تسعين يومًا كاملة في حجرة باردة رطبة بها بطانية صوفية مهترئة ودلو معدني تنبعث منه رائحة نتنة كانت تؤخر موعد نومي حتى تعودت عليها، أجلد في الصباح وأتألم في الليل حتى تشككت في أنهم مصابون بالجنون، تنتابهم نوبات هياج متكررة يمارسونها علينا بغير تمييز، فيختارون عشوائيًّا بعضنا لإشباع غريزتهم كل يوم، يتلذذون بتعذيبنا بشتى الوسائل ويتعجبون من بقاء غالبيتنا على قيد الحياة، ثم فجأة يتركون بعضنا لحال سبيلهم وكأن شيئًا لم يكن..!

بمجرد أن عدت لمنطقة عابدين وترددت على النادي النوبي مرة أخرى، فوجئت بأن الجميع يتجنبني أكثر من ذي قبل، فلا أحد يتحدث أمامي في أي موضوع وبعضهم يغادر بمجرد حضوري، والبعض الآخر يتهامس حولي لما تقع عيونهم عليّ. اندهشت من تصرفاتهم، وتساءلت بيني وبين نفسي: هل هناك تهمة مشينة ألصقت بي وأنا لا أدري؟ ولماذا لم أحاكم طالما أنا مجرم كما يظنون؟ كيف يصدقون الجلاد الكاذب بلا دليل، ويكذبون الضحية وهى تئن من حمل البراهين على براءتها؟! يا ألله!

هززت رأسي يائسًا وحبست أنفاسي من بعد دموعي كلما اقترب النباح مني، وطال انتظاري في مكمني خلف صناديق القمامة لأكثر من نصف ساعة حتى غابت الكلاب الضالة وابتعدت، وتلاشى نباحها مع شقشقة الفجر، فتلمست طريقي بالكاد وأنا أتلفت حولي ماضيًا نحو المحطة كي أفر إلى النوبة.

طوال رحلتي بالقطار رحت أحسب ميعاد وصول المولود المنتظر بعدما مرت بسلام مرحلة الخطر وتحمل الرحم الجنين، وطالما مِسكة في نهاية شهرها الرابع كما تقول فلا بد وأنه سيكون من مواليد منتصف أكتوبر 1963 ، لو أنجبت أنثى سأترك لمسكة اختيار اسمها ولو كان ذكرًا سأسميه عجيبة على اسم أبي، سنخلد الاسم، فعجيبة لن يموت أبدًا!

أغمضت عينَيّ على أطياف الحقول التي نطويها بسرعة، ظل اللون الأخضر يداعب مخيلتي حتى غفوت، ورأيت نفسي جالسًا وسط حقلي مع مِسكة وعجيبة الصغير بجوارنا، حتى رحت في سبات عميق وأنا مبتسم في رضى.

***

15

.. يتوارى المشهد بالتدريج، تختفي الوجوه والأشياء تباعًا، تكاد تسقط من ذاكرة البعض على الفور، مثلما تجلس في الصف الأول بالمسرح، والستار يسدل من الجانبين رغمًا عنك، تتحفز ذاكرتك لالتقاط المنظر الأخير أمامك، مع تلامس الستار تشرئب بعنقك، فتزداد مساحة الغموض بعقلك! لكن سرعان ما يسود ظلام خفيف، وينفتح الستار مرة أخرى بسرعة أكبر، لتظهر لنا مشاهد جديدة، تمحو مؤقتًا ما تبقى من القديمة وعلقت بذاكرتنا، نتذوق ما نراه فإن أعجبنا أسقطنا الأولى إلى الأبد، أما لو شعرنا بغربة معها فسنظل نعيش حالة من الحنين لا نعرف متى نخرج منها مرة أخرى!

يعاني بدر كل يوم في تعاملاته مع الآخرين، يعيش حياة غير تلك التي اعتاد عليها، الجميع صاروا متشابهين بالنسبة له، الفروق تذوب بالتدريج، الكل ينصهر في بوتقة واحدة، يكاد يكون نفس القالب فيشعر أنه يتضاءل تدريجيًّا، وباستثناء نادي الجزيرة وبعض الجلسات الخاصة في بيوت أصدقائه كانت الصورة تضايقه وتوتره وتشعره بالغربة، يظل يبحث عن نفسه فيها جاهدًا، حتى عثر بالكاد على طيف مهزوز في نهايتها لا يكاد يُرى، ربما لا يكون هو وإنما شخص يشبهه فتساءل مع نفسه: هل هذا أنا؟! لكن لا مجيب.

مَن الذين يتصدرون المشهد الآن وما هي أصولهم؟ أين كانوا؟ كيف صعدوا؟ مَن هؤلاء الذين سيرفعون رؤوسهم لتتساوى برأسه؟ كلمات مثل أفندي وأستاذ صار وقعها أقرب إلى السباب والإهانة وهي تخترق أذنيه كلما ناداه بها أحد، مط شفتيه وامتعض أكثر من الأسئلة التي لا يجد لها جوابًا. وجد عوض في طريقه فصب غضبه المكتوم على رأسه لما أخبره بأن عجيبة قد سافر إلى النوبة ليتسلم خمسة فدادين وجاموسة، كاد يسبّه لكنه تذكر ما يُمسك لسانه على حافة شفتيه «فالحيطان لها ودان» كما يقول أصدقاؤه الذين حذروه كثيرًا من الخدم والبوابين وجرسونات النوادي، وقد يرتاب عوض في أمر اهتمامه بعجيبة، ظل شاردًا يتأمل عوض المنتفض أمامه حتى أطرق الأخير احترامًا، لكن قبل أن يتركه بدر وينصرف خرجت كلماته حاسمة بضرورة استعجال عودة عجيبة قائلًا بعصبية:

- مش كفاية اختفى شهور قبل كده في بلدكم النوبة، اتصل به في التليفون يرجع فورًا.

- تليفون إيه يا سعادة البيه؟! اسم الله على مقامك إحنا ماعندناش كهربا هناك من أساسه.

لم يجرؤ عوض على إبلاغه بالحقيقة ونية عجيبة في الرحيل للأبد واكتفى بما قاله، لكن أمام إصرار بدر وعناده تردد قليلًا ثم هز رأسه بالإيجاب قائلًا بعفوية: حابعت له تلغراف وإن شاء الله يعود!

***

- لا، لا، لا ما ينفعش خالص! عامل في نادي الجزيرة واسمه عجيبة ومقيم في حارة خاتم المرسلين بحي عابدين.. صعب.. صعب أوي
يا بدر باشا!

خرجت الكلمات من شفتي موظف إدارة الأملاك الأستاذ أشموني، وهو يقلب بطاقة عجيبة بقرف ويتفحص صورته بالجلباب باشمئزاز، كانت عباراته محمولة على سُحُب الإحباط التي ظللت عقل بدر حتى شلت تفكيره، فقال بتلعثم: والحل يا أشموني بك؟

- شوف يا باشا.. أنت محتاج لمشتري ابن ناس أغنيا، وجيه، يملا العين. ولو حتى اضطرينا نفصل بطاقة على مزاجنا بالصورة دي مش حنغلب.

سكت أشموني قليلًا ليعبّ الماء من كوب أمامه حتى بلل مقدمة قميصه ثم قال: لكن البطاقة حتكلفك كتير.

- أنا موافق المهم نخلص..

قالها بدر وهو يزفر بضيق وحيرة مَن يحمل ثقلًا على كتفيه لا يعرف متى يستريح من عناء حمله، ولا

يدري أين يضعه ولا لماذا وضعوه على كتفيه من الأساس.
- الحسنة الوحيدة أنه محتفظ ببطاقة شخصية من أيام الملك، إحنا نقدر نستخرجله بطاقة جديدة بصورته وببيانات تساعدنا في موضوعنا.
- لكن يا أستاذ أشموني البطاقات الجديدة صدرت من سنتين تقريبًا؟
- شوف يا بدر باشا.. في ناس كتير خافت تطلع بطاقة جديدة واضطرينا ننشر صورة بطاقة الريس جمال في الجرايد علشان الناس تطمن، لأنهم كانوا خايفين أن التموين يروح عليهم لو غيروا البطاقات القديمة، وفترة المهلة لتبديل البطاقات مفتوحة ودي فرصتنا أنت ابن حلال والله..
- طيب عظيم يا أستاذ أشموني والبطاقة الجديدة تتكلف كام ؟
لمعت عينا أشموني وتلفت حوله بالمقهى يمنة ويسرة ثم قال باسطًا كفه في وجه بدر: خمسمائة جنيه والدفع مقدمًا!
اتسعت عينا بدر من ضخامة المبلغ، لكن قبل أن ينطق بحرف اقترب منه أشموني أكثر وهو يقول بجدية ودهاء السياسيين: أنت محتاج واحد سوداني غني، ويا حبذا لو ربنا كرمنا ويكون في نفس الوقت قبطي، نبقى ضربنا عصفورين بحجر!
- سوداني وقبطي؟!
- طبعا، ووقتها يبقى زعق لك نبي.. قول يا باسط وحتفرج !
***
منذ أن وصلت أرض النوبة هذه المرة، وأنا أشعر بهاجس غريب ينمو في وجداني بوحشية فأرتجف كالممسوس، ازدادت مخاوفي لما رأيت مئات من الجنود بزيّهم الكاكي ينتشرون كالجراد بمحطة قطار أسوان. وقبلها طوال الطريق وقعت عيناي على عشرات المركبات التابعة لهم، بعضها يقل بعضهم والبعض الآخر مخصصٍ لقائد واحد بكل مركبة، قلت في نفسي ربما أعلنوا الحرب على السودان، سررت لهذا الهاجس هاتفًا بداخلي لعلنا نعود وطنًا واحدًا كما كنا أيام فاروق!
فرحتي بمِسكة هذه المرة كانت مضاعفة وأنستني ما رأيته، فقد بدأ بطنها في الاستدارة المحببة لعيني أي أب، راح يكبر وينتفخ كل يوم بمقدار. كنت قد شاهدت فيلمًا بِالسينما أظن أنه لرشدي أباظة، وفي أحد مشاهده وضع أذنه على بطنِ شادية على ما أذكر، ثم تبادل حديثًا افتراضيًّا مع المولود المنتظر، أعجبني المشهد فقلدته كثيرًا حتى ملّت مِسكة، رحت أغيظها بأنها ليست في حلاوة شادية ولا حتى لديها أنوثتها، فباتت كلما رأتني تقطع الطريق عليّ وتكرر على مسامعي مقاطع من سخافاتي المتوقعة من كثرة ما رددتها أمامها، فنضحك.. احتضنتني بشدة، بكت فرحة بعودتي هذه المرة حتى سالت دموعها كحبات لؤلؤ على بشرتها الأبنوسية اللامعة فشعرت لوهلة وكأنها تودعني!!
احتضنت وجهها بكفيّ، توضأت بنور عينيها، شعرت أنني أرغبها أكثر من أي وقت مضى، تلاحمنا في غرام لم نذق حلاوته من قبل، كعهدنا كل مرة، شعرت أنني أرتدي جسدها وهى تتلبس جسدي. نهضت من فراشي برفق، نزعت الخوص الذي يقينا برد الشتاء وحرارة الصيف، بدت لي السماء راضية صافية والسحاب يبتسم خجلًا. اقتربت من مِسكة مرة أخرى حتى التصقنا، تشممت عطرها باستمتاع، شعرت بسخونة جسدها، ضممتها بقوة، غبنا في قبلة طويلة أسكرتنا، فترنحنا منتشين نحو الفراش، نرتشف من غرامنا كأسًا أخيرة تحت سماء واسعة، تظلل جسدينا سحابات عابرة، تُحيينا ثم تتوارى خجلًا لتفسح مجالًا لغيرها، انتهينا لكن أرواحنا لا تزال تشتهي..
استرخينا على ظهرينا، تلامست أناملنا حتى تلاحمت كفوفنا، اقتربت مني مِسكة كقطة باحثة عن دفء مفتقد، لتختبئ بين ضلوعي، وبسهولة كنت أخفيها في نصفي العلوي. احتضنتها لفترة في مودة، لم أكن أريد الابتعاد عنها، وظللت أشعر دومًا بأن روحي تفارقني لما تنساب مِسكة من بين ذراعَيّ.
فجأة تذكرت أمي التي لم أرها وسمعت عنها فقط، وأحسست بحاجتي الملحة لكي أدفن رأسي بين

نهدي مسكة البارزين، سبقتني دموعي على الفور، وسالت رغمًا عني كعادتها. ضبطتني هي متلبسًا ببكاء صامت، لم أجد له سببًا واضحًا، فربما صرت أنا خزانًا للحزن، فاضت عيونه من كثرة ما عبئ، وآن الأوان لينفجر منهمرًا!

عشنا بمدخراتي ثلاثة أشهر فقد كانت مِسكة حكيمة مدبرة، أعددنا مستلزمات ولي العهد، حتى أزف موعدي لاستلام أرضي قبل الولادة التي تأخرت أيامًا قليلة. ثم حددوا لنا أخيرًا موعدًا في أسوان بالجهة الحكومية التي ستسلمنا الفدادين الخمسة وحيوانًا زراعيًّا وعقد تمليك بيت على الطراز النوبي وفقًا لما أعلنته المحافظة. طلبت مني مسكة أن أنتظر أسابيع قليلة حتى تنتهي الإجراءات الحكومية، فقد علمت أنها ورثت عن أبيها قطعة أرض كان قد اشتراها منذ سنوات ناحية معبد

أبو سمبل، فرحت لوهلة لكنني صممت على فدادين الحكومة على أن ندّخر الأرض الموروثة لعجيبة الصغير حتى يكبر وحسمت الموضوع قائلًا: يوم الحكومة بسنة ويا عالم حنستلمها إمتى، عصفور في اليد

يا مسكة ولا فدانين أبوكي في أبو سمبل.

- ما هي نفس الحكومة حتسلمك الفدادين والبيت والجاموسة.. اصبر شوية.

- الريس جمال قال حناخد الأرض يبقى حناخدها غصب عن عين الحكومة يا مِسكة، إنما أرض أبوكي حبالها طويلة تاخد سنين.

تركت مِسكة في رعاية شقيقتَيّ فاطمة وعائشة اللتين حضرتا من حلفا لمساعدتها، وسافرت إلى أسوان، وطوال الطريق كنت أنظر للسماء صامتًا، لكن في قلبي عتاب شديد!

كعادتي أكون في موعدي بالضبط، ظللت واقفًا لفترة بمنتصف الطابور الطويل، كان في استطاعتي اللحاق بأول الطابور، لكن عطلني ذهابي لمكتب البوسطة لإلقاء خطابات بدر بصندوق البريد، فلما عدت وجاء الدور عليّ قالوا لي ما سمعته من جيراني ولم أعره اهتمامًا في حينه: «أنت مغترب وتعمل في القاهرة»..!

غادرت مكاني أمام الشباك مترنحًا كمَن تلقى ضربة شمس، تنحيت جانبًا مستندًا بظهري للجدار حائرًا حتى لاح أمل جديد. حررت إقرارًا بناء على نصيحة من أحد أبناء عمومتي بأنني أقيم بالنوبة أغلب الوقت، ووقّع عليه اثنانِ من أقاربي كشهود كي يوافق العمدة وشيخ القرية على مهره بالختم الحكومي، لكن ذلك كله استغرق وقتًا طويلا، قرابة نصف يوم، ما أفقدني دوري المتقدم بالطابور.

أعدت الكرّة، وبعد ساعات طوال أوشكت الشمس فيها على المغيب بلغت المقدمة، والإعياء يتربع فوق كتفَيّ، لكن ظهرت عقبة ثانية تسد الطريق أمامي تمامًا بعناد غريب، بطاقتي الشخصية أخذها بدر مني، أمليت عليهم بياناتها ورقمها من الورقة البيضاء التي أحتفظ بها، لكن الموظف رفضها بغلظة، قدمت له قسيمة زواجي من مِسكة بها رقم بطاقتي فرفضها بحجة أنها محررة بحلفا السودانية، وخرجت نبرة صوته الأجش من بين ضلوعه معبأة بالحقد: خمس فدادين وبيت وجاموسة عشار كمان، يا ريتني كنت نوبي يا أخي..

ثم تبدلت نبرته لتصبح أكثر حسمًا وقد علا صوته: هات أصل البطاقة الشخصية وتعالَ بكرة!

كسبًا للوقت لم أعد لبيتي، إنما توجهت لقسم البوليس لاستخراج بطاقة جديدة عازمًا على أن أقف بالطابور غدًا بعد صلاة الفجر مباشرة لأنتهي، في القسم أبلغتهم كذبًا أن البطاقة القديمة فقدت مني بمحطة أسوان، وطلبت أن تكون الجديدة عائلية. رمقني الصول العجوز بنظرة فاحصة، طالت وهو يراجع أوراقًا أخرجها من درجه لما سمع اسم عجيبة سر الختم بعد اسمي الأول، حاولت اختلاس نظرة على أوراقه، لكنه داراها بكفه الكبيرة. تحفّظ على قسيمة زواجي ثم استدعى جنديًّا طلب منه التحفظ عليّ شخصيًّا، ضآلة جسم الجندي المستدعى لم تطمئنه ليتركني في حراسته وحيدًا فاستعان بثلاثة آخرين، أحاطوا بي وأنا أقف بينهم مسالمًا مستسلمًا، أقرأ المعوذتين ولا أفهم شيئًا مما يجري حولي،

بينما هم متنمرون بلا سبب.

مضت الدقائق بطيئة حتى خرج علينا الصول وبصحبته المأمور وضابط مباحث القسم يسيران أمامه، غمرتني الدهشة وكدت أمزح معهم بأنني لست مهمًّا لدرجة أن ثلاثتهم يخرجون دفعة واحدة لاستقبالي، لكن ضابط المباحث وأد مزحتي في مهد مخيلتي سائلًا إياي بعجرفة: تعرف بدر بيه المغازي منين يا بجم؟

ارتبكت وطاف بخاطري أن بدر ربما أعاد لهم البطاقة باعتبار أنني من النوبة فتركها بأقرب قسم بوليس من قريتي، لكنْ بعد لحظات اكتشفت سذاجتي الشديدة، لما أومأت بالإيجاب أنني أعرفه وكنت أعمل عنده خادمًا خوفًا من تطور السباب إلى تطاول بالأيدي فآثرت السلامة، بعدها أشار الضابط للمأمور إشارة لم أفهم مغزاها إلا متأخرًا.

اصطحبوني للدور العلوي من القسم، وأدخلوني حجرة مصمتة بلا نوافذ أسموها «الثلاجة»، عرفت فيما بعد أنها مخصصة لمن يقبض عليهم ولم تحرر لهم محاضر بعد، فلا تكتشف النيابة وجودهم إذا ما فتشت القسم فجأة. انهال عليّ أربعة مخبرين بالضرب بأحزمتهم، كان أشد ما يؤلم منها هو قطعتها المعدنية، حاولت حماية وجهي ورأسي ثم ضلوعي من هذا القايش الميري الذي تحول في أياديهم لسياط قاتلة. بالطبع خارت مقاومتي بعد عدة ضربات متتالية من أحدهم، فجثمت على ركبتَيّ متوسلًا، لكن لم يفلح معهم خنوعي، صرخت متألمًا وأنا أتلوى لأبتعد عنهم، كان الدم ينزف من فمي بغزارة بعد أن فقدت إحدى أسناني الأمامية من جراء اللكمات المتلاحقة، فوجئت أنهم تراجعوا جميعًا للوراء مع محاولتي النهوض، وتعثّر أحدهم في آخر فسقطا سويًّا متكومين، وأطل الفزع من أعينهما بعدما أصبحا هدفًا سهلًا لقدمي.. لكنني لم أفعلها..

خرج الآخران من الحجرة ليعودا بعد قليل مهرولين بصحبة الضابط المتجهم. بدا من حركته أنه ينوي صفعي على وجهي، تنمرت وأنا أتابع كفه بعين والأخرى أثبتها على عينه، لمحت نظرة تردد تطل قلقة من وجهه، تخشى عواقب ضربي بعدما ظل يستوعب بسطة جسدي بعقله ويتفرس في عضلاتي النافرة بعينيه، ظللت واقفًا بميل، منهكًا بشدة، أكاد أتهاوى في أي لحظة، عظام صدري أوشكت أن تخترق لحمي من شدة لهاثي. التزم الضابط مكانه محاطًا بمخبريه، ثم راحوا يضيقون الدائرة عليه، فلم يعد يظهر منه إلا صوته، مضى يستجوبني عن المجوهرات التي سرقتها من بيت بدر بالقاهرة وكيف تصرفت فيها ولمن وبكم؟

ظللت لبرهة طويلة متصورًا أنني في كابوس ثقيل، وأن هناك سوء فهم والتباسًا أكبر من مقدرتي على إزالته وأنا في هذه الحالة الرثة، رحت أحلف له بأغلظ الأيمان بأنني لم أسرق ولم أدخل بيت بدر ولو لمرة واحدة، فقاطعني الضابط بسخرية: قالوا للحرامي احلف..

رويت له حكايتي مع بدر، والتي لا تعدو سوى قصة قصيرة من مشهد وحيد جاءت نهايتها مبكرة لما قال الريس جمال «ارفع رأسك يا أخي» فسافرت للنوبة ولم أتسلم عملي عنده، قاطعني مستهزئًا ساخرًا: وبتتكلم في السياسة كمان يا فسل..! ثم أردف: مافيش فايدة فيكم يا خونة يا ولاد الكلب!

لم أفهم مقصده، لكنني صحت عاليًا: النوبي عمره ما يخون وقطع لسان اللي يقول كده!

رمقني بنظرة قاسية متوعدة ثم أعطاني ظهره مغادرًا الغرفة وسط جيشه الصغير، آمرًا الصول ببرود أن يعد مذكرة بضبطي في محطة القطار، ويدوّن بها أنني حاولت الهرب وقاومت رجال البوليس فاضطروا للتعامل معي والسيطرة على هياجي بالضرب بالأحزمة مجبرين!

عرضوني بعدها بيوم على النيابة، فأمرت بحبسي على ذمة قضية سرقة مجوهرات البك الصغير ابن الباشا الكبير المنتظر فريسته بالقاهرة، شعرت أن وكيل النيابة استخدم أذنه اليسرى ليخرج منها ما قلته له من دفاع عن نفسي والذي استقبله بلا مبالاة بأذنه اليمنى! تجرأت وعاتبت الصول الذي اصطحبني للقسم مرة أخرى على ضربي وكسر إحدى أسناني، لكن لم يجبني وأبلغ الضابط عند عودتنا بعتابي

فهددوني بتلفيق قضية أخرى بانتمائي لجماعة الإخوان المسلمين وترويج أفكارها!

أعادوني إلى غرفة حجز القسم العادية بدلًا من الثلاجة، فموقفي قانوني هذه المرة بأمر النيابة! أربعة وعشرون ساعة مرت عليّ بلا طعام ولا شراب أو حتى نوم، لكن لم تغب فيها صورة مِسكة عن مخيلتي، أحيانًا كنت أسمع بكاء طفلي المنتظر وهو ينير أرض الذهب بقدومه، ثم يخفت نوره فجأة فأنتفض من رقدتي فزعًا مضطربًا.

انفتح باب الزنزانة محدثًا صريرًا مزعجًا، ألقوا برغيف كبير أسود وقطعة من الجبن الأبيض طالها العفن من أطرافها، ولم يتمكن من تسويدها بعد، وأغلقوا الباب بسرعة، كأنهم يلقمون حيوانًا مفترسًا طعامه بحذر. قاسمني المحتجزون اللقمة حتى نفدت في ثوانٍ، بعدها بنصف ساعة أتى صول آخر بصحبة ضابط شاب متجهم أيضًا يختال في مشيته وقد تمكنٍ منه العُجب حتى فُتن، مسلحًا بطبنجة سوداء ضخمة تتدلى على جانبه، الصول الآخر كان في نفس حجمي تقريبًا، لكنَّ له كرشًا مهيبًا يحول دون رؤيته لقدميه، لا بد وأنهم استجلبوه خصيصًا لهذه المأمورية التي دوّن على أوراقها ضابط المباحث بخط يده «يُرحّل للقاهرة، تحت حراسة مشددة، مع مراعاة أن المتهم شديد الخطورة من الفئة أ».

***

16

مضت بنا السيارة من قسم البوليس مسرعة وكأنهم يتعجلون ترحيلي، وأنا أقبع بصندوقها الخلفي مكبلًا بالأغلال مطرقًا في صمت، حتى اقتربنا من محطة القطارات، فلاحظت حركة غير طبيعية وحراسات مشددة، ترامى إلى سمعي جُمل متفرقة مفادها أن الرئيس عبد الناصر في طريقه إلى النوبة ليلقي خطابًا وسيتوقف في أسوان، فتوقفت حركة كل ركوبة، جميع القطارات والسيارات حتى الحمير والبغال تجمعت في مكان واحد انتظارًا لوصول قطار السيد رئيس الجمهورية العربية المتحدة..!

أخذوني مسرعين إلى مكتب رئيس المباحث مؤقتًا، ودفعوني مع حارسي إلى غرفة خلفية صغيرة ذات نافذة ضيقة عالية، لكنني كنت أرى منها واقفًا بوضوح. علت صفارة القطار الرئاسي مدوية لكن هتافات المحتشدين غطت عليها «عاش جمال... أرواحنا فداك يا جمال..»، تشككت في أنهم نوبيون ولم أصدق كل هذه الهتافات التي تشق الحناجر ولم أفهمها أبدًا، من هؤلاء؟ ولماذا يصرون على الإنكار حتى الاستماتة؟ أم تحولوا إلى مجاذيب بضريح السيدة وسيدنا الحسين؟ كدت أصرخ فيهم أنهم مثل أطفال ينفخون في بالون ولا يدركون أنه سينفجر في وجوههم بعد حين، قلوبهم في رؤوسهم ويتلمسون طريقهم دومًا بآذانهم، فيتمايلون طربًا مع كلمات حنجورية كطيور مذبوحة تؤدي رقصة الموت الأخيرة لكنها لا تكتمل أبدًا فيزدادون عذابًا!

كان الراديو يبث خطاب الرئيس، وحرص المأمور على رفع مفتاح الصوت لأقصى درجة، حتى شعرت بأن عبد الناصر يتكلم من الغرفة المجاورة. جاءت كلماته مُسكرة منمقة وهو يؤكد على أن خيرات السد العالي ستعمّ على الجنوب مثل الشمال، فأفلتت مني ابتسامة وأنا أتمتم: فعلًا والخير غرّقنا يا ريس!

علا صوت الرئيس هاتفًا في الجماهير الهادرة: «لن تحرموا من الخيرات، بنينا السد لأجلكم وستختفي شكواكم من الانعزال»، رفعت رأسي مندهشًا وغابت الابتسامة عن وجهي وأنا أعيد وراءه: شكوانا؟ من الذي اشتكى لك؟! لكنه كان لا يسمعني واسترسل في خطبته: «أفراد العائلة الواحدة يشكون أن عائلها بالشمال وكلهم يقيمون بالجنوب، أيها الأخوة المواطنون كنتم منعزلين، وحان وقت لمّ الشمل!».

لم أتمالك نفسي هذه المرة وقلت لحارسي: والله العظيم الكلام ده ما صحيح، وكانوا رافضين يسلموني البيت والجاموسة العُشر لأني مغترب وأبويا من قبلي اعتبروه مغترب!

لم يرد حارسي ولم يحرك ساكنًا، ومضى يستمع كحجر أصم لهتافات الجماهير ومقاطعتها للرئيس بالتصفيق الذي يكاد يدمي الكفوف من شدته، نهضت واقتربت من النافذة ولدهشتي لم يعارضني حارسي المقيد معي بنفس القيد، وقف خلفي وأنا أنظر من النافذة ممسكًا بقضبانها الحديدية القصيرة ذات المسافات الضيقة. سالت من عيني دمعة واحدة، بينما الرئيس يختتم بنبرته الحادة قائلًا: «لا تقلقوا من المستقبل، سننقلكم إلى مناطق جديدة تشعرون فيها بالحرية»!

تلفتُّ خلفي لأجد عيني حارسي دامعتين وربما لامعتين لست أدري، لكن وجهه كما هو كالبئر العميقة!

بعد ثلاث ساعات من الانتظار انفض المولد، وبدأنا نتأهب للتحرك لمّا تفضل مأمور القسم وصدّق على مأمورية ترحيلي، لحظتها تدخّل القدر بشكل غريب وكأنه يجيب عن تساؤلاتي كلها دفعة واحدة لما قال أحد الضباط مندهشًا: شفتم الجماعة بتوع النوبة كانوا بيصقفوا إزاي لسيادة الريس؟

- ناس طيبين طول عمرهم بيصقفوا وحيفضلوا على كده ليوم الدين.

قالها المأمور وهو ممتعض قليلًا..

- يحمدوا ربنا يا باشا ويبوسوا أيديهم وش وضهر إن الريس عبرهم وجالهم لغاية هنا!

خرجت الكلمات من الضابط الصغير وهو يرمقني بازدراء، وأنا

ما أزال أقف صامتًا بجوار الصول، يربطنا قيد حديدي صدئ غليظ، تأملت وجهه كثيرًا، لم أستطع أن أحصي كمّ التعاسة التي تعتليه، والبؤس الذي يكسوه بطبقة سميكة أسفلها، يا ترى من منا المقيد؟! أنا

الذي قد يفرج عنه لو ثبتت براءته؟ أم هو الذي سيقيد مرات أخرى عديدة إلى آخرين قد يكونوا مظلومين مثلي ومثله أيضًا؟!
نحن الاثنان وربما غيرنا كثيرون نسير مجبرين خافضين الرؤوس، خلف ضابط شاب يأتمر الصول وغيره بأمره وحده، يسحبني بجواره، نحن الاثنان لا حول لنا ولا قوة، حتى ولو اعترضنا فنحن جميعًا مسلوبو الحرية والإرادة، هو ينفذ الأوامر وأنا ملتصق به رغمًا عني ولا أريده، هو لن يهتم بي من تلقاء نفسه، بل ربما يكون حاله مثلي إذا ما خلع زيه الرسمي، سيقيد مع صول آخر، لأن أمر الضابط الشاب بات نافذًا على الجميع فيما يبدو، حتى ولو صدقوه ورفعوا رؤوسهم!
خرجنا من مكتب المأمور لنستقل القطار مغادرين للقاهرة بلا بيت ولا أرض ولا حيوان زراعي. كان الجنود قد صاروا أكثر عددًا مما كانوا عليه قبل ثلاثة أشهر عندما أتيت للنوبة، تبخرت أمنياتي باحتلال السودان، وحلت محلها هواجس غريبة برأسي بأنهم قد احتلوا أسوان تمهيدًا للهجوم علينا طمعًا في أرضنا والحيوان الزراعي المنتظر!
جاءت جلستي بجوار النافذة، ترامى إلى مسامعي بكاء طفل، استدعى معه صورة ابني الذي لم أره، ولا أعرف حتى إذا كان قد جاء إلى دنيانا أم لا يزال يسبح في بطن أمه وحيدًا. أخرجت رأسي فجأة من نافذة القطار المهشمة بعدما دفعت بكفي الحرة بقايا الزجاج فأدمى أصابعي وباطن يدي، نظرت للسماء وصرخت باسمها بأعلى صوتي، رحت أردد وهما يجذبانني بعنف لمقعدي: احفظهما لي حتى أعود!
دمعت عيناي، ولفح الهواء وجهي بشدة، تراخى جسدي حتى استقر في مقعدي بالقطار مرة أخرى، كان الحارسان قد انتفضا إثر تحطيم النافذة وراحا ينهالان عليّ بالسباب والوعيد إذا كررت المغامرة، وتهديد بدا قابلًا للتنفيذ من الضابط بجلوسي على الأرض قابعًا في ذل إذا تحركت مرة ثانية. دفنت رأسي بين كفيّ وانخرطت في بكاء شديد، خشيت أن يكون مسموعًا فكتمته بيمناي، وظل قلبي يدمى يأسًا وحزنًا على مسكة، صورتها لم تغب عن مخيلتي أبدًا، وخُيل لي أني أراها تبكي دمًا.

***

.. زحف الجنود المدججون بالسلاح نحوهم من الجانبين على هيئة هلال، راح يضيق بالتدريج على أمواج بشر، تعلن سُمرتهم البراقة عن هويتهم، عيونهم قلقة، شفاههم تتمتم بما تيسر لهم حفظه من آيات قرآنية لعل قلوبهم تطمئن بها، يتخبطون، يرطنون، يتساءلون، راجين أن يعاملوا فقط كآدميين، لكن لا أحد يجيبهم إجابة شافية. بدا الأمر غامضًا، متعجلًا، كأنهم دواب بلا عقل تساق إلى مذبحها وعليها أن تطيع، تسير في جماعات خلف راعٍ لم يعد يشغله سوى سلخ جلودها بعد ذبحها، أما الكلاب فتحرس وتنبح عاليًا فقط حتى يبتعد المتعاطفونَ وتنتظر نصيبها من الشياه المذبوحة!
- يا ألله!
علت صرخة مِسكة سر الختم بلفظ الجلالة، اتسعت حدقتا عينيها بشدة حتى بلغت تأوهاتها أعتاب السماء، يلتف حولها شقيقتا عجيبة وقريباتها، يناولن الداية ما تطلبه على الفور بغير تأخير، كفى ما لاقاه الوليد المنتظر من بقاء ببطن أمه، كأنه كان ينتظر عودة أبيه فلما طالت أيام غيابه خرج.
- يا ألله..
خرجت الصرخة هذه المرة أصخب من مثيلتها السابقة، وظهر الصغير بعدها، ضُرب على مؤخرته السمراء الرقيقة، بكى مستقبلًا الدنيا من حوله كأنما يستشرف واقعه، علت الزغاريد مغطية على بكائه، ربما لتلهيه عن التفكير فيما سيلاقيه، جففت إحداهن العرق المتسرب كالشلال من جبهة مِسكة التي ابتسمت رغم وهنها، همست وجفونها تسدل ببطء من فرط إرهاقها ردًا على سؤال القابلة التقليدي: نسميه «عجيبة» على اسم جده..!
تاهت الزغاريد فجأة عن مسارها، تداخلت مع أصوات الكراكات الضخمة ونفير الباخرة الحزين فابتلعوها، ضاق الهلال أكثر على جموع النوبيين، ولوّح الجنود بعصي الخيزران، لكن الأهالي تكتلوا

واحتشدوا، استمدوا قوة إضافية من تلاحمهم، لم يزأروا بعد، ظلوا مسالمين، لكنهم متنمرون. احتار الجنود في أمرهم، كلما اقتربوا منهم تمَوج الحشد، بدا كشلال هادر، بحر مضطرب ينذر بأمواج عاتية على وشك أن تنقلب عليهم، وكلما ابتعد الجنود عنهم قليلًا كانوا يسكنون كصفحة نهر رائقة.
خرج من وسط الجنود ضابط كبير الرتبة له شارب مهيب، قابضًا على مكبر صوت مناشدًا النوبيين الهدوء، تعجبوا، فلم يكونوا يومًا من المشاغبين، أمطرهم بتعليمات لم يخالفوها من قبل، ولوهلة استحال عليهم الفهم! جميعهم كانوا يصطحبون دوابهم وماشيتهم معهم، لكن الضابط أصدر فرمانًا أخيرًا بتركها للحَجْر الزراعي لفحصها، فراح عساكره يطبقونه بهمة ونشاط وغلظة في أحيان كثيرة، حتى فصلوا بينهما، احتجزوا الماشية كلها بالجانب الأيمن بحجة أنها موبوءة. نتائج التحاليل والعينات ظهرت ليلتها أسرع من البرق، فأحدثت الدواب جلبة هائلة وكأنها تعترض، في حين خيم الصمت واليأس على الجانب الأيسر، استسلموا تمامًا ورفع غالبيتهم أياديهم بالدعاء في همس. علا النعير والخوار بشدة من الميمنة احتجاجًا، والجنود ينهالون عليها بالعصي، فتزداد الدواب عندًا وتخبطًا، تعلو غبرة من جراء ركضها في مساحات ضيقة، ولا يزال الجانب الأيسر على سكونه.
أطلقت الباخرة الكبيرة المعدّة لنقلهم صفيرًا متقطعًا كالنحيب ظل يخفت حتى خرست، قيل لهم سيؤجل الرحيل لإصلاح العطل الذي أصاب محركاتها فجأة، عقد أصحاب الزي الأبيض والعمائم الكبيرة دوائر متداخلة، راحت تكبر وتتوغل وتجبر العسكر على التراجع، اتسع الهلال مرة أخرى رغمًا عنهم، لعله يكتمل بدرًا.. من يدري!
أُخرجت الدفوف من بين ثنايا الأمتعة القليلة، دقّت الكفوف عليها ببطء، ثم تعالت الوتيرة حتى صارت صاخبة، تزايدت أعداد الراقصين على أنغامها الحزينة، وظلوا على حالهم حتى مطلع الفجر، بدوا من بعيد مع أول خيط من شعاع ضوء يطل من السماء على استحياء كأشباح تتراقص ببطء شديد، شعور كثيفة لنساء سقطت أغطية رؤوسهن من كثرة التمايل، غطت خصلاتها الطويلة وجوههن، تلاشت الملامح حتى صار الجميع واحدًا، شاخت القلوب في ساعات قليلة، بدوا طيورًا مذبوحة تنزف ألمًا، لا تقوى على الرفرفة مرة أخرى. ربما الطير لا يموت محلقًا، لكنه الآن يهوي مجبرًا، سقط العشرات منهم في مكانهم، نام آخرون إلى جوار بعضهم، متراصين، موليين وجوههم شطر النيل، بدوا كقرابين للنهر العظيم الذي عاشوا على ضفافه وهاموا به عشقًا، حتى دفنوا في قاعه!
دق نفير المركب متواصلًا مرة أخرى واندفع البخار عاليًا من مدخنتها، حوت ضخم سيبتلعهم في جوفه بعد قليل، يساقون إليه مجموعات كالقطعان، حتى امتلأت بهم بطن الباخرة فتحركت نحو الشمال عائدة. عيونهم جميعًا تتعلق بالأرض خلفهم، لم يتبقَّ بها سوى كلابهم التي ظلت تجري بطول الشاطئ وهي تنبح بشدة، تكاد تنطق
لا تتركونا، زاد لهاثها لما بلغت آخر شريط الأرض على حافة النهر، عندئذٍ تهاوت راقدة من التعب تتابع بعيون حزينة الباخرة بحمولتها من أهل النوبة حتى غابت!
رحلوا جميعًا إلا امرأة واحدة، رفضت.. أبت بكبرياء، وصممت على عنادها، اعتلت الجبل.. وهددت بقتل وليدها الصغير لو أجبروها على الرحيل، فتركوها وحيدة لتموت ببطء!
- يا ألله..
ارتفع صوت مِسكة سر الختم بالدعاء يشق سكون الوحدة والأرض الجدباء التي تنتظر حكمًا بالإغراق، الصغير بجوارها نائم لا يدري بما يدور حوله وكأن الملائكة أنزلت عليه سكينة رأفة بحاله بعدما أتى رغمًا عنه في هذه البقعة التعيسة!

***

17

.. دق جرس الباب طويلا وبدأ الرجل الواقف خلفه يلجأ لكفه ويطرقه بقوة، حتى فتح بدر له وهو يفرك عينيه ويتثاءب ويحكم ربط حزام الروب الحريري حول وسطه، سأله الرجل بضيق من جراء وقفته التي طالت بالباب: حضرتك الأستاذ بدر شفيق المغازي؟

تفحصه بدر بحذر رغم كسله ولم يجبه خاصة أنه لمح مظروفًا بين يدي الرجل يشبه المظاريف التي كان يرسلها لبولوديسكي فتوتر قليلًا وهو يرد بعجرفة: أنت مين وبتسأل ليه؟

معايا جوابات أرسلها الأستاذ بدر لبلجيكا وكلها اتردت من مكتب بريد النوبة للإدارة في العتبة وطلبوا مني أسلمها لمصدرها. هو حضرتك بدر بك المغازي؟

ظل بدر متجمدًا أمام ساعي البريد لا يفهم شيئًا، ثم خرجت منه الكلمات مبعثرة بلا ترابط سائلًا عن سبب ردها من منطقة النوبة تحديدًا، منتظرًا أن يجيب الرجل عن سؤاله.

- لأن كلها اتبعتت من صندوق بريد عادي من النوبة مش من البريد الجوي فطبيعي إنها تترد لمصدرها، هو حضرتك بدر باشا المغازي؟

- أيوه أنا، لو تسمح توضح لي أكتر المشكلة فين؟

- حضرتك كان لازم تبعتها من صندوق بوسطة لونه أزرق إنما الأحمر خاص بالمحافظات فقط.

تسلم منه بدر الخطابات كلها ووقع له وانصرف البوسطجي، تنفس بدر الصعداء وهو يرتكن على باب شقته وابتسم وهو يتأمل الخطابات متمتمًا: الحمد لله إن البجم عوض بعتها بالغلط..

لم يكد ظهره يبتعد عن الباب حتى سمع مرة أخرى طرقة قوية ورنين الجرس يتبعها مباشرة لمرة واحدة ارتعد لها بدر، تسمر مكانه وكتم أنفاسه وهو يضبط عينه اليمنى على فتحة العين السحرية ويرهف السمع لكن بدت الردهة أمامه خالية، فعلت دقات قلبه أكثر، خالجه هاجس بأنهم يختفون على أحد الجوانب ودفعوا بساعي البريد أولًا حتى يضبطوه متلبسًا، وبمجرد فتح الباب سينقضون عليه، ابتعد بخفة وظل واقفًا منتظرًا لأكثر من دقيقة لكنه لم يعد يسمع شيئًا، فتح الباب بحرص من يستعد لإغلاقه فجأة، فلم يجد أحدًا، بالكاد تحكم في نبرة صوته لتبدو مرتفعة واثقة وهو يردد عدة مرات بقلق بالغ: مين.. مين؟

***

أسبوع كامل تسرب من عمري وما أكثر ما نزفت من أيام، ما بين الترحيل من قسم بوليس أسوان حتى حكمدارية القاهرة ومنها لقسم الخليفة خلف قلعة محمد علي، إلى أن استقر بي الحال بحجز قسم قصر النيل، ليستقبلني بدر بسعادة غامرة، مثلما يتلقف اللص مسروقات ثمينة من زميله عبر نافذة في شارع جانبي مظلم!

لا أعرف ماذا قال بدر للضابط، ولماذا أفرجوا عني بضمان وجوده مع أنه من الأعوان في نظري!

بدا بدر مثل ساحر ماهر حوّلني بنفوذه إلى لص مجوهرات هارب بالغنيمة بعدما كنت في نظر الحكومة مجرد ملف متضخم بالأوراق، نوبي يبحث عن حق العودة ولا يحمل بطاقة شخصية، عامل بلا عمل في مركز للشباب، طالب في السنة النهائية بالحقوق وراسب مرتين بسبب ما يرسمه ويكتبه في ورقات الإجابة من آراء سياسية فلا يكتفون بفصله إنما يعتقلونه أسبوعًا بلا سبب، لكن فجأة وبحركة سريعة غامضة من يد الساحر تطوى أوراق الملف ببساطة، لقد رضي عني بدر بك، إذن فأنا من الأحرار!

شكرته على أية حال أثناء خروجنا من القسم لكنه بدا ضجرًا، بدأت أتهيأ للذهاب سيرًا على الأقدام إلى عوض لأقترض منه ما يعينني على العودة للنوبة، كل ما يشغلني في الحياة الآن اثنان، مِسكة وصغيري. فجأة أطلت ابتسامة غريبة من بين شفتي بدر، مثل ذئب يتلذذ بفريسة مذبوحة، يعلم ويتيقن أنها من نصيبه، لكنه يتركها حتى تلكزه غريزة الجوع أكثر، ليلتهمها بنهم وشهية أكبر. كانت حالتي شديدة الرثاء، لم أستحم منذ ثمانية أيام، ففاحت رائحتي كريهة تزكم الأنوف، أفلتت مني ريح مسموعة على

هيئة دفعات متتالية وكأنني أتلقى تحية على خروجي من الحبس الاحتياطي. ابتعد عني بدر قليلا ممتعضًا، متمتمًا بغضب بالفرنسية متأففا من رائحتي، واصفًا إياي بالخنزير وهو يكتم أنفه، تبدلت بعدها نبرته إلى الأمر بركوب سيارته، وافقته ممتنًّا، اندهشت قليلًا لما نهرني عن الجلوس بجواره، قالها مشمئزًّا من هيئتي ورائحتي مشيرًا بإصبعه في احتقار: اركب في المقعد الخلفي.

تحركت السيارة وأنا مستلق باسترخاء وهو يقود صامتًا، شعرت أنه سائقي وأراحني هذا الشعور مؤقتًا، لم أتخل عن شرودي طوال الطريق. لكن قبل أن نصل إلى بيته بحي الزمالك توقف فجأة، والتفت نحوي رافعًا حاجبه الأيسر بحدة قائلًا: لو عتبت أي مكان في مصر من غير إذني مش حارحمك.

جلدني بكلماته لكنني لم أعلق بحرف، كنت مذهولًا مما أسمعه، إذا كان هو أول من يعلم بأنني لم أسرق، بل لم أدخل شقته حتى الآن، فما وجه الرحمة في استثنائي من الظلم؟! لم أنتظر جوابًا لأنني لم أسأل أحدًا هذه المرة، وادخرت أسئلتي كلها لعوض لأعرف مصير زوجتي وابني المنتظر.

يومها رحّب بي عوض بوجه حزين، كان يبدو هزيلًا وشاحبًا يسعل باستمرار، عرفت بمرضه العضال لما جمعتنا جلسة مطولة، وعلمت منه أن التهجير قد بدأ بقرية دابود فجن جنوني، ابني ومِسكة وأرضي وأهلي.. هل غرقوا؟! لم يجب وقال لي كلامًا كثيرًا وروايات شتى عمَّن رفضوا الترحيل، وعن الذين هجّروا قسرًا. لكن الرواية الأقرب لنفسي أن مِسكة انتظرتني ومولودي الصغير معها، أبت أن ترحل دوني. أنجبت ولدًا، إذن هناك عجيبة آخر على وجه الأرض، ارتاح قلبي قليلًا، لكن ظل عقلي يلح بهاجس آخر.. ربما يكونان قد غرقا، فقريتنا هي الأقرب لميناء السد العالي، أربعة كيلو مترات فقط هي التي تفصلنا عن تلك الكتل الخرسانية الصماء الضخمة التي يلقون بها في النهر منذ سنوات. أحسست بشعور مَن فقد النطق بعدما توقف عقلي عن الدوران تدريجيًّا، وشعرت فجأة بأن الأرض تدور بي، وملامح عوض تتراقص أمامي وهو يلوح بيديه متحدثًا رغم وهنه وعظامه البارزة كأنها ستشق لحمه بعد قليل، بدا لي عوض كغريق على مشارف الهلاك بالنهر وتمساح الموت يقترب منه ببطء، لحظتها سمعت بدر ينادي بصوته الرفيع المزعج، لكنني لم أميز كلماته فقد بدأت أميل فوق الدكة الخشبية كبناء أجوف ضُرب بمعول قوي في قلبه فهوى، وبعدها فقدت الوعي.

***

- لا تقلق أنا أجريت اتصالات بالمسئولين هناك وتأكدت أنها وابنك بخير وسأحضرهما لك هنا.

خرجت الكلمات من بدر مصبوغة بنكهة المراوغة وهو يطمئنني على مِسكة وابني. لم أكن أملك من أمري شيئًا، بطاقتي معه، ومحضر السرقة لا يزال سيفًا مصلتا على رقبتي، وليس بحوزتي مليم واحد. كان بدر قد نقلني إلى مستشفى الأنجلو القريب من بيته لمّا فقدت وعيي، أسعفوني أوليًّا حتى تعافيت وعدت معه مرة أخرى، أعطاني نقودًا وملابس جديدة. الآن بدا واضحًا لي أن السلطة والنفوذ قد عادا إليه على جناحي طائر أسود يطلق نواحًا كئيبًا يصم أذنَيّ فأسدهما بكفيّ وأغلق عينَيّ بشدة، لكنني ظللت أسير وراء بدر مستسلمًا، منصاعًا، أسيرًا!

كنت في حاجة لأن أصدق روايته بأن مِسكة وابني ما زالا بخير حتى أستطيع أن ألملم شتاتي وأذهب إليهما في أقرب فرصة أو يحضرهما،

لا وسيلة عندي للمتابعة سوى الجرائد وما تنقله لنا من أخبار، لكن كلها أنباء سارة عن عمليات التهجير والرعاية التي يلقاها الجميع وكأنهم عادوا إلى أرضهم لا هُجّروا منها..! لم يذكروا لنا بخير أو بسوء مصير من لم يركب سفينة نوح، وهو ما يشغلني، الذين بقوا من أهلنا، هل يلقى كل منهم نفس الاهتمام أم أنهم في غياهب البحيرة التي تتشكل الآن وتبتلع كل ما حولها من بلادي وكأنها لا تشبع أبدًا؟!

- أنت سرحان يا عجيبة؟

خرجت الكلمات ودودة من بدر على خلاف عادته فأجبته مطرقًا:

- خايف على ابني ومسكة.

صب لنفسه كأسًا من النبيذ الأحمر وارتشف نصف رشفة منه كأنه يتذوقه ثم قال مبتسمًا: طيب احكي لي عن أهلك.. النوبيين الطيبين.

لأول مرة أشعر بغربتي الحقيقية على وقع سؤاله، شردت واحترت من أين أبدأ وماذا أقول، لأكتشف سريعًا أنني لا أعرف أي شيء حقيقي عن النوبيين وكل ما أدركته مجرد قشور، لقد تركت النوبة صغيرًا ومات جدي مع التعلية الثانية، وبعد غرق أبي بالقاهرة مع ويليام ويلكوكس، رحل عمي لحلفا وأنا إلى مدرستي الداخلية بأسوان، ولما عدت كانت التعلية الثالثة تجبرنا على العيش فوق الجبل بعدما ابتلعت مياه الفيضان بيوتنا، حتى زواجي من مسكة تمّت مراسمه كلها في حلفا السودانية وبعدها جئت مع عوض إلى القاهرة.. يا ألله!

- صحيح إن أبوك قتل السير ويليام ونزل بالأوتومبيل في النيل علشان يغرقه؟

لم أرد على سؤال بدر، فأنا لم أجد إجابة شافية حتى اليوم ولا أعرف ما إذا ما كان أبي بطلًا أم كافرًا، فقد رحل من القاهرة كما جاء إليها من سلم خلفي مثلنا جميعًا، فلا أحد يدري بحالنا ولا أحد يرانا بوضوح. توقفت عن سرد حكاياتي ففيما يبدو أنني رأيت النوبة من بعيد، مجرد زائر يرى صورة غير مكتملة وأحيانًا مهزوزة، لم تكن واضحة أبدًا. رفعت رأسي ونظرت لبدر محبطًا، لكنه تعاطف معي وقد بدا طيبًا رقيق القلب وعيناه تلمعان ربما من انفعاله لحالي قائلًا: أنتم ملوك مصر زمان وحاربتم عمرو بن العاص، هو أنا ححكيلك تاريخكم ولا إيه يا بطل؟

ثم ربت كتفي وهو يقول: معلهش بكرة الأمور تبقى أفضل وترجع أرضك.

في اليوم التالي استأجر لي بدر نفس الحجرة التي سكنت فيها بحي عابدين لمدة عام، دهشت لكونها لا تزال شاغرة، يبدو أنها أبت أن يشغلها أحمق سواي، من سيرضى بعشرين مترًا خانقة غيري؟! علمت أن سائق والده يقطن بنفس المنطقة وهو الذي دلّه على غرفتي في رحلة بحثه عني وبالمصادفة وجدها خالية.

في طريقي إليها كانت اللافتات القماشية المزينة بصورة جمال عبد الناصر تظلل رأسي بكل شوارع منطقة عابدين حتى حجبت الشمس عني، كلها محملة بعبارات التأييد لترشحه رئيسًا لفترة جديدة في الاستفتاء الذي بات على الأبواب. لاحظت أن أضخم لافتة وأعرضها كانت من جزارة المعلم عاشور وأولاده، والذي أعلن خفض سعر كيلو اللحم البتلو ليصل إلى ثلاثين قرشًا فقط بمناسبة الاستفتاء، وغطى واجهة دكانه بلافتة أخرى منفصلة عن مثيلاتها بالشوارع تحمل عبارة «نعم لجمال رئيسًا للمصريين، وكِيلو اللحمة بقى بتلاتين»!

سألت مندهشًا أحد الواقفين في طابور اللحم الطويل عن هذا السعر المنخفض، فأجاب بثقة العارفين بالخبايا: ما هم واخدينها بملاليم من الحكومة، دي لا مؤاخذة مواشي النوبة يا محترم اللي أصحابها سابوها للحكومة وقت التهجير في الحجر البيطري!

***

18

.. أطل بدر برأسه بحذر وبطء شديدين، كانت ردهة الطابق خالية ساكنة، لكن أذنه التقطت من بعيد صوت أقدام هابطة مسرعة، نظر من بئر المصعد فلم يلمح سوى ذراع صاحبها، استدار ليدخل شقته فوجد جريدة مطوية وملقاة تحت قدميه، تنفس الصعداء وجفف عرقه وهو يسب ويلعن بائع الجرائد في سره مغمغما في غضب: كل القلق ده بسبب مرض البجم عوض وغيابه الكتير.. كنا مرتاحين.

وضع الخطابات التي تحوي العملات بخزانته الخاصة، ثم توجه لمطبخه وأعد لنفسه فنجان قهوة ومضى يقلب صفحات الجريدة الأولى بغير اكتراث. دق جرس التليفون عاليًا مخترقًا سكون البيت، كان محدثه سنترال تليفونات نادي الجزيرة، انتظر قليلًا حتى حولت عاملة التليفون المكالمة ليجد صوت أحد أصدقائه جزعًا وهو يخبره بالنبأ: فاكر سمير صاحبنا؟

رد بدر ببرود: سمير خليل اللي بيجمع عملات وكل أسبوعين يسافر برلين؟

- أيوه.. البوليس قبض عليه من أسبوع.

- ليه؟

سأله بدر بفزع منتفضا..

- بيقولوا إنه جاسوس!!

لم يدر بدر كم من الوقت استغرقه حتى ارتدى ملابسه وذهب للقاء أصدقائه بالنادي لكنه بالتأكيد لم يزد على خمس دقائق من فرط هرولته، لم يكد ينضم إليهم حتى روى كل منهم له جانبًا من القصة، استمع لهم وهو يجلس على حافة مقعده منتبهًا للغاية ثم كثرت أسئلته لهم حتى ضاقوا بها فألقى له أحدهم بالجريدة قائلًا: التفاصيل كلها هنا.

اغتاظ بشدة وهو يقلب صفحاتها الداخلية وصولًا لصفحة الحوادث، فقد كانت نفس الصحيفة بين يديه في بيته منذ قليل، وقعت عينه على صورة سمير خليل ضخمة تتصدر النصف العلوي من الصفحة التي خصصت بالكامل للقضية، اعتدل في جلسته وأطبق على الجريدة بقوة، وقبل أن يقرأ الخبر وجد بجوار صورة سمير صورة أخرى غير واضحة لرجل أجنبي أسفلها عبارة الجاسوس الألماني لوتز..!

عادت عينه مسرعة للعناوين الرئيسية ليقرأ: «القبض على جاسوس جديد».. «أتت الثورة ففقد كل شيء ورحل لأورُبا فاصطادته إسرائيل».. «ينتمي لأسرة غنية من العهد البائد لم تفلح في تربيته على الوطنية».. «الجاسوس المصري سلّمهم معلومات اقتصادية في غاية الخطورة».

هبَّ بدر واقفًا وهو يعيد قراءة مقطع الخبر الذي يتناول أحراز القضية بعد تفتيش بيت الجاسوس.. حبر سري، دفتر للكتابة، مُظهر حروف، راديو مزوّد بجهاز استقبال صغير، عملات معدنية أورُبية مقلّدة كبيرة تم التحفظ عليها للاشتباه فيها وجارٍ فحصها بمعرفة الخبراء. توقف بدر عند الجملة الأخيرة، ارتعشت يده، هب واقفًا وهو يعيد قراءتها لأكثر من مرة غير مصدق ما يقرأه، ثم فتش بين ثنايا الخبر لمعرفة رأي الخبراء في العملات فلم يجد، ظل يحملق في أصدقائه شاردًا حتى شعر أن قدميه لا تقويان على حمله وانتابه دوار بسيط فجلس وصدره يرتج وصوت أنفاسه يعلو، أشعل سيجارة بعصبية وأتى عليها في ثوانٍ، فجأة نهض مرة أخرى لينصرف مسرعًا وسط دهشة أصدقائه الذين نادوا عليه كثيرًا لكنه لم يكن يسمع سوى صوت وحيد يناديه من عقله ويحثه على تنفيذ ما دار برأسه.

جرى عائدًا لبيته، اتجه مسرعًا نحو حجرته وفتح خزانته والعرق يتصبب منه، مزق الخطابات كلها، أخرج مبرده الصغير وأفرغ العملات من محتواها ثم أحرق كل الأوراق دفعة واحدة، بعدها خلع ملابسه ليخفي كيسًا صغيرًا بين فخذيه داخل سرواله وبه العملات المعدنية كلها، ارتدى نظارته الشمسية وقبعة والده ليخفي ملامحه قدر الإمكان وانطلق بسيارته ناحية بولاق أبو العلا، عبر الكوبري المعدني بسرعة جنونية كأنه يسابق قدره، وسار لمسافة بسيطة ثم انحرف فجأة يمينًا في شارع جانبي ضيق كمَن يضلل

آخر يتتبعه، تلفت حوله وهو بداخل السيارة حتى اطمأن بأن لا أحد يراقبه، وأخرج الكيس من مكمنه بصعوبة وهو جالس وتخلص منه في صندوق قمامة كبير كان يقف بالقرب منه فاستقر في قاعه، ثم دار دورة كاملة بسيارته ليعود أدراجه، بعدما أدار محرك الراديو عاليًا على موسيقى خفيفة من البرنامج الأورُبي وحبّات العرق لا تزال تتسرب من جبهته كل حين.

***

اشترى لي بدر بدلة بصفين من الأزرار من صوف التويد، كحلية داكنة، مع رابطة عنق زرقاء زاهية ذات خطوط مائلة بيضاء، ارتديتها لأول مرة في حياتي، وعندما نظرت في المرآة لم أتعرف على نفسي بسهولة خاصة لما أطلت شاربي وشعر رأسي.

شرح لي بدر ما يريده مني لاسترداد ثروة أبيه وبدت نبرته لا تحتمل أخذ الرأي وتغلب عليها صيغة الأمر، ثم قدم لي بطاقة شخصية جديدة، طلب مني التوقيع عليها وهو يثنيها بكفه فلم أتمكن من رؤية بياناتها بوضوح، لكن لمحت صورتي خلسة مثبتة عليها، أغراني بمائة جنيه فوقّعت، على الأقل أضمن المال، أعاد البطاقة إلى جيبه وهو يبتسم باطمئنان، واعدًا إياي بمائة أخرى بعد أن تعود له أملاكه المصادرة، خرجت كلماته من وجهه المستريح هادئة بطيئة: أنت الآن فارس حبيب حبشي، مهندس ري، مسيحي الديانة، من أصل سوداني، أسرتك ميسورة الحال ووالدك كان من كبار التجار بدارفور وعاش بالقاهرة وتزوج مصرية وكان عضوًا بحزب الوفد ومن أعيان الحلمية، وورثت عنه الكثير.

راح يستفيض في شرح مخططه مع إدارة الأملاك، انفعل وغضب، تبدلت ملامحه عشرات المرات أثناء الحديث، ولوهلة شعرت أن عينيه تترقرقان بالدموع، وتلمعان بصورة غريبة لكنها غير مريحة، جعلتني أتعاطف معه لدقائق، ثم سرى بداخلي هاجس مريب بعدها جعلني أخاف منه.

عرفت من بدر بعد ذلك أنه اختار بطاقة رجل سوداني مسيحي باعتبار أن المسيحيين السودانيين تعرضوا لاضطهاد كبير في السنوات الخمسين الماضية وهاجر الكثيرون منهم لمصر وتوطنوا بها، فلما قامت الثورة اهتمت بهم وساعدتهم كثيرًا وأعطتهم الجنسية المصرية وصاروا من الأقباط المصريين، ووجدها الأستاذ أشموني موظف الأملاك ومهندس معركة بدر فرصة عظيمة لاستعادة أملاك الباشا الوزير عن طريق واحد قريب منهم، الذي هو والدي وأنا وريثه الوحيد الآن!

- أنا خدامك وتحت أمرك، لكن ورحمة الباشا الكبير لتساعدني.

قلتها لبدر متوسلًا بصدق، فرمقني بنظرة طويلة ثم قال:

- هو الفدان والحيوان الزراعي والاستراحة يساووا كام ؟

- ما أعرفش لكن الناس بتقول حسبة مية وخمسين جنيه.

- أنا حديلك ألف جنيه في الشغلانة دي وبلاش طمع.

- يا بدر بيه أنا عاوز مراتي وابني عجيبة.. عاوز أرجع أرضي.

أفلتت منه ابتسامة على ذكر اسم ابني بددت قسماته الغاضبة، تراجع قليلًا في مقعده وهو يشعل سيجاره، ثبّت عينيه على عيني بشدة حتى أطرقت، فقال: سميته عجيبة برضه؟! أومأت بالإيجاب، فضحك ثم أردف: موضوعك سهل جدًا، خمس فدادين وحيوان زراعي واستراحة، صح؟

قبل أن أجيب بنعم انفجر ضاحكًا بلا سبب، كأننا نسخر من شخص ثالث غير موجود معنا، لم يكن أمامي سوى اقتناص الوعد وتذكيره به ونحن نجتاز كل حاجز من حواجز استرداد أملاكه بعد ذلك، وهو يهز رأسه بالإيجاب في عجالة كل مرة، مبتسمًا بريبة.

لم أدرك وقتها وهو يتحدث معي أنه قد خطط بكل هذه الدقة والعناية ليحولني إلى شخص آخر بمنتهى السهولة إلا عندما ذهبت بصحبته للجهات الحكومية. بدوت مثل شخص منوم مغناطيسيًا، التقيت أشموني موظف إدارة الأملاك على مقهى بالجيزة، أعطانا تعليمات مشددة، رسم لنا خطوات محددة، سرنا عليها وراءه بحذافيرها، كجنود في معركة مصيرية، عشرات التوقيعات في السجلات، وتوكيلات

رسمية عديدة، وأختام حكومية، وشهود لم أرهم قط في حياتي أقسموا إنهم يعرفونني منذ عشرات السنين، حكوا أمام اللجان المختلفة أمورًا دقيقة عن صفقات بيع وشراء أبرمها المرحوم حبيب حبشي والدي السوداني الأصل، ورووا تفاصيل عني أدهشتني حتى كدت أصدقهم من فرط دقتها!

تضخم ملف المهندس السوداني فارس حبيب حبشي، حتى صار ينافس ملفٍ العاطل النوبي المصري المُلقب بسر الختم. وفي كل مرة كنت أذهب فيها لإدارة الأملاك كان دوري محفوظًا عن ظهر قلب
ولا يسمح لي أبدًا بالخروج عن النص، أقف بثبات وشموخ، قليل الكلام، مقتضب الحديث، وإذا ما اقتضى الأمر إجابة فورية أومئ برأسي فقط، أو أبتسم نصف ابتسامة مبتورة، متجهم الملامح دومًا، عينيّ مثبتتين دائمًا على عيني بدر وأشموني، منتبهًا لأي إيماءة أو إشارة. مع كل توقيع باسمي الجديد كنت أتقوقع بداخلي أكثر، لتزداد مساحات الخوف بقلبي وتنمو لتكسو عقلي معه، ظن من حولي أنني إقطاعي عتيد اشترى والده الكثير من أملاك الباشوات قبل الثورة وورثتها عنه، «أبوه كان تاجر شاطر» عبارة سمعتها مرارًا وتكرارًا همسًا وجهرًا.

كان لدى أشموني أفندي موظف الأملاك قدرة هائلة على توليد الأوراق الرسمية ممهورة بالأختام الحكومية وبمهارة فائقة، اختلق سلسلة عنكبوتية لعمليات بيع وشراء وهبات مزورة من الألف للياء، بات من المستحيل تتبع أصلها أو الوقوف على حقيقتها، وكلها تصب في وعاء وحيد هو الذمة المالية لفارس حبيب حبشي الوريث الوحيد لأبيه الذي توفي في الثالث والعشرين من يوليو 1952 !

في محطة أخيرة من معركة الاسترداد ذهبنا إلى وزارة الخزانة، بدر واثنان من صغار الموظفين بصحبة كبيرهم أشموني أفندي المرتشي وأنا، وجوده فتح لنا الأبواب الموصدة بسلاسة، وبداخل القبو وجدنا عشرات بل مئات الصناديق الخشبية الضخمة لمجوهرات أسرة محمد علي وباشوات المحروسة قبل الثورة، مغلقة بغير إحكام، تعلوها أختام حكومية حمراء قانية بعضها مكسور، أطلعنا على محضر جرد إحداها، ورقة واحدة حملت عبارة يتيمة: «العدد مطابق للحكم بالمصادرة والعهدة سليمة».

- اللهم صلِّ على النبي.

خرجت العبارة من فم أشموني وهو يبتسم ويشرع مع موظفيه في فض أختام أحد الصناديق الذي يحوي مجوهرات متلألئة بعدما تأكد من رقمه. عملية فتح الصندوق تمت وكأننا في مغارة علي بابا، ينقصنا فقط أن يكتمل عددنا أربعين لصًّا، لكن يبدو أن باقي العصابة في مكاتبها
لا تحتاج مثلنا لأن تهبط سراديب ومخازن الوزارات، فالناس طبقات، حتى اللصوص منهم!

عبثت يدا بدر في الصندوق، قلب محتوياته بدقة، اختار عشر قطع، لكن أشموني بصفته كبير الموظفين اختصرها لثلاث فقط، متحججًا بالإجراءات والمحاضر وسلامة العهدة، فوافقٍ بدر على مضض، ثم دعاني لأوقع باعتبار والدي ومورثي قد اشتراها من والده قبل الثورة المباركة وفقًا للأوراق الرسمية، لكن قبل أن أضع إمضائي لفت نظري خنجر فضي لامع جميل، تفحصت التماسيح المنقوشة عليه والفتيان السمرِ المفتولين الواقفين بجواره، وشعرت معه بألفة غريبة خاصة وأن أحدهم يشبهني، فأشرت إليه بثقة قائلًا: والخنجر؟

التفت لي بدر باندهاش شديد فلم يكن قد لفت نظره، وارتبك كبير الموظفين وبدا عصبيًّا ضيّق الخلق، لكن أمام إصراري غير المبرر، قال بدر موجهًا حديثه لأشموني: تذكرته، هذا الخنجر هدية من السير الإنجليزي المهندس ويليام ويلكوكس باني خزان أسوان، قدمه لوالدي عندما كان وزيرًا للأشغال، أظن أنه غير مهم لكم، فقيمته معنوية أكثر من ثمنه بكثير.

كلمات بدر نفرتني فجأة من الخنجر، تحسست صدري برفق وضاقت أنفاسي قليلًا، تراجعت خطوة للوراء، لكن أشموني قرأ كشف المصادرة قائلًا بسخرية: مفيش مانع، القطعة مسجلة على أنها سكين مطبخ كبير بجراب عليه زخرفة ونقوش يدوية، نقدر نستبدلها يا بدر بك، مبروك عليك.

جذبه بدر على الفور وسلمه لي، واعدًا أشموني بالبديل من مطبخه غدًا، حتى تظل الأوراق الحكومية

مطابقة للواقع، ثم انصرفنا حاملين غنيمة بدر الذهبية والخنجر يستقر بهدوء أسفل سترتي مؤقتًا إلى أن يظهر بديله.

أثناء خروجنا ملت هامسًا نحو أذن أشموني موظف الأملاك، مبديًا دهشتي من سهولة الإجراءات مازحًا معه وأنا أقول بثقة: يظهر الحكومة بتاعتنا نايمة في العسل يا أستاذ أشموني!

تجهمت ملامح الرجل وبدا جادًّا وهو يقول لي بصوت خفيض لكنه عصبي: مين قال لك الكلام الفارغ ده، همه عارفين كل حاجة، وفاهمين كويس إحنا بنعمل إيه!

أربكتني كلماته، وتحسست الخنجر المختبئ بين طيات ملابسي، وانتابتني أحاسيس متفاوتة من الخوف والدهشة فصاحبه مات مع أبي غرقًا في النيل منذ سنين بعيدة، وهممت أن ألقي به حتى لا يضبط معي ثم أطبقت عليه بشدة ليحميني إذا ما قبض عليّ! ظللت أحملق في وجه أشموني لبرهة، ثم نقلت بصري بينه وبين بدر منتظرًا إجابة شافية، لاذ بدر بالصمت وبدت ملامحه جامدة، لكنني لمحت حبة عرق تتلألأ على جبهته تفضح خوفه الذي يموج بداخله. خيم علينا الصمت لفترة حتى ابتسم الأستاذ أشموني أخيرًا مسترسلًا بلهجة من يخاطب الجهلاء وعديمي الخبرة: الحكومة فيها ناس أكابر وأيديهم طايلة، ودول طمعانين في مجوهرات وشقق وسرايات وعربيات باشوات زمان، ومحدش فينا يقدر يرفض لهم طلب، لأن اليومين دول يومينهم، وفي نفس الوقت اللي ياكل لوحده يزور وطباخ السم بيدوقه، ولا إيه يا بهوات؟

قال ما قاله حاسمًا الموضوع، ونحن نهز رؤوسنا كمَن يستمع لخطبة الجمعة ولا يفهم ما يقوله الإمام لكنه يومئ كل حين مؤمِّنًا على كلامه والسلام! عبرنا البوابة الخارجية، فاستكمل أشموني كلامه: بس ماحدش فينا يا بهوات بياكل أكتر من طاقته، وكل برغوت على قد دمه!

أفلتت مني ابتسامة ساخرة، أعجبني تحليل أشموني لسياسة الاشتراكية التي تتبعها معهم الحكومة، ففيها مساواة وعدل، وكل منهم يأخذ ما يحتاجه ويناسبه من تركة أسرة محمد علي باشا، هناك من يطمع فيما خف حمله وغلا ثمنه، وآخرون يغمضون أعينهم مقابل حفنة بسيطة من المال تعينهم على تربية أولادهم ومواجهة أعباء الحياة حتى ينتقلوا لرحمة مولاهم!

نظرت صوب بدر فوجدته قد مط شفتيه في امتعاض لكنه لم يعلق كعادته، ثم لكزني فجأة في جانبي كي أتوقف عن الكلام لما لاحظ بوادر نوايا بداخلي تتهيأ لاسترسال الحديث مع أشموني في ذات الموضوع هامسًا في أذني بحدة: اخرس.. أنت صدقت أنه مال أبوك؟!

***

19

عدنا إلى بيت بدر عصر ذلك اليوم ليبلغنا سائس الجراج بأن عوض قد تدهورت صحته أكثر، وأصيب بنوبة مرضية حادة فجأة ونقلوه إلى غرفته بحي بين السرايات بعدما أحضروا طبيبًا فأوصى بالراحة التامة لمدة شهر على الأقل. تلقيت النبأ بانزعاج شديد وعزمت على زيارته فورًا، لكن بدر رفض حتى لا تنتقل العدوى لي، متعللًا بمشاغلنا، لم يبطئ من سيره في مدخل بيته حتى وهو يستمع لما يقوله السائس عن عوض ومرضه الصدري، مكتفيًا بهز رأسه قائلًا بلا مبالاة: شوف لنا واحد أمين يحل محله في أسرع وقت..!

صعدت معه إلى شقته الصغيرة الأنيقة بناء على طلبه وعزمت على زيارة عوض سرًّا مهما كلفني ذلك من متاعب مع بدر، أمرني بخلع البدلة الرسمية وألقى في وجهي بجلباب أبيض مقاسه ناسبني إلى حد كبير وإن كان قصيرًا بعض الشيء، فاعتقدت أنه يخص والده. كلفني يومها بغسل ملابسه وتنظيف الشقة، فلما فرغت وجدته يدخن بالشرفة الصغيرة المطلة على النيل، طلب مني إعداد فنجان من الشاي وإحضار قطعة من الكيك وبعدها ابتسم في وجهي وأشار لي بالجلوس لأسامره لكن على مبعدة منه حسبما فهمت من ذراعه المفرودة عن آخرها!

ظل يثرثر كثيرًا عن سباقات الخيل بنادي الجزيرة وكيف يمكن للمراهن بعشرة قروش فقط أن يحقق مكسبًا يتجاوز السبعين جنيهًا في ساعات قليلة لو أحسن اختيار الفرس الرابح الذي يراهن عليه، لكن لم يفلح كلامه في أن يشدني كثيرًا رغم ولعي القديم بمشاهدة السباق إلا عندما أخبرني بامتلاكه حصان عربي يشارك به في تلك السباقات، لحظتها تنبهت لكلامه مدركًا أنني الآن مالك لهذا الفرس، وفكرت في أن أحتفظ به لنفسي ويدرّ عليّ مكسبًا من خلال المشاركة في السباق الأسبوعي بنادي الجزيرة، فأبديت له حماسًا مبالغًا فيه ليسترسل بدوره شارحًا أنه ورث عن والده حصانًا من أقوى الخيول وأسرعها اسمه «رهوان» كان دومًا يكسب في كل السباقات، ثم قال في حزن إن هذا الحصان أصيب منذ فترة إصابة بالغة أبعدته عن مضمار السباق وبالتالي خفتت أسهمه ولم يعد أحد يتوقع عودته للمنافسة ولن يراهنوا عليه بمبالغ كبيرة لو ظهر مجددًا، فلما وجدني متأثرًا بإصابة فرسه وضعف فرصه عاد يقول بعينين لامعتين ونبرة ماكرة: لكن تم علاجه وتدريبه في سرية تامة بعدما كلفني الكثير من المال!

لم أفهم مغزى ما يقوله وسألته عن سبب تكتمه أمر علاج الحصان، فأجابني بخبث شديد بأن معظم المراهنين لن يتوقعوا عودة «رهوان» بنفس مستواه الخارق بعد طول غياب، ثم أكد بكل ثقة أن حصانه سيكون هو الفائز في سباق الخيل بعد يومين لا محالة، وبالتالي ستكون أرباح من يراهن عليه ضخمة وخيالية!

لم ينتظر بدر ردًّا مني إنما أخرج عشرة جنيهات من حافظته وأعطاها لي قائلًا بلهجة آمرة: انزل اشتري عشرين تذكرة «دوبل توت» على الحصان «رهوان» وإياك تفتح بقك بكلمة مع مخلوق هناك، أنت المفروض الآن مالك الفرس باعتبار أن السيد والدك اشتراه في مزاد الحراسات بعد الثورة.

ترجلت الأمتار القليلة من بيت بدر حتى وصلت لمدخل السباق الملاصق لباب نادي الجزيرة الغربي. وجدت زحامًا شديدًا مع أن السباق حسبما فهمت من بدر سيقام بعد يومين أو ثلاثة، وبينما أشق الزحام التقيت وجوهًا كثيرة أعرفها، غالبيتهم من الجرسونات وعمال النادي، زملاء المهنة القدامى، رحبوا بي ترحيبًا شديدًا بعد طول غياب، اندهشت لوهلة من وجودهم كلهم بالسباق ثم قلت في نفسي ربما هم مثلي يشترون لأعضاء النادي تذاكر المراهنات حتى لا يقف الباشوات القدامى في طوابير طويلة لا يتحملونها، لكن دهشتي لم تلبث أن عادت لي مسرعة لما فهمت أنهم يشترون لأنفسهم وأن الباشوات والبكوات قد توقفوا تمامًا عن الحضور بعد الثورة وصارت تلك الهواية مقصورة على طبقة العمال فقط!

اشتريت التذاكر المطلوبة وسط دهشة من المحيطين بي وتعالت عبارات تتهمني بالجنون والتبذير

باعتبار أن «رهوان» فرس خاسر مقدمًا ونصحوني بالمراهنة على فرس آخر. لكنني لم ألق بالًا لما قيل لي فالأمر لم يكن يعنيني كثيرًا. لما عدت لبدر أخبرته بكل ما دار من حوار بيني وبينهم، زام بدر قليلًا واستفسر عن الفرس الذي اقترحوه، وطلب مني جمع معلومات عنه، ثم عاد يسألني أكثر من مرة عما إذا كنت أخبرتهم شيئًا عن سبب شراء التذاكر فقلت إنهم ظنوا أنني أراهن لحسابي ووصفوني بالجنون، فابتسم مقررًا بأن الخطة تعمل كما يرام، لكنه سرعان ما امتعض لمّا علم بأن جميع المراهنين من عمال النادي وبوابين العمارات بالزمالك وراح يتمتم بالفرنسية بما يعني أننا في زمن رعاع..!

نهض بعدها قائلًا بحسم وهو ينهي اللقاء: يوم السباق تلبس هدومك العادية، بلاش البدلة!

امتثالًا لأوامره حضرت في اليوم المحدد لمنزله كي نتوجه سويًا إلى نادي الجزيرة وكان قد أخبر أشموني قبلها بيوم بانشغالنا في أمر آخر، لكنه فتح لي الباب مرتديًا الروب فوق ملابس النوم مكتفيًا بطلب إعداد إفطار خفيف له وبدا متكاسلًا. تفحّص جلبابي النوبي وهو يمسح طبقة الخبز الرقيقة بمربى اللارنج عدة مرات وأشار بالسكين التي في يده كي أخلع العمامة الكبيرة التي تغطي رأسي قائلًا بلهجة مؤنبة: انسَ عجيبة النوبي، أنت فارس السوداني.

ثم طلب مني الذهاب بمفردي وإبلاغه بالنتائج عقب نهاية كل شوط، فلما وجد مني بلادة وترددًا لعدم درايتي بقواعد السباق أردف ضاحكًا: حتفهم لوحدك لما تروح هناك الموضوع سهل جدًّا..

كانت أولى المفاجآت التي تلقيتها عند وصولي أن معظم المتابعين والمهتمين بسباق الخيل يفترشون أرض مضمار السباق الرئيسي. تعجبت وسألتهم: لو أنتم جالسون على أرض المضمار، فأين ستجري الخيول؟ أصابتني الإجابة بدهشة أكبر، فقد اتضح لي أن السباقات ستقام في نادي سموحة بالإسكندرية باعتبار أننا في الموسم الصيفي ونادي الجزيرة تجرى به السباقات الشتوية فقط، ازددت تعجبًا وسألت عن كيفية متابعتنا للسباقات إذن؟ أفادني البعض أنه يتم إذاعة منافسات السباق من الإسكندرية مباشرة عن طريق التليفون حيث ينقل تفاصيلها لنا أحد المذيعين الذين يتابعون السباقات من هناك، ثم تذاع تلك المكالمات بواسطة ميكروفون موصل بسماعات كبيرة في المدرجات حتي يستطيع كل الموجودين المتابعة، وأشار لي محدثي صوبها فلمحت بالفعل سماعتين كبيرتين تتصدران المقصورة الملكية التي كان يجلس فيها منذ سنوات الملك فاروق وحاشيته!

بدأ السباق فاندمجت بغير وعي، كان صوت المذيع جهوريًا ويتكلم بسرعة فائقة ويبتلع بعض الحروف لملاحقة الخيول أثناء عدوها، لكنه كان يشرح بالتفصيل مجريات السباق كل حين، حتى يظن المستمع للحظات أنه يشاهد السباق عن قرب، لكنّنا كنا نفاجأ في بعض الأحيان باختفاء صوت المذيع وظهور صوت عاملة السنترال تتداخل في المكالمة في أوج سخونة السباق لتنادي قائلة: بني سويف رد على المكالمة، كابينة واحد!

في نهاية كل شوط كان المذيع يعلن اسم الخيول الفائزة بتلك الدورة من السباق، فكنت أهرول عائدًا لبيت بدر الذي يبعد خمس دقائق سيرًا على الأقدام، لأجده ينتظرني بقلق في الشرفة مستفهمًا بكفّيه مني عن الأحوال ومجريات السباق فأضم كفيّ لأطمئنه، وأصعد لأخبره بالتفاصيل التي حفظتها بذاكرتي، يدوّن بعض الملاحظات بدفتر أحمر صغير، وأنزل مرة أخرى متوجهًا للنادي لاهثًا حتى لا يفوتني شيء، وهكذا كررت الأمر ثلاث مرات ذهابًا وإيابًا.

في الشوط الخامس والأخير من السباق فاز الفرس «رهوان» بفارق كبير، عدت بنحو سبعين جنيهًا سلمتها لبدر، لمعت عيناه ووضع النقود في جيبه وهو يربت كتفي مهنئًا وأعطاني منها جنيهًا كاملًا مكافأة ثم ترك يده على كتفي قائلًا بود: من اليوم أنت شريكي في الفرس «رهوان»!

***

.. على مدار شهور، قطع عجيبة معهما مسافة كبيرة في مشوار استعادة ثلث أملاك بدر بالتحايل، كان أشموني كعادته يَنفذ في الصخر بليونة غريبة بعلاقاته المتشعبة، وقدرته الغريبة على المرور من أبواب

خلفية أثارت إعجاب عجيبة وبدر من بعد دهشتهما. وعلى هامش الرحلة كان عجيبة يذهب يوم السبت الأول من كل شهر ليراهن على الفرس «رهوان» والذي كان لدهشته أيضًا يفوز أو على أقل تقدير يتقاسم الجائزة الأولى مع حصان آخر، حتى حققا في شهور قليلة أكثر من خمسمائة جنيه أرباحًا، لكن بعدها بدأ المكسب في الانخفاض، فقد تنبه كثيرون للفرس رهوان وزادت المراهنات عليه فضعفت قيمة مكاسبه، راح عجيبة يفكر في كيفية استغلال ما لديهم قبل نفاده، لكن بدر لم يسلمه منها شيئا وكلما ألح عليه بإعطائه ولو قدر يسير، يقابله بدر بإجابته المعتادة التي لا تتغير لكنها كانت تسكر عجيبة وتثير خياله أكثر: نستثمرها ونكبرها أفضل..

لا تقلق مكاسبنا مضمونة وبالآلاف..!

بدأ بدر يقرب عجيبة منه أكثر حتى يطمئنه على نصيبه من المراهنات وفي نفس الوقت لا يفلت منه حتى عودة ثروته، لا يمر عليهما يوم إلا ويلتقيان لا لشيء إلا ليكون دومًا تحت عينه، التزم عجيبة من وقتها بالملابس الإفرنجية، خلع جلبابه بأوامر من بدر مثلما ارتداها من قبل، اصطحبه معه لمجتمعه الصغير المخملي مرغمًا ووجدها عجيبة فرصة ليعيش حياة أكثر راحة مثلهم، لكنه اصطدم بصخرتين حطمتا الكثير من آماله وكادتا أن تفتتا ما تبقى له من طموح، ففي سهرات بدر مع أصدقائه بمنزله حاول عجيبة الاندماج معهم لكن دائمًا ما كان يشعر بأنهم يحدثونه من وراء سياج، لم يكن معتادًا على تجرع الويسكي مثلهم لكنه شاركهم الشراب بكثرة حتى لعبت الخمر برأسه في سرعة، انفك لسانه وتحرر جسده، في البداية حرضوه على مشاركتهم، قربوه منهم، انجذب برفق حتى صار طيعًا، طلبوا منه في ليلة أن يرقص لهم رقصات نوبية، ضحكوا معه وعليه ثم سرعان ما ملوا من فقرته فبدأوا ينشغلون عنه حتى وجد نفسه يقضي ثلثي السهرات بعد ذلك في المطبخ وحيدًا. في إحدى السهرات دق جرس الباب بعد منتصف الليل، كان عجيبة قد اعتلى المائدة ليرقص وسط صياحهم وصخبهم وهو يغني لهم بالنوبية، فاصطدم رأسه بالنجفة الكريستال الضخمة المدلاة من السقف، فضحكوا فراح يكررها، من بعيد أشار له بدر بإصبعه بأن يتوقف عن الغناء والرقص ليفتح الباب، نزل عجيبة متثاقلًا وفتح الباب ليجد أمامه سيدة ممشوقة ترتدي قبعة جميلة فابتسم لها مرحبًا إلا أنها رمقته بنظرة متعالية مندهشة من وجوده، فلم تكن تعرفه، قائلة في صلف: سيدك بدر بك موجود؟

ألجمته العبارة ولم يرد، ولم تنتظر هي منه إجابة، دخلت الشقة مسرعة تتلقى ترحيب الحاضرين بضحكات مجلجلة، في حين ظل عجيبة يتأمل هيئته بالبدلة التي يرتديها في المرآة أمامه ثم أطرق وغادر إلى غرفته بعابدين في وجوم.

في اليوم التالي عنفه بدر بشدة على مغادرته السهرة دون إذن منه، فلما روى له ما حدث من السيدة التي وصلت متأخرة، والعبارة التي تفوهت بها، شعر بدر لأول مرة بأنه ربما يكون قد جرح مشاعره وقسا عليه، فأراد أن يطيب خاطره، ارتدى ملابسه مسرعًا هاتفًا بحماس: تعالَ نتغدى في النادي ونلعب كروكيه..

في الطريق للنادي قال له بدر: الناس حوالينا مش حقيقية يا عجيبة، أنا نفسي حاسس بغربة زيك بالضبط!

سكت بدر قليلًا فنظر له عجيبة بعينين يظهر منهما رجاء بالاسترسال ليطفئ ناره فأردف بدر بثقة: الباشا نفسه كان شخص بسيط لغاية ما كوّن ثروته وأصبح له اسم وعيلة كبيرة وأنت ممكن تعمل كده مع ابنك إن شاء الله. أنت عارف الست اللي ضايقتك إمبارح مش بنت ناس ولا حاجة، أبوها موظف بسيط في وزارة المعارف وأمها خياطة، بس اتجوزت واحد غني فاتغيرت خالص. صدقني يا عجيبة أنت في نظري أحسن من ناس كتير أعرفهم اليومين دول.

جلسا حول البار الحجري قرب ملعب الكروكيه بعد أن فرغا من اللعب وقد انفرجت أسارير عجيبة واسترد بعض كرامته التي بعثرت بالأمس، طلب بدر كأسًا من المارتيني بالصودا ليفتح شهيته قبل تناول

طعامه، انحنى البارمان في أدب ومضى دون أن يسأل عجيبة عما يشربه، فلما أبدى له تذمره أجابه الساقي ثلاثًا بعدم وجود ما يطلبه من مشروبات، وكلما طلب عجيبة شيئًا رابعًا وخامسًا تعلل الساقي بنفاده أو عدم وجوده على قائمة المشروبات، في النهاية أمر بدر له بكأس من المارتيني لينهي الأمر بعدما بدأ يسأم الوضع ويضيق به، هز الساقي رأسه مستنكرًا وتعمد وضع ثلج مجروش مما يستخدم في ترطيب زجاجات المياه الغازية في كأس عجيبة بدلًا من المكعبات اللامعة الكبيرة التي اختص كأس بدر بها، ثم تكرر نفس الأمر في مطعم النادي وهما يتناولان الغداء، لما أعطى الجرسون النوبي ظهره لعجيبة وهو يدوّن طلبات بدر ثم التفت ناحيته فجأة قائلًا: أجيب لك شاي يا أفندي؟

شعر عجيبة بأنه يريد أن يخلع البدلة التي يرتديها، وتمنى أن تنشق الأرض وتبتلعه، لم يعد يرى أو يسمع شيئًا مما يدور حوله لكنه شعر بأن الجميع يتهامسون عليه ويتندرون على شكله وهيأته، أما بدر فقد انشغل في محادثات جانبية مع آخرين وتركه بمفرده على المائدة، ولما وضع الجرسون طعام الغداء أمامهما وعاد للمطبخ قال لأحد زملائه في ضيق:

- نسي نفسه وعاوز يعمل بيه علينا ونخدمه، سبحان العاطي الوهاب..

- وإيه لمّ الشامي على المغربي؟

قالها أحدهم وهو يبتسم في خبث لزميله والباقين وهم يرقبون عجيبة من بعيد في دهشة وهو يتناول طعامه مع بدر على طاولة واحدة ويتهامسون بأن بدر لم يتزوج حتى الآن، يومها توسل عجيبة لبدر ألا يصطحبه معه في تلك الأماكن مرة أخرى فوافقه بدر مضطرًّا كي لا يفقده ثانية، ولم يعد عجيبة يظهر مع بدر والأشموني إلا في أروقة الدواوين الحكومية لاسترداد ثروة شفيق باشا المغازي أو بمضمار السباق للمراهنة على فرسه الفائز دومًا «رهوان» بعدما قرر له بدر بأن يعتبر هذا الحصان هدية منه له.

قرب المحطة الأخيرة بقليل، ذهب ثلاثتهم يومًا لختم أوراق وتذييلها بإمضاء مسئول كبير في وزارة الخزانة تمهيدًا للصرف، انتظر عجيبة وبدر حتى ينتهي أشموني من مهمته، جلسا في ردهة طويلة على دكة خشبية يستند رأساهما على كفيهما كالأرامل، وأشموني يخرج ويدخل أمامهما من مكتب إلى آخر في خفة الفراشة، وفي كل مرة يلقي لهما بابتسامة مبتورة لينتظرا بقيتها بلهفة حتى تكتمل فرحة بدر ويفيق عجيبة من كابوس فارس السوداني. فجأة مرق بجوارهما رجل وسيم مهندم وله هيبة، يسير خلفه اثنان من الأتباع يحملان حقيبته ونظارته الشمسية وعلبة سجائره وأمامه رجل يهرول مفسحًا الطريق له من المتنطعين بالردهة، دخل الرجل المهيب أحد المكاتب الكبيرة واختفى موكبه، لكن ما إن لمحه بدر حتى انتفض وظل يرقبه منتبهًا، فلما خرج إليهما أشموني من ذات المكتب الذي دلف إليه الرجل الوسيم في نهاية المطاف، أمطره بدر بالأسئلة عن اسمه ووظيفته الحالية، لاحظ أشموني اهتمام بدر المبالغ فيه بهذا المسئول، فتحفظ في الرد واقتضب كلامه قائلًا: احمد ربنا أنه وقع لك ورقك، ونصيحة مني بلاش تسأل كتير عن الراجل ده بالذات، أحسن نروح ورا الشمس إحنا التلاتة!

أثناء مغادرتهم المبنى العتيق حاول عجيبة استدرار عطف أشموني منتهزًا فرصة استعراض نفوذه، ليساعده في أمر عودته لأرضه، لكنه رد عليه بفظاظة أخرسته: أنت بالذات مصيبتك كبيرة، نرجّع لبدر بيه حقه الأول وبعدها نشوف بلوتك ممكن نعمل فيها إيه!

شرد عجيبة فيما قيل له فلم يعد مشوار بدر طويلًا الآن، بقيت به خطوات معدودات، بينما هو لم يسترد شبرًا من أرضه الموعودة، صاحب الحق أصبح في نظر أشموني، ممثل الحكومة وكبير موظفيها، مصيبة كبيرة وبلاء لا يحتمل، بينما صار بدر بك هو الحق نفسه والأولى بأن يُتّبع!

***

20

.. وقف عجيبة بمفترق طرق غير قادر على التراجع ولا على المضي بنفس الخطى الحثيثة في هذا الطريق، فقد سئم دوره، لكن لم يعد أمامه الآن سوى الهرولة لإدراك خط الماء الفضي المتعرج الذي لمحه في الصحراء، قبل أن يدرك أنه سراب، فخرجت كلماته يائسة في وجه بدر:

- إمتى أستلم الشغل عندك في البيت؟ أنا موافق أشتغل أي حاجة!

- انسَ الشغل عندي، مهمتك تنتهي بصرف الشيكات، أنت رجّعت لي حقي وأنا أعطيتك حقك وفرصة مكسب من سباق الخيل، أما موضوع أهلك ورجوعك لأرضك فيحتاج إلى وقت، وأنا وعدتك بحله..

- ليه كل ده يا سِيدنا؟!

- لأن وجودك ممكن يجرّ مشاكل، والمشاكل ليها ريحة تجرّ وراها ناس بتحشر مناخيرها في كل حاجة، ودول عادة بيجرّوا وراهم البوليس، وفي الآخر واحد فينا يتقبض عليه والتاني يموت.

- يموت؟!

- طبعًا.. أنا مش حاتردد لحظة أني أقتلك لو نطقت بحرف واحد عن موضوع أرضي وفلوسي ومجوهرات عيلتي!

سكت بدر قليلًا ليرتشف من كأسه ثم أردف: وبعدين أنت مهندس واسمك فارس حبشي وبتراهن على خيول وبتكسب، وحنبني عمارة كبيرة قريب، انسَ عجيبة النوبي وحاول تعيش مع وضعك الجديد..

- وإمتى حنبني العمارة وفين؟

- قريب لما الأمور تهدى وألاقي شريك مضمون.. لا تقلق.

بدا بدر جادًّا في حديثه، مقطبًا جبينه والكلمات تخرج حاسمة بلا مواربة، شرد عجيبة قليلًا فيما قاله، راقت له فكرة المراهنات والمكاسب مرة أخرى، نفض عن رأسه العثرات التي واجهته في مجتمع بدر، وأعجب كثيرًا بفكرة بناء عمارة، سيصبح من ذوي الأملاك ويركب سيارة كبيرة، سيكون لديه سائق، ويسكن في شقة أنيقة وربما فيلا صغيرة، ستأتي مِسكة لتعيش معه هنا عندما يعثر عليها، حياته ستتغير وسيبتسم له القدر أخيرًا بعد طول عبوس.

- افتح الباب لأشموني واعمل لنا شاي وقدم له كيكة..

أفاق من أحلامه وجفف عرقه البارد الذي سال فجأة عقب كلمات بدر ونبرته الآمرة، عاد يحمل الصينية وعليها إبريق الشاي والفناجين، طاف بخاطره الخنجر الفضي الذي حصل عليه والد بدر من باني الخزان، فامتعض وجهه وتقلبت ملامحه لكنه نفض الفكرة عن رأسه، وقال لنفسه ربما النبتة تخالف البذرة ولو قليلًا، تشجع وابتسم في ود مصطنع طالبًا من بدر أن يسمح له بالاحتفاظ بالخنجر المنقوش برسوم التماسيح لأنه معجب به، لكن بدر تجاهل طلبه، فأعاد عجيبة كلامه عارضًا على بدر شراء الخنجر خصمًا من مستحقاته لديه، رمقه بدر بنظرة احتقار تلك المرة ولم يرد أيضًا..!

***

وصلنا خط النهاية أخيرًا بعدما قطعنا أشواطًا عديدة لاهثين وراء استرداد جزء كبير من ممتلكات شفيق باشا المغازي تقطعت فيها أنفاسنا حتى يفوز بدر ومن بعده أشموني، وأنا من خلفهما أجر أذيال خيبتي. تجرأت وسألت بدر بعدما تجرع كأس الويسكي الثالثة وعادت الإشراقة لوجهه وهو يجلس بشرفة شقته في الزمالك ويتأمل شريط النيل المتقلب وقت الربيع: طيب ما ينفعش أرجع عجيبة سر الختم زي ما كنت وكأن مافيش حاجة حصلت وأوعدك ما أتكلمش خالص؟!

اكتفى بدر بابتسامة صفراء مبتسرة مستنكرة لكلامي ولم يرد، فعدت أقول متعشمًا في كرمه، مذكرًا إياه بما فعلته من أجله: أملاكك ورجعت لك وموضوع سباق الخيل أنا معاك فيه و...

هذه المرة لم يبتسم، أشار بكفه لكي أصمت، واكتفى بالتشويح بيده تعبيرًا عن عدم اهتمامه بسباق

الخيل وأحال الإجابة عن باقي سؤالي إلى مدير الأملاك أشموني الذي انضم لجلستنا بعدها بقليل، ليسلم بدر نصيبه من شيكات بنكية باسمي الجديد، برقت عينا بدر لما صافحت أرقامها، ثم تنهد طويلًا وأغمض عينيه لبرهة طالت قليلًا وأنا أتأمله وقلبي ينبض بعنف، حتى حسدته.

- ميرسي يا عجيبة، كتر خيرك.

قالها بدر بسعادة غامرة وهو يمد يده لي بمائتي جنيه بعدما اطمأن قلبه، دسست النقود في جيبي ثم ذكرته بوعده مرة أخرى بإعادتي لأرضي والبحث عن مِسكة، فمن الأفضل طرق الحديد وهو ساخن، لكن البرود هبط عليه، ومثلما يباغت الغروب الشمس لتنزلق في غياهب الظلام فجأة، تجاهلني كعادته وكأنه لم يسمع حرفًا مما قلت.

تجشأ موظف الأملاك بصوت خفيض وهو يتحسس كرشه ويرفع كفّه معربًا عن أسفه لما أفلت منه فنبهنا إلى وجوده، ثم اعتذر بعدها بقليل لبدر عن عدم احتساء كأس من الويسكي مستعيذا بالله، مفضلًا الكركديه، بعدما قفزت أمارات التقوى على ملامحه فجأة مثل سحابة صيف عابرة!

يومها سلمني أشموني نصيبي أيضًا، لكنه لم يكن سوى بطاقتي القديمة الحقيقية.. بعدما وضعها في مظروف حكومي أصفر باهت أغلقه بعناية محذرًا إياي من استخدامها وإلا أتهم بجناية تزوير، قائلا بلزوجة كانت ثقيلة للغاية على نفسي: احتفظ بيها كتذكار لأيامك الحلوة مع بدر باشا.

تجاهلت كلماته، وفرحت ببطاقتي القديمة وصورتي عليها بالزي النوبي وطابع التمغة الذي يحمل صورة الملك فؤاد، وشعرت لوهلة أنني استرددت بعضًا من روحي مرة أخرى، بدلًا من هذا السوداني الدخيل الذي تلبّسني وجثم عليّ!

طرحت عليه تساؤلي عن إمكانية عودة عجيبة النوبي الذي يلح بداخلي بشدة للظهور ولو في بلدتي البعيدة بعدما ضقت ذرعًا بفارس حبشي، وظننت أنهم وافقا ضمنيًّا بإعادتهما البطاقة القديمة لي وكانا يمزحان معي فقط، لمحت نظرات خاطفة قلقة بينهما تحولت في لحظة إلى وعيد من عيني بدر لوجه أشموني المضطرب، ليختطف الأخير بطاقتي القديمة من بين أصابعي ويدسها في جيبه قائلًا: ححتفظ بيها يمكن أقدر أساعدك في عودتك لأرضك !

سكت برهة ثم استطرد : وكمان علشان ما تؤذيش نفسك بيها، ما أنت عارف النفس أمارة بالسوء !

زاد غضبي من نبرة حديثه، وقفت منفعلًا وعلا صوتي وأنا أسأله عن وضعي الحالي فأجابني بنفس ابتسامة بدر الصفراء كأنهما يتناوبان استعمالها: اهدأ واسمعني كويس يا أخينا، عجيبة سر الختم رسميًّا وبالمستندات نوبي مشاغب تم رفته من الخزان وبعدها من نادي الجزيرة، رفض التهجير و استلام بيت وحيوان زراعي رغم أنه قدم طلبًا مزورًا بأنه غير مغترب، وبعدها فضّل البقاء في قرية دابود متحديًا الحكومة!

برقت عيناي مما أسمع، لكن الرجل لم يبالِ، واسترسل بجدية كضابط مباحث محنك يحكم قبضته على ضحيته: يبقى معانا احتمالين ما لهم تالت، الأول إن عجيبة سافر محافظة تانية يدوّر على لقمة العيش بعد اتهامه بسرقة مخدومه بالقاهرة بدر بيه المغازي وأفرجوا عنه مؤقتًا على ذمة القضية، لكنه لو ظهر مش حيقدر يشتغل في الحكومة ولا في أي مكان لأنه سوابق مسجل سرقة وعنده ملف سياسي كمان ولا نسيت؟ عمرك شفت حرامي بيشتغل في قسم بوليس؟

- والاحتمال التاني يا أستاذ أشموني؟

قلتها بضيق متوجسًا من إجابته، لكنه لم يجب بسرعة، سكت قليلًا ليزدرد بقايا الكركديه من كأسه، ثم ابتسم بخبث لمّا وجدني أتظاهر بالثبات أمامه وقال: الاحتمال التاني إن عجيبة النوبي يكون مات غرقان في التهجير، وده أفضل لنا كلنا، البقية في حياتك يا باشمهندس حبشي!

***

21

أحكمت غلق أزرار سترتي وأعدت ترتيب وضع منديل الجيب العلوي على هيئة ثلاثة أهرام صغيرة وتوجهت لشباك التذاكر لأضع الرهان المعتاد على الفرس «رهوان»، سمعت همسًا من خلفي: راهن على «صعب»! التفتُّ لأجد صاحب النصيحة أحد المراهنين المخضرمين وكان يعمل بمنطقة الجولف يجر حقائب اللاعبين ويبدل المضارب والكرات، ويعرفني من أيام عملي بالنادي وبيننا مودة لم ينقطع وصالها بعد. لم أفهم حرفًا مما قاله، فأخرجني من الطابور برفق وجذبني بعيدًا وهو يثني على اختياراتي وحظي على مدار شهور ماضية، ثم شرح لي أن أي حصان لا يمكن له أن يستمر في الفوز دائمًا ففي لحظة محددة تصيبه نشوة ويتسرب الغرور إليه فيخسر جولة أو جولتين حتى يستعيد مكانته بعدها، ومن الجنون والتبذير استمرار الرهان عليه باعتباره سيكون فرسًا خاسرًا مقدمًا ونصحني بالمراهنة على فرس يدعى «صعب»، وهمس في أذني بأن مالكه شخص ذو حيثية مهمة، والحصان تمت تربيته بإسطبلات الهيئة الزراعية وسيفوز لا محالة..

كدت أقتنع بكلامه وأحوّل كل مراهناتي على الحصان «صعب»، لكن كان عليّ مراجعة بدر أولًا خاصة أنني سمعت الرجل يقول لآخرين ما قاله لي، فساورني الشك، ذهبت إلى بدر مسرعًا وأبلغته بما حدث، زام كعادته وهو يفكر واستغرق وقتًا طويلًا حتى نطق: راهن بنصف الفلوس على «رهوان» وبالنصف الثاني على «صعب».

في يوم السباق حضرت مبكرًا على غير عادتي فلم أمرّ على بدر في طريقي، افترشت النجيل أمام المنصة الرئيسية مع المراهنين نتجاذب أطراف حديث لا يخرج عن تحديد الفرس الفائز وكل منا يتعصب لحصانه الذي وضع عليه أمواله وأنا حائر بين رهوان وصعب، لا أدري لمن أتعصب وإن كنت أميل لرهوان أكثر باعتباره تميمة حظ لم تخذلني أبدًا حتى الآن. كان الوقت المتبقي على بدء السباق كبيرًا نسبيًّا، وعلينا الانتظار ما يقرب من ثلاث ساعات على الأقل، وتوقعت أن يصيبني الملل من طول الانتظار ففكرت في الرحيل والعودة مرة أخرى لكنني خفت من غضبة بدر!

قبل أن يدركني السأم تمامًا ويسيطر على عقلي، اقترب مني أحد العاملين أيضًا بنادي الجزيرة، يبدو أنهم صاروا جميعًا من المراهنين بعد الثورة، وكان صديقًا لعوض ويعمل معه بغرفة تغيير الملابس بحوض السباحة، عرض عليّ الرجل الاشتراك في المراهنة على أحد الخيول الجديدة التي ستشارك اليوم، اعتذرت له لعدم وجود نقود معي وشعرت بأنهم يستخفّون بي ويريدون خسارتي، لكنه عندما همس لي باسم الحصان تهلل وجهي وضحكت!

اقترح الرجل أن يتحمل كل منا نصف قيمة التذكرة الواحدة أي خمسة قروش فقط، وافقت على الفور لا لقتل الملل والانتظار، إنما تفاؤلًا باسم الفرسة المراهن عليها، فقد كانت تدعى «مِسكة»!

في تلك اللحظة شعرت بحماس منقطع النظير وددت لو وضعت كل أموالي على هذه الفرسة الجميلة، وبدأت أتلفت حولي بحثًا عن معارفي وكلما رأيت أحدهم رجوته أن يقرضني مالًا حتى تجمّع معي مبلغ محترم، لكن عند شباك التذاكر خطرت في رأسي فكرة أخرى نفذتها على الفور، استبدلت بكل تذاكر الفرس صعب التي اشتريتها أخرى للرهان على مسكة، وتحصلت وزميلي على تذاكر كثيرة بقيمة خمسين جنيهًا، كان لي فيها نصيب الأسد!

بدأ السباق وبدأنا في التهليل والصياح مع صوت المذيع الداخلي الذي ينقل المنافسات، وكلما سمعنا اسم «مسكة» اندمجنا في الأجواء أكثر وزاد اهتمامنا وحماسنا، ومع الوقت نسيت تمامًا «رهوان» ولما ذكر المذيع الداخلي اسمه تمنيت خسارته أمام «صعب» لتفوز «مِسكة» وحدها!

في منتصف الشوط الرابع كان الفرس «صعب» متقدمًا وبجواره «مسكة» تكاد تلامس ذيله حسبما أخبرنا المذيع واصفًا ما يحدث أمامه بحماس «مسكة في الراس.. مسكة في الراس» كناية عن كونها

على رأس الجياد الراكضة، ونحن نهلل حتى بحت أصواتنا، ونتقافز عاليًا كل وهلة مع كلماته الحماسية ونردد اسمها مدويًا رغم قلة المراهنين عليها، فالغالبية مالت للرهان على حصان المسئول المهم «صعب» وسارت في ركابه.

ولأن كل ما يتمناه المرء ليس بالضرورة أن يدركه، فقد انتهى الشوط الرابع وخسرت «مسكة» وفاز «صعب» وتلاه «رهوان» حصان بدر الذي كان ينافس بقوة وبدا أقرب للفوز بالشوط القادم، وكانت عودته للمنافسة بقوة مفاجأة أثارت توجس جميع المراهنين وصار «رهوان» محور الأحاديث كلها في استراحة الشوط الخامس والأخير.

في تلك الاستراحة لم أذهب لبدر في شقته فلم أجرؤ على إخباره بما فعلت، وبقيت بالمضمار أتابع بقلق وضيق ما ينقله المذيع الداخلي عن أجواء الاستعدادات للجولة الأخيرة. لم تهمني النقود التي راهنت بها لكنني تمنيت أن تفوز مسكة عليهم جميعًا، بينما زميلي في الرهان وصف أمنياتي بأنها أحلام العصافير وبدا شاردًا وهو يقول في حسرة: صعب نكسب «صعب»، محتاجين لمعجزة!

بدأ الشوط الخامس بداية قوية وكأنه ينتهي، فالخيول كلها انطلقت كرصاصات كما وصفها مذيع الراديو، لكنني مع الوقت لم أعد أسمع صوته من جراء الضوضاء والهتافات العالية التي تداخلت فيها أصوات المراهنين هاتفين بأسماء خيولهم، رحت أردد بقوة اسم مِسكة رافعًا كفيّ للسماء وكأنني في حالة ابتهال!

قرب نهاية الشوط كانت «مِسكة» متقدمة بفارق خطوة عن «صعب» و«رهوان» من خلفهما يكاد يدركهما. لحظات عصيبة مرت بنا شعرت خلالها أننا هرمنا، تارة يعلن المذيع أن «صعب» فارق بخطوة وتارة أخرى ينحاز لـ«مسكة»، وكل فترة يذكر اسم «رهوان» ونحن نشجع بجنون حتى كدنا نفقد صوابنا.

انتهى السباق فجأة ولم يقل لنا المذيع الداخلي اسم الحصان الفائز «مسكة» أم «صعب» نظرًا لتقاربهما الشديد. ساد هرج ومرج حتى أخبرونا بأن الحُكام لم يتمكنوا من تحديد الفرس الرابح بالعين المجردة وقرروا اللجوء إلى الصورة. وفهمت من المراهنين أنه يتم التقاط صور فوتوغرافية للخيول عند خط النهاية بواسطة مصور محترف، ومن هذه الصور يمكن للحُكام تحديد الفائز حتى لو كان متفوقًا على منافسيه بسنتيمترات قليلة!

شعرت بالقلق الشديد ومرت علينا الدقائق القليلة السابقة على إعلان اسم الحصان الفائز كأنها ساعات طوال، كاد قلبي يتوقف، وقطرات العرق تنساب علي جبيني بغزارة ورحت أتحرك كثيرًا في مكاني، وعندما بدأ المذيع في الكلام ازداد اضطرابي، وتضاعفت سرعة دقات قلبي، بدأت أجز على أسناني بصورة غير معتادة، وغمر العرق وجهي ومعظم بدني حتى أصبحت مقدمة صدري مبللة تمامًا، بينما استهل المذيع إعلان اسم الحصان الفائز بهدوء شديد وهو يشكر المشاركين، تململ بعدها للحظات، ثم أعلن بصوت جهوري عن فوز «مِسكة» بالسباق.

لا أستطيع وصف مشاعري وقتها، فبمجرد أن سمعت خبر فوز «مسكة» انطلقت الصرخات من أعماق حنجرتي وقفزت في الهواء وأنا أصفق وأهلل، وكنت أقوم بعناق وتقبيل كل من كان يجاورني، ثم انطلقت بالهتاف باسم «مسكة» بأعلى صوتي. يا لها من لحظات سعادة غامرة وفرحة عارمة، وبدأ زميلي في الرهان حساب قيمة المبالغ المالية المتوقع أن نجنيها من أرباح المراهنات، واتضح لنا أنها ستتجاوز المائة جنيه.. يا ألله! بكيت وأنا أحتضن زميلي الذي تقاسم معي الرهان، ثم سقط هو مغشيًّا عليه لمدة ثوانٍ من فرط انفعاله. شعرت أن هذا الفوز هو بمثابة رسالة لي من القدر، يصالحني فيها ويعدني بأنني سأعود لمسكتي بالنوبة قريبًا ونحتفل!

لكن فجأة ومثلما ينقض نسر من السماء على فريسته الآمنة المطمئنة فينتشلها بمخالبه القوية، أعلن المذيع أن هناك اعتراضًا على نتيجة السباق من مالك الحصان «صعب»، وأخبرنا أن اللجنة العليا للحكام

ستقوم بدراسته فورًا وإبلاغنا بالنتيجة. لم نعر الأمر اهتمامًا كافيًا في البداية، فقد تكفلت نشوة النصر بتغييب إحساسنا بكل ما يجري حولنا، خاصة لما أكد لي زميلي بأن كل السباقات يحدث بها اعتراضات لكنها لا تؤثر على النتيجة، لكن بعد لحظات ارتفع صوت المذيع مرة أخرى لتنبيه الحضور إلى أن هناك خبرًا هامًّا سيتم إعلانه بعد قليل. سكت الجميع، وساد الصمت والسكون في المدرجات والمضمار، وبدأ التوتر والقلق يعودان أدراجهما ويتوطنان وجداني من جديد.

بعد خمس دقائق بطيئة كسلحفاة عرجاء، أعلن المذيع عن مفاجأة كارثية عندما أذاع قرار لجنة الحكام بأنها قد قبلت اعتراض مالك الحصان «صعب»، وأعلنت إبطال فوز «مسكة»، وبالتالي أصبح «صعب» هو الفائز بهذا السباق، وعلا صوته متفاخرًا: مبروك! الفرس «صعب» في المركز الأول!

للحظات، أحسست بأنني فقدت القدرة على الكلام، ووجدت أمام عيني غمامة سوداء، أصيبت أذناي بالصمم فلم أعد أسمع ما يدور حولي، وشعرت بشلل مؤقت أصاب جسمي، سرت برودة شديدة في كل أطرافي، فلم أستطع تحريك يدَيّ أو قدمَيّ، فقدت الإحساس بالحياة تمامًا. وبعد فترة ليست بالقليلة، بدأت أسترد وعيي وشعرت بما يجري حولي وخُيل لي أن الناس تعزيني وأنا أقف على رأس مأتم!

ظللت لفترة طويلة لا أستطيع استيعاب أن الفوز العظيم قد سُرِق مني، وأن المكسب الكبير قد ابتعد عني، وأن لحظات السعادة والفرحة التي شعرت بها كانت مثل السراب الذي لا يمكن أن يطاله أحد. طارت أحلامي الوردية وذهبت أدراج الرياح، ووقفت وحيدًا بالمضمار بعدما غادر الجميع، أتأمل لوحة النتيجة المعلقة أمامي في وجوم وكأنها شاهد من شواهد القبور، ورقة كبيرة بيضاء من الكرتون يتصدرها اسم الحصان الرابح «صعب» ويتذيلها «رهوان» وبينهما تاهت «مِسكة».

***

.. طرق عجيبة الباب للمرة الثالثة لكنه لم يتلقَّ مجيبًا، شعر أنه يسمع همهمة خلفه فألصق أذنه به لكن الصوت سكن تمامًا، عاود الطرق فقوبل بالصمت، استدار ليمضي عائدًا وقلبه مشحون بالقلق على عوض وضميره يؤنبه لعدم سؤاله عنه طوال فترة مرضه الماضية وهو يعلم بأنه مثله يعيش بالقاهرة وحيدًا تاركًا أولاده وزوجته بالنوبة. عاد أدراجه لبيت بدر مطرقًا في وجوم وكان قد غاب عنه أيامًا بعد خسارة مِسكة في السباق الأخير خوفا من غضبته عليه، عندما اقترب من المنزل لمح اثنين من عاملي النادي اللذين أقرضاه بعض المال يوم الرهان على مِسكة يقفان متنمرين ويبدو من حديثهما الغاضب مع حارس العقار الجديد أنهما يتوعدانه، تسمّر عجيبة في مكانه لبرهة واندهش لمعرفتهما مكانه، عاد أدراجه مبتعدًا بحذر لمسافة آمنة، وبعدها أطلق لساقيه العنان دون أن يدري إلى أين يذهب حتى قادته قدماه إلى غرفته الخانقة بعابدين مرة أخرى.

استلقى على فراشه يائسًا محبطًا، كلمات أبيه ترن في أذنيه ويعلو صوتها «الشجرة اللي جدرها ضعيف سهل قطعها»، لا يدري لماذا ثبتت في مخيلته صورة جده وهما يصعدان الجبل بعد التعلية الثانية للخزان وغرق قريتهم القديمة، لكنهما الآن لا يصعدان، كأنهما يتحركان في مكانهما فقط، كأنهما في منطقة جرداء موحشة فاصلة بين النهر وقمة الجبل، ثم اختفى جده فجأة وتركه وحيدًا ينادي بصوت عالٍ عليه ولا يجده. أغمض عينيه وجز على أسنانه في ضيق ثم نهض من رقدته، اغتسل بدورة المياه الملاصقة لحجرته وصلى ركعتين لكنه لم يشعر بأي هدوء، لا يزال بركان غضب يمور بداخله ويقذف حمم ضيقه كل برهة فيحترق صدره، طرق أبواب العمارة التي يقيم بسطحها في طريقه نزولا، روى لكل من فتح بابه قصة زوجته التي وضعت صغيرها ولا يستطيع تدبير ثمن تذكرة القطار لرؤيتهما، فلما وصل للطابق الثالث كان قد تحصل على ما يكفي لسفره ويفيض، فتوقف عن طرق الأبواب وعاد لحجرته مسرعًا، أخرج من صوان ملابسه بدلته الوحيدة التي اشتراها بدر له وحملها خارجًا إلى أقرب حانوت لكي الملابس، بعدما اختمرت الفكرة كلها في رأسه ولم يعد باقيا سوى التنفيذ.

***

- فارس حبيب حبشي.. مهندس تفتيش الري.

قلتها بثقة شديدة، وقدمت بطاقتي الشخصية للضابط، فخرجت عبارات الترحاب تسبق خطواتي وأنا أعبر المنفذ الصغير خلف السد متجهًا إلى قرية دابود، أو حيث كانت دابود! وظيفتي المنتحلة ببطاقتي المزورة باتت كلمة السر لفتح الأبواب المغلقة مع أنني في أرضي.

رُفعت الأيدي بالتحية لتتنافس بدورها كلمات الإعجاب ببدلتي المفرودة الأنيقة، رغم تحرري من رابطة العنق التي تخنقني، يومها تبارى في خدمتي موظفو الري والإسكان بهيئة تنمية السد العالي، فأنا كما ينادونني «الباشمهندس» القادم من العاصمة، ويعتقدون أنني سأكتب تقريرًا عن أدائهم يُعينهم على الترقي، أو على أقل تقدير أنقل صورة طيبة عنهم لرؤسائهم بالقاهرة. الحقيقة أنني لم أكترث بهم كثيرًا، فالحزن كان يلجم لساني ويقيد عقلي بأغلال القلق ويحرس روحي بعناية شبح الفراق، ولم يزد ما نطقته على بضع كلمات بصوت خفيض لكنه متوتر مضطرب: عاوز أزور دابود..

لم أقوَ على وصفها بالغارقة مثلما فعلت صحفنا اليومية بعناوينها الرئيسية، وكأننا نتفاخر بإغراقها، انتابتني تلك الرعشة التي تسبق البكاء، هزت أرجاء وجداني بعنف، وانتفضت مشاعري بقوة ومع ذلك ظلت الدموع عصية لا تنهمر، رغم أن المشهد هالني، ويا ليتني ما رأيت!

اختفت البيوت التي كانت على مرمى البصر، تروس السواقي خرست تمامًا، توقف هديرها للأبد، صارت خردة صدئة، راقدة على جنوبها قرب الشاطئ، يطحنها أنينها الهامس في قسوة، لا تجرؤ حتى على الصراخ، الغربان تسود السماء وحدها، حلقات لأسراب سوداء يصمّ نواحها أذنَيّ، هجرت العصافير

واليمام المكان مع من هُجّروا. وقعت عيناي على جثث قليلة منثورة بعشوائية، بُقرت بطونَها بأنياب كلاب أصحابها بعدما تضورت جوعًا فافترست ما بقي فيها من لحم، لا تزال رائحة الموت تلف المكان وتخترق أنفي، وصمت القبور هذا يخيفني ويوترني أكثر!

وجدت غالبية رؤوس النخيل قد ذبحت، وسكن حفيفها، فلم يعد هناك من يسمعها، ماتت حزينة، وحيدة. ارتقيت نتوءات جبلية قرب الماء، والموظفون من خلفي يتحدثون بفخر ويشرحون بحماس، وأنا لا أعي حرفًا مما يقولون، جئت فقط بحثًا عن مِسكة وعجيبة الصغير.

كم أفتقد وشوشة وريقات عيدان الذرة، ولطمات موج النيل. سمعت من بعيد عواءً متقطعًا، ولمحت ثعالب صفراء باهتة أشبه برمال متحركة خادعة. مظهر الحياة الوحيد هنا هو مجرى الماء المتقلب الذي أسموه بحيرة، أراها تحت قدمَيّ الآن، شعرت أنها تفتقد للحياة، فرائحة الموت تنبعث منها، قاعها امتلأ بأهلي وناسي، يكادون يطفون منها، يا الله! رحت أتمتم بها طوال الوقت رغمًا عني.

من بعيد لمحت أرضًا منبعجة، أشبه بجزيرة صغيرة عائمة، اقتربنا منها، فتشت في ذاكرتي المجهدة حتى أدركت بالكاد أنها كانت غيطان ذرة في الماضي القريب. الأشجار المحيطة بحوافها تخشبت، لم تعد قادرة على استنشاق عطر الفجر الجميل، لكنها على الأقل ماتت واقفة، شامخة، صامدة..

نظرت في الأفق الشرقي شاردًا محاولًا الخروج من أحزاني، لفتت انتباهي دُمية ضخمة على هيئة رجل طويل مصنوع من القش، مخبأ في ثياب رثة مهلهلة، ربما كانت بيضاء يومًا ما، كان شكلها مفزعًا لإخافة الغربان. تلك الدُّمية كنت أراها صغيرًا تنتصب قوية ضخمة، اليوم مائلة قليلًا في انكسار، استباحتها الغربان وبالت عليها بقية الطيور، فكت بمناقيرها مشدة الرأس، وحولت بفضلاتها الثوب الأبيض لما يشبه خريطة العالم السياسية في مناهج مدارسنا وهي تحدثنا عن الاستعمار وأعوانه!

انتبهنا جميعًا لخطواتنا لما علا النهر فجأة حتى جرف خيال المآتة معه، سبحت الدمية السوداء الضخمة مسجاة على وجهها، مفترشة صفحة النيل مستسلمة تمامًا لقدرها، تسير مع التيار ولا تدري بأي أرض تستقر، ولا بأي منحدر ستهوي!

قبل أن أنصرف استوقفتني إشارة من الضابط إلى مكان قريب من مكان الدمية الطافية، لأرى لافتة حديدية مثبتة حديثًا على تلك الجزيرة العشبية الصغيرة كأطلال شاهدة على غرقنا، حاولت أن أقرأ حروفها لكنني وجدت صعوبة لبعدها عني، فعاونني الضابط مرددًا بفخر وتباهٍ: منطقة عسكرية ممنوع الاقتراب أو التصوير، قالها ملتفتًا ناحيتي ومن خلفه راحت أرض الجزيرة تبتعد أكثر وأكثر، أفلتت مني ابتسامة مريرة وأنا أهز رأسي في أسى لما لمحت الغربان تبتعد عن الدمية القديمة المخيفة التي جرفها التيار وراحت ترفرف محلقة عاليًا مرة أخرى فوق اللافتة الجديدة في حلقات لتستكشف أمرها لكن بحذر شديد!

- والناجون من الغرق؟

تعمدت أن أتجنب سؤالهم عن الغارقين لأسمع منهم ما يُريحني. روى كل منهم قصة مختلفة، جميعها ناقصة، فأعدت ترتيبها لأخرج برواية مكتملة تروقني، عنوانها مِسكة سر الختم لم تمت بعد لكنها اختفت مؤقتًا.

الوصف الذي يقولونه ينطبق على مِسكة، سمراء لامعة، ممتلئة قليلًا، مبتسمة دائمًا، قصيرة نسبيًّا، صوتها أعلى من نظيراتها حسًّا وجرسًا،

يا الله! مميزة دومًا حتى في غيابها. طلبت من الضابط تفصيلات أكثر فقال: قدَّمنا مساعدات للجميع، لكن بعضهم رفض الرحيل. امرأتان عنيدتان الأولى اسمها هانم المشالي، كانت عجوزًا وماتت منذ يومين، أظن أنك رأيت جثتها عند وصولنا، تلك التي نهشتها الكلاب، والثانية شابة من بيت سر الختم، وثلاثة رجال منهم عوض الذي...

قاطعته متلهفًا: أيوه هي من بيت سر الختم ومعاها طفل رضيع..

قفزت نظرة شك في عيني الضابط فجأة وكاد يسألني من أين عرفت أن بصحبتها رضيعًا، لكن أنقذني من براثن شكوكه أحد الموظفين عندما تطوع بالإجابة في حماس: رحلت من أسبوع مع ابنها الصغير.

- راحت على فين؟

هتفت صارخًا متشبثًا بشفتي الرجل.

- قرية العلاقي غالبًا.. لكن بعد الغرق العلم عند الله.

لم يمنحني الموظف فرصة للفرحة، وأدها في مهدها بنصف إجابته الثاني، فقرية العلاقي غرقت ولحقت بدابود تحت النهر. فهمت منهم أن قرية قُرشة أيضًا تستعد للتهجير الليلة، فتقمصت شخصية المسئول مرة أخرى بثقة، وطلبت الذهاب إليها بعد زيارة العلاقي، لعل وعسى ألقى مسكة وصغيري. عدنا بقارب بخاري إلى المرفأ ثم توجهنا ناحية العلاقي، لكن لم يختلف الحال كثيرًا عما آلت إليه دابود، فالفاعل واحد كما يقولون دومًا! لم أيأس، فالنوبة لا يزال متبقيًا بها عشر قرى حتى الآن، حتمًا ستذهب مِسكة لأي منها وسأمضي خلفها.

استرخيت في أريكة وثيرة باستراحة الري، حتى رحت في غفوة خفيفة قبل أن نتوجه إلى قُرشة، انتابني شعور قوي بأن القدر لن يخيب ظني هذه المرة، سأجدهما هناك.

«أنت تقترب منهما، لن يطول بحثك»، قلبي يحدثني، أسدلت جفنَيّ مطمئنًا، فردت ساقَيّ عن آخرهما على مقعد خشبي، ونمت بعمق لأول مرة منذ زمن بعيد، فلم أشعر بالوقت وبمن حولي.

***

23

.. أحدثت زجاجة الشمبانيا فرقعة محببة لشاربيها، اندفعت رغوتها فائرة من فوهتها لتسيل عصارتها بدلال فتتلقفها الكؤوس بنشوة وحبور. رفع بدر كأس النخب مع صحبته ليشربوا في صحة وطن لا يرون منه إلا ما يروق لهم، استردوا خفية وخلسة بعض ما أُخذ منهم بالقوة ليوزع على غيرهم بعشوائية، عدالة اجتماعية عرجاء متعجلة، تتعثر خطواتها بسبب هرولتها، تخبطت حتى ضلت طريقها، ومالت للجور والظلم فظنت من غفلتها أن المساواة فيهما عدل!

ظلوا فرحين، يهللون، يصيحون، فقد لعبت الخمر برؤوسهم سريعًا، كانوا تواقين لنشوتها، مهيئين لسكرتها، وبدا تمايل أجسادهم المتصاعدة وتيرته غريبًا وسريعًا، لوهلة تظن أنك في حلقة زار بمشاهدها الأخيرة، فورة الاندماج، انسلاخ الروح عن الجسد، لحظة فارقة يشعر فيها المرء أنه يعيش حالتين في وقت واحد، الحناجر تشق والأجساد تتمايل مرتجفة، والكودية تشعلها نارًا على إيقاع الدفوف لتطرد الأرواح الشريرة، شربوا حتى الثمالة، رقصوا على أنغام موسيقى صاخبة، سخروا من الجميع حتى أنفسهم، وما آل إليه حالهم بعد الثورة، اختلسوا ساعات من الزمن رغمًا عنه عادوا بها إلى الوراء سنوات طويلة في أريحية لم تكن متاحة لهم، ورفاهية افتقدوها تمامًا من عقد ونيف.

بدا لبدر رغم كونه ثملًا للغاية أن الزمن لم يتحرك كثيرًا، دائرته كما هي لم تزد فردًا، الشقة بأثاثها لم يتغير، لا ينقصها سوى باتريشيا، حتى الهاتف الأسود الضخم بقرصه المتآكل قليلًا، لو دق جرسه الآن سيكون المتحدث هو والده المرحوم شفيق باشا الذي أنقذته المنية لما وافته منذ عامين، فأفلت من بهدلة طبقته على أيدي الطبقة الجديدة. أصدقاؤه لم يتغيروا، لكن حالهم تبدلت فاضطر بعضهم للعمل تحت وطأة الحاجة وآخرون عاشوا عالة على بعض أقاربهم أو على الفتات الذي أعادته الدولة إليهم من ثروات عائلاتهم وجرستهم بها وكأنها صدقة.

كان يحتفل بعودة جانب من أرضه وبعض ممتلكاته بعدما نجح أشموني في فك حصار أرض أبيه ورفعت الحراسة عن مائة فدان منها، ما حصل عليه كان حلمًا بعيد المنال، رغم أنه تسلم أرضه بورًا مثل بقرة هزيلة جف ضرعها ونحل جسدها وبرزت عظامها من فرط حلبها فباعها بثمن بخس لمن استغلها، تنهد وهو ينفث دخان سيجاره بسعادة، تأمل شريط النيل الضيق الذي بات يُرى بالكاد، بعدما هُدمت فيلا أنيقة المعمار صغيرة أمام بيته وانشقت الأرض عن عمارة عريضة بسبعة طوابق، كئيبة المنظر، تحجب الضوء والهواء، شرد قليلًا فيما يخطط له بالأيام القادمة، فلم يعد باقيًا سوى تحديد موعد التنفيذ للخطوة الفارقة المقبلة بحياته.

تقدم منه خادم نوبي شاب التقطه من النادي ليخدمه من بعد المغرب حتى مطلع الفجر، قدم له النوبي كأسًا من الويسكي وانصرف، فقفزت إلى ذهنه صورة عجيبة، همس لنفسه: يا ترى راح فين المخبول ده؟! أكيد بيشرب بوظة وعرقي ببارات وسط البلد كل ليلة بالفلوس بتاعتي، أو بيراهن بيها على الخيل في السباق بعد ما غشني.

ارتشف جرعة ثم عاد وقال بغيظ: محظوظ!

تذكر وعده لعجيبة بإعادته لأرضه، فابتسم ساخرًا على ذكر الحيوان الزراعي. التفت فجأة ناحية الصالة لما علت الموسيقى أكثر، كان أصدقاؤه مندمجين تمامًا في الرقص، قليلون منهم أنهكهم التعب وكثرة الشراب، فاستراحوا على الأريكة في تكاسل، وبعضهم افترشوا الأرض وبدأوا يلفون سجائر الحشيش بنفس الهمة التي بدأوا بها سهرتهم، وآخران يلعبان الورق وعلى مقربة منهما جنيهات متراصة فوق بعضها بعشوائية، تنتظر من يبتسم له الحظ أولًا لتستقر مؤقتًا في جيبه. ألقى نظرة ثالثة على خطابها المنتظر منذ فترة حتى وصله أخيرًا، ابتسم وهو يعيده لجيب سترته، ها هما قد عاودا نشاطهما مرة أخرى. نظر في ساعة الحائط التي يعلوها خنجر ويليام ويلكوكس الفضي وبات يزين الجدار، كانت

العقارب على وشك التلاحم لتعلن ميلاد يوم جديد، أطفأ سيجاره بحدة وهو ينوي إنهاء السهرة مبكرًا بنفس الوتيرة، فقد كان على موعد هام صباح باكر بالبنك الإيطالي مع أحد أقارب باتريشيا حسبما أخبرته في خطابها الأخير استعدادًا لخطوة واسعة في مسار إجباري، بدأ يستعد لها جيدًا حتى لا تكون مجرد قفزة عشوائية في الظلام!

***

.. تدق كعوب أحذية الصاعدين على السلالم الخشبية القديمة على وتيرة واحدة كل بضعة دقائق فوق رأس عوض، فتوقظه من غفوته ليسعل حتى تنتفض ضلوعه من مكانها وهي تضرب بعنف جنبات صدره فيتقوس مقاربًا رأسه حتى ركبتيه ليكتم الآلام، وتخرج منه الآهات بوهن شديد فلا يسمعه أحد ليسعفه، أولاده وزوجته ينتظرون زياراته ربع السنوية على بعد مئات الكيلو مترات من غرفته القابعة تحت السلم بمنطقة بين السرايات، وجيرانه لا يزورونه إلا مرتين كل صباح وفي نهاية اليوم للسؤال عنه وإطعامه وما بينهما يعيش في عزلة كاملة، مدخراته أوشكت على النفاد، وبدر لم يرسل له نقودًا منذ فترة مثلما فعلها عدة مرات من قبل. تعود نوبة السعال ضارية هذه المرة تعصف به مصممة على قبض روحه معها، يبصق عدة مرات متتالية في آخرها تخرج بقع دماء صغيرة من جوفه، تعلق بطرف جلبابه الذي يستخدمه كمنديل ويتناثر باقي الرذاذ على ملاءة الفراش، تتحرك أطرافه شبه المتيبسة بصعوبة من جراء رقدته الطويلة ليمحو آثار دمائه فيسمع طقطقة عظامه اللينة الهشة..!

يترامى لسمعه طرقات متتالية على باب شقته، لا يقوى على النهوض، فينادي بصوت خفيض حتى يُسمع من وراء الباب لكن حنجرته

لا تطاوعه، تسكت الطرقات فجأة ويسمع وقع أقدام تبتعد مترددة، تقبض أصابعه المرتعشة على زجاجة الدواء بعد عدة محاولات فاشلة، يتجرع منها ثلاث جرعات متتالية، يهدأ قليلًا وتنتظم أنفاسه المتلاهثة، يغمض عينيه متمتمًا بالشهادتين كعادته كل بضع ساعات، وصورة أولاده وزوجته وأرضه في دابود لا تفارق مخيلته حتى راح في سبات طويل.

***

- يا باشمهندس حبشي.. صح النوم.

فتحت نصف عين كسولة متأملًا محدثي مسئول الإسكان بالمحافظة المهندس جلال البحر، شاب متقد الحماس، مبتسم دائمًا، يركب طائر الأمل ويحلق به أينما حل، كان يربت كتفي برفق ليوقظني، لمحت في عينيه نظرة إعجاب خفي أذابت الثلوج بيننا بسرعة. حدّثني كثيرًا عن السد العالي، شعرت لوهلة أنه مقتنع بحتميته، ربما كي لا يفقد جناحي حماسه اللذين يرفرف بهما طوال الوقت، فلما وجد مني صمتًا مريبًا، استرسل في مديح جمال عبد الناصر وباقي إنجازاته، بدأ متفاخرًا بتشييد مصانع الحديد والصلب وعرج منه على افتتاح شركة النصر للسيارات، ذكرني بمد خطوط الكهرباء من الإسكندرية لأسوان، والبيوت التي بناها عبد الناصر للنوبيين المهجرين بنصر النوبة، يكاد يحفظ قوانين الإصلاح الزراعي عن ظهر قلب، منحاز تمامًا لفكرة التعليم المجاني، قلد طريقة الرئيس وصوته في قرار تأميم القناة من فرط انفعاله، ثم اختتم بفخر أنه ناصري الهوى حتى الممات!

في البداية أصابني الصداع من تحيزه الواضح، لكن مع شرحه لكل موضوع بدأت أنتبه لكلامه، تراجعت مشاعري خطوة للوراء، ورسخ عقلي مكانه أمامها ثم ثبت قدميه بثقة، شعرت فجأة بأنني أتضاءل تدريجيًا أمام كل مشروع يتفاخر به. بلغ بي الضيق مداه من نفسي، فأنا فيما يبدو قد أقمت سدًا عاليًا أمام إنجازات عبد الناصر بداخلي، ولم أعد أرى سوى ما فعله بنا. كدت أصارح المهندس جلال بالحقيقة، بأنني نوبي ولست مهندسًا سودانيًا ربما يتفهم دوافعي!

لكن تطبعي على غير العادة غلب طبعي، ووجدتني أسأله بنبرة هجومية متشككة: من أي قرية أنت؟

- كوم أمبو..

هززت رأسي مستنكرًا كما العارفين ببواطن الأمور، وأفلتت مني نصف ابتسامة متهكمة رغمًا عني، أذابت قناعاتي الوليدة كالعود الأخضر بحجته في سرد إنجازات الزعيم، ومثلما يتبخر مكعب الثلج في عز القيظ، تصدرت مشاعري مكانها في المقدمة مرة أخرى وهي تزيح العقل المطرق في خجل ليتوارى خلفها، حدثت نفسي بفخر المنتصر، لذا يرى السد بناء عظيمًا، فلم يهلك أهله خلفه يومًا ما، لم يُعانِ مثلنا. نهضت متكاسلًا وأنا أرمقه بلا مبالاة وأرتب سلبيات ناصر بعقلي لأسردها على مسامعه تباعًا، لكنه استوقفني بذات الابتسامة المشرقة قائلًا: بالمناسبة أنا نوبي من قرية عافية، لكنني مهجّر في كوم أمبو الآن!

قالها وعقّب بعدها بابتسامة طمأنينة دافئة، خرجت من بين شفتيه بعفوية صادقة. رد على تهكمي بإنسانية، أفحمني برفق، فراح عقلي يعاتب مشاعري، كلاهما تعب مني ومعي، مددت يدي وصافحته في ود، شددت على كفه، وربَّت كتفه في مودة، كنت أعتذر في صمت. أحنى جلال رأسه قليلًا، يبدو أنه قبل اعتذاري، وشعرت أنني أتضاءل مرة أخرى، صرت كلهب شمعة يتراقص أمام الريح، يقاومها بضعفه حتى يخفت. لا أريد أن أصير بكائيًّا كغيري من أهلنا، كفى ما دوّنوه من مرثيات، لن أضيف جديدًا، حسنًا فليتقبل عقلي أن عبد الناصر لم يقصد إبادتنا، بنى لنا بيوتًا جديدة، على الأقل لم يفعلها غيره، لكن خرجت الكلمات مني بلا طعم!

في طريق عودتنا مررنا من ناحية أبو سمبل، لمحت لافتة متوسطة عليها عبارة «أرض ملك ورثة سر الختم»، تذكرت أنها أرض مسكة التي ورثتها عن أبيها، سألت المهندس جلال عنها فأجاب بسرعة: أرض بيت سر الختم لكن إجراءات التركات والوراثة بتاخد وقت طويل وفيه أراضي كتير على نفس الحال أصحابها غرقوا.

لعنت بدر في سري بسبب بطاقتي المزورة ثم نفضت اليأس عن روحي، وحاولت استعادة أملي في رؤية مِسكة وصغيري بقرية قرشة التي وصلناها قرب العصر بقليل، لكن كنا متأخرين، لحقت قرشة بدابود والعلاقي، انتهى كل شيء في القرى الثلاث، نفس المشهد تكرر بحذافيره في قرى ونجوع النوبة التي جردتها بحثًا عن مِسكة حتى أضناني البحث على مدار أسبوع أو يزيد، حزم الأهالي أمتعتهم، قاتلوا باستماتة دفاعًا عن دوابهم وماشيتهم حتى قهروا بقرار الحجر الزراعي، ومن اختار منهم البقاء والفناء والغرق قيلت في وجهه العبارة الشهيرة من مسئولي التهجير ووزارة الشئون الاجتماعية: أنت حر!

خيم الصمت على المُهجّرين في انتظار لحظة الرحيل أو الموت كلاهما سيان، تركزت مظاهر الحياة كلها الآن في قرية قرشة قرب الشاطئ، هُجرت البيوت ونزح المتسلقون على مدار خمسين عامًا إلى السفح، راح الجبل يلقي عليهم نظرة تشفٍ قاسية بتضاريسه الحادة. بريق يومض ويلمع، احترت في مصدره لوهلة حتى تبينت أن العيون مترقرقة تجمدت فيها الدموع، يصوّبون نظراتهم نحو النهر في عتاب مكتوم، والنيل يجري أمامهم ولا يبالي!

رحت أتفحص الوجوه، وفجأة وجدتها، لا أصدق عينَيّ، ها هي مِسكة..!

دق قلبي بعنف، اقتربت، انحنيت باسمًا متلهفًا، تفرست في وجهها مندهشًا، محبطًا.. ليست هي وصغيرها لم يكن ولدًا كما ظننت، بل بنتًا بضفيرة، يبدو أنني لم ألمح قسماتها من بعيد. قطع أوصال دهشتي بكاء طفل آخر.. تلفتُّ كالمجنون حتى أدركته.. أمه تتلفح بطرحتها، تخفي نصف وجهها، عيناها تتابعاني في قلق، وأنا أندفع نحوها.. صارخًا: مِسكة.. مِسكة، التفتت نحوي بغضب وهي تنهرني، ليست هي أيضًا! يهدئ المهندس النوبي جلال البحر من روعي، يرقبني الضابط بحذر، يتابعني الموظفون في حيرة، كان صدري يرتج، ألهث بشدة ودموعي تتسابق لتنهمر، جثمت على ركبتَيّ، التفوا جميعًا حولي، لم ينطق أحدهم بكلمة لكن نظراتهم لم تخلُ من ذهول، رحت أهيل التراب على وجهي، أبكي بحرقة والضابط وجلال البحر يجذبانني من ذراعي لأنهض. جمع النوبيين يقترب نحوي، ضاقت حلقاتهم عليّ حتى استحكمت، سمعت عبارة واحدة من فرط تكرارها: لا حول ولا قوة إلا بالله..

ظنوا أنني جننت، لكنني لم أفقد عقلي فقط، أنا فقدت قلبي وهويتي وقطعة مني معًا.. يا ألله!

***

24

كان النخيل يتمايل على الجانبين، حفيفه يناجيني، يخبرني بأنني لم أمت بعد رغم كل ما حدث، فالنخلة لا تموت من جذورها، إنما حين يُقطع رأسها فقط حسبما كان جدي يقول دومًا..

غادرت عربة القطار لما توقف بمحطة الجيزة بعدما قررت زيارة عوض، يساورني القلق بشأنه ولم أعد أعرف عنه شيئًا، انحشرت وسط قطيع لا يعرف أوله مصير آخره، الغالبية تترجل وأنا وراءها بلا تفكير، ذبت في زحام غريب، وجوه لا أميز ملامحها، أصوات لا أكاد أسمعها، ضوضاء وكلمات متداخلة عصيّة على الفهم، بدت لي الصورة مهزوزة، بعضهم يرتطم بكتفي، يدفعني متعجلًا أو مهرولًا دونما اعتذار، جانب حقيبة ينال من ركبتي بعنف، لكنني لم أتوقف، كنت كالسائرين نيامًا، حتى وجدت نفسي قرب حديقة الحيوان، عرجت يمينًا ففوجئت بوجود تمثال النهضة، دهشت لبرهة فقد نسيت أنهم نقلوه من باب الحديد بعدما وضعوا رمسيس الثاني مكانه، كنت أراه من الخلف، اقتربت لأرى أكثر، جلست أسفله أتلمس ظلًّا فلم أجد، رفعت عينَيّ وأنا أحجب ضوء الشمس بكفّي، شعرت أن الفلاحة لم تعد ترى أمامها، خُيل لي أنها تحدق بعينيها وسط ضباب كثيف، مخلفات الطيور غطت كتفيها وكست رأس التمثال القابع بجوارها، وشعرت بغربة أكثر عن ذي قبل.

أخرجني عسكري المرور من خيالاتي بصفارته المتقطعة حتى أزعجتني، كان رثّ الثياب هذه المرة، تائهًا لا حول له ولا قوة، لا يأبه به أحد بل تكاد بعض السيارات تدهسه، راحت عينا الصقر منه، خفت بريقهما، وصارت جفونه كسولة كضفدع صغير يقفز بوهن في مستنقع عفن، خبت الهيبة، وعلت وجهه غبرة، تراخى كتفاه وتهدل كرشه، فاستعان بصفارته لعله يحفظ ما تبقى من ماء وجهه، لكن الصمم فيما يبدو قد خيم على مصر كلها!

وصلت بيت عوض في بين السرايات بصعوبة، فقد مر وقت طويل على زيارتي الأخيرة له فضللت الطريق للوهلة الأولى، طرقت باب الغرفة فانفتح بسرعة عكس المعتاد، لكنني وجدت أمامي رجلًا أربعينيًّا ضخمًا بشاربٍ كثيف وكأنه كان يقف خلف الباب مباشرة، استبشرت خيرًا وهممت بالدخول، فاحتجزني بجسده قائلًا: يا أستاذ البيت له حرمة، مفيش حد هنا..!

شعرت بخجل من تصرفي العفوي، فتراجعت خطوتين وأنا أسأله بقلق عن عوض، فأجابني بسؤال آخر: حضرتك تبقى مين؟

أخبرته أنني ابن عمته من النوبة وأتيت لزيارته من فترة لكنني لم أجده، فتقلبت ملامح الرجل وظل يتفرس فيَّ بحذر، ثم دفعني برفق لخارج الشقة قبل أن تلامس حقيبتي الأرض، وخرج منها ورائي وأحكم غلقها جيدًا بالمفتاح قائلًا بصلافة: عم عوض سافر الفجر على بلدكم، وقال حيعود بعد شهر!

استبد التعب بأعصابي من بعد جسدي ولم أدرِ ماذا أقول لهذا الرجل الفظ الذي أغلق كل الأبواب في وجهي، فهمت منه أنه صاحب البيت، لكنني لم أفهم لماذا تبدل فجأة عندما علم بقرابتي لعوض ثم تبخر من أمامي مثلما ظهر بدون مقدمات، وجدت نفسي وحيدًا، فعدت لغرفتي بعابدين يصاحبني القلق طوال الطريق على صحة عوض ورحيله المفاجئ..!

استلقيت منهكًا بفراشي، وعطلت عقلي عن التفكير بعدة كؤوس متتالية من مشروب العرقي، ابتسمت في مرارة ودموعي تنساب في صمت، تبلل شفتَيّ وشاربي. نظرت بصعوبة في المرآة الملصقة من منتصفها بالعرض، رأيت وجه فارس حبشي وجسد عجيبة، أنا مسخ الآن، حتى ملامحي هربت مني، يبدو أن القدر قد صبَّ غضبه عليّ فحرمني من مِسكة وصغيري وسخطني قردًا!

تذكرت خطاباتها القديمة التي كانت ترسلها لي وقت الدراسة، شدّني الحنين إليها، فتحاملت على نفسي حتى أخرجتها من مكمنها الذي أحتفظ بها فيه أسفل سريري النحاسي. عبثت أصابعي لا إراديًّا في الخطابات حتى اخترت أحدها، أمسكته بيدٍ مرتعشة، قلبي يخفق بشدة وعيناي تصافحان خطّها الصغير

المنمق على أوراق مالت قليلا للصفرة. نحّيت كأس العرقي الخامس جانبًا، وصنعت مشروبًا خليطا من البيرة والبراندي ثم استلقيت على فراشي وبدأت أقرأ، وراح الشجن يغمرني وكأنني أسمع صوتها بغرفتي...

«كلنا هنا بنبعتلك سلامات عاوزين نطمن عليك عساك تكون مبسوط ولاقي راحتك والأكل اللي بتحبه، أبويا قاللي أنا وفاطمة أختك نحضر لك أكل مخصوص في قفة، قلت في نفسي يا بت دسي له جواب في وسط الأكل لاجل يوصل يدك. بدي أحكيلك عن أحوالنا هنا كأنك معانا ودايمًا في بالنا، عملنا لك أكلتك اللي تحبها، الجاكريد بألف هنا على بدنك طول عمرك بتحب اللوبيا. من يومين كان فرح ود خالي عثمان، كل البلد كانت حاضرة واسمك كان على كل لسان، حد بيسأل عنك وحد اتوحشك وحد بيدعيلك. لما رقصوا للعريس افتكرناك أنا وفاطمة وقلنا أد إيه أنت تحب الرقص وبترقص زين كمان، افتكرنا رقصتك اللي بتنط فيها لفوق وتقول حامسك نجوم السما وأجيبهالكم، وضحكنا، العريس كان يبان قصير جنبك مع إنه طويل حبتين، لكن أبويا قال لنا إنك طالع فِرع زي عمي عجيبة الله يرحمه ويمد في عمرك. صحيح قول لي الواد اللي أنت ضربته في المدرسة وأَخدت طاقيته هو كان عمل إيه؟ كل مرة بانسى أسألك أكيد أنت غلبته وخاف من جتتك، أمانة عليك لما تعاود في الأجازة ابقى هات معاك الطاقية نتفرج عليها. عملنا أتواب جديدة للفرح، توب فاطمة لونه أخضر وتوبي لون النب كده اللي أنت بتحبه وتوب عيشة لون السما، صاحبك السمين مش فاكرة اسمه إيه ابن الحاجة محاسن، شافنا إمبارح وإحنا معاودين من بيت العروسة بعد الحنة، قال لنا أتواب حلوة وبنات زين، فاطمة كانت خجلانة وعيشة ضحكت في سرها لكن أنا خانقته، إزاي يكون غريب عنا ويتغزل في لبسنا، أنت لو كنت معانا كان اختشى على دمه وبلع لسانه في خشمه بس حمدون خايب وخرع. قصّر الغيبة يا رب، حاول تبعت لنا جواب مع حمدون لما يوصلك المدرسة أو يجيبلك الأكل، ماتخافش أنا اللي حاخد منه القفة وهو ميدراش فيها إيه غير الأكل، إوعى تسيل في الكلام معاه. ذاكر ورحمة جدودك وخد الشهادة وإوعى تعمل زي ما أنا عملت وماكملتش، ربنا معاك ويحفظك ويبعد عنك كل شر.

آمين يا رب العالمين،

مسكة

فبراير 1941 ».

طويت الخطاب وتركت دموعي تنساب في صمت. أطرقت فوقع بصري على ورقة جريدة كانت تلف زجاجة البراندي، فردتها ببطء، صفحة كاملة من جريدة الجمهورية يتصدرها عنوان بخط كبير «قضينا على الاستعمار وأعوانه» وأسفلها تفاصيل موضوع عن هجرة أهل النوبة، فبدأت أقرأ العناوين الفرعية لتنتابني دهشة بالغة مما أقرؤه..

«حتى الأحداث السعيدة وضعتها الدولة في الحسبان لأهل النوبة من الحوامل»، «مهاجرو النوبة تسلموا بيوتهم الجديدة والفرحة تغمرهم»، «مسئولو المحافظة يزورون النوبيين في منازلهم ويتناولون الطعام معهم»!!

تجرعت كأسًا أخيرة صغيرة جرعة واحدة فدار رأسي، أطبقت بأصابعي بشدة على الورقة، ثم ألقيت بها من النافذة، بعدها شعرت برغبة جامحة في التقيؤ، ثم تهاوى جسدي ببطء على الفراش حتى سقط ركامًا.

***

الأيام المتشابهات تمر بطيئة، لم تعد هناك جدوى من تجرع العرقي والتكوم في فراشي كل ليلة، أنا الآن فارس حبيب حبشي، لا أستطيع الاختلاط بالجيران، حُرمت من الذهاب إلى النادي النوبي بعابدين خشية افتضاح أمري لو تذكّرني أحد، فضلًا عن مديوناتي التي بات أصحابها يطاردونني.. اضطررت دائمًا لوضع قبعة بيضاء كبيرة على رأسي واستعنت بنظارة شمسية عريضة تخفيان معظم ملامحي كلما

غادرت غرفتي للشارع.
عشت في عابدين مرتين، كل منها بحال. كان لزامًا عليّ مع مرور الوقت أن أبحث عن مهنة ملائمة، بعيدة عن عيون المتطفلين تعينني على العيش، بالتأكيد لن أكون مهندسًا، فكرت في العودة لمركز الشباب مرة أخرى، على الأقل ما زلت موظفًا به لم أستقل بعد، لا بد وأنهم يحولون راتبي كما اتفقت مع زميلي، لكنني لن أستطيع صرفه إلا ببطاقتي القديمة، فجبنت في آخر لحظة، يا ليتني أخذتها مرة أخرى من أشموني، خوفي من انكشاف المستور زادني تقوقعًا مرة أخرى، لعنت بدر وأشموني، ومن قبلهما نفسي الأمّارة بالسوء، طاوعتهما في كل ما طلباه مني، وعدت نادمًا ملومًا محسورًا إلى غرفتي الخانقة.
تمددت على فراشي بعد أن وضعت خطابات مسكة في حافظة بلاستيكية شفافة لتنضم إلى قصاصة الجريدة التي تحمل خبر غرق أبي مع ويليام ويلكوكس، فهي كل ما تبقى لي من ذكراها وهي هويتي كلها، دسستها جميعًا في مكان جديد، تجويف رفيع بالجدار وراء دولابي ونمت منكفئًا على وجهي غاضبًا.
مرت عليّ ثلاثة أشهر تقريبًا مستسلمًا في أرجوحة بين واقعي ونفسي، أدور كل يوم على الورش الصغيرة وحوانيت وسط البلد بحثًا عن عمل، يتفحصني أصحابها بقلق مشوب بحيرة، ثم يتوجسون خيفة من أمر
لا أعرفه، تفضحهم عيونهم ولا تبوح به ألسنتهم، ينتهي الحال بهز الرأس ومط الشفاه نفيًا لوجود وظيفة خالية، لأعود لغرفتي قرب الفجر بقليل خوفًا من الدائنين الذين عرفوا مكاني، نصبوا أكمنتهم بالنادي النوبي وصاروا يطاردونني في كل مكان يعرفون أنني ترددت عليه من قبل. بدأت أوسع من دائرة بحثي عن وظيفة هربًا منهم، حتى قادتني قدماي في أحد الأيام نحو مسجد السيدة زينب، ظللت واقفًا لأكثر من ساعة في الساحة الخارجية قرب الباب أرقب الداخلين والخارجين حتى تأكدت أنني لا أعرف أحدًا منهم، دخلت واتخذت مكانًا منزويًا لأصلي، لكن فجأة شعرت بطائرَي الحُزن الواقفَين على كتفي يرفرفان بشدة وينقران رأسي بقوة فبكيت بحرقة ألما على حالي، ارتفع نحيبي وعلت شهقاتي وهدأ المصلون من روعي، غمرني فيضان الحزن لفترة ولم أغادر المسجد إلا بعدما صليت ركعتين، فشعرت ببعض السكينة مؤقتًا لكن بركاني لم يخمد بعد.
مضيت في طريقي لا ألوي على شيء حتى وجدت مقهى قريبًا من الميدان فجلست فيه أتابع المارة بعين كسولة لا تهتم بالتفاصيل، لفت نظري أن صبي المقهى يتفرس في وجهي كل حين، ويوزع عليّ ابتسامات مجانية بسخاء، فلما بادلته إياها على استحياء اقترب ومال بجذعه نحوي هامسًا: شكلك غريب يلزم أي خدمة؟
رغم نظراته المريبة ونبرة صوته التي لم ترحني وشممت منها رائحة عفنة تفوح من وراء عرض خدماته بهذه الطريقة، إلا أنني بادرته بابتسامة ودودة ومددت يدي قائلًا: أخوك فارس السوداني وبادوّر على شغل..
صافحني ولم يردّ إنما ظل على انحناءة جسمه مكتفيًا بإشارة إلى عينيه من إصبعه، ثم غاب عن نظري لفترة، ليعود وبجواره شخص نحيف شبه ملتح يرتدي جلبابًا قذرًا وعمامة كانت فيما يبدو بيضاء يومًا ما، أشار الصبي له نحوي، فتفحصني الرجل لفترة، ثم جلس بجواري فجأة دونما استئذان وقد أخرج إحدى قدميه من بلغته وراح يعبث بأصابعه بها دون أن يلتفت لي ثم طلب لي كوبًا من الشاي معه، عاد يتأمل جسدي بتمعن فبدأت أقلق من سمعة المقهى وميول رواده، وهممت بالقيام لكنه استبقاني بود وهو يقول: عندي ليك شغلانة محترمة، لكن أنت ساكن فين الأول؟
- ساكن مع مراتي وابني في مطرح قريب من هنا في عابدين!
- أنت ابن حلال مصفي..
كنت أجلس على حافة المقعد متأهبًا للقيام في أي لحظة، لكن بدأت أستمع للرجل وأنا شبه مطمئن من

نبرة صوته التي تبدلت قليلا، سألني عن المهن التي عملت بها فلم أذكر سوى وظيفتي بنادي الجزيرة، وفهمت منه أنه يعمل طبالًا مع كودية زار تدعى كوثر، قالها بفخر واعتزاز، فلما لم أحرك ساكنًا، أخبرني بفخر أنها الأشهر في بر مصر كله في إقامة حلقات الزار والذكر وقراءة الكف والفنجان، ثم مال نحوي هامسًا وهو يعرض عليّ العمل لديهم، فوافقت على الفور دون تفكير أو حتى سؤال عن طبيعة عملي، فقد كان المقابل مغريًا للغاية، جنيهًا ونصف الجنيه عن كل ليلة عمل!

سرت خلفه في حواري ملتوية ضيقة ندخل يمينًا وننحرف يسارًا حتى أصبت بالدوار، إلى أن دخلنا بيتًا قديمًا، فلما خرجت منه بعد لقاء الكودية اكتشفت أنه ملاصق للشارع الذي به المقهى! لم أفهم لماذا تعمد صبيها اللف والدوران!

دق الرجل بكفه ثلاث مرات دقات متناغمة، انفتح الباب لأجد نفسي في صالة فسيحة للغاية بلا أثاث، نوافذها مغلقة بإحكام وإضاءتها شبه خافتة إلا من مصباح صغير منزوٍ بركن بعيد يطلق نوره على استحياء، رائحة البخور تخترق الأنوف بجرأة وقوة، استغرقت وقتًا طويلاً لتتعود عيناي على تلك العتمة المريبة، ثم أفزعتني الكودية لما ظهرت بجواري فجأة، سيدة خمرية ممتلئة وطويلة ممشوقة القوام ذات كفين كبيرتين للغاية تغطي الحنة باطنهما، وتضع طرحة بيضاء شفافة على نصف رأسها لكن جلبابها مفتوح ببجاحة عند مفرق نهديها، ثم ينساب ضيقًا ليغطي ما بعد ركبتيها بالكاد.

دارت حولي نصف دورة ببطء وهي تتجاذب أطراف حديث غامض بعبارات لم أفهم معناها مع الطبال الذي انتصب أمامها منتبهًا مشدودًا كجندي يتلقى تعليمات قائده، كانت تستخدم يديها كثيرًا في الكلام، فتحدث جلبة هائلة من جرّاء اهتزاز الأساور الذهبية التي تبدأ من رسغيها وتمتد لمسافة قرب منتصف ذراعيها، أكملت الكودية دورتها البطيئة حولي وهي تلتهمني بعينيها، ثم نظرت للطبال قائلة بلا مبالاة: موش بطال، ينفع معانا، اقلع هدومك يا واد!

***

.. اندمج عجيبة مع مهنته الجديدة بسرعة غريبة وكأنه خلق من أجلها، وتعدد زبائنه ما بين زوج خائن وزوجة عاقر وشخص يمر بمتاعب صحية وآخرين فشلوا في العمل أو في الحب، فضلًا عن هؤلاء الذين يمرّون بمتاعب صحية ولا يثقون بالأطباء، غالبية المترددين ممن يعانون من مشاكل نفسية ولديهم اعتقاد راسخ بوجود قوى خفية تسببت في حدوث مشكلاتهم أو تفاقمها، فلجأوا إلى أهل الذكر والأولياء وأصحاب الكرامات لحلها، وعجيبة صار واحدًا منهم الآن وذاع صيته مع أنه لا يظهر!

كان المعتاد أنهم يعملون ثلاثة أيام أسبوعيًّا غير متتالية، فالعمل يبدأ منتصف الليل وينتهي قرب السادسة والنصف من صباح اليوم التالي. الجميع أفراد متساوون في الحقوق والواجبات في فرقة كوثر الكودية الأشهر بالسيدة زينب، هي المايسترو الذي يقود المسيرة، ومركز بؤرة الأحداث التي تبدأ منها وتنتهي عندها، تقنع الجميع بطرق مختلفة وفق ثقافتهم ومكانتهم الاجتماعية بأن القرين من الجان هو الذي يتحكم في مصائرهم، وأنها تستدعيه لترضيته ليشملهم بعطفه ويخفف عنهم آلامهم ويرشدهم نحو النور، كانت الآمر الناهي في كل صغيرة وكبيرة، تقترح العلاج وتحدد القرابين التي يطلبها الأسياد، وموعد النذور وكيفية تنفيذها، حتى ذبيحة منتصف الليل لإرضاء القرين هي الوحيدة التي تحضرها دون صبيانها والذين يقتصر دورهم على توزيع الذبيحة مقطعة في أكياس صغيرة على أهل المنطقة من الفقراء ليروجوا لها بأنها صاحبة أيادٍ بيضاء ويتباركون بجيرتها.

أما عجيبة فقد كان دوره مناسبًا لتركيبته الجسمانية، فالكودية كوثر أشبه بالمخرج الذي يختار ممثليه بعناية لأدوارهم. في لقائها الأول معه أمرته بأن يتجرد من ملابسه كلها عدا كلسونه، ففعلها وهو يسبح في دهشته ويكاد عرق الخجل المتصبب منه بغزارة أن يغرقه، مرت كوثر من أمامه وهي تحصي النقود التي جمعتها من زبائن الليلة الماضية، لاحظت ارتباكه فقالت مبتسمة: ماتخافش يا واد مش حخليك تقلع ملط، ثم أطلقت ضحكة رقيعة وانصرفت وهي تشير لرجالها باستئناف العمل، فراح صبيانها يلفّون حول وسطه حزامًا عريضًا طويلًا من حوافر الغنم وصدفات بحرية كبيرة ليصل إلى ما قبل ركبتيه بقليل، ووقفوا يتأملونه مثل فنانين فرغوا من لوحتهم فابتعدوا عنها بمسافة ليروا ما ينقصها.

قرب منتصف الليل تتغير معالم المكان، تنتصب خيمة قماشية ملونة في الصالة الفسيحة التي تتصدر مدخل الشقة، في نهايتها فتحة صغيرة تسمح بمرور رجل قصير، كان عجيبة في توقيت محدد وبإشارة من أتباع الكودية متفق عليها بينهم، يظهر فجأة أمام الفتحة ويظل يدور ويدبّ الأرض بقدميه الحافيتين، أما الجالسين بالخيمة من الزبائن فلا يرون منه إلا نصفه السفلي المغطّى بحوافر الغنم، والذي يُحدث جلبة عالية مع رقصاته ودورانه حول نفسه مع دق الطبول بشدة. قدمته الكودية شبه عارٍ لزبائنها على أنه الجان القادم من العالم السفلي، مستغلة ضخامته وسمار بشرته، ومع انعكاس خياله على الجدران بسبب الأضواء الخافتة كان يبدو مهيبًا مخيفًا.

في أحيانٍ كثيرة لم يكن عجيبة يلتزم بالخطة المرسومة له بمعرفة كوثر بل كان يرتجل ويجوّد وهو يرطن بالروتان، لغته النوبية الأصلية، وأحيانًا يطلق أصواتًا متقطعة وصياحًا عاليًا كل فترة، وقد استحسنت الكودية منه ذلك ولم تنهره على عكس طبيعتها المتحكمة.

يعلو دق الطبول ويبدأ الراقصون في الدوران بشدة أمام الضحية ثم يطلبون منه مشاركتهم في الرقص ولما يندمج الضحية ويدور رأسه، يسألونه عن مشكلته ويرددون كلامه خلفه، ليبدأ عجيبة دورانه وصياحه والكودية تغمض عينيها وتتصنع الإصغاء له، لتعيد على مسامع الضحية ما يقرره القرين، لتنتهي الجلسة بأن الفرج قريب والغمة إلى زوال بعد دفع المعلوم. تسألهم كوثر عن الصحة والحسد والابن العاق والمال وكلها أمور مشتركة بين غالبية المترددين، فيختلط عليهم الأمر وتخيل عليهم الحيلة ويبتلعون الطعم مبكرين فيؤمنون بقدراتها الغيبية وهم صاغرون.

على مدار أسبوعين مضت الأمور على ما يرام، تردد خلالها عليهم الكثيرون، فرأى فنانين مشهورين وصحفيين معروفين وباشوات سابقين وكبار الموظفين وأثرياء جددًا وأعيانًا من الصعيد، ليالٍ صاخبة وحلقات ذكر مدوية. في إحداها قدمت ذبيحة كبيرة كنذر لزوجة تاجر كبير من الجمالية، كانت لا تلد إلا إناثًا وتجارته أصابتها خسائر مالية أدت لتراجعه، استغلته الكودية كوثر تمامًا وجعلته يذبح عجلين في ليلة واحدة، كل عجل منهما لغرض مختلف، ووجهت تعليماتها المشددة لعاشور الجزار الذي استُدعي خصيصًا من حي عابدين باعتباره الأشهر في مجاله لجودة لحومه الأعلى سعرًا، ونبهت عليه بألا يرفع عينه عن الذبيحة وقت الذبح حتى لا يؤذيه أسياد العالم السفلي، فظل عاشور الجزار الفظّ المهيب مطرقًا ويده ترتعش أثناء الذبح، بينما عجيبة من وراء الخيمة يتحرك ويطلق صياحه المكتوم أحيانًا ويهذي بكلام غير مفهوم بالنسبة للجميع في أحيان أخرى، لتترجمه الكودية بأن المشكلات في طريقها للحل، بينما عجيبة يكتم ضحكاته بالكاد وهو يتحدث بلغته النوبية التي لا يفهمونها فيكيل لهم السباب جميعًا بأقذر الشتائم، مستمتعًا، منتشيًا..!

حتى جاءت ليلة نبهوا فيها على عجيبة بأن يتواجد مبكرًا عن موعده فلديهم ليلة استثنائية لا يمكنهم رفضها. قبلها بفترة حضر رجلان

لا تفارق الجدّية ملامحهما وكأنهما قد نسيا الابتسام للأبد، تفقدا المكان والبيوت حوله وتحدثا مع الكودية طويلًا وألقيا عليها بعض التعليمات.

جاءت الليلة المنشودة، فشددت الكودية على صبيانها وخصوصًا عجيبة ألا يخرجوا عن النص وأن ينتبهوا جميعًا لأوامرها ويتابعوا عينيها بدقة، أفهمتهم عدة مرات أن الليلة سيزورهم مسئول كبير بالدولة قادر على أن يعيد الجن ذاته إلى قمقمه، ويخفيهم جميعًا للأبد وراء الشمس حسبما يقال عنه!

- وأنت يا واد يا فارس خف شوية من الكلام الكتير، عاوزين الليلة تعدي على خير.

أومأ عجيبة برأسه وهو يصطف مع صبيانها، أمرتهم كوثر بالانصراف واستبقت واحدًا منهم هو صبيها المثقف ليحكي لها ما قرأه وسمعه على المقاهي عن ضحيتها المهمة، المسئول الكبير الذي سيزورهم الليلة، لم تستطع أن تجمع عنه قدرًا كبيرًا من المعلومات مثلما يفعل صبيانها مع باقي ضحاياهم لكنها على الأقل لديها خلفية مقبولة الآن ستساعدها على فك لسانه في فترة جس النبض بينهما..

نحو العاشرة والنصف مساء تلك الليلة خفتت الحركة بالطريق المؤدي لبيت الكودية، وبدا أن هناك أمرًا مريبًا غامضًا يجري الترتيب له، لكن لا أحد من أهل المنطقة يسأل وكأنهم نحّوا الفضول جانبًا على غير عادتهم. كانت الحارة قد بدت مثل فناء مهمل لمقبرة كبيرة،

لا صوت فيها ولا مظاهر للحياة، أما الشارع الرئيسي المؤدي إليها فقد بدا نظيفًا آمنًا، لا متنطعين بلا سبب يضايقون المارة ولا بائع متجول واحد بعدما كان المرء يتعثر فيهم أثناء السير! وقبيل منتصف الليل بعشر دقائق وصل المسئول الكبير في موكب صغير من ثلاث سيارات سوداء، نزل من أوسطها رجل وسيم مهندم يرتدي نظارة شمسية ضخمة رغم العتمة وكانت تخفي نصف وجهه، سار متبخترًا ببطء، بعدما فتحوا له باب العربة وانحنوا ليستكمل سيره منتشيًا مختالًا كالطاووس، متدثرًا بزمرة من رجال أشداء يشكلون حاشيته.

اصطف صبيان الكودية أمامه، عدا عجيبة فهو الجان المخاوي للبشر ولا يجوز أن يراه أحد. حيّاهم المسئول المهيب بإيماءة من رأسه فانحنى أغلبهم له، لكنه اختص الكودية بترحاب عميق ممسكًا يدها بكفّيه منحنيًا قليلًا هامسًا بعبارات الترحاب والمجاملة عن قدراتها الخارقة، والصرامة لا تتخلى عن قسماته أبدًا، حتى استقر في موقعه بطرف الخيمة وابتعد رجاله عنه بمسافة قريبة، فهمس واحد من أتباع الكودية بأذنها لتغمض عينيها بحركة مسرحية وتنتفض قليلًا متمتمة بكلمات غير مفهومة، قائلة للرجل المهيب الذي توتر بشدة: رجالتك معاهم سلاح يا باشا والأسياد غضبانة!

كانت تلك العبارة كافية لأن يصدر أوامره على الفور لهم بمغادرة الشقة، لينتظروه خارجها وعلى

مبعدة، بعدها غُلقت الأبواب وتهيأ المكان لاستقبال الرجل كما يليق بمن هم في مكانته. تطرحت الكودية كوثر كعادتها وارتدت مظاهر التقوى والصلاح بإتقان على شعرها فقط، وتركت العنان لحركات جسدها وعينيها ونبرة صوتها وجلستها المتراخية على وسادة بيضاوية عالية تكشف حتى ركبتيها لتشي بأنوثتها التي تموج بداخلها، راحت تطلق بعض البخور وهي تتمتم بتعاويذها، ثم ابتسمت ابتسامة خجلة أتقنتها، مخاطبة الرجل باستحياء مغموس في ميوعة: يظهر إن سعادتك زعّلت الأسياد منك اليومين اللي فاتوا..

انزعج الرجل لكلامها، وبدا جادًّا وهو يستفسر منها متوجسًا ومتحسسًا كلماته: خير يا ست كوثر؟

محافظة على نفس النبرة المائعة ردّت: بيقولوا إنك بتقفل غطا قاعدة التواليت لا مؤاخذة بعنف شوية، ولما بتدخل الحمام بتنسى تقول دستور!

ارتسمت عشرات الابتسامات على وجوه صبيان الكودية الواقفين خلفه، وهم يراقبونها تلين الرجل الصلب ببراعة، في حين بدا المسئول أكثر جدية وهو يبدي اعتذاره لمن تخاطبهم ولا يراهم، طالبًا منها سرعة إيجاد حل لمشكلته لكن بلهجة شبه آمرة أفلتت منه كما اعتاد في عمله، لم ترق النبرة الآمرة للكودية واعتبرتها بوادر تمرد يحتاج لقمعه مبكرًا، فلمعت عيناها أكثر وهي تنوي إذلاله بشدة هذه المرة قائلة: ما تقلقش

يا باشا كل عقدة وليها حلال، ثم أمرت أحد صبيانها باستعجال مشروب ضيافة الأسياد، لتعلو الدهشة وجه الرجل وصبيها يقدم له كوبًا صغيرًا بداخله مشروب أخضر داكن، اشتمه قليلًا فتأفف ونظر للكودية وكأنه يستميحها عذرًا ألا يشربه، لتفاجئه قائلة بحسم: لازم تشربه، وإلا الأسياد تغضب علينا كلنا.

تجرع الرجل الكوب وهو مُغمضِ العينين، فلما فرغ نظر لها مبتسمًا مزهوًّا بإنجازه في تجرع المشروب الغامض دفعة واحدة، سائلًا إياها عن نوعه، لتجيبه بجرأة وهي تبتسم في تحدٍّ: عصير برسيم بالحبهان، صحتين على بدنك يا باشا!

***

26

ظللت أرقب الرجل من مكمني خلف الخيمة عن طريق فتحة ضيقة، أعتصر ذاكرتي بعنف لأتذكر أين ومتى رأيته من قبل لكنني فشلت، فالنظارة السوداء التي تعمد إبقاءها على عينيه طوال الوقت حالت دون تذكري له. سألت بعينيّ ويديّ صبيان الكودية الواقفين بالقرب مني، حتى همس لي أحدهم في أذني باسمه ومنصبه، ضربت جبهتي وتذكرته فقد رأيته عدة مرات منذ زمن فات في نادي الجزيرة لما كان الجميع يصطف أمامه لتحية سيارته وهي تمر بسرعة من أمامهم وكان يكتفي فقط بالتلويح لهم أحيانًا من نصف نافذة مفتوحة، ولطالما طالعت صوره كثيرًا بالجرائد خاصة بصفحاتها الأولى، يا ألله! ماذا يفعل هذا الرجل هنا وما الذي
لا يعرفه كي نقوله له؟!

تساءلت متعجبًا وأنا أكاد أجزم بأنه مما كنت أسمعه عنه أقوى من الجن نفسه الذي لجأ إليه!

وضعت كوثر سجادة صلاة على حِجر الرجل المهيب وفوقها ورقة بيضاء من غير سطور وطلبت منه قراءة آية الكرسي عشر مرات دون توقف وبعدها يحكي ما يضايقه بصوت عالٍ وطمأنته بأنه سيرى على الورقة حروفًا أو رموزًا تشير لمن يؤذيه بالأعمال السفلية.

اقتنع الرجل وتلا الآية وبعدها بدأ يروي خوفه من غضب الرئيس عليه بسبب الوشايات مما يعرضه لفقد مناصبه العديدة، فلما سمعته يتحدث راحت الهيبة وحلّت الخيبة محلها حتى تربعت على عرش عقله، وبدأ صبيان الكودية يكتمون ضحكاتهم من فرط سذاجته وارتعاشه وخوفه، رغم ما يشاع عنه بأن أعتى الرجال في مصر يرتجفون أمامه من شدة الخوف!

دقت الطبول عالية ودار الراقصون وعلا الضجيج وتاهت الأصوات بينها، والرجل المهيب يصرخ وهو يدور معهم بجذعه حافيًا، والكودية كل برهة تسأله عن مخاوفه وطلباته من الأسياد، فيخبرها بما يحاك ضده من مؤامرات ودسائس، ويحدد لها أسماء منافسيه وأعدائه، ليعرف ما الذي يدبرونه له في الخفاء، وكل حين يجلس ليستريح، فتسأله كوثر عما يراه على الورقة البيضاء، تارة يخبرها بأنه يرى صورة طائر فاردًا جناحيه أو قطًا غاضبًا تقوس ظهره وهي تفسر ما يراه بما يحلو لها، وأنا خلف الخيمة أصيح وأدبدب بقدميّ على الأرض بقوة، وصوت الكودية يصل لأذنَي متقطعًا وهي تُطمئن الرجل بثقة تحسد عليها، وكأنها اطلعت على الغيب وبدّلته لصالحه لتؤكد له فناء أعدائه كلهم قريبًا.

بدأت الهواجس تحوم فوق رأسي أثناء دوراني حول نفسي، ثم راحت تنقر عقلي بقوة حتى نفذت بداخله، فبدأت خطواتي تبطئ وذهني ينتبه فجأة لحديث المسئول المهيب الذي كان يسألها في نهاية الجلسة بلهفة بالغة عن فرص فوز حصانه «صعب» بسباق الخيل الذي سيجرى بعد أيام قليلة بنادي الجزيرة، انتظرت الكودية صيحاتي كالمعتاد وأنا أضخّم صوتي مثلما أفعل كل مرة، لتفسرها وتؤولها بما يرضيه ويريحه، لكنني لزمت الصمت وتوقفت عن الدوران، ويبدو أن كوثر أشارت للطبال فزاد إيقاع الدق متسارعًا عاليًا ليصم الآذان ويشتت العقول بينما تحرك صبي آخر ليدور خلف الخيمة لينبهني لدوري ويطلب مني البدء بالكلام وهو يلكزني بعنف..

فاجأتهم جميعًا واقتحمت الخيمة مُجبِرًا الطبال على التوقف بدفعة من كفّي لطبلته أطارتها بعيدًا، اقتربت من المسئول فاردًا ذراعَيّ، بارقًا عينَيّ، فأفلتت من الرجل صرخة رغمًا عنه بصوت رفيع مثير للخزي لما رآني وجهًا لوجه وبعدها أطلق ريحًا مسموعًا ذا رائحة نفاذة من فرط ارتباكه.

فيما يبدو ظن أنني الجان الذي حضّرته الكودية ليعاونها من العالم السفلي على إبقائه بمنصبه، وبدأ يتراجع بظهره وهو يتعثر حتى كاد يسقط أمام تقدمي البطيء. ساد الصمت من الجميع لثوانٍ قليلة، ليعلو صوتي بلهجة آمرة: اسألها عن النوبة والنوبيين، اللي من السد غرقانين، وفي رقبتكم متعلّقين، لحد يوم الدين!

تعمدت تضخيم صوتي ورفع نبرتي لأخيفه أكثر، وقد كان لهما وقع السحر على الرجل، فراح يهز رأسه بعدما ركع على ركبتيه، وقد عُقد لسانه على كلمة واحدة ظل يكررها أمامي عدة مرات بتوسل شديد: حاضر.. حاضر!

***

.. لفحت النسائم الباردة وجهه وأنفه بمجرد أن غادر الصالة الرئيسية للمطار وخرج إلى الطريق العمومي، ابتسم للا شيء وهو واقف بمفرده وكأنها المرة الأولى التي تطأ قدماه فيها هذا البلد الجميل، ظل يستنشق الهواء النقي مغمضًا محافظًا على ابتسامته، لا يصدق أنه خرج من مصر هذه المرة بعد محاولات عديدة قوبلت كلها بالرفض من وزارة الداخلية، لكن فجأة وافقوا على سفره، دون أسباب للمنع أو السماح كعادتهم، صحيح أنها موافقة مشروطة بالعودة خلال شهر وبعد خطابات رسمية كثيرة من منظمة دولية معنية ببحوث اقتصادية، لكن لا بأس فلم يكن يريد أكثر من ذلك..

حمل حقيبتيه الكبيرتين على عربة صغيرة وخرج للشارع الرئيسي وطلب «تاكسي»، ألقى بنفسه في الأريكة الخلفية وغاص في مقعده متأملًا الخضرة على جانبي الطريق حتى ابتعدت السيارة عن المطار وشقت طريقها بمحاذاة البحيرة إلى أن وصلت للمنطقة التجارية الملاصقة لمحطة قطارات جنيف، فتح نافذة السيارة ليتأمل إعلانًا ضخمًا وضعته الشركة السويسرية التي تنتج كاميرات التصوير السينمائي الصغيرة، وهز رأسه في أسف وحسرة، بينما التاكسي لا يزال يقف في إشارة طريق مزدحمة ظلت عيناه معلقتين على الإعلان، يتأمل صورة الكاميرا التي كان يحلم بها ولم يحصل عليها أبدًا، رغم أنه قدم قرابين كثيرة ليقترب منها، لكنها لم تصل ليديه ولم يستطع أن يكون وكيلها في مصر مع كل التقارير التي قدمها وحملت أخبارًا ومعلومات وآراء لصفوة البلد، لطالما جلس إلى موائد كثيرة وحضر حفلات مختلفة ولبّى دعوات لأشخاص ثقيلي الظل من أجل هذا التوكيل..

زفر بضيق وهو يتذكر كيف انزلق بسهولة خلف أوهام لما فتحت له باتريشيا الباب وتركته مواربًا، ليدعوه موسى بركات للدخول ويقنعه ثم يغلق الباب خلفه، ليتلقفه من بعدها البروفيسور هانز بولوديسكي اليهودي المهاجر من بولندا والذي صار يحمل مفاتيحه كلها، ليحصلوا منه على كل ما يدور بأروقة النوادي الراقية والمجتمعات المغلقة في مصر، فلما توقفت تقاريره أرسلت له الشركة خطابًا رقيقًا تشكره فيه على مجهوداته وتبلغه اعتذارها عن عدم منحه الوكالة التجارية في بضع كلمات قليلة..

«الوضع غير آمن بالقاهرة، ولا يساعد على الاستثمار في الوقت الحالي».

- لا بأس، لم أخسر كل شيء بعد..!

قالها لنفسه وهو يمط شفتيه ويحصي بذاكرته قيمة المبالغ التي حصل عليها منهم نظير المعلومات التي جمعها، ثم مساعدتها له بدعوته من خلال منظمتها للحصول على تأشيرة دخول لسويسرا مرة أخرى ليخرج من مصر بأعجوبة بعدما ضيقت السلطات على المواطنين في السفر للخارج، تحركت السيارة مبتعدة في طريقها إلى فندقه، الذي حجزت له باتريشيا غرفة به مؤقتًا بمنطقة «بوبيه» بالطرف الآخر من المدينة، ظل يدير رأسه ناظرًا للإعلان حتى غاب عن بصره، أفلتت منه نصف ابتسامة وهو يتذكر كلمات موسى بركات في محاولات إقناعه الأولى بجمع المعلومات لما التقاه في سويسرا منذ عشر سنوات تقريبًا قائلًا له بسخرية: شغلك حيبقى مثل وزارة الخارجية، تحضر حفلات وندوات وتجمع معلومات وكل أسبوع تكتبها وتبعتها لهم، اعتبر نفسك سفيرًا للشركة السويسرية في بلدك..!

هز رأسه ضاحكًا وهو يغمغم: والآن سعادة السفير طلع على المعاش..!

شعر برضى واطمئنان، فعلى الأقل لم يُقبض عليه مثل موسى بركات الذي يقضي باقي سنوات عمره خلف القضبان الآن بعد إدانته في التحريض على تفجيرات عملية لافون بوسط البلد منذ سنوات بعيدة..

وصل الفندق ليجد في انتظاره مندوبًا لاستقباله أرسلته باتريشيا من مقر عملها الجديد، سلمه مظروفًا صغيرًا ومفتاح غرفته، ما إن فتحه حتى وجد به رقم هاتف فقط فابتسم وفهم، أدار قرص تليفون الغرفة

وانتظر قليلًا ليسمع على الطرف الثاني رسالة صوتية مسجلة لصوت يعرفه جيدًا وطالما سمعه من قبل، أعقبتها صفارة طويلة، بعدها ترك رسالته القصيرة قائلًا بثقة اكتسبها بعد سنوات طويلة من عمله معهم: بونسوار بروفيسور بولوديسكي، هذا «بدرو» صديقكم المصري يحيّيكم من جنيف، وفي انتظار لقائكم بأقرب فرصة، تحياتي..!

قبل أن يضع بدر السماعة سمع صوت بولوديسكي على الجانب الآخر قائلًا: مرحبًا بك رغم أن لي ملاحظات كثيرة على أدائك معنا.

- لماذا يا بروفيسور؟

- سنلتقي الليلة على العشاء وأخبرك بكل شيء يمكنك أن ترتاح الآن قليلًا.

في المساء كانا يجلسان سويًّا في مطعم شاربوناد الشهير بوسط المدينة يتوسطهما موقد كبير مستدير على سطحه يضعان شرائح اللحم الرفيعة الصغيرة فتنضج من فورها على نيران الفحم المستعرة أسفلها فيلتهمانها بشهية، لم يروِ بولوديسكي ظمأه بسرعة إنما ظل يراوغه ويحاوره، أخذ منه الكثير ثم قال بنبرة عتاب واضحة وهو يلتقط شريحة من اللحم بشوكته الطويلة:

- أنت لم ترسل سوى عشرة خطابات فقط في آخر عامين حتى انقطعت تمامًا عنا منذ فترة، ثم علمت أنك غاضب لعدم حصولك على التوكيل التجاري، فمن الذي يغضب نحن أم أنت بعد تقصيرك فيما طلبناه منك؟ ومع ذلك ساعدناك على الخروج من مصر.

دهش بدر من نبرة الكلام وتحوّل دفة الحديث، فقد كان مدركًا أن خطابات السد العالي التي سلّمها لعوض هي فقط التي ارتدت له، ولم يدر بخلده مطلقًا أن عوض كان يسلمها كلها لعجيبة لينساها الأخير في غرفته! فقال مدافعًا عن نفسه بثقة:

- كيف؟ هذا غير صحيح، أنا أرسلت لكم أكثر من ثلاثين خطابًا لكن كانت هناك مشكلة في خطابات أخيرة خاصة ببناء السد العالي وبعد قضية لافون التي...

- سد عالي؟ هل كانت لديك معلومات عن السد قبل بنائه؟

ارتبك بدر قليلًا بعدما لمح نظرة غاضبة بعيني البروفيسور الذي تجاهل كلامه كله وحصره في معلومات بناء السد فقط، ازدرد بعض الماء قبل أن يجيبه: ليست معلومات بالمعنى المفهوم، إنما دراسة قديمة عنه وقت تولي والدي الوزارة أيامٍ الملك..

هز البروفيسور رأسه مستنكرًا ومستخفًّا بكلام بدر، وبدا بعدها أنه توقف تمامًا عن طعامه وعاد بظهره قليلًا في مقعده وطلب من النادل زجاجة ماء فوار ثم رمق بدر بنظرة طويلة قائلًا: لا بأس، كل شيء يمكنك تعويضه، أعتقد أنك تستطيع التعاون معنا الآن بصورة أخرى بعيدًا عن التوكيل التجاري حسبما قالت لك باتريشيا، يبدو أنها متحمسة لك كثيرًا وأنت مدين لها بوجودك هنا الآن.

- نعم بالطبع أنا مستعد تمامًا لأي شيء..

أجابه بدر بلهفة الغريق الذي يمسك بأقرب طوق نجاة حوله.

- عظيم، استمتع بيومي الإجازة الأسبوعية ويوم الاثنين نلتقي في مكتبي لنرى ما يمكن عمله.

عاد بدر لغرفته بعدما أوصله البروفيسور بسيارته دون أن يخبره بدر بأي شيء عما أحضره معه من مصر، فقد خشي أن يدير له بولوديسكي ظهره أو يضطر هو إلى العودة لمصر بعد انتهاء فترة التصريح الذي خرج به من البلاد. فتح إحدى حقيبتيه وأخرج منها أربع بدل، ثم أمسك بمقص صغير وراح يمزق خيوطًا دقيقة ببطانتها الداخلية بدقة وبطء حتى تمكن من نزع البطانة بالكامل، علت ابتسامته حتى أشرقت في وجهه وهو يتأمل مئات الأوراق النقدية فئة الخمسين جنيهًا إسترلينيًّا راقدة أمامه بعدما حول ثروته كلها بالبنك الإيطالي بالقاهرة قبل سفره، التقطها برفق ووضعها بعناية فوق بعضها البعض في دولاب ملابسه ثم استدار مرة أخرى ناحية الحقيبة لإطلاق سراح بقيتها من بين طيات ملابسه وقسمات وجهه رائقة مطمئنة مؤقتًا.

***

طردتني الكودية شر طردة من الخدمة، مع أن المسئول المهم خرج مقتنعًا بما رآه وسمعه حسبما بدا لي، خاصة وأن كوثر قد نجحت في إقناعه بأن الروح الشريرة المُسلطة عليه خرجت مع الريح التي أفلتها من مؤخرته لما ظهرت أنا أمامه فجأة. عبثًا حاولت إرضاءها وتقبيل يديها لإبقائي بصحبتها، لكنها صممت على قرارها وبدا أنه بغير رجعة مع أن الموضوع قد مر بسلام، وبقي المشهد الأخير في ذاكرتي وكلما تذكرته كنت أضحك في أسى، ظلت الكودية ليلتها تصرخ في وجهي بأن أنصرف باعتباري الجان، حتى انطلت الخدعة على الرجل، وبعد انصرافه ملتاعًا، انهالت عليّ بأقذر الشتائم ثم أمرت صبيانها بضربي، فنقلوا أبصارهم بين عينيها وجسمي ورفعوا أكتافهم لأعلى ومطوا شفاههم لها وظلوا ساكنين، فسبتهم ونالوا ما نلتُ من شتائم بدورهم، ثم أشارت نحو الباب وهي تهم بخلع الشبشب الذي ترتديه، فغادرتُ مسرعًا، خرجتُ من دنيا الزار وعالم الكودية كوثر آمنًا على نفسي دون مالي، فقد حرمتني من صرف باقي مستحقاتي لديها عقابًا على خروجي عن النص..!

بدأت أبحث عن عمل آخر ملائم وأهرب من الدائنين مرة أخرى، لكنني كنت متراخيًا هذه المرة بعد تجربة الزار الأليمة وأصبحت أكثر حرصًا عن ذي قبل ولم أعد أنجرف بسهولة وراء أي وظيفة والسلام، والنتيجة أنني لم أجد أية مهنة أمتهنها..!

في صباح يوم مشرق بعد ليالٍ كئيبة مرت بي وحيدًا بغرفتي، تناولت طعامي على عربة الفول قرب مسجد الكخيا، لأنها أرخص قرشًا وأكثر كمًا، وتوجهت بعدها لوزارة الشئون الاجتماعية في زيارتي الشهرية المعتادة، لأراجع مع موظف الأرشيف هناك أسماء من اعتبروهم مفقودين، حتى أعياني البحث عن اسم مِسكة سر الختم، لكنه تعب ممزوج بخدر ممتع، أبقى شعلة الأمل بوجداني، خبَت كثيرًا.. نعم، لكنها لم تنطفئ بعد..

في بعض الأحيان كانت عيناي تعيدان قراءة الكشف الواحد عدة مرات بحثًا عن عجيبة الصغير، رغم يقيني بأن أمه لم تقيّده بدفاتر المواليد، كان عدم وجوده بكشف المفقودين يُريح قلبي، حتى جاء يوم سلمني الموظف كشفًا جديدًا، عبرت عيناي سطوره في سلاسة، حتى لمحت لقب سر الختم..!

توقفت قليلًا عند الاسم الذي يسبقه وزاغ بصري، لم أقوَ على قراءة اسمها.. ضاقت أنفاسي، وأغمضت عينَيّ وفتحتهما عدة مرات وأنا أتحاشى النظر للاسم الأول، شعرت لوهلة أنني لا أرى أمامي بوضوح، دارت الأسئلة دوران الرحى، كيف تيقنوا من غرقها؟ أين عجيبة الصغير؟ وهل غرق معها أيضًا؟! تدافعت التساؤلات برأسي مع فوران الدم حتى انتفخت أوداجي، تحسست رقبتي فاكتشفت بللًا على كفي بعدما سالت دموعي رغمًا عني، بسملت وحوقلت ثم أمسكت الكشف بيدَيّ وهما ترتعشان لتتراقص الأسماء كلها أمام عينيّ..

لحظات صمت مرت بطيئة، بعدها ثبتت يداي، وبدأت ابتسامة ارتياح تغزو ملامحي لتروي عروق وجهي كلها، حتى علت ضحكاتي، أعدت الكشف إلى الموظف المندهش، وغادرت مصفقًا عدة مرات في جزل كالأطفال، متحمسًا بشدة وكلّي أمل في عودة مِسكة وابني، لا بد وأنهما على قيد الحياة مثلي، فقد كان لقب سر الختم بالكشف تاليًا لاسمي الأول، واسم أبي عجيبة أيضًا!

أنا الذي غرق، أنا من اعتبرتني الحكومة المصرية نوبيًا في عداد المفقودين أثناء التهجير! أنا شخص ميت لا وجود له، عليه أن يعيش ما تبقى من عمره كشخص آخر، أنا فارس حبشي السوداني!

لزمت حجرتي لا أبارحها إلا لشراء طعام، ومع كثرة الاستدانة من الجيران أُجبرت على الدوران في الساقية مجددًا لكن بسرعة أكبر، عاودت محاولات البحث عن عمل، مررت في طريقي من أمام النادي النوبي بعابدين لكن من الناحية الأخرى للطريق، فلمحت تجمعًا صغيرًا وثلاثة نعوش ضخمة، تعثرت في فضولي ورحت أدور حول المكان متلهفًا حتى تحركت الجنازة الثلاثية المهيبة، اقتربت من مدخل النادي

بعدما فرغ تمامًا من رواده الذين صاروا مشيعين للجثامين، تفحصت الورقة البيضاء الكبيرة التي يعلقونها على الحائط بأسماء المتوفين، كان اسمي ثانيهما، ظللت لوهلة متسمرًا مكاني لا أعي شيئًا مما يدور أمام عينَيّ، حتى أهلي صدقوا الحكومة واعتبروني ميتًا. أفقت من دهشتي وأحزاني لما لكزني أحد القادمين من الخلف وهو يهرول ليلحق بالجنازة، مستحثًا إياي للحاق بها، فمضيت خلف النعوش مطرقًا، كنت وحدي أشكل الصف الأخير من جنازتي، وقد أحكمت القبعة الكبيرة على مقدمة رأسي فابتلعت ملامحي، اغرورقت عيناي بالدموع مع جهر المُعزين بالدعاء للمتوفين من غرقى السد، ووجدتني أبكي روحي في صمت، تباطأت خطواتي وبدأت تميل نحو اليسار، حتى ابتعدت عن ركب الجنازة بمسافة، وصرت وحيدًا مرة أخرى..!

كان إعلان موتي سببًا قويا لتمسكي بأهداب الحياة، عدت بهمة باحثًا عن عمل، وبعدما أعياني البحث عثرت على عمل، مساعد إسكافي بإحدى حارات حي عابدين، ارتاح لي صاحب الورشة منذ اليوم الأول، خاصة لما أخبرته أنني سوداني الأصل، مصري المولد، ومسيحي الديانة!

كان الخواجة مكرم الصُرماتي، حسبما يطلقون عليه بحي عابدين، ودودًا وكريمًا معي للغاية، فتعلمت منه المهنة بسرعة، خاصة كيفية لف الفتلة حول إصبع قدمي الكبيرة ثم جذبها لخياطة الحذاء بسهولة ورتق فتحاته، حتى أتقنت الصنعة وأدركت سرّها في أسابيع قليلة، وكنت أنتظر بدر بغرفتي لبضع ساعات كل يوم بعد مواعيد عملي، أجلس وحيدًا من المغرب إلى ما بعد العشاء بساعتين، لعله يرسل لي مرسالا أو يأتي حسب وعده في موعده. انقضت ستة أشهر وانصرم أسبوعان ومر يومان كاملان بعدها ولم يحضر، فقررت المغامرة والذهاب إليه بعقر داره، ورغم نهيه لي كثيرًا عن ذلك الأمر، لكنني صممت، ولو وبخني سأدافع عن نفسي بأنني أريد نصيبي في مراهنات الخيل، وما خسرته على الفرس مِسكة خصمه هو من باقي مستحقاتي عن استرداد ثروته، فليعطني باقي مالي أو نصيبي من إيراد العمارة إن كان قد بناها، فقد سئمت مصر وأهلها، وغمرني شعور باغتراب كاد يبتلع ما تبقى مني، وآمنت بأن جهنم النوبة نصر الجديدة بأسوان أولى بي من جنة القاهرة العتيقة..

علمت أن عوض ابن عمومتي قد مات منذ فترة ولم تخرج جنازته من النادي النوبي، فقد ذهبت لزيارته مرة أخرى فوجدت الغرفة مستأجرة لآخرين وأخبرني الجيران أنه دُفن بمدافن الصدقة بمعرفة شخص يدعى بدر بك تكفّل بمصاريف غسله وجنازته، فلم يعره السكان اهتمامًا ولم يبلغوا أحدًا، ولم يكن له زوجة أو ولد يقيمون معه بالقاهرة ولم يعرفوا له عنوانًا بالنوبة، حرمني الموت من رؤيته لمرة أخيرة، وفهمت سبب توجس وقلق صاحب البيت مني في زيارتي الأخيرة، وعزمت على تأنيب بدر بشدة عند لقائه بسبب دفن عوض مع الغرباء!

توجهت إلى منطقة الزمالك بخطى مترددة، وما إن انحرفت يمينًا من شارع ستة وعشرين يوليو حتى وقعت عيناي على عمارة من أربعة طوابق ولا تزال تشق طريقها نحو السحاب مستعينة بكم هائل من الرمال والأسمنت وأسياخ الحديد المتراصة على جانب الطريق بالقرب منها، وعشرات العمال ينقلونها في حركة منتظمة مثلهم مثل جموع النمل، على مقربة لمحت لافتة كبيرة خضراء تقول إن المشروع يُسمى «عمارة البدر» وإن به شققا ومكاتب للبيع والإيجار، ويوجد جراج للسيارات الكبيرة. وقفت أتأملها وقد خالجني شعور قوي بأنها عمارتنا التي بناها بدر لا شك في ذلك بعدما وجد شركاء، فخرجت مني الكلمات عفوية: عفارم عليك يا بن الباشا، أخيرًا صدقت في كلامك.

اقتربت من رجل قمحي بدين يبدو أنه مشرف على العمل، يرتدي جلبابًا بلديًّا ويدخن شيشته باستمتاع لكنه بين الفينة والأخرى يطلق وابلًا من السباب للعمال الذين ينقلون الرمل ومؤن الأسمنت ليحثهم على إنجاز العمل بهمة، سألته عن الأسعار وموعد التسليم وسعدت جدًّا بأن العمارة سترتفع أربعة طوابق أخرى ثم ألقيت بسؤالي الأخير عن مالكها فألقى الرجل بالشيشة جانبًا وهو يرمقني بنظرة متوجسة قائلًا بلا مبالاة متعمدًا النظر للناحية الأخرى: لما البيه بتاعك تعجبه شقة حيمضي العقد مع صاحب البيت،

اطمن..!
استبد بي الغضب من لهجته معي وقلت بصوتٍ عالٍ: أنت فكرك راح لفين؟ أنا شريك بدر بك المغازي!
لم يحرك الرجل ساكنًا ولم يُبدِ أي بادرة توحي باهتزاز شعرة منه ثم هبَّ واقفًا مبتعدًا عني لمباشرة أعماله قائلًا بنفس النبرة اللا مبالية:
وما له؟ سلم لنا على البيه بتاعك وقول له دي عمارة باشوات.
وجدت نفسي وحيدًا وعمال البناء ما زالوا يتحركون أمامي كأطياف مهزوزة، فانصرفت مطرقًا وأنا ألوم نفسي على تسرعي فربما كانت عمارة أخرى أو ربما يبنيها بدر في طي الكتمان حتى لا ينكشف أمرنا كما قال لي، ولا بد أن رئيس العمال لديه تعليمات مشدّدة بذلك من بدر حتى يتصرف بغلظة مع الغرباء أمثالي، لكن رغم ذلك هززت رأسي متضايقًا وعزمت على معاتبته، فقد كان يستطيع إخباره بأنني شريكه وملامحي مميزة لن تخفى على أحد.
ظللت سائرًا حتى نهاية الشارع ثم انعطفت يمينًا واقتربت من بيت بدر، فلمحت رجلًا أربعينيًّا ممتلئ الجسد يجلس بثقة على دكة خشبية لطالما ارتقيناها أنا وعوض، يبدو أنه قد حل محله، أيقنت أنه نوبي من ربطة عمامته، فلا أحد غيرنا يربطها بهذه الطريقة ولا تخطئها عيوننا أبدًا. ابتسمت له فارتاحت قسماته، لم تستطع ملابسي الإفرنجية أن تمحو روحي بعد، تبادلنا تحيات وأحاديث طويلة، كان ثرثارًا للغاية، وكلما هممت بمقاطعته فشلت، حتى التقطت خيط الكلام خلسة بينما كان يرد السلام على أحد السكان، فباغتُّه بسؤال: بدر بك موجود؟
اندهش النوبي من سؤالي عنه، تقلبت ملامحه ثم أمطرني بأسئلة كثيرة عن علاقتي به، حتى توجست خيفة منه وظننته مرشدًا للمباحث، فراوغته بإجابات غامضة، وحشرت عوض وقرابتي به في أغلبها، مقررًا له كيف كان يعطف بدر بك عليّ ويخصص لي معونة شهرية، حتى بدا لي أنه اقتنع، فشاركني همومي وتبدلت قسماته المبتهجة إلى أخرى حزينة، ثم غاب قليلًا بحجرته وعاد بجنيهين وهو يحلف بأغلظ الأيمان كي أقبلهما منه مردفًا: أول ما يرجع البيه من السفر ردّهم لي.
- سافر؟! وراجع إمتى؟
- معرفش بس قال إنه مش حيغيب أكتر من شهر فات منه أسبوع، وكلام في سرّك البوليس سأل عليه أكتر من مرة وعلشان كده سألتك تعرفه منين.
- ليه؟
سألته متوجسًا خائفًا فأجاب وهو ينظر بعيدًا نحو الطريق وقال بنبرة خافتة: ماعرفش بس طلبوا مني أسلمهم أي جوابات وصلته على هنا من بلاد بره، وبعدها عينوا مخبر من البوليس، وتقريبًا مقيم معانا لأجل الجوابات إياها، وكلام في سرّك برضه يظهر بدر بك عمل مصيبة لأنهم فتشوا بيته مرتين..!
- وفين المخبر؟
سألته بقلق خوفًا من القبض عليّ بلا سبب كالعادة.
- اتعين هنا من أسبوع لكنه مع الوقت زهق، وعرض يساعدني في الشغل فوافقت، هو حاليًّا في السوق بيدبر طلبات للسكان وبيسترزق!
انصرفت عائدًا وقد زال مني الخوف قليلًا لما عرفت أنهم يبحثون عن بدر بسبب خطابات العملات التذكارية التي كان يرسلها للخارج لكنني لم أفهم ما الذي أقلقهم منها، وبعد ثلاثة أسابيع كنت أحسبها بالدقيقة والساعة مررت ثانية على بيت بدر، كانت العمارة التي ظننتها عمارتنا من قبل قد ارتفعت طابقًا جديدًا، ابتسمت وفركت كفيّ ولوحت بكفي محييًا رئيس العمال الذي كان جالسًا في نفس مكانه يدخن الشيشة وكأنه لم يبارحه فحيّاني بذات البرود لكنني لم أعبأ به وتوجهت مسرعًا باتجاه منزل بدر، التقاني النوبي في بشاشة مرحبًا عند المدخل ودعاني لتناول الشاي معه، فلما طال الحديث بيننا، بادرته بالسؤال عن بدر، أجابني بأسى: بدر بك باين عليه هاجر بلاد بره..!

- هاجر؟!!

- أكيد لأن من أسبوع جالنا جماعة قرايبه باعوا العربية وعفش الشقة كمان وسلموا المفاتيح لصاحب البيت ولما سألتهم حيرجع إمتى قالوا الله أعلم..!

***

28

لم أعد أتذكر أي تفاصيل بعد كلمات النوبي حارس بيت بدر، سقط المشهد كله من ذاكرتي، ولا أعرف كيف وصلت إلى غرفتي بعابدين، ولا كيف باشرت عملي كإسكافي بعدها، ظللت شاردًا لعدة أيام كطير مذبوح تتدلى رقبته ويترنح من الألم، فلما هدأت قليلًا انتابني شعور طفل تائه يبكي صمتًا، وينظر إلى اتجاهات خاطئة لعله يتعثر في ذويه مرة أخرى بعدما فقدهم، تركني بدر كغريب في بلاد غريبة، ألبسني ثوبًا لا يخصني، ولم أعد أجرؤ على التجرد من ملابسي الجديدة، ففي كل الأحوال شبح السجن سيطاردني لو تعثر فيّ، أو لمحني صدفة، وسينكشف أمري
لا محالة..!

وكمجاذيب سيدنا الحسين، كنت دائم التكلم مع نفسي أثناء عملي، هكذا صار حالي، حتى كان صباح يوم أسود بالورشة، لوّحت بيدي في الهواء يائسًا بالمبرد وأنا أحدث نفسي كعادتي، فاصطدمت كفّي بجسم لين رخو، ثم سقطت فجأة كف غليظة على وجهي طرحتني أرضًا من هول مفاجأتها، أدركت بعد وهلة أنني تسببت في جرح وجه ابن المعلم عاشور الجزار، ترك مبردي علامة غائرة في وجهه، ففيما يبدو أنني كنت منفعلا غاضبًا وأنا ألوّح به بيدي ولم أرَ نجل المعلم عاشور وهو يمر من أمامي، كان مؤخرًا يتردد على الورشة لتفصيل أحذية، بعدما تخلى قليلًا عن زيه البلدي وبُلغته البيضاء، مجاريًا الأفندية بسبب زواجه من فتاة جامعية حسبما يقولون، لكنه فظّ غليظ القلب، سليط اللسان، اعتذرت له بأنني لم ألمحه بسبب شرودي الدائم وحديثي المتكرر مع نفسي كل يوم نتيجة ظروفي السيئة، لكنه ركلني بقدمه وبصق في وجهي وهمّ بصفعي ثانية، فانتفضت من داخلي، تذكرت خوف والده المعلم عاشور الجزار ورعبه عند الكودية كوثر ليلة الذبيحة الشهرية، وكيف كانت فرائصه ترتعد، تشجعت ورددت له الصفعة بمثلها، ثم أتبعتها بأخرى ثم ثالثة وبعدها لم أعد أحصي صفعاتي، والفتى تبرق عيناه أكثر مع كل صفعة من الذهول وخيط رفيع من الدماء ينساب من جانب شفتيه، شعرت أنني أريد الفتك به، جَسّد ابن عاشور الجزار فجأة دور شيطان حياتي باقتدار فرجمته، لم أدرِ بنفسي ولم أعرف مصدر تلك الشجاعة المفاجئة التي حلت بي بعدما خرج الأسد القابع بداخلي منذ فترة طويلة حتى حسبته قد مات، ترنح الفتى الشاب وسقط شاله المزركش عن كتفيه فوقه عندما وقع على الأرض فركلته بقدمي بقوة عدة مرات في بطنه. وكالعادة التف كثيرون حولنا، عاونوه على النهوض وشكلوا منطقة آمنة بيننا، لكنني لم أسلم من لسانه، فانهال على رأسي بكلِ الشتائم الممكنة حتى اختتم بلفظ «بربري»..

فقدت صوابي مرة أخرى إثر اختراق الكلمة لأذنَيّ، والتي كانت تتسبب دومًا في نزيف كرامتي وكبريائي، فكدت أقتلعه من جذوره، فرّقت بجسدي الجمع المحيط بنا كعاصفة هبت على أوراق الشجر في الخريف فنثرتها بعيدًا، وأمسكت بتلابيبه ثم رفعته ببطء وعيناه تجحظان بشدة، وقد توقف تمامًا عن السباب، بدا كأخرس من فرط خوفه، توسل كثيرون من حولي لأتركه، تعمدت أن أضرب رأسه بسقف الورشة ثم بسطت كفيّ وأرخيت ذراعَيّ ليسقط فجأة، تعفرت ملابسه لما تكوم وسط الورشة، تحسس رأسه متألمًا لكنه لملم عباءته ثم نفض جلبابه متعجلًا، وهرول مسرعًا ناسيًا بلغته..!

بدت لي نظرته الأخيرة بأنه يضمر شرًّا مستطيرًا، ولم يخب ظني، فلم يمر يومًا بليلة، وقبل أن نغلق الدكان قرب الغروب ليلة الأحد، حتى دلف شاب باهت البشرة كالميت، نحيف الجسد كما البرص، على شفتيه ابتسامة لزجة فاقعة الصفار، بادرني قائلًا: المعلم عاشور عاوزك حالًا في دكان الجزارة..!

لم أردّ، إنما رددت بصري نحو الإسكافي متسائلًا بعينَيّ عما ينبغي عمله في هذه الأحوال، أومأ العجوز الطيب برأسه في أسى وخنوع، عيناه تفضحان عجزه وقلة حيلته، قائلًا بصوته الضعيف، مجاهدًا ليكون مسموعًا لصبي الجزار: روح يا بني استسمحه وراضيه بكلمتين وبوس راسه علشان تقدر تاكل عيش بعد كده..!

ظللت متيبسًا في مكاني خائفا من الذهاب إلى دكان المعلم عاشور الذي ولا بد أنه استشاط غضبًا لإهانة ابنه ونوى غدرًا، لكن مكرم الإسكافي بدد ترددي وهو يقول: يا بني أنا مش حاقدر أشغلك عندي لو المعلم عاشور غضب عليك..!

سرت مجبرًا بجوار الصبي اللئيم حتى وصلنا إلى الدكان الذي تعلوه لافتة بيضاء ضخمة عليها عبارة بخط جميل منمق بلونٍ أزرق «جزارة أولاد عاشور»، كان المعلم ينتظرني جالسًا على مقعد خشبي بوسط محله يضع ساقًا فوق أخرى، وخلفه يقف ثلاثة من أولاده بينهم ابنه الأوسط الذي خدش وجهه وجرح كرامتي وقد بدا رأسه متورمًا، نظراتهم ميتة، شفاههم مدلاة في سخط، عروقهم نافرة، ووراءهم صورة كبيرة للرئيس بزيّه العسكري تتصدر الحائط، أخذتني لوهلة نظرته الحادة فيها، شعرت بخطر وغدر لا أعرف مكمنه، لكن القدر كان رحيمًا بأعصابي فقط..!

فلم تمضِ ثوانٍ على انتهاء المعلم عاشور من حديثه معي عن إهانته وأن اليد التي تمتد إلى أولاده لا بد من قطعها، حتى فوجئت بأكثر من عشرة رجال ينقضون عليّ من خلفي، ويغلق آخرون أبواب الدكان في لمح البصر، شدّوا وثاقي رغم مقاومتي، لكنهم كانوا معتادين على ذبح الثيران الهائجة فلم أتعبهم كثيرًا، اختص اثنان منهم بجذب ذراعي وتثبيت كفي اليمنى مبسوطة على طبلية خشبية صغيرة، تلك التي تقطع عليها مواسير اللحوم وكبار عظامها وعريض أفخاذها، لم تمضِ ثوانٍ أخرى وكأنها تسابق نظيراتها، حتى هوى أكبر أبنائه بساطور على يدي منتزعًا أربع أصابع دفعةً واحدة تناثرت على الطاولة، ونافورة حمراء تندفع من كفّي وراءها..!

قبل أن أتهاوى صارخًا، أطار ابنه الأوسط إصبعي الأخيرة بضربة ثانية. كان كل ما أتذكره أنني حاولت الصراخ فعجزت، فقدت النطق فجأة، جثمت على ركبتَيّ، مال رأسي نحو قدمي عاشور المبتسم في تشفٍ، وأنا أرفس من شدة الألم، وبعدها اختلط السواد الذي أسدل على جفوني مع لون الدم المندفع نوافير من كفّي في مزيج داكن وقاتم حتى عزلني عن دنياي تمامًا.

***

- فارس حبيب حبشي مليكة..

قالها الحاجب بصوت جهوري تلبية لأمر القاضي بالنداء على المجني عليه، لكنني لم أرد، ولوهلة نسيت اسمي الجديد، كنت أجلس في الصف الأول من القاعة بجوار بعض المحامين، وقد تطوع أحدهم وعرض الحضور معي مقررًا أن أتعابه سيخصمها لاحقًا من مبلغ التعويض، فوافقت على مضض من فرط إلحاحه، لمحت عاشور الجزار وابنيه الأكبر والأوسط يقفون وراء القضبان، يقبضون على الأسياخ الحديدية في غلٍّ، وشعرت لوهلة أنهم يكادون يخلعونها ليفتكوا بي..

علت دقات قلبي وتحسست مبلغ الخمسمائة جنيه الراقدة بجيبي، ووقعت عيناي رغمًا عني على كفّي اليمنى، رغم أنني أتفادى دومًا النظر إليها، فقد تحولت إلى قبضة مبتورة الأصابع، تحمل في نهاياتها تجاويف وخيوط جراحية لا تزال شاهدة على اقتلاع أصابعي الخمس منها، بدت كثمرة بطاطا اجتثت مبكرًا من جذورها...

إلى متى ستظل القاهرة تأخذ قطعة من جسدي كل فترة قربانًا لــلا شيء..؟!

فقدت سنتي وخمس أصابع ومن قبلها اسمي وهويتي... يا ألله!

عدت أتحسس النقود مرة أخرى بيسراي، فمنذ شهرين ضغط عليّ أولاد المعلم عاشور الجزار لتغيير أقوالي، وقتها كنت بالمستشفى الذي نقلت إليه بمعرفة صبيانه، وتركوني على بابه أستكمل نزيف ما تبقى من دمائي خوفًا من مساءلتهم إذا ما صعدت روحي لبارئها بدكانهم، وفي فترة ما بعد خروجي ومكوثي في حجرتي لأسابيع طويلة للتعافي من جروحي، كنت أقتات على ما يجود أهل الحارة به عليّ، رحمة وشفقة بعاجز في منتصف العمر، ضخم فارع الطول موفور الصحة لكنه

لا يقوى على حمل صينية رقيقة فارغة بسهولة، ليلتها اقتحم أولاد عاشور غرفتي عنوة وألقموني خمسمائة جنيه، ألقاها ابنه الأصغر في وجهي بصلافة كأنني كنت أشحذ بإلحاح، نظير أن ينطق لساني زورًا بأنني كنت أشتري لحومًا ووضعت يدي سهوًا قرب الساطور، وأن عاشور وأولاده لم يقصدوا قطعها..!

كل إصبع من أصابعي قدروه بمائة جنيه..

- يا بلاش!

قلتها متحسرًا!

- قل للقاضي إن كل شيء حدث على سبيل الخطأ ولم يقصد أحد قطع أصابعك..

كررها محامي عاشور وأولاده على مسامعي وهم يغادرون حجرتي، أملًا في نجاة من بين يدي القاضي، والذي بدا لي اليوم صارمًا وعقوباته لا شك ثقيلة رادعة..

- فين المجني عليه فارس حبشي؟

قالها القاضي بصبر ضيق.

رفعت يدي اليسرى لأنبه القاضي لمكاني، أشار لي بأن أقترب من المنصة أكثر.. فاقتربت مترددًا متوجسًا وكأنني الجاني..!

العيون كلها تتعلق بي الآن، لكني لم أجرؤ على الالتفات ناحيتها، أولاد عاشور وأهل منطقته وأتباعه وصبيانه ومحاميه وأهل الحارة ينتظرون شهادتي الكاذبة، أكاد أسمع فحيح أنفاسهم في أذنَيّ، تحسست النقود مرة ثالثة، أنا بالفعل أحتاجها بعدما نفدت مدخراتي..

بدر جرّدني من هويتي بمائتي جنيه، وعاشور اقتلع خمس أصابع بخمسمائة أخرى، وضباط البوليس كسروا سنتي مجانًا، ما الذي ستجنيه العدالة من حبس عاشور وولده سوى تشريدي وخسارتي للنقود، وربما يقتلني باقي أولاده، العدل لن يكون رحمة لي والقصاص سيصبح سيفًا يهدد رقبتي دومًا بالبتر.. وبدر وعاشور كانا أكثر سخاء معي من الحكومة..!

في لحظة صمت شردت متأملًا القاعة جلبًا لهدوء نفسي مفتقد، سقفها بالغ الطول لكنه نظيف برّاق، تعلو رأس القاضي، المنشغل بقراءة أقوالي بالتحقيقات على ما يبدو، لوحة سوداء مذهبة تضم حروفًا بيضاء ضخمة بخط كوفي «العدل أساس الملك»، عدت ببصري صوب عيني القاضي الصارم المتجهم الملامح، فأزاح نظارته السمكية حتى نهاية أرنبة أنفه قائلًا بحسم: أرني كفك اليمنى..

رفعتها أمامه وظللت لفترة على حالي وهو ينقل بصره بينها وبين عينَيّ دون أن ينطق بكلمة، شعرت برجفة تسري بعروقي، خفضت يدي، ووقفت مطرقًا تفاديًا لنظراته، تبادل كلمات هامسة مع القاضيين الجالسين عن يساره ويمينه، ثم قال بهدوء يبعث على طمأنينة:

- قول والله العظيم أشهد بالحق..

هزتني العبارة بعنف، فالواقف أمامه الآن فارس السوداني بينما من بُترت أصابعه هو ابن عجيبة النوبي، كنت كمَن يجدف في قارب صغير وقت النوء، تتقاذفه الأمواج عاليًا وتتلاعب به، قاومت بشدة، تشبثت بمجدافي حتى فقدته، أمسكت بحافة قاربي، حفظت توازني قدر المستطاع، استغثت وصرخت، الريح عاتية وظلام البحر وخسوف القمر يتآمران عليّ، انقلب القارب، غصت في ماء بارد ويمّ عميق معتم، رفعتني موجة عالية وقبل أن تحط بي أو تتقاذفني بعيدًا، رأيت طوق نجاة طافيًا بالقرب مني، فأطبقت عليه بقوة، انتفض وجداني من مرقده، غلبت كرامتي مطامعي بالكاد، نحتها جانبًا مؤقتًا لتزيح معها الأتربة العالقة بكبريائي، فنطقت مضطربًا خائفًا، لكن بصوت واضح ومسموع للجميع حتى لمَن يقفون خلف القضبان: والله العظيم أقول الحق..!

***

29

- فارس السوداني اختفى من عابدين كلها، فص ملح وداب يا معلمة..!

ظل مبسم الشيشة معلقًا بين شفتي الكودية كوثر وسحب الدخان تتساب من فتحتي أنفها المفلطح وعيناها مرفوعتان ناحية صبيها الذي عاد لتوه للمرة الثالثة من حي عابدين بحثًا عن عجيبة فلما لم يجده أنبأها باختفائه، نحّت الكودية عصا الشيشة جانبًا بعصبية وهي تغمغم محدثة نفسها: والعمل يا كوثر؟! ثم أضافت بصوت شبه هامس وهي تسترسل: يا ريتني ما طردته ابن العفريتة ده..!

رغم سطوتها الطاغية وقوة شخصيتها إلا أنها استشعرت الندم بشدة على طرد عجيبة فقد كان أفضل من أدى دور الجان لديها والذي أضفى مصداقية بالغة على عملها، لكنها صممت على طرده لتؤكد لصبيانها أن من يخرج عن نظامها سيلقى مصيره حتمًا، ضحت بعجيبة الذي نجح في وقت قصير للغاية في جعل زبائنها عجينة لينة طيعة بين كفيها لتشكلهم حسبما تشاء، أما البديل الذي حل محله في الأسابيع الماضية وإن كان يؤدي الغرض بالكاد مع الزبائن العادية، إلا أنها الآن تواجه مشكلة في وجوده معها بدلًا من عجيبة، بعدما تطورت الأمور وطلب المسئول الكبير الذي أفزعه عجيبة بظهوره المفاجئ أن يعود لحضور جلسة أخرى، وأرسل رجاله للاستطلاع كالعادة قبل وصوله وحدد الموعد بعد ثلاثة أيام حتى يكون بمفرده مثل المرة السابقة..!

كانت عقارب الساعة تتقافز كأنها في سباق مع بعضها البعض، والكودية تزداد اضطرابًا، خاصة مع زيارة رجال المسئول مرتين لها للتأكيد عليها بتهيئة الأجواء ولقاء القرين، ما جعلها تتعجل عودته بأي وسيلة وتعود عن قرارها بطرده طمعًا في جذب المسئول الكبير لجلسات أخرى بعدما نقدها مائة جنيه كاملة في المرة السابقة..

- ما نشتغل زي ما إحنا يا معلمة، والليلة حتعدي على خير إن شاء الله..

نظرت لصبيّها باحتقار قائلة بنبرة حادة: الراجل الكبير لمح وشّه لما صرخ فيه وكلّمه عن الجماعة بتوع النوبة، ماينفعش يا ناصح نضحك عليه بواحد تاني، ده الواد فارس زي الفلق وطوله يجيب مترين بالراحة..!

ساد الصمت حتى انبرى أحد صبيانها من الحريصين على متابعة الجرائد اليومية بانتظام ليستعرض معلوماته على أصدقائه بالمقهى كل ظهيرة: على فكرة يا معلمة من الليلة إياها والحكومة نغمتها اختلفت مع الجماعة النوبيين..!

- إزاي يعني؟

- إدولهم بيوت جديدة وجاموسة لكل عيلة وصرفولهم تعويض تاني كمان..!

لمعت عينا الكودية وعلا صوتها متسائلة في شرود: وهو الواد فارس نوبي؟!

تلقت صمتًا ثقيلًا على سؤالها حتى قال أحدهم على استحياء: كان بيقول إنه سوداني.

عادت تسأل وهي على شرودها: وتفتكر هرب ليه؟

جاءتها الإجابة هذه المرة من الصبي الذي تردد على غرفته بعابدين، فشرح لها ما سمعه من أهل المنطقة وشجاره مع المعلم عاشور الجزار وأصابعه التي طارت واختتم قائلًا: ومن يوم ما راح المحكمة يشهد مارجعش تاني على أوضته فوق السطوح، كأنه فص ملح وداب!

- وليه واحد سوداني يتحرق دمه أوي كده على النوبيين ويتعصب لهم؟ ماله ومالهم؟

تساءلت الكودية في حيرة، لكن لم يرد صبيانها إنما وضعوا أصابعهم تحت ذقونهم متظاهرين بالتفكير والتدبير حتى قطعت كوثر الشك باليقين وكأنها تتلقى الوحي قائلة: الواد فارس أكيد أصله نوبي ومخبي

وراه مصيبة وهربان منها فقال لنا إنه سوداني، وبالي مش حيرتاح غير لما أعرف السر اللي وراه، بس نقضي مصلحتنا الأول..
انبرى صبيها المثقف قائلًا بحماس: صح يا معلمة وأكيد كان بيرطن بالنوبي وقت الزار وبيستغفلنا.
هبت كوثر قائمة وقد اقتنعت بصواب تفكيرها مخاطبة صبيانها بحزم من اتخذ القرار: واحد فيكم يروح يعسس على قهوة النوبيين والتاني يروح على مطرحه في عابدين يمكن يتكعبل في خَبره، من النهارده لغاية بكرة بالكتير لازم نعرف المخفي ده مخبي عننا إيه، وأنا حاضرب تلفون لمكتب الباشا نأجل زيارته لغاية ما المستخبي يبان.
عادت لجلستها لتسحب نفسًا طويلاً من الشيشة ثم عبثت في صدرها لتستخرج أصابعها من بين ثدييها كيسًا جلديًّا صغيرًا أخرجت منه بطاقة تعارف بيضاء مطبوعة بحروف مذهبة، ثم أمسكت بالهاتف وأدارت القرص وهي تتمتم بعد تنهيدة طويلة: ربنا يجعل كلامنا خفيف عليهم..!
على مدار خمسة أيام بلياليها انتشر صبيان الكودية بالنادي النوبي وشوارع وحواري حي عابدين يفتشون وراء حكايات عجيبة النوبي، بحثوا ودققوا وسألوا كل من قابلوه لكن بغير حرص ولا تبصّر، فعادوا إليها في النهاية وبصحبتهم ثلاثة رجال أغراب وخلفهم ما لا يقل عن عشرين رجلًا كل واحد منهم يحمل بيده شومة بعد أن اقتفوا أثرهم وساروا وراءهم في غفلة منهم. انتفضت كوثر من جلستها وهي تشهق وجالت ببصرها في عيون رجالها تبحث عن إجابة وتفتش عن تفسير لما تراه، فأجابها أحدهم ورأسه مطأطئ وكتفاه مقوستان على صدره متفاديًا النظر لعينيها وهو يقول بصوت مرتعش: دول الديّانة لفارس السوداني، ومعاهم عزوة من عزبة الصعايدة في إمبابة، فارس عليه ديون بأكتر من خمسين جنيه يا معلمة، كان بيراهن في السبق وخسر..
سادت لحظة صمت طويلة حتى علا صوت كوثر فجأة وارتفع، ثم هبت واقفة وشقت ثوبها من مقدمة صدرها، واستمرت في الصياح كأنما تلبسها الجان، ليتراجع الرجال مهمهمين، ظلوا يتراجعون وبعضهم ينهاها عن شق ملابسها خاصة مع بروز مفرق صدرها بالكامل، إلا أنها تمادت أكثر وراحت تلطم خدّيها وتندب حظها على ضياع أموالها التي سرقها عجيبة منها ليراهن بها على الخيل مثلهم، ثم تربعت على الأرض وراحت تضرب رأسها بكفيها بشدة وتعيد نفس العبارات وتصرخ عاليًا.
تبادل صبيانها النظرات وقد شعروا بنشوة إعجاب بالكودية وهي تؤدي دورها بمهارة حتى انطلت خدعتها على الجميع، تعالت أصوات من الخلف: لا حول ولا قوة إلا بالله..
ثم تقدم كبيرهم ليستر صدرها وجسدها بعباءته وترك خمسة جنيهات على المنضدة وأمر الرجال جميعًا بالخروج فامتثلوا لأمره.
ارتمت كوثر على أقرب مقعد لتلتقط أنفاسها ولسانها لا يتوقف عن سبّ كل من حولها وغالبيتهم مطرقين، هرول أحد صبيانها ليأتي لها بكوب ماء وراح آخر يفتح مروحتها ويهزّها قرب وجهها الذي انتفخ وازداد احمرارًا بينما انشغل ثالث في إعداد الشيشة وضبط التعميرة لينصلح مزاجها مرة أخرى، رفعت قدميها على الأريكة ووضعتهما أسفل مؤخرتها بعناية، ونفخت في الفحم بقوة لتستعر نيرانه وهي تستمع لقصة عجيبة ثم قالت وهي شاردة: أقطع دراعي إن ما كان الواد فارس مخاوي.. وجن سفلي كمان وأكيد عمل لنا عمل..
ارتسمت الجدية على وجهها مرة أخرى ليتنبه صبيانها الذين كانوا يهزون رؤوسهم مؤمّنين على كلامها، هبّوا واقفين أمامها وهي تتلو على مسامعهم كيف نجحت بالكاد في تأجيل موعد جلسة المسئول الكبير أسبوعًا بحجة مرضها ثم أشارت لثلاثة من الصبيان قائلة: أربعة وعشرين ساعة بالكتير وترجعولنا بواحد نوبي من القهوة بتاعتهم، يكون فِرِع وطويل زي الواد فارس، ونبقى نخفي خلقته بشال ولا حتة قماش مؤقتًا لغاية ما الليلة تعدي على خير..
ثم أردفت بنبرة محذرة وهما خارجان: بلاش تتشطروا عليه،

إن شا الله ندیله عشرة جنيه في الليلة، المهم نخلص من الهم ده، مش عاوزين الزبون بتاعنا يطير من إيدينا يا رجالة.
داروا وبحثوا ودققوا حتى وقع اختيارهم على أقرب واحد شبهًا لعجيبة طولًا وعرضًا، فاوضوه ونجحوا في إقناعه بالعمل لليلة واحدة بعشرة جنيهات، أنقدوه خمسة منها عربونًا فوافق فرحًا، وخرجوا متهللين، لكنهم لم يلحظوا أن هناك من كان يراقبهم ويتابع تصرفاتهم التي بدت مريبة نوعًا ما في ذلك المكان الذي يتمتع بخصوصية معينة، لفت ترددهم على المنطقة لأيام متتالية وسؤالهم كل من يقابلونه عن عجيبة الأنظار وفتح عليهم العيون، تتبع آخرون خطاهم فاسترقت الآذان السمع لحديثهم وأسئلتهم وهم لا يدرون..!
في الليلة الموعودة ذهب أحد صبية الكودية بمفرده لاصطحاب الرجل النوبي البديل من المقهى إلى حيث يعقد الزار ودار به الدورة المعتادة لكي يضلله باعتباره لا يزال تحت الاختبار كعادتهم، وخلف الخيمة ألبسوا النوبي حزام الحوافر الذي كان عجيبة يستخدمه وأحكموا ربطة الشال على وجهه، واتخذ موقعه قرب الفتحة الخلفية قابعًا في العتمة، شدت أوتار الآلات الموسيقية وخفتت الإضاءة وتهيأ المكان لاستقبال المسئول الكبير، فلما انتصف الليل تمامًا اقتربت خمس سيارات رمادية كبيرة وثلاث أخريات من الجهة المقابلة، نزل منها عشرات الرجال في نفس الوقت مهرولين نحو منزل الكودية، ليطرقوا بابه بعنف وبعضهم يحمل سلاحًا في يده، وما إن فُتحت «الشُّراعة» الزجاجية من الداخل للاستطلاع كالعادة، حتى صرخ صبي الكودية فزعًا مغلقًا إياها، مناديًا بأعلى صوته وهو يجري مهرولًا للداخل: فارس عملها يا معلمة والحكومة كبست علينا!
.. على مسافة تبعد مئات الكيلو مترات من قسم شرطة السيدة زينب حيث تقبع الكودية ورجالها بغرف الحجز، وفي مكان قريب من شاطئ البحر أشبه بمقهى بلدي، جلس عجيبة يتصفح جريدة الأهرام ليطالع صورة كوثر وبعض صبيانها يقفون وظهورهم لصيقة بحائط وأياديهم مقيدة وعلى عيونهم شريط أسود يخفي من ملامحهم قدرًا يسيرًا يسمح بالتعرف عليهم بسهولة، وفوق صورتهم عنوان كبير عن ضبط عصابة الدجالين بمنطقة السيدة وبين ثنايا الخبر تنويه عن استغلالهم موضوع تهجير النوبيين وإيهام المواطنين الضحايا الأبرياء من أبناء النوبة المخلصين الشرفاء بقدرتهم على صرف تعويضات كبيرة..!
أصابته الدهشة لوهلة طالت حتى رأى السطور أمامه خطوطًا سوداء، تنهد وحمد ربه ثلاثًا أنهم طردوه وإلا كان مصيره مثلهم، طوى جريدته على صفحتها الأولى وهم بإلقائها بسلة المهملات القريبة منه، إلا أن صورة ضخمة لرجل بنظارة سوداء كانت تتصدر الصفحة لفتت انتباهه، لم يكن سوى المسئول الكبير الذي أخافه عجيبة في ليلة الزار الأخيرة، تدريجيًّا ارتسمت ابتسامة حزينة على شفتيه وهو يقرأ تصريحًا للرجل أسفل صورته بإيقاف المبالغ التي تصرف للنوبيين مؤقتًا لحين التحقيق في شكاوى تتهم بعضهم ببيع البيت والحيوان الزراعي وتتهم آخرين بصرف تعويضات لا يستحقونها..!
كبرت الابتسامة وصارت ضحكة مكتومة سرعان ما علت متقطعة، لكنها كانت ضحكًا كالبكاء..!
***

على دقات حوافر الخيول ووقعها المنتظم كنت أهز رأسي تباعًا، أتنسم هواء البحر، وأُولي وجهي شطره إلا قليلًا لأنتبه لطريقي، أقود عربة حنطور بيسراي على كورنيش الإسكندرية، مشوار أقطعه ثلاث أو خمس مرات يوميًا على الأقل، إذا ما أكرمني المولى بمصطافين قادرين أو زبائن يعتقدون بأن عربتي آمنة أكثر من الأتوبيس، أو ربما كانوا يفتقدون الماضي القريب..!

عامان مرَّا من عمري منذ تركت القاهرة هربًا من المعلم عاشور وأولاده، حتى استقراري بالإسكندرية بمعاونة من أحد أبناء عمومتي هو الريس منير حجاج رئيس الرابطة النوبية هنا. فررت من القاهرة في قطار الفجر بعدما غادرت المحكمة فزعًا، مضطربًا، خائفًا، غير آمن على نفسي ومالي، يومها لم أجرؤ حتى على مجرد التفكير في العودة لغرفتي، أمضيت نصف النهار وغالبية الليل ببوفيه محطة رمسيس حتى ركبت القطار، كنت أفتقد عوض، مرشدي بهذه الغابة الموحشة، لكن ذكراه عاونتني على تذكر حكاياته عن منير حجاج، ابن النوبة المهاجر إلى الإسكندرية ورئيس الرابطة بها فعزمت وسافرت. لن أنسى أبدًا نظرات أبناء عاشور الجزار الموجهة نحوي وأنا أغادر قاعة المحكمة، كان القاضي قبلها بقليل يستمع لشهادتي بكل حواسه، نظرات عينيه، ميل جسده كل فترة للأمام، تبادله همسات عابرة مع زميليه على المنصة، قلت الحق كله للقضاة إلا قليلًا، أخفيت هويتي وأنكرت التعويض الذي أعطاه أولاد المعلم عاشور لي، سكتّ عنهما خوفًا وطمعًا، وصفت لهم تفاصيل آلامي التي كتمتها أسابيع وشهورًا، حتى ضاق صدري بها، شرحت كيف ضغطوا عليّ لأغيّر أقوالي، أخبرتهم بأنهم عرضوا عليّ خمسمائة جنيه لكنني أخفيت وجودها بين طيات ملابسي، تلوت على مسامعهم الشهادة الزور ليتبينوا الحق من الباطل، لم أعبأ بأي شخص خلفي، انطلقت كالقطار على قضبان الحقيقة، لا يعنيه من تخلّفوا على رصيف المحطة، حتى توقفت بإشارة من يد القاضي مقررًا بأنه اكتفى من أقوالي بما سمعه، كانت عيناي دامعتين، وصدري يرتج بشدة، لكن يبدو أن قلبه لم يرق لحالي، فقد بدت ملامحه جامدة، مال على زميليه وتهامسوا ثم قال:

- وقّع على أقوالك يا فارس وانتظر في نهاية القاعة..

لم ينظر لي، وظل منكبًا على أوراقه، وقّعت بيسراي فلم أفلح، بدت حروفي كحروف طفل يتعلم الكتابة، فبصمت متحسرًا على حالي، جلست أرقب الجميع بعين قلقة، بينما عيون أبناء عاشور تتأرجح بين محاميهم وبيني، تتوعدني بالشر، وتتعلق بأمل ضعيف لاقتناص البراءة أو عقوبة مخففة، ظل المحامي يصول ويجول بعدما أتى بثلاثة شهود زور، اكتفى القاضي بسماع اثنين فقط لكن باهتمام وصبر شديدين ما أقلقني أكثر، حتى حانت لحظة النهاية، وبدا القاضي متأهبًا للنطق بالحكم لكنه فاجأ الجميع قائلًا وهو يهب واقفًا:

- الحكم بعد المداولة..

***

ألقى القاضي بملف الأوراق الصغير الذي بيده على طاولة غرفة المداولة وبدا وجهه مجهدًا بعدما خلع نظّارته وراح يفرك عينيه واستعجل الحاجب في إحضار قهوته، بينما زميلاه كانا قد جلسا عن يساره ويمينه وانكبا على الأوراق لمراجعة بعض النقاط فيها، أشعل القاضي غليونه وظل يتأمل عود الثقاب شاردًا حتى نال من إصبعه فارتعشت يده، تنبه له عضو اليسار فقال بصوت خفيض: تبدو متعبًا، هل نؤجل الحكم في قضية عاشور للشهر القادم لمزيد من القراءة والدراسة؟

نفث القاضي دخانًا كثيفًا وهو يختلس نظرة من أسفل نظارته لعضو اليمين الذي بدا متنمرًا، ثم قال بنبرة مَن دبَّ فيه النشاط فجأة وهو يعتدل في جلسته: العدل البطيء وجه من وجوه الظلم.

هز عضو اليمين رأسه مؤمنًا على صحة المقولة، وبدا متعجلًا لإبداء رأيه وكأن صدره قد ضاق به

وأراد أن يلفظه لكن القاضي أشار له بيده ليتمهل ويصبر اتباعًا لقواعد المداولة، الأحدث فالأقدم حتى لا يتأثر الأول برأي من هم أقدم منه ويقول رأيه بحرية، ثم نظر إلى زميله عضو اليسار قائلًا: قل لنا رأيك أولًا..

أنا مطمئن لأقوال الإسكافي مكرم والشهود الذين رأوا صبيان عاشور يلقون بفارس على باب المستشفى ثم تقرير الطبيب الشرعي الذي أيّد رواية فارس السوداني، هذه قضية بها أدلة كافية ومتساندة لإدانة عاشور وابنيه بأقصى عقوبة، لا مجال للرأفة فيها.

التفت القاضي لعضو اليمين لكن الأخير لم ينتظر الإذن بالحديث وانطلق بحماس وصوت عالٍ وإيماءات بجسده وإشارات بيديه شارحًا رأيه وهو يقول بحدة: أنا غير مطمئن للطرفين، وواضح لي أن هناك أمرًا بين هذا السوداني المريب وبين الجزار الشهير الذي لا يحتاج للتدني لمستواه، هناك حلقة مفقودة، أمر ما اختلفوا عليه لا يظهر في أوراق القضية ربما تكون وراءه امرأة، وأنا أصدقهم في أنه حصل منهم على مال كثير ولم يقصدوا إيذاءه ورأيي أنني طالما تشككت أن نحكم بالبراءة أو بسنة حبس مع إيقاف التنفيذ لو صممتما على الإدانة..

- وأصابع الرجل التي طارت كلها؟!

سأله القاضي الرئيس وهو مندهش من تأرجح رأيه بين الإدانة والبراءة في ذات الرأي، رد عضو اليمين بسرعة: فارس حصل على خمسمائة جنيه بدلًا منها، هذا لو افترضنا أنهم قطعوها له عمدًا.. والله لو كانت له يد ثالثة ما كان ليتحصل على هذا المبلغ طوال حياته ولو عاش مائة عام يصلح أحذية..

هز القاضي الرئيس رأسه عدة مرات كأنه يقلب الكلمات بها ليزنها بعقله، بينما أبدى عضو اليسار تحفظًا شديدًا إنسانيًا قبل أن يكون قانونيًا على وجهة نظر زميله، وقد علا صوته الخفيض قليلًا: اسمح لي أن أعترض على منطقك فلو تم تخييرنا بقطع إصبع واحدة فقط مقابل آلاف الجنيهات لرفضنا.. وكونه فقيرًا لا يبرر أن...

قاطعه عضو اليمين بصوته العالي وهو يدافع بحماس عن رأيه بعيدًا عن منطقه السابق في التعويض مشككًا في كل أدلة القضية مختتمًا:

لا يمكن أن أصدّق رواية المجني عليه وأنه ضحية، وأكذّب كل الشهود الآخرين، الأوراق بحالتها ليست كافية للإدانة، أنا مصمم على البراءة ورفض التعويض المدني.

قبل أن يرد عضو اليسار أشار القاضي بيده لهما ليتوقفا قائلًا بحسم: هل لاحظتما أن هذا السوداني مقهور؟ نظراته ونبرة صوته تشي كل منها بظلم كبير تعرض له، لكن ربما أخفى علينا حصوله على تعويض منهم لتغيير أقواله، وحسنًا فعل..!

بعدها راح القاضي يفند الأدلة كلها ويقول رأيه فيها بهدوء، يبنيها فوق بعضها بترتيب محكم، يستبعد منها ما يجافي المنطق ويستخلص ببراعة ما يرجّح كفة الحق قبل العدل، روى لهما الأحداث وكأنه كان معاصرًا لها وقت وقوعها فرجّح كفة على الأخرى، فلما فرغ من كلامه نظر إليهما فوافقاه على رأيه، دوّن منطوق الحكم في المسودة التي أمامه ودفع به لزميليه لتوقيعه. تداولوا في باقي القضايا حتى فرغوا منها جميعًا بعد ساعتين، ليخرجوا بعدها للقاعة التي كان يلفها الصمت فلا يُسمع فيها نفس، نظر القاضي للقفص الماثل خلف قضبانه عاشور وابنيه وتلا أسماءهم وهم يلتقطون أنفاسهم بالكاد بعدما أجابوا عليه بكلمة واحدة «أفندم» وعيونهم متعلقة به لا تجفل، حتى نطق قائلًا: حكمت المحكمة بالسجن سبع سنوات لكل منهم مع الشغل والنفاذ..

- رُفعت الجلسة.

علا صياح شديد غطّى على كل شيء، فرددها الحاجب خلف القاضي وهم يتأهبون لمغادرة المنصة ولم يستكمل رئيسهم نطق التعويض المحكوم به لعجيبة بسبب الجلبة بالقاعة، انقلب محراب العدالة إلى مولد مصغر للفوضى، اختلط الحابل بالنابل في ثوانٍ، وكأن كل شخص يعرف دوره مسبقًا، المحامون ينتقدون

الحكم علنًا ويذمّون القضاة همسًا، وأهالي المتهمين يهرعون نحو القفص، نساء تولولن وأخريات تلطمن خدودهن، بقية أولاد عاشور وصبيانه يلعنون القضاة والعدالة جهرًا وقد وقفوا فوق المقاعد الخشبية، عامل البوفيه يضيّق الخناق على بعض الحضور ممن لم يسددوا حساب مشروباتهم وهو يطرق بشدة بملعقة على صينية فضية صدئة، رجال شرطة يقتربون من القفص في جحافل من جنود مدبدبين ببياداتهم، يراجعون كشوفًا ويَعدّون المساجين بالرأس كالدواب أولًا ثم ينادون عليهم بعدها، ومن لا يرد يُصفع ويُهان، سكرتير الجلسة الذي يعرفه القانون باسم أمين السر يدس في جيوبه بخفة ساحر ما يعرفه الناس باسم «حلاوة البراءة» لبعض المتهمين بالقفص، فتنطلق زغاريد ذويهم مدوّية، لتغطي على كل صوت وكل حركة، الفرحة دومًا غالب أمرها، لتتوه وسطها بعض الآثام. تلاشى عجيبة في زحام البشر هربًا من آل عاشور، وأنفاسه المتلاحقة تنافس سرعة خطواته المتعجلة في الخروج..!

***

31

ملعون أبوها القاهرة، لا أريد العودة إليها، لكن ما يحز في نفسي ويمزقني إربًا، أنني تركت خطابات مِسكة بالغرفة، وجبنت عن العودة لأخذها معي، لم يكن أمامي إلا النادي النوبي بسيدي بشر للجوء إليه، انتظرت أمامه من الثامنة صباحًا حتى فتح أبوابه في العاشرة، التقيت الريس منير حجاج، كان ودودًا طيبًا كعادة أهلنا، لكن أيضًا له هيبة كبيرة، تضاءلت أمام نظرات عينيه وصوته الرخيم، تلجلجت قليلًا وراوغت ثم أفضت، فأخبرته بكل ما حدث لي منذ وطئت أقدامي القاهرة لأول مرة، حكيت له عن بدر وأملاكه، أطلعته على بطاقتي المزورة وأريته كفي، وبعدما تطهرت أمامه من جرائمي وآثامي، شعرت براحة غريبة، فقد خفت حمولتي، تحرر كتفاي، واستراح عقلي..!

تركت منير يفكر في أمري ويدبر لي غدي، ونمت على مقعدي حتى علا شخيري، لم أشعر بنفسي إلا وهو يوقظني قرب العصر لأتناول طعامي معه، بعدها طلب مني بحسم ألا أخبر أحدًا بموضوع بدر وبطاقتي المزورة، ثم ارتسمت الجدية أكثر على وجهه وهو يعيد على مسامعي تعليماته الأخيرة: أنت نوبي وحتفضل كده ليوم الدين، اسمك فارس حبشي مش مشكل حنقول إن شهرتك السوداني، كونك قبطي ماحدش في إسكندرية عارفك ولا له صالح بيك وكل مِلّة في حالها، اكتم خالص واكفي على الخبر ماجور..

لمعت عيناه بشدة وهو يرمق كفي بدقة ثم استرسل: ولو حد سألك تقول إن صوابعك طارت من المكنة وأنت شغال في مصر..

أطرقت محبطا قليلًا، لكن تحت إلحاح نظراته الحادة نطقت: حاضر يا ريس منير..!

هز رأسه مطمئنًا ورفع كوب الشاي نحو شفتيه فسألته فجأة بعدما مر هاجس بعقلي: هو صح إن أبويا قتل السير ويليام؟

- الله يرحمه ويغفر له.

قالها ولم يزد حرفًا فلم أفهم مقصده، ثم هبَّ واقفًا وطلب مني أن أذهب معه، دبّر لي يومها سكنًا في غرفة متواضعة بالأنفوشي قرب قصر الثقافة، حجرة ضيقة لكنها هذه المرة بدور أرضي، لاحظت أن غالبية سكان المنطقة من المسيحيين، تخدمهم كنيسة قريبة، ترددت عليها مرتين مضطرًا تحت إلحاح جيراني ثم توقفت بسبب تعنيف الريس منير لي حتى لا يشك فيّ أحدهم، في المرتين كنت بطيئا بليدًا أحاول تقليدهم هامسًا بآيات قصيرة من القرآن كي لا ينكشف أمري، لكنهم لم يرتاحوا لي أبدًا، ولا المسلمون القليلون في الحي ارتاحوا لي.

حجرتي لها نافذة وحيدة على الحارة، لكنها تسلّيني حتى مطلع الفجر، فهي تموج بالحركة طوال الليل، ومن شبّاكها الصغير أمكنني مراقبة خيول عربة الحنطور التي عملت عليها بعد فترة وجيزة من وصولي الإسكندرية عن طريق الريس منير. في البداية كنت أركب بجوار العربجي لأتعلم أصول المهنة، راقبت وتعلمت في وقت قصير بعض أسرارها، عرفت كيف أجعل الخيل ترمح ليفرح زبائني خاصة لو كان بصحبتهم أطفال، ثم ألجمها لتتهادى كقارب صغير على ضفاف بحيرة تهدهده الأمواج المنكسرة إذا ما كان الراكبان من العشاق الجدد، أقرع السوط دون أن يؤذي الحصان، ألكز الخيل بقدمي لأحثه على التبختر. أجدت القيادة وعرفت سر المهنة، لكن ظلت مشكلتي الوحيدة وهمّي الأكبر الذي يؤرقني يدي اليسرى، فقد صرت أعتمد عليها وحدها، بعدما كانت مرفهة معتمدة على يمناي، فأجهدتني حتى استجابت لنداء عقلي المتكرر بأنني لم أعد أملك سوى واحدة فقط..!

صرت مشهورًا بطريق الكورنيش بالخواجة فارس السوداني، يعرفني المصورون المتجولون وأطفال الأنفوشي وسيدي بشر، وأصحاب المقاهي المنتشرة على لسان البحر بطول الطريق من الطابية للمندرة، فلم يكن مسموحًا للحنطور بالاقتراب من منطقة قصر المنتزه. في شهوري الأولى كنت أرتدي

دومًا ملابسي النوبية، لكن مع الوقت أوعز لي الريس منير بألا ألفت النظر كثيرًا لهويتي منعًا للمتطفلين من دس أنوفهم فأنا سوداني في نظر الجميع، فبدلت ملابسي إلى سترة حمراء فاقعة فوق الجلباب الأبيض، وجدتها في بالة ملابس مستعملة اشتريتها من جمرك الميناء، ومع قبعة قش كبيرة اكتمل المشهد وأصبحت مصدر جذب لكثيرين لالتقاط صور كثيرة معي، ثم بعد فترة استبدلت بالجلباب بنطالًا أسود باقتراح من الريس منير والذي كان يفرض على المصورين إتاوة جنيهين شهريًّا بسبب مهارتي في تشغيلهم، نالني منها خمسون قرشًا كل شهر بالإضافة لأجري وإكرامياتي، يومها عرفت أن منير هو المعلم الذي يسيطر على أغلب المهن البسيطة بالإسكندرية من أول عربجية الحنطور وبائعي الفريسكا وأصحاب شماسي البلاجات حتى شيّالين الميناء، كلهم تابعون له..

- النوبي سيد ولو مش في أرضه..

قالها منير بفخر وهو يحكي عن تجارته وأعماله، مع الوقت تحسّنت أحوالي، وبت أنتظر شهور الصيف على أحرّ من الجمر، حيث تنهمر الزبائن علينا من المحافظات القريبة كأمطار النوّات، فالريفيون يعشقون الحنطور، يأكلون ويشربون ويغنون طوال الرحلة التي تستغرق نصف ساعة وأحيانًا ساعة بأجر مخصوص، أما في الشتاء فقد كانت الخمسمائة جنيه التي حبستها بسترتي من أولاد عاشور، تعينني على تحمل قسوته، حتى أوشك ثلثها على النفاد خاصة بعد ترددي على حانة متواضعة بالقرب من سكني لأنها الوحيدة التي تقدم مشروب العرقي رخيصًا..!

***

في يوم عيد الثورة بنهاية شهر يوليو، صحوت مبكرًا عن موعدي ببضع ساعات بسبب جلبة أمام الشبّاك، جلست القرفصاء في فراشي، ورأيت من خلف الأسياخ الحديدية جيراني يتعاركون بالألفاظ فقط كعادتهم، ترامت إلى مسامعي كلمات مبعثرة، لم أستطع أن أكوّن منها جملة مفيدة، كدت أعود للنوم لولا أن لمحت المعلم ويليام بائع الجاز يمسك بتلابيب الحاج محمود اللبان، بينما اسم ابنة الأول يتردد بينهما بالتبادل مثل كرة تنس طاولة في مباراة حامية، كل منهما يعيده للآخر مصحوبًا بالشتائم، محملًا إياه مسئولية انعدام تربية أولاده. خرجت بجلباب النوم حافيًا مهرولًا لمّا تطور العراك اللفظي إلى شجار بالأيدي، كان من السهل عليّ أن أشكل بجسدي سدًّا حائلًا بينهما، ومع تجمع باقي الجيران وتلصص المارة وفضول البائعين الجائلين بمنطقتنا هدأت الأمور قليلًا، وظهرت خطوط عريضة لملامح مأساة ابنة المعلم ويليام التي هربت منه فجرًا، وتزوجت ابن الحاج محمود سرًّا..!

لم أجد في الأمر أي غضاضة، وبدأت ألوم ويليام على تطاوله على جاره وسبّه لدين المسلمين ثم عاتبته غاضبًا: جرى إيه يا خواجة ويليام هو الجواز حرام ولا عيبة؟

انفعل ويليام أكثر إثر كلماتي خاصة لفظة «خواجة» التي نعته بها، وبرزت عروق رقبته، وهو يجاهد ليخلّص ملابسه وجسده من يسراي قائلًا: يلعن دينك يا فارس الكلب، أنت معاهم ولا معانا؟!

لوهلة طالت قليلًا لم أدرك ما يعنيه، ولما بدأت أفهم مقصده، كانت الأمور قد تطورت وسبقت الأيادي والأقدام العقل، فلم يستطع أن يكبح جماحها، تملّص مني ويليام بخفة ومهارة وهو يستغيث بستّنا «مريم العدرا»، وسكب بعض الكيروسين على عتبة محل الحاج محمود، والذي هتف بدوره الله أكبر ثلاثًا ليشعل حفيظة أهل الحارة من المسلمين ويشجعهم على شد أزره، تعالت ألسنة النيران لتنافس صراخ النسوة في علوها، وحدث هرج شديد من بعض الصبية المهرولين عشوائيًّا، تدافع الرجال ما بين من يحاول الإطفاء ومن يكيل اللكمات للآخرين المخالفين لملّته وديانته، أما أنا فقد اعتدى عليّ مسلمون ومسيحيون على السواء، صبية ورجال، حتى النساء لم أسلم من زواحفهن الطائرة صوب وجهي وكأنني شيطان رجيم..!

ظللت أبعدهم عني بيسراي دونما اشتباك، حتى سبّني ويليام مرة أخرى وهو يبصق نحوي، فدفعته بقوة في صدره ليتكوم أرضًا، اشتعلت المعركة أكثر، وعلت العصيان في الهواء قبل أن تهوي على

رؤوس الجميع، ليلحقها شادر جزارة ضرب في قوائمه فانهار على الواقفين تحته مع قطيع الخرفان..!

فجأة نالني حجر من صبي صغير متترس بوسادات متراصة فوق بعضها في شرفة عالية، فشج رأسي وسالت دمائي، تلقيت بعدها مباشرة ضربة شومة عاتية قصمت ظهري، فسقطت وقد شعرت بدنو الموت مني، فنطقت بالشهادتين جهرًا..!

في قسم الأنفوشي اختلف الحال، نلنا جميعًا ضربًا مبرحًا لا يفرق بين مسلم ومسيحي، فكلنا مواطنون متساوون في الحقوق كما يقال لنا كل يوم! أما في سراي النيابة فقد استعدنا بعضًا من كرامتنا المفتقدة وتركونا متكومين في الطرقات بلا أذى، لكن قرار الإفراج لم يصدر إلا في اليوم التالي بعدما وقّع الجميع على إقرارات بالتصالح والذي تم بحضور مندوبين عن الأزهر والكنيسة والاتحاد الاشتراكي!! وتعهد الحاج محمود بعودة الابنة الشاردة إلى أهلها بعد تطليقها، وقبل ويليام التنازل مرغمًا على مضض راضيًا بعودة ابنته مطلقة، لكنه وقف ينظر لي بتوجس وريبة، لم يكن فيما يبدو متفهمًا لموقفي المنحاز، ولم يتقبله الحاج محمود بدوره أيضًا وهو ما شعرت به لما قاطع كلامي أكثر من مرة أمام المحقق بعبارة واحدة لم يملّ من تكرارها: وأنت مال أهلك بينا يا خواجة فارس، بتتدخل ليه؟!

كنت سأبقى رهين الحبس لولا الريس منير الذي حضر لنجدتي بصحبة محامٍ شهير بالإسكندرية، وإقناعه لوكيل النيابة بأنني أعاني من نوبات صرع متقطعة أدت لإصابتي ببعضٍ العته وعدم السيطرة على أفعالي وقدّم له شهادات طبية لا أعرف متى وأين استخرجوها، دللوا على مرضي بأنني اعتديت على ابن ملّتي وديني المعلم ويليام، ولولا تدخلهم لما أفرج عني وكيل النيابة أبدًا، ومن يومها وغالبية النادي النوبي تعاملني بجفاء شديد وكأنهم شقّوا عن قلبي ولم أعد قادرًا على الاستمرار في السكنى مع جيراني الأقباط رغم أنني منهم مثلما تقول أوراق الحكومة المصرية.

***

32

منذ وصولي إلى الإسكندرية أسمع عن حدائق قصر المنتزه ولا أراها، بل ولا أجرؤ حتى على التفكير في دخولها، فلم يكن مسموحًا لي أو لغيري من العربجية بالعبور إلى تلك المنطقة، دائمًا وأبدًا يقف «كونستابل» من شرطة المرور صعب المراس لا يسمح بمرور الحنطور، فكنا ندور حول أنفسنا نصف دورة قرب المندرة من فتحة محددة بوسط الطريق قبل كشك المرور الذي يقف فيه عسكري الكونستابل وبجواره دراجته البخارية البيضاء عائدين نجر أذيال الخيبة، بينما أشجار المنتزه تتمايل من بعيد قرب الشاطئ وراء الأسوار العالية الغامضة وكأنها تتمايز فرحًا بطردنا..!

حتى جاء يوم أوعز لي فيه مَن يُدعى عرفة القصير، وهو أحد زبائن الحنطور، أن نذهب في نزهة إلى هناك، مُوقظًا بحماسه روح الاستكشاف بداخلي، فذهبنا سويًّا يوم الاثنين لأنه أقل أيام أسبوع عملًا بالنسبة لي، وعطلة عرفة في ذات الوقت، فقد كان يعمل بمحل «مكوجي» بالشاطبي..

أتى عرفة القصير يومها مبكرًا عن موعده مرتديًا جلبابًا وصندلًا، كان اسمًا على مسمى، فطول قامته لا يتجاوز مترًا ونصف المتر في أحسن تقدير، فبدا منظره مضحكًا وهو يسير بجواري، فجأة التفت لي ساخرًا: أنت لابس هدوم أفندية ليه يا عم فارس؟!

ارتبكت وأنا أنظر لسترتي الحمراء وبنطالي الأسود، وطلبت منه العودة لأرتدي جلبابي، لكنه رفض بحجة أن الوقت ضيق وغرفتي بعيدة، ثم أقلقني قليلًا وهو يتمتم: ربنا يسهلها ونعرف ندخل. ركبنا حنطورًا مجانيًّا حتى المندرة إكرامًا لخاطري باعتباري «ابن كار» كما يقولون، ثم ترجلنا حتى الباب الرئيسي، وقفنا لفترة نراقب بعض السيارات الفارهة وهي تدخل القصر، حتى سمعنا جلبة وشاهدنا زحامًا حول البوابة، كان المطرب عبد الحليم حافظ يقود سيارة حمراء مكشوفة وبجواره وجه سينمائي مألوف، أفتى عرفة بثقة أنه من كان يُقبل سعاد حسني وهي ترتدي المايوه في فيلمها الأخير الذي تم تصويره بالأنفوشي أمام بيته..!

اقتربنا أكثر مع تجمع الكثيرين حول العندليب كما ينادونه، كانوا يحيّونه ويضحكون عاليًا بلا سبب، وطلبت بعض الفتيات منه أن يوقع لهن على كفوفهن بقلم روج صغير، ففعلها وهو يهمس لهن بكلمات قليلة تثير ضحكاتهن عاليًا. اقتربت مع عرفة الذي اتسع فمه حتى اقترب من أذنيه محييًا العندليب ورفيقه فحياه بابتسامة عابرة، أما الآخر فقد بدا متجهمًا، أما أنا فلا أعرف ما الذي رأته عيناي في عبد الحليم حافظ،

ولا ما دار بعقلي أولًا حتى تخرج كلماتي فجأة كطلقات المدفع متتالية زاعقًا عصبيًّا وأنا أشق الزحام مقتربًا من سيارته المكشوفة، نفس الشعور الخفي الذي يتملكني فجأة ولا أعرف الفكاك منه فقلت بغضب: مش ناوي تغني للغلابة اللي كانوا ورا السد يا حليم، ولا السد عمى عينيك عنهم؟

نظر لي المطرب الشهير شزرًا ونهرني بعنف واصفًا إياي بأنني همجي و«جلياط»!! ثم فجأة تحركت السيارة مسرعةً بعدما أطلق نفيرها المتقطع عاليًا مغطيًا على عتابي له، لتخترق زحام البشر الذين أوسعوا لها طريقًا وكأنهم متضامنون معه ضدي. انتهت الهوجة وانفض المولد عقب انصرافه، فاقتربنا من حارس البوابة الذي كان قد انتفض من مجلسه، وهو يقطع الطريق بجسده أمامنا إثر غضبة العندليب، بدا متنمرًا وهو يفحصنا بنظرة مخبر شرطة متمرس ثم قال بصلف: شغّال في كابينة مين يا سمارة؟

لم أفهم لماذا اختصني وحدي بالسؤال دون رفيقي، حتى نظرت عن يساري لأجد عرفة القصير قد تبخر فجأة، كان قد تأخر خطوات كثيرة للوراء، ثم تقدم بسرعة وثقة من على يساري، فتجاوزني كالصاروخ وكأنه لا يعرفني، قائلًا بحسم للحارس دون أن يلتفت له: عند عبد اللطيف باشا بغدادي كابينة

كليوباترا..!
بسلاسة غريبة تركه الرجل يمر، بينما راح يشكّل مع زميليه ساترًا بشريا أمامي، ثم شرعوا في طردي باحتقار ولا مبالاة وكأنني حشرة تحوم حول وجوههم وتضايقهم بطنينها، تراجعت قليلًا بينما ظل عرفة من بعيد يحرّك شفتيه قائلًا: عايدة.. عايدة، ظل يكررها وهو يشير بيمناه ناحية البحر بجوار السور، فهززت رأسي له بالإيجاب مع أنني لم أفهم شيئًا مما يقوله..!
كنت أعرف أن هناك بوابة أخرى غربية ناحية القطار المتجه إلى أبي قير، كان يستخدمها خدم وحشم الملك فاروق قبل الثورة حسبما حكى لي منير وهو يريني الإسكندرية من خلال سيارته، فتوجهت إليها متقدمًا بحذر مرددًا ما قاله عرفة عن كابينة عضو مجلس قيادة الثورة وقائد الجناح البكباشي عبد اللطيف البغدادي، لكن الحارس استوقفني قائلًا: لكن أنا أول مرة أشوفك، من إمتى شغال عند الباشا؟!
ضحكت ومازحته قائلًا: باشا إيه يا عم ما خلاص كلنا ولاد تسعة، أنا شغال من النهارده، والحلاوة حتاخدها وأنا خارج..!
طردت شر طردة أيضًا، لكن هذه المرة مصحوبًا بالسباب والتهديد بإبلاغ البوليس، بعدما قالوا إنهم يعلمون بأنني لص معروف! يا الله.. تعجبت جدًّا من فظاظة حرّاس قصر المنتزه معي، رغم سماحهم لعرفة بالدخول، مع أنه يبدو أقل مني! فزادني نجاحه إصرارًا على اقتحام تلك البقعة الغامضة القابعة خلف الأسوار، عدت مترجلًا نحو البحر والغضب يظللني بسحبه طوال الطريق، وجلست بمحاذاة السور ناحية الشاطئ، لأجد على يميني قطعة من الجنة عرفت أنها شاطئ عايدة..!
أشجار وافرة عالية، تهفهف بنسائم رطبة على مصطافين يمرحون ويضحكون، كلهم بلا استثناء تقريبًا بملابس الاستحمام، بعضهم يلعب بكُرة صغيرة صفراء مستخدمين مضارب خشبية تدوي كطلقات الرصاص، وآخرون يلهون بكرات ملونة ضخمة، موسيقى صاخبة تنبعث من أركان منزوية خلف الأشجار، صبية وفتيات يتمايلون رقصًا على أنغامها، حجرات صغيرة متلاصقة متراصة بجوار بعضها البعض من الحجر وكلها متماثلة، أمامها شماسي وكراسي من اللونين الأحمر والأخضر في الأغلب، من بعيد لمحت عرفة يسير وحيدًا تائهًا على الشاطئ، كان مميزًا جدًّا بجلبابه البلدي الداكن فبدا لي كأنه خنفساء تدور حول نفسها فوق الرمال، كان ممسكًا بفوارغ زجاجات بيرة متظاهرًا بجمعها، ظللت ألوح له بيسراي فلم يلمحني، فيما يبدو كان مبهورًا ومشغولًا بالأجساد اللامعة الراقدة على وجوهها لتكسو الشمس أجسامها بطبقة برونزية رقيقة..
جُن جنوني وقررت التوجه إلى هناك سابحًا، بدأت أتلفت حولي لأتجرد من ملابسي عدا سروالي بعيدًا عن الأعين، فلم أجد مكانًا مستورًا سوى ألواح خشبية بيضاء طويلة متراصة قرب سور الكورنيش خلفي، كومت ملابسي وراءها، لتنشق الرمال فجأة عن رجل أسمر مبتسم في لزوجة، ويرتدي لباس بحر ضيق قصير ويضع قبعة بيضاء واسعة قائلًا: الساعة بخمسة قروش يا بلدينا..!
علت الدهشة وجهي، فعاد الرجل يشير إلى الألواح التي أمامه قائلًا: هو أنت مش حتأجر «البنسوار» ولا إيه؟ هززت رأسي بالإيجاب وأنا
لا أفهم شيئًا، لكنني أعطيته القروش الخمسة من ملابسي كي أطرد الشك الذي بدأ ينمو في قلبه وظهرت بشائره بعينيه، خلعت ملابسي وحملته أمانة الحفاظ عليها، غاصت قدماي في الرمال مطمئنًا حاملًا اللوح الخشبي والمجداف نحو البحر، انتظرت لدقائق حتى رأيت أحدهم يستخدمه فقلدته بصعوبة بسبب عاهتي، وما هي إلا دقائق أخرى قليلة حتى كنت أعبر من ناحية السور الحجري وصخوره، متجاوزًا الفاصل البحري الوهمي بين المندرة والمنتزه لأجد نفسي في مواجهة شاطئ عايدة..!
كقرصان عتيد يقترب مع رجاله من جزيرة يلهو أهلها مطمئنين، غير عابئين بمن يأتيهم غفلة من البحر، رحت أجدف بقوة وأنا أصيح مناديًا عرفة المتسمر أمام فتاة راقدة على الرمال وهو يأكلها بعينيه، التفتُّ عن يميني منتبهًا لصيحات بعيدة، كان البحار اللزج على الشاطئ الآخر يلوح لي بيده

وينادي مطالبًا إياي بالعودة، فيما يبدو لا يزال يصيح بنفس تحذيره لما رآني أتجه يمينًا: ابعد عن شاطئ عايدة يا أفندي، مش عاوزين مشاكل مع الباشوات!

اقتربت من السابحين وأنا أبتسم لهم في مودة، لكنهم لم يبادلوني إياها على الإطلاق بل أظهروا امتعاضًا غريبًا وقرفًا كبيرًا، كأنهم يرون أمامهم كائنًا بحريًّا ضخمًا شديد الزفارة..!

تصاعدت نبراتهم حادة بتنبيهي بالانصراف بعيدًا عن جنتهم، لكن لم تمض ثوان على تحذيراتهم حتى انطلقت أربعة ألواح خشبية نحوي، يعلو كل لوح بحار غاضب، ظلوا يجدفون بقوة وهم يشكلون هلالا يضيق حولي بالتدريج، حفظت توازني بالكاد وأنا ألوح بالمجداف في وجوههم مهددًا، كأنني أدعوهم لمبارزة شريفة لو انتصرت فيها يحق لي أن أغزو بعدها أرض هذا الشاطئ الساحر، لكنهم ناوروا وهم يسبونني بأقذع الألفاظ، ثم سمعت صوت ارتطام جسد أحدهم بالماء ليغيب تحته برهة ثم يخرج من خلفي قبل أن يدرك عقلي لي مهربًا، ليهز اللوح الخشبي الذي أقف عليه بقوة، فسقطت بجواره في الماء..!

من بعيد كان آخر ما لمحت على الشاطئ تجمع كبير لأناس شبه عرايا، يتأملون المشهد في سعادة، فخورين بجسارة البحارة الذين هبوا لحمايتهم من غزوتي البحرية وبعضهم يصفق انفعالا بالنصر وبعض السابحين يسخرون من لباسي الأبيض الطويل الذي كنت أرتديه، بينما عرفة القصير ترك زجاجات البيرة الفارغة التي كان يتستر بها ووضع ذيل جلبابه بين أسنانه مهرولًا ناحية الكبائن هاربًا من مصير محتوم على وشك ملاقاته بعد الخلاص مني..

انهال البحارة بالصفعات على وجهي ورقبتي وقفاي وأغرقوني بالسباب حتى أبعدوني عن حرم مياه شاطئ عايدة، فراحت الأمواج تقذفني قرب السور كجثة طافية فارقتها الروح منذ فترة، ولم يعد باقيًا إلا أن تنهشها كلاب السكك إذا ما جرفها التيار نحو الشاطئ..!

استندت بصعوبة على الصخور المحيطة بالسور الحجري الضخم الذي يفصل المنتزه عن المندرة، وقد مزقت حوافها المدببة ساقي إربًا حتى سالت دمائي، ثم لسعتني المياه المالحة لدرجة آلمتني، على مرمى بصري بالكاد لمحت البحّار اللزج صاحب اللوح الخشبي قابعًا على الشاطئ من بعيد في انتظاري لكنه لم يكن يراني من مكانه، ألقيت بجسدي في الماء سابحًا لمسافة أكثر من نصف ساعة، حتى ابتعدت تمامًا عن أهل قصر المنتزه وروّاد الشاطئ العام والبحّار المتنمر اللزج، لم أجد مشقة كبيرة في السباحة، فمياه البحر أخف كثيرًا من مياه النهر التي طالما سبحت فيها لساعات طوال عندما كنت صغيرًا، ابتعدت عنهم جميعًا وخرجت وحيدًا منهكًا أتلمس حرارة الشمس حتى يجف سروالي ورحت أستجدي عقلي كي يجيب عن تساؤلي الوحيد الآن: كيف أعود بعدما تم تجريدي من كل شيء؟!

***

33

من أول يونيو إلى منتصف سبتمبر كل عام، لا أكاد أبارح عربة الحنطور إلا مطلع الفجر لأعاود العمل في عصر اليوم التالي، شعرت بأن القدر فيما يبدو قد سبقني إلى الإسكندرية، ليرسم مستقبلي على حافر حصاني، كأنما أراد أن يصالحني الآن، ولم يعد متبقيًا سوى أن أجد مِسكة وعجيبة الصغير اللذين لم يفارقا مخيلتي أبدًا وتكون الدنيا قد تبسمت لي مرة أخرى بعدما رضي القدر عني..

كنت حريصًا على متابعة أخبار المُهجرين من بعض مرتادي النادي النوبي الجدد، وكان أحدهم لحسن حظي يعمل بوزارة الشئون الاجتماعية، فراح ينقل لنا المعلومات أولًا بأول، ويختصني بتفاصيل أكثر نظير كوب شاي بحليب في كل مرة، ظللت متفائلًا، حتى انكسرت فجأة حدوة أحد الخيول التي تجر عربتي، فتشاءمت وتساءلت بيني وبين نفسي هل قرر القدر فجأة أن يمحو ما رتّبه لي من استقرار ورضى؟ لماذا تعبث الأقدار دومًا معي وتتدخل في اللحظات الأخيرة لتغيير مسار دنياي، وكلما شعرت أنها دانت واقتربت أكتشف أنها كانت سرابًا..!

جلست في مدخل مقهى النادي النوبي متكاسلًا محمّلا بالتشاؤم بعد كسر حدوة حصاني، أنتظر انتهاءه من وجبة تبن معتبرة لأعيده للعربخانة وأستبدل به آخر. قتلًا للوقت رحت أتسلى بمراقبته وهو يجتر في صمت، وأنفث دخان الشيشة ببرود. مرت الأيام الأولى من شهر يونيو بلا عمل يذكر، وظلت الإسكندرية مغلقة على أهلها حتى باتت مدينة مهجورة من المصيّفين، وكأن الصيف قد ترحل أو اختزل في أيام قليلة من شهر مايو المنصرم، ثم حل فجأة الخريف بكآبته وغيومه وقلة زبائنه، تثاءبت مللًا، فاليوم لا يريد أن ينقضي، البلدة كسولة كثيرة التثاؤب بينما يبدو البحر مضطربًا وغاضبًا. قبيل المغرب بقليل دخل علينا منير المقهى مهرولًا كرسول بُعث فجأة ليُحيي الأمل في اليائسين، كان متهلل الوجه وهو يهتف بحماس: الله أكبر، الحرب قامت.. وانتصرنا..

تكدسنا مثل النمل فوق قالب سكر حول راديو ضخم، مُنصتين لصوت مذيع صوت العرب أحمد سعيد وهو يشجينا بإسقاط نسورنا بسيناء لأكثر من مائة طائرة إسرائيلية، صفقت مع المصفقين بحماس، هللت ورقصت، يومها أصدر منير فرمانًا بنقل زبائن الحنطور مجانًا طوال أيام الحرب، مع تقديم المشروبات المجانية لرواد المقهى، ومن الاثنين حتى ظهر يوم الجمعة كنا نتابع البيانات العسكرية للنصر يوميًّا بشغف وحماس، وربما لأول مرة يوافق الريس منير على وضع صورة كبيرة لعبد الناصر بمدخل مقهى النادي النوبي، رقصنا ابتهاجًا بسحق إسرائيل، وشربنا العرقي علنًا حتى الثمالة، كنت أتأمل البحر موقنًا أن جثث الإسرائيليين سوف تمتلئ به مثلما وعدنا عبد الناصر، لكن منير نبهني يومها أن الرئيس يقصد البحر الأحمر، فضحكت وأنا أرد عليه بثقة وتقعر: سيفيض بهم، ويلقون ببقيتهم هنا..!

ظللنا منتشين لا نفيق من سكرتنا ولا نريد، نترنح من فرط السعادة كل ليلة، بينما كلمات المذيع أحمد سعيد ترن في آذاننا حتى في نومنا فنصحو متحمسين أكثر..

تحول كل رواد المقهى إلى سياسيين مخضرمين، كل منهم يدلي بدلوه، في حين اكتفيت أنا بدور المستمع، لكنني كنت فرحًا بانتصارنا، وشعرت بالعزة والفخر لأول مرة منذ سنوات بعيدة، نسيت السد والخزان والتهجير، غفرت وسامحت، حتى قال أحدهم بثقة العالم ببواطن الأمور: «الريس بيحارب علشان يرجِع الفلسطينيين أرضهم»، وقتها انفتح الجرح الملتئم بالكاد، فتقلبت مواجعي وهممت بالرد عليه ساخطًا: ولماذا

لا يُعيدنا لأرضنا وبدون حرب ولا خسائر ولا يحزنون؟

لكن نظرة من الريس منير ألجمتني فخرست، كوني سودانيًّا افتراضيًّا فرض عليّ قيودًا كثيرة، كنت مثل مارد في قمقم يتوق للخروج الأبدي ولا يستطيع دومًا..!

على مدار الأيام الستة منذ اندلاع الحرب كنت أرى منير العبوس مبتسمًا دائمًا، أشرقت وجنتاه وارتاحت قسماته، وذابت تقطيبة جبينه الدائمة وبدا لي أصغر من عمره بعشر سنوات.. حتى جاء يوم الجمعة التاسع من يونيو..!

كنت بمفردي كالعادة تقريبًا بالمقهى وقت الصلاة، فلم أكن قادرًا على الذهاب معهم، صليت جالسًا متواريًا مخالفًا لاتجاه القبلة وعيني على المدخل، بعدها تسلمت من الخطاط الأفرخ الورقية التي طلبها منير، رحت أقتل الوقت بلصقها في أماكن بارزة بالمقهى، بحيث تصادفها كل عين ولو من بعيد..

«سنلقي إسرائيل في البحر»، «سنتناول طعام الغداء في تل أبيب»، «إلى الأمام يا زعيم العرب»

حتى عادوا كلهم بعدها واجمين..!

***

- مسيو بدرو.. الجرائد التي طلبتها وصلت..

كانت السكرتيرة تطرق الباب وترسم ابتسامة رقيقة على شفتيها منتظرة الإذن منه، أزاح بدر المغازي نظارته الطبية المستديرة على أنفه قليلًا، وأومأ برأسه سامحًا لها بدخول مكتبه، قدمت له بعض الصحف العربية والمصرية ثم انصرفت في هدوء، تصفحها بدر باهتمام وعلى شفتيه ابتسامة تشفٍّ، ظلت تكبر كبالون في فم طفل حتى انفجر ضاحكًا وهو يردد بصوت عالٍ: إلى الأمام.. إلى الأمام.. يا ناصر!

قلّب باقي الجرائد بلا مبالاة مكتفيًا بالعناوين الرئيسية، ثم أجرى محادثة هاتفية دولية مع هانز بولوديسكي ناصحًا إياه بتكثيف العمل خلال الشهور القادمة مختتمًا بعبارة: أكيد الفلوس حتخرج من مصر قريبًا كالمعتاد، ولازم نبقى جاهزين قبل غيرنا زي ما عملنا قبل كده..!

- تمام بدرو لا تقلق سنكون على اتصال ومتابعة..!

أغلق السماعة وتقدم بهدوء من نافذة مكتبه ذات الواجهة الزجاجية العريضة، متأملًا البحيرة الكبيرة المبسوطة أمام ناظريه، قوارب شراعية متناثرة في أرجائها، ويخوت صغيرة تتأرجح على صفحتها في المنتصف، لوحة جميلة تنتظر توقيع من أبدعها. فرك عينيه المجهدتين وهو يتأمل صورته المنعكسة على الزجاج، شاب فوداه وزحف الصلع على مقدمة رأسه، وازداد نحافة وسمرة بعد إصابته بفيروس نادر مؤخرًا بكليته جعلها ضامرة، ولم تُجدِ أمواله الطائلة في عِلاجها، تضاعفت ثروته عشر مرات في سنوات قليلة منذ غادر مصر والتقى بولوديسكي الذي كان فظًّا غليظًا في البداية ثم أصبح ليّنًا طيّعًا بين يدي بدر لما صار مهندس عمليات تهريب أموال اليهود فاعتلى وحده خشبة المسرح ليجلس بولوديسكي في صفوف المتفرجين لا يفعل شيئًا سوى التصفيق في كل مرة، فقد نجح بدر في تحويل أموال كثيرة بطرق مختلفة لصالح المنظمة من بنوك فرنسا وإيطاليا إلى خزائن سويسرا بحسابات سرية آمنة، وفي كل مرة يبتكر طريقة جديدة آمنة غامضة حتى تتلمذ على يد بدر كثيرون. استقر بمكتبه على ضفاف بحيرة ليمان بمقاطعة جنيف، ليطل عليها صباح كل يوم من الطابق الرابع والأخير، واختار سكنه على الضفة الأخرى منها مع الأثرياء والدبلوماسيين بضاحية كولوني، وكأنه يحاصر البحيرة من الجانبين...

تحسس شاربه الرفيع الذي أطلقه منذ فترة، وهو يتذكر بداياته في هذا البلد الساحر الذي فرّ إليه هربًا بأمواله المستردة، وكيف تردد بولوديسكي كثيرًا في مساعدته وبدا ممتعضًا من وجوده وكأنه مفروض عليه، حتى استخدمت باتريشيا علاقاتها لإلحاقه بوظيفة محاسب بالبنك العربي كواجهة، لكن من ورائها لم تنقطع الخيوط بينه وبين بولوديسكي بل تشعبت أكثر، فمن تهريب أموال إلى متابعة العرب المقيمين بسويسرا وتحديدًا جنيف إلى تجارة في النقد المزيف وختامًا توريد أسلحة لدول أمريكا الجنوبية وغرب إفريقيا، بعد عام واحد فقط من وصوله إلى سويسرا شارك بدر رجلًا لبنانيًّا كان يعيش في جنيف قبله بسنوات، تعرف عليه عندما عملا سويًّا بفرع البنك العربي، ومن يومها قرر أنه لن يعود لمصر وأبلغ

أقاربه بهجرته وبيع ممتلكاته الهزيلة المتبقية لصالحهم، تعرّف على عملاء كثيرين من دول عربية وإفريقية يرغبون في إخفاء ثرواتهم عن الأنظار، غالبيتهم من كبار المسئولين في حكومات بلادهم، وبعد مرور عامين على هجرته سأل نفسه كثيرًا لماذا لا يحل محل البنك في العمليات الصغيرة؟

جاءت الإجابة على لسان شريكه أنطون اللبناني المقيم بسويسرا وهو يضحك بثقة: لا يوجد ما يمنع يا صديقي، وأنا معك وبولوديسكي وإمكانات منظمته في ظهرنا..

افتتحا بعدها بشهور مكتبًا صغيرًا للصرافة والتحويلات المالية، تولى بدر إدارته من بعيد، وترك لشريكه اللبناني مسئوليات التوقيع على التحويلات، بينما يلتقي هو العملاء ويتمم الاتفاق معهم بفائدة أقل، ثم راح يهرّب أموال اليهود من أورُبا الشرقية ويفتتح حسابات سرية لعملائه بأسماء مستعارة، يتلقى الملايين من غرب وجنوب إفريقيا لتستقر في بنوك صغيرة بجزر متناثرة على أطراف العالم لم يسمع بها أحد ولا تكاد تظهر على الخرائط، بعد خمسة أعوام تضخمت الثروة عدة مرات، فاستقال من البنك وابتعد قليلًا عن بولوديسكي ومنظمته بعدما شعر بعدم حاجته له، حتى كبرت الفجوة بينهما وصار بولوديسكي هو الذي يجري وراءه وبدر يكتفي بالتوجيه والإرشاد، احتفظ فقط بعلاقته الخاصة جدًّا بباتريشيا والتي يجهل حقيقتها الجميع تقريبًا، وتفرّغ لعمله الخاص الذي لا يعرف عنه أحد شيئًا أيضًا، لكنه ترك أنطون اللبناني بالشركة الصغيرة لجذب عملاء آخرين.

تنهد بعمق وهو يتحسس جانبه الأيمن متذكرًا مرضه، جزَّ على أسنانه ضيقًا به، ما زال لديه أمل في طبيب إنجليزي شهير ضرب له موعدًا بعد شهر في لندن. عاد إلى مكتبه متكاسلا، ليؤكد على سكرتيرته متابعة موعد الطبيب وحجز تذاكر السفر والفندق، ثم تراجع بظهره في مقعده الوثير وهو يتأمل البحيرة مرة أخرى من بعيد، فوقعت عيناه على قاربه يتأرجح بهدوء على صفحة الماء، شعر بإثارة خفيفة وهو يتذكرها ليلة أول أمس عندما كانت تطارحه الغرام على سطح القارب، داعبت خيالاته حواسه وألحت على غريزته فأدار قرص الهاتف، ما إن سمع صوتها على الناحية الأخرى حتى قال بلهجة باردة مغموسة بالأمر كعادته في البداية: سنتعشى سويًّا الليلة، سأنتظرك في الثامنة على ظهر القارب..

لم ينتظر ردها كعادته معها، إنما أغلق السماعة بهدوء، أخرج علبة صغيرة من درجه تحوي نفحة من نفحات أنطون، مخلوطًا عشبيًّا مع جوزة الطيب، يعيده عشرين عامًا للوراء، أذابها في قهوته وتجرعها دفعة واحدة، أغمض عينيه وهو يمتص شفتيه بشدة، لكن ارتبكت كل خططه فجأة لما طرقت سكرتيرته الباب مرة أخرى وهي تقول باضطراب: مسيو أنطون بالخارج ويصر على لقائك..!

اصفرَّ وجهه وتقلبت ملامحه، هبَّ منتفضًا بعصبية وفي ثوانٍ كان على باب الغرفة فارتطم بأنطون الذي كان قد اتخذ قرارًا باقتحامها عنوة دون انتظار رد السكرتيرة، أمسك بدر بتلابيبه وجذبه بعنف من سترته، ثم دفعه أمامه بغلظة إلى حجرة جانبية صفق بابها خلفه بشدة، وانهال عليه بالسباب والتوبيخ بسبب قدومه لمقر الشركة في وضح النهار دون إذن..!

- قلت لك ألف مرة لا تأتي هنا، ستتشبهنا وينكشف أمرنا.

- الأمر لا يحتمل التأجيل يا بدرو، ولا أستطيع استخدام هاتف البنك.

لمعت عينا بدر وهدأ بركانه قليلًا، لكنه كان لا يزال يمور بداخله استعدادًا لقذف حمم جديدة، تأمل وجه أنطون الشاحب وعينيه الزائغتين، ظلا ساكنين لوهلة كأنما ثبتت الصورة لفترة على هذا الوضع، حتى جلس ببطء دون أن يرفع عينيه من على شفتي أنطون الواقف أمامه وهو يرتعش قائلًا: ضباط البوليس حضروا اليوم لمقر البنك، أخذوا ملفات كثيرة للعملاء، من بينهم عملاؤنا، طلبوا مني واثنين موظفين آخرين أن نتواجد عندهم غدًا في الثامنة صباحًا للتحقيق..

ابتلع أنطون ريقه بالكاد وهو يردف متلعثمًا: وعرفت من صديق لي بالشرطة التقيته قبل أن أحضر إليك أن شرطة أسكوتلانديارد بعثت من أسبوعين مذكرة جنائية تكشف تحويلاتنا كلها، وهناك قرار بتوقيفي إذا ما ذهبت إلى لندن الشهر القادم معك..

ثم اختنق صوته وهو يقول: أنا خائف يا بدرو، خائف جدًّا، فالأوراق كلها باسمي، أحتاج لمساعدتك أكثر من أي وقت مضى، اتصل ببولوديسكي أو افعل أي شيء..!

سادت فترة صمت طويلة، اصطحبه بدر بعدها لمكتبه وذهنه يعمل بسرعة فائقة، صبَّ كأسًا من الويسكي وهو يقترب من أنطون، ووضع إحدى يديه على كتفه وبالأخرى قدم الكأس له، كانت عيناه تلمعان بشدة كأنهما دامعتان قائلًا بثقة: اهدأ، لديَّ حل سيريحك ولن يعثر البوليس على دليل واحد ضدنا، لا تقلق واذهب لمنزلك الآن.

***

على صخرة كبيرة مائلة قليلًا نحو البحر بالمنشية.. جلست، يقبع مبنى البورصة خلفي في سكون كشواهد القبور بطوابقه الثلاثة وشرفاته العريضة التي أعلن منها ناصر تأميم قناة السويس كشركة مساهمة مصرية، صفقنا وهللنا، بعدها بسنوات أغلق القناة ومنع الملاحة وتوعد إسرائيل بإلقائها في البحر، صفقنا وهللنا أيضًا، أكثر من عشر سنوات مضت وهو يسمح للسفن الإسرائيلية بالعبور ونحن لا ندري حتى أغلق مضيق باب المندب، وقتها عرفنا الخبر اليقين من إسرائيل، دكت طائراتنا لما تعطلت مراكبها، غرقنا حتى آذاننا في أوهام الحرب والنصر وصفقنا وهللنا لمرة ثالثة، اجتاحنا فيضان الأكاذيب، اقتلعنا من جذورنا، جُرفنا إلى متاهة، وتشابهت علينا الدروب، كلها تعيدنا للهزيمة والانسحاق، لكنهم أسموها نكسة، فصدقناهم مضطرين، لتهبط فورة غضبنا حتى
لا نموت غيظًا..!

- يا ألله!

بعد خطاب الرئيس خرجت جموع كثيرة مهللة مصفقة تطالبه بألا يتنحى.. رحت ألقي حصوات صغيرة كثيرة في البحر ليبتلعها في ثوانٍ، سمعتهم من بعيد وهم يهتفون باسمه، اقتربوا مني، لوّح لي أحدهم بأن أشاركهم فتجاهلته، اقترب آخر ببدلة صيفية بنية فاتحة بأكمام قصيرة سائلًا إياي عن بطاقتي، ارتبكت، فنبرة صوته ونظراته تشي بأنه مخبر في البوليس، أطلعته عليها وأنا أرتعش، لكنه أعادها لي وهو يبتسم بمودة قائلًا: شارك إخواتك المصريين يا أخ فارس..!

ابتسمت له ابتسامة لزجة ونهضت متكاسلًا، خضت مع الخائضين بلا حماس حتى جرفني الطوفان البشري وسرعان ما دفعتني للأمام الجموع الهادرة الهاتفة الرافعة صور جمال عبد الناصر، لكن رغم ضيقي الشديد بمن حولي فقد رأيت صدقًا يكسو وجوه غالبيتهم، نساء تلطم خدودها وتنتحب من شدة البكاء، رجال بعيون دامعة ووجوه غاضبة، حناجر تشق بالهتاف عنان السماء. أفسحت الجماهير الطريق لي، حتى تصدرت المقدمة ربما بسبب ضخامتي، وربما قادتني قدماي للصفوف الأولى بإيعاز من عقلي، لست أدري، كنت أريد الصراخ: أنت المسئول الأول فكيف تتنحى؟! والله لو كنت تقود عربة حنطور مثلي، وأسقطتها في البحر، لما تركك الريس منير تبيت الليلة ببيتك حتى تنتشلها بخيولها سليمة حية مرة أخرى!

وجدت صحفيًّا ومصورًا يقتربان مني، بادرني أولهما بالسؤال عن شعوري في تلك اللحظة التاريخية الفارقة، أجبته بأسى: تائه!

امتعض الرجل ومط شفتيه، بينما كان زميله يمطرني تصويرًا من عدة زوايا، عاد يسألني بشك وريبة: أنت نوبي؟

- لا والله، أنا سوداني.

- وماله؟ إخواتنا برضه..

رغم مجاملته خرجت إجابتي بنبرة محبطة مهزومة يائسة، تركني الرجل وانصرف بحثًا عن غيري بعدما دوّن ملاحظات سريعة في نوتة صغيرة معه. في اليوم التالي أخبرني أحدهم أن صورتي بجريدة أخبار اليوم، بحثت في صفحاتها الداخلية، ودهشت لما وجدتها، كانت عروقي نافرة كأنني أهتف، وكان فمي مفتوحًا على مصراعيه، وفوقها عنوان بالبنط العريض: «شعب السودان الشقيق يشارك في مسيرات رفض التنحي لزعيم العرب» وتحتها سرد طويل لمن التقاهم الصحفي الهمام على كورنيش عروس البحر المتوسط، ازدادت دهشتي اتساعًا لما قرأت كلامًا لم أقله، أصف فيه جمال عبد الناصر بالأب والقائد، وقالوا على لساني إنه مثل جبل يحمل في أحشائه بركانًا وهو صامت، وبباطنه زلزال وهو هادئ، وفي جوفه ذهب وفضة لكنه متواضع يفرش سهله للفقراء والبسطاء..! يا ألله ولماذا انهزم

وهزمنا إذن؟!
خرج مني السؤال حائرًا لا يجد إجابة تريحه، طويت الجريدة وألقيتها بأقرب سلة مهملات، وسلمت أذنَيّ للست أم كلثوم وهي تشدو أعطني حريتي.. أطلق يديّ..
طالت جلستي بمقهى النادي النوبي وكأن إسرائيل قد قتلت كل ركاب الحنطور، لم يعد عملنا يستغرق أكثر من نصف ساعة يوميًّا وأحيانًا يمر اليوم بلا زبون واحد، قتلني الملل بسكّين تِلم، فألححت كثيرًا على منير لإيجاد عمل آخر لي بعد عزوف أهل الإسكندرية، ومن ورائهم المصطافين، عن ركوب الحنطور لفترة طالت.. حتى استجاب.
- الناس نفسها مسدودة عن كل حاجة، كلنا انكسرنا ومش عارفين نفرح..
قالها الرجل الغريب ذو الطربوش الطويل بصوتٍ عالٍ ثم نفث دخان شيشته بعدها طويلًا إلى أعلى. من بعيد رحت أتأمله وأتفحص ملامحه بدقة، كان جرجس أفندي يجلس في ركن المقهى مع الريس منير، ليس له ميعاد منتظم، يتردد على المقهى على فترات متباعدة، لكن إذا ما رأيته مرة لا يمكن لذاكرتك أن تغفله في الثانية، فهو يحفر بها علامة بملامحه المميزة، جسده النحيل الرشيق وبشرته السمراء المشطوفة، أنفه المدبب الطويل، عيونه المكحلة، شاربه المصبوغ المجدول وسوالفه الرمادية الرفيعة، الجلباب البلدي المفرود وفوقه سترة كحلية طويلة نسبيًّا بأزرار ذهبية مطفأة، الطربوش الأحمر الفاقع الذي لا يفارق رأسه كأنه يعلن تمرده على إلغائه، يزين بنصره خاتم بفص أسود ضخم، نادرًا ما يبتسم، لكن إن فعلها سترى حتمًا سنته الذهبية..!
وضع جرجس المبسم في سيجارته وشرع في تدخينها مائلًا قليلًا بجسده تاركًا أذنيه تمامًا للريس منير الذي همس بها كثيرًا، لكن عينَيّ جرجس كانتا تفحصانني من رأسي إلى أخمص قدمَيّ، لم أعرف له وظيفة أو مهنة، لكنه في كل مرة يحضر للمقهى يخرج مصطحبًا شابًا نوبيًّا ثم يختفون بعدها، كنت وقتها قد تجرأت مرة وسألت منير عنه، لكنه رد باقتضاب: لسه أوانك مجاش..!
نفث المعلم جرجس دخانه بكثافة، وسعل بقوة وهو يناديني بعجرفة: تعال هنا يا واد يا فارس..
جلست أمامهما تاركًا مسافة بعدما سمح لي منير بالجلوس، بادرني جرجس قائلًا: أمك نوبية منين يا واد؟
ارتبكت لسؤاله المباغت ثم أجبته بهدوء: أصولها من أدندان لكن أبويا سوداني من حلفا اسمه حبيب حبشي وكان...
قاطعني بسرعة وعصبية: هو أنا كنت سألتك عن أبوك؟ ولو فاكر لأنك قبطي حشغلك تبقى أهبل، أنا يلزمني الأمانة والنضافة والشطارة، أما المحبة والمحسوبية والدين كلها تيجي بعدين..
تدخل منير في الحديث قائلًا بحدة: اكتم يا فارس.. عمك جرجس يعرف عنك كتير..
لزمت الصمت بعدما شعرت أنني جُردت من ملابسي فجأة، ولم يعد هناك ما يستر عورتي، فضممت فخذَيّ كمَن يداري سوأته، أنهى جرجس سيجارته وهو لا يزال يقلّب جسدي كله بعينيه، حتى وقع بصره على كفي اليمنى، كدت أشرح له ظروف بتر أصابعي لكنه بادرني بسرعة: كنت شغال إيه في نادي الجزيرة؟
- في الأمن مع المستر بيلي...
قلتها بفخر وزهو وكأنني كنت أحرس سفير بريطانيا بالقاهرة..
رمقني بنظرة طويلة فاحصة مرة أخرى ثم فاجأني قائلًا: تعرف تشيل صينية؟
لم أرد إنما قفزت وأمسكت بواحدة من على منضدة قريبة بيدي اليسرى وأنا أسندها من أسفلها باليمنى، ثم انحنيت أمامه في أدب متظاهرًا بخدمته..
لم يبتسم، إنما بحركة مباغتة وضع عليها فنجان قهوته الفارغ، ثم أشاح بوجهه عني ووجّه كلامه لمنير قائلًا: خسارة، كان ييجي منه وينفع في حاجات كتير ببدنه الكبير ده، بس دلوقتي بقى زي خيال

المآتة..!
- ولا حتى في نادي السيارات؟!
قالها منير برجاء أخير إشفاقا على حالي..
- ولا حتى هنا في النادي النوبي، إيده فيها رعشة خفيفة ممكن تقلق الزباين منه، وكفّه منظرها مش ولا بد شوية، لكن علشان خاطرك نجرّبه عند مدام بارديان ونخلّيها تشوفه، هي موصياني على حد أمين وطلباتها قليلة..
- من ناحية الأمانة فارس على ضمانتي..
قالها منير بحسم وثقة جعلت جرجس يطفئ سيجارته الثانية في منتصفها وينهض قائلًا: واد يا فارس اقلع لبس الأراجوزات ده والبس جلابية نوبي وتعالى ورايا.
مثل المُخدَّر تسلمت من منير جلبابًا أبيض وعمامة نوبية بعدما استبدلت سترتي الحمراء وبنطالي الأسود، غادرنا المقهى أنا وجرجس، كنت أسير وراءه بخطوتين ثم تخطّيته فجأة لأقود الحنطور، فجذبني من ذراعي بقوة لا تتفق وعمره الذي تجاوز السبعين وهو ينهرني متأففًا: لما تبقى رايح شغل جديد مينفعش تروح معفر، لازم تبقى على سنجة عشرة علشان توري وتعجب..
ركبنا التاكسي، وطوال الطريق إلى منطقة كفر عبده بحي رشدي، أرقى أحياء الإسكندرية، راح يحكي لي عن تاريخه بالسراي، كان شماشرجيًّا بقصر رأس التين أيام الملك فؤاد، ولما تولى ابنه فاروق الحكم أزاحه الخدم الإيطاليون من القصر، حتى انتهى به الحال مشرفًا على غرف تغيير ملابس الاستحمام بنادي السيارات بالإسكندرية، ولما قامت ثورة يوليو ترك الخدمة مجبرًا، سرّحوه مع آخرين، فامتهن السمسرة، وصار يجلب سفرجية وخادمين وطباخين وسائقين للسفارات والنوادي الكبيرة وبيوت الباشوات السابقين، له شبكة علاقات عنكبوتية يطويها ببساطة بين دفتي نوتة خضراء متوسطة بها أهم أرقام تليفونات في مصر وتحمل شعار الهلال والنجوم الثلاث وعلى يسارها التاج الملكي الذهبي بارز قليلًا، يعتز بها متفاخرًا بأنها هدية من مولانا الملك فؤاد، يشرد قليلًا ونحن نغادر الكورنيش وننحرف يسارًا لتقطع العربة شريط الترام في طريقنا لـ□يلّا مدام بارديان وقد رأى □يلّا أخرى تهدم فقال بأسى: إحنا شفنا عز ما حدش شافه ومش حييجي تاني.. الله يخرب بيوتكم!
- ليه يا عم جرجس، ما اليومين دول حلوين برضه..
- ده زمن الرعاع والأنصاص يا بني، القوالب نامت من زمان.
قالها وهو يمط شفتيه قرفًا.. ثم غمغم وبصق في منديله المحلاوي العريض.
- وصلنا؟!
تساءلت مندهشًا لما أمر سائق التاكسي بالتوقف فجأة أمام صالون حلاقة صغير لكنه نظيف، لم يرد جرجس إنما أزاح جانبًا الستارة المعدنية بعصاه، وأمرني بالجلوس على المقعد، ثم نظر صوب الحلاق متفوهًا بكلمات قليلة وهو يتأهب للجلوس: وش نضافة بسرعة يا عباس..
كان يبدو أن الأمر متعارف عليه بينهما، فقد راح الحلاق يهذّب شاربي بدقة، ثم حلق ذقني ثلاث مرات حتى صارت ناعمة للغاية، وبعناية أزال أطراف شعري المجعدة، ثم جفف وجهي بمنشفة ساخنة أنعشتني، بعدها أغرقني بعطر فواح، راح يطلقه تباعًا بواسطة «بخاخة» جلدية موصلة بزجاجة كبيرة منبعجة، أغمضت عينَيّ وأنا مبتسم بشدة، لمحت في المرآة أمامي المعلم جرجس وقد أخرج علبة النشوق الفضية وعبث بها بإصبعين وهو يسد فتحة أنفه بذرّاتها، ليعطس بعدها بقوة فتدمع عيناه، تأملني لوهلة وأمرني بأن أدير له وجهي، ثم هز رأسه راضيًا فيما يبدو فقد أعطى الحلاق عشرة قروش كاملة..
خرجت مهرولًا خلفه وهو يسرع الخطى لأكتشف أننا سنعبر الطريق فقط لندخل □يلّا مدام بارديان، لم تكن □يلّا بالمعنى المفهوم، إنما بيت صغير قديم من ثلاثة أدوار تشغل هي طابقه الثاني بالكامل، سيدة

عجوز تقترب من الثمانين من أصول يونانية حسبما عرفت فيما بعد، تحتفظ بقدر من الصحة يعينها على المشي متوكئة على عصا رفيعة، لديها أبناء تتناثر صورهم بأرجاء البيت، لكنني لم أرهم، كان نباح الكلاب عندما وصلنا يشي بأنهم أكثر من واحد، يبدو أنها حبستهم قبل قدومنا مباشرة، خمنت من نباحهم المتواصل فارتبكت وبدأت الهواجس تتراقص أمام عينَيّ..!

لم تغادر السيدة العجوز مع اليهود في منتصف الخمسينيات لأنها تحب مصر كما قالت، فاجأتنا بنطقها العربية سليمة كالمصريات وهي ترحب بنا قائلة: أنا سويسرية سكندرية جريجية، هنا بلدي وهناك بلدي، قالتها وهي تشير ناحية قلبها، فلم أدرك أي بلد منهما الأقرب لقلبها...

ارتحنا لبعضنا البعض دون مقدمات طويلة، سألتني عما إذا كنت أخاف من الكلاب، فهززت رأسي نفيًا رغم توجسي من السؤال ورعبي من كلاب السجن التي عادت لمخيلتي. أزعجتها ضخامتي لأول وهلة، لكنها سرعان ما تعاملت مع الموضوع بعفوية ولطف لتهدئة أجواء اللقاء لما لاحظت قلقي من عدم ارتياحها فضحكت قائلة: ده مارد يا جرجس محتاج ياكل خروف كل يوم، هيكلفني فلوس كتيرة فوق ماهيته، اسمع يا فارس أنا حدفعلك عشرة جنيه بس في الشهر ووجبة غداء محترمة الضهر..

ضحكت كطفل، فقد أدركت أنها وافقت على تشغيلي لديها، وتأكدت لما همّ جرجس بالمغادرة وهي تدس في يده مرتب شهر، عشرة جنيهات كاملة، انحنى لها المعلم جرجس بأدب شاكرًا إياها بالفرنسية التي لم تكن تليق بمظهره على الإطلاق، أغلقت الباب خلفه مودعًا شاكرًا جميله معي لكنه باغتني قائلًا بقرف: على الله يطمر..!

عدت لأجد السيدة العجوز قد أدارت أسطوانة، وراحت تستمع وهي تدندن معها لكن الكلمات لم تكن مفهومة لي على الإطلاق، تعمدت أن أسألها إذا ما كانت تريد شيئًا مني أقدمه لها الآن لكن باللغة الفرنسية، انحنيت تأدبا لكن عينَيّ ظلتا معلقتين لرؤية رد فعلها. بالطبع كان لوقع سماعها نطقي بفرنسية سليمة إلى حد كبير أثر لطيف على أذنيها، اندهشت ثم ابتسمت، أنزلت ساقيها من الأريكة وهي تنظر لي بانبهار قائلة: عظيم يا فارس، كده مش خسارة فيك خروف كل يوم..

ضحكنا، ذاب الثلج بيننا أكثر، فتجرأت وسألتها عن الأغنية جميلة اللحن التي تسمعها عالية، فأغمضت عينيها لتظهر تجاعيد بشرتها البيضاء أكثر وأكثر وهي تقول بفخر لا تخطئه العين قبل الأذن: أغنية القدس الذهبية، أرض الميعاد يا فارس..!!

***

35

- Mon Dieu!

صرخت السكرتيرة بالفرنسية ثم أردفت وهي تزداد اضطرابًا ممسكة بالجريدة اليومية: مسيو أنطون مات..!

كان بدر يتأرجح ببطء على وتيرة واحدة بمقعد هزاز مواجه للشرفة العريضة، وبمجرد أن سمعها هبَّ واقفًا متجهًا ناحيتها بسرعة، بدا مذعورًا وهو يسألها عن التفاصيل، كانت الفتاة شبه منهارة وهي تروي له تفاصيل الخبر، وأن الجيران سمعوا جلبة شديدة قرب منتصف الليل في شقة أنطون وصوت صراخ يعلو ويرتفع ثم خرس فجأة، لكنهم لم يجرؤوا على دق بابه احترامًا لخصوصيته، وفي الصباح وجدوا ورقة مطوية بفتحة صندوق البريد يمكن جذبها بسهولة، وبالفعل فضّها أحدهم وأبلغ الشرطة على الفور..

- وماذا كان بالورقة؟

سألها بدر بلهفة المتحرق شوقًا للتفاصيل..

- مجرد كلمات قليلة يخبرهم فيها أنه نوى الانتحار، وتبرع بثروته كلها لرعاية كلبه..!

قالتها وأفلتت منها ابتسامة استنكار كضوء شارد وسط عتمة ملامحها الفزعة..

- وبكم تقدر ثروته؟

- يقولون إنها ألف فرنك فقط التي وجدت بحسابه البنكي..!

- هل هناك شكوك بأنه قد قتل؟

- الشرطة بالفعل تقول ذلك، لكن كيف عرفت مسيو بدرو؟!

بدت علامات الارتباك تغزو ملامحه، وضع كفه على جبهته ليمنع حبات عرق تصببت فجأة، أعطاها ظهره متظاهرًا بأنه يبحث عن ملف معين بمكتبه، وهو يقول بنبرة لا مبالية: مجرد تساؤل، القصة التي تقولينها لا يصدّقها عقلي، أنا أعرف أنطون جيدًا، كان محبًّا للحياة.. على أية حال من المؤكد أن الشرطة ستتعامل مع كل الاحتمالات..

ارتاحت قسمات الفتاة قليلًا وهي تتردد في مشيتها أثناء خروجها لكنها ما زالت راغبة في مواصلة الحديث: فعلًا، خاصة وأن الخطاب الذي تركه كان مكتوبًا على الآلة الكاتبة..!

ابتسم لها بدر ابتسامة صفراء قائلًا وهو يستوقفها بإشارة من يده: أرأيتِ؟ ألم أقل لك إن الأمر به شبهة جريمة قتل، منذ أن حضر أنطون هنا منذ حوالي أسبوع كان مضطربًا لخلافه مع شركائه، وأنا كنت قلقًا بشأنه..

صمت لبرهة لما وجدها مهتمة بالتفاصيل وقد وقفت مكانها منجذبة لحديثه أكثر تنتظر المزيد، فقال وهو يشير نحوها بيده: أظن أنك شاهدتيه يومها، ولاحظتِ اضطرابه وأنني كنت أهدئ من روعه..

أومأت الفتاة بالإيجاب، بدت متحمسة وهي تعيد نفس المقطع على مسامعه مؤكدة اضطراب أنطون، قطع حديثهما فجأة دقات جهاز الاستقبال على سطح مكتبه وأضيئت لمبته الحمراء ثلاثًا، وضع بدر يده عليه مستفسرًا من موظف أمن مكتبه خارج المبنى، فجاءه الرد سريعًا مرتبكًا:

- ثلاثة من رجال البوليس يا سيدي في طريقهم لمكتبك ولا يريدون أن...

رفع بدر يده عن الزر ولم يستمع لباقي الحديث، فقد كانوا أمامه بالفعل بمنتصف مكتبه وكأن الأرض انشقت عنهم، لم يرتبك بدر كثيرًا لرؤيتهم فقد كان أحدهم صديقه، كان متوقعًا لتلك الزيارة لكن ليس بهذه السرعة، تبادلا نظرات ذات مغزى وصافحه بدر مثلما صافح الضابطين الآخرين كأنه لا يعرفه، ثم جلسوا جميعًا حول مائدة مستديرة، أضيئت اللمبة الحمراء من الخارج، ودارت الأسئلة حول علاقته بتحويلات أنطون والحسابات السرية وحياته الخاصة، أجاب بدر عن أغلبها بعبارة واحدة: «لا أدري»، بينما جاءت ردوده على بعضها بأنه صاحب شركة للصرافة، وأنطون زميل سابق بالبنك العربي

وصديق مقرب باعتبارهما عربًا، وبالتالي فقد كان يجامله في سعر التحويل للعملات في المبالغ الكبيرة موضحًا أن هذا الأمر متعارف عليه مصرفيًّا، منكرًا تمامًا معرفته بمصدرها. رفع كتفيه ومط شفتيه فاردًا كفّيه وهو يقول بثقة ليختتم إجاباته: القانون لا يلزمنا بمعرفة مصدر المال بل العكس هو السائد.. ولا تنسوا أن هناك خصوصية وسرية للحسابات، وليس كل ما يعرف يقال..!

ظل يناور ويلف ويدور معتمدًا على أن العملاء الذين تعامل معهم أنطون في تحويلات الأموال لا يعرفونه، فهو لا يوقع على الأوراق

ولا يلتقي بهم، فاختبأ ببراعة بين ثنايا الحلقة المفقودة، لكن لما سأله كبير الضباط عن التحويل الأخير الضخم الذي أجراه أنطون إلى شركة توصية بسيطة بنيويورك قبل مقتله بأيام، ومن بعدها حوّلت الأموال إلى أكثر من جهة، حتى بات تتبعها صعبًا إن لم يكن مستحيلًا، سكت بدر قليلًا متظاهرًا بأنه يلتقط أنفاسه إثر نوبة سعال مفاجئة، ثم اختار كلماته بعناية وهو يرد: نعم.. أعتقد أن هذه الشركة مملوكة لشقيق أنطون الذي يعيش هناك، سمعت منه ذلك من قبل فقد كان يفكر في التقاعد هناك، لكني لا أعرف تفاصيل أكثر..!

كان حريصًا على ألا ينفي وألا يؤكد، كل إجاباته تحتمل أكثر من وجه، حتى شعر الضباط بضيق من جراء مراوغته فآثروا الانصراف ومراقبته سرًّا عن الاستمرار في مواجهته علنًا. نهضوا وهمّوا بالمغادرة لكن قبل أن يخرج رئيسهم من غرفة المكتب تلكأ قليلًا، ثم التفت ناحية بدر الذي كان يودعهم بابتسامة صفراء لزجة لم تفارق شفتيه منذ حضورهم، وسأله بسرعة وهو يثبّت نظره على عينيه: مسيو بدرو، هل تعرف مهندسًا مصريًّا من أصل سوداني يدعى فارس حبيب حبشي؟!!

***

عاملتني بارديان كواحد من عائلتها لا كخادم عندها، عرفت أنها لجأت للمعلم جرجس بغرض مساعدتها في إيجاد شخص يخرج بكلابها الثلاثة كل يوم في نزهة، لكنه أخفى عني وقتها هذا الأمر بسبب رفض الكثيرين من قبلي، كلابها هم همها الأكبر وشغلها الشاغل، فمنذ تعثرها في سجادتها وإصابتها في ساقها لم تعد قادرة على قيادة ثلاثة وحوش ضخمة في آن واحد، رغم أنهم شديدو الطاعة لها. لم تكن باقي مهام البيت من اختصاصي، فلديها سيدة ريفية فيما يبدو تحضر أسبوعيًّا لمعاونتها في النظافة، لكن مع الوقت صرت جليسًا أنيسًا لها تحكي لي حكايات اليهود بالإسكندرية، وأنا أختلق لها خرافات من خيالي عن السودانيين وبطولاتهم. كانت طيبة وتصدقني، لكن مع الوقت بدأت أشعر بمرارة وأنا أكذب عليها، وداهمني حنين جارف لنوبيتي وبلدي، فخرجت من جلدي الصناعي ورحت أروي لها حكايات حقيقية عن مِسكة وشقيقاتي اللاتي فقدت صلتي بهن في حلفا منذ زمن بعيد، على أنها حكايات أمي النوبية التي تزوجها أبي المزعوم حبيب بك حبشي..!

لما حان وقت العمل كان طلبي الوحيد لها ألا أخرج بالكلاب في وقت الذروة، يصعب عليّ أن يراني أحد من النادي النوبي أو من معارفي وأنا أجر كلابًا كي تتنزه وتقضي حاجتها، وافقت مدام بارديان على مضض، فقد كانت تعشق كلابها لدرجة غريبة، تشرف بنفسها على نظافتهم وطعامهم، ولما ترضى عني ويكون مزاجها رائقًا تعد لي وجبة السوفلاكي اليونانية الشهيرة لكنني كنت دومًا أكتفي بالخبز وقطعة اللحم وأترك قطع البطاطس وثمار الطماطم المشوية وقرون الفلفل، ولما اكتشفت بارديان أنني أترك نصف وجبتها المفضلة كل مرة عاتبتني بتهكم قائلة: «كلابي تفعل مثلك وتكتفي باللحم والخبز فقط»، ومن يومها اضطررت لابتلاع السوفلاكي بالكامل، كي أتفادى لسانها اللاذع وقت الغضب..!

كنت في نزهتَي الصباح والمساء ألف لجام أطواق الكلاب حول رسغ يسراي ثم أطبق عليه بكفّي، وأتنزه بهم أو معهم، ليس هناك فارق كبير، مرتين كل يوم، في السادسة صباحًا وقبل الغروب بقليل، في المساء أعدّ لمدام بارديان وجبة عشاء خفيفة ونشاهد حلقة تلفزيونية من مسلسل عادات وتقاليد ونستمع لنشرة الأخبار، ثم أنصرف للجلوس على المقهى النوبي حتى منتصف الليل ومنه إلى الحانة

لأتجرع كأسين أو ثلاثة من العرقي، ظل بداخلي خوف من الكلاب يلازمني طوال الوقت وأخفيته عنها، لكن فيما يبدو أن كلابها شعرت به، فقد كانت دومًا تزوم نحوي ولا ترتاح لي، تشعر بقلقي، لكنها ظلت تنبح دومًا من بعيد، تاركة مسافة آمنة بيني وبينها..!

وضعت صينية العشاء أمامها، وتأملت صورة زيتية كبيرة ملونة لزوجها المهندس حاييم بارديان، تعجبت من ارتدائه لزي عسكري فيها فسألتها مندهشا:

- هو المرحوم كان ضابط؟

ضحكت كطفلة خجلة، وطلبت مني الجلوس لتحكي بفخر ومودة عنه: لا.. كان مهندس يبني المطارات الحربية، خدم مصر بإخلاص وساعد المهندسين هنا، فرسم له تلاميذه صورة بالزي العسكري، يمكن هو السبب في إن عبد الناصر تركنا في حالنا، ويمكن احتياجه لأخي الأصغر في وقت ما، لا أعرف بالتحديد..

- وأخو حضرتك الصغير كان بيشتغل إيه يا أمي؟

ارتاحت قسماتها على وقع الكلمة «أمي» وطلبت مني أن أناديها بها دومًا، ثم راحت تسهب في براعة شقيقها الأصغر في زراعة البصل وتصديره، فلما حدثت أزمة المحصول وكان أخوها قد رحل مع كثيرين من اليهود، طلبه عبد الناصر بالاسم ليعود بخبراته الزراعية، تنهدت طويلًا وقد اكتست ملامحها بجدية مائلة للحسرة وهي تكمل كلامها: المصالح بتتحكم في القرارات السياسية، صدقني يا فارس غالبيتنا لا يريد الحرب، مصر وطن كبير يتسع لنا ولكم، وأرضنا قد تكون هي أرض الميعاد لكن ما الذي يمنع أن نتعايش فيها مع غيرنا بسلام كما قال رئيسنا العظيم ديفيد أشكول، إحنا مش مشكلة لناصر إنما هو جعلكم تكرهون اليهود مع أننا مؤمنون، لكنه...

صمتت برهة كمَن ينتقي كلماته ثم أردفت: عنيد.. عنيد.

- مين؟ الريس جمال ولا الباشمهندس أخو حضرتك؟!

لم ترد على سؤالي مكتفية بابتسامة مبتورة، وانكفأت على صينيتها تستكمل عشاءها، فآثرت الصمت احترامًا لانفعالها بعدما لاحظت دموعًا بلورية رقيقة تترقرق من عينيها وهي تحاول وأدها خلسة وتجاهد كي لا أراها، هممت بالانصراف لكنها استوقفتني بكلماتها عند الباب قائلة:

- إحنا مش صهاينة يا فارس زي ما بيقولوا علينا هنا.. صدقني.. أنا كان قصدي إننا نعيش معاهم في أرض واحدة..

خرجت ولم أعلق سوى بجملة واحدة بيني وبين نفسي: تعيشوا معاهم في أرضهم إزاي؟ ما هم قالوا لنا تعيشوا مع الخزان ومن بعده السد فوق أرضكم، لغاية ما غرقنا كلنا..!

شعرت باضطرابات تموج بداخلي كبحر مفتوح في وقت النوء فلم أجد ملاذًا سوى الريس منير لكنه قال لي يومها كلامًا كثيرًا لم أفهمه، فاختلط عليّ الأمر أكثر، شعرت بنبرة صوت عبد الناصر بين ثنايا حديثِه، رغم علمي بكرهه له، فتعبت وزادني رهقًا، أمسك منير بيدي لما لاحظ حيرتي وأجلسني بجواره قائلًا بحسم وغضب: قول زي ما أنت عايز في الريس جمال لكن تشكك في وطنيته أكبر غلط، كل يهود مصر خونة وجواسيس ولو سابهم كانوا بلعوه، خد بالك من الولية العجوزة بارديان واصحى لكلامها، واوعى تجيب رجلك بدموع التماسيح..

أطرقت ولم أرد، لكن زادت حيرتي، لاحظت بعدها بقليل أنه رفع صور جمال عبد الناصر تمامًا من المقهى واستبدل بها صورًا قديمة عن تهجير أهلنا وقت بناء الخزان وكأن السد العالي لم يُبن بعد، التفتُّ باحثًا عنه لأواجهه بتقلبات مواقفه وتناقضات حديثه بين مدح ناصر ورفع صوره، فوجدته اختفى من جواري، بل من المقهى كله، لكنني لمحت المعلم جرجس من بعيد وقد اصطف أمامه ثلاثة نوبيين، ظل يدور حولهم متفحصًا إياهم كنخاس في سوق العبيد وهو يفاجئهم بأسئلته كعادته، فبصقت وغادرت لأتنسم هواء البحر وأنا أتذكر عبارته الأخيرة «على الله يطمر»..!

وفي صباحِ اليوم التالي كان الطقس متقلبًا، فطلبت مني مدام بارديان ألا أخرج بالكلاب يومها، كانت ترتدي فستانًا أسود بأكمام طويلة وعلى كتفيها شال من الكشمير من ذات اللون، ظللت أراقبها بدهشة، فمنذ شهور طويلة وهي لا تغادر البيت أبدًا، التفتت لي قائلة بلهجة آمرة: هيا كي لا نتأخر عن موعد القطار..

تأبطت ذراعي وأنا أعاونها على نزول السلم، سائلًا إياها أكثر من مرة عن وجهتنا، حتى أجابت في النهاية باقتضاب:

- القاهرة، حنزور المعبد اليهودي!

***

سارت حياتي بالإسكندرية على وتيرة واحدة لكنها تروق لي، لم يعكر صفوها شيء، يبدو أن القدر قد ملّ مضايقتي، وربما وجد في عملي الجديد ما يكفي لقهري دون تدخل منه كالمعتاد. انتهزت وقت الفراغ الكبير الذي تسرب لأيامي في الانتساب لكلية الحقوق بالإسكندرية، واضطررت تحت وطأة البطاقة المزورة لأن أبدأ من جديد، تجاوزت العام الأول بسهولة، وانتظمت بالسنة الثانية حتى نصفها، إلى أن عاد القدر يطرق بابي بعنف، تذكرني فجأة بعد أن تناسيته، لكنه
لا يغفل أبدًا..!

كنت جالسًا يومها بالمقهى النوبي فترامت إلى مسامعي كلمات متناثرة من منضدة قريبة، تضم حولها تجمعًا نوبيًّا ضخمًا، يتوسطهم رجل وقور يتكلم بنبرة العارفين ببواطن الأمور، تكاد الثقة تقفز من عينيه، تعاونها حركات يديه وإيماءات رأسه والجدية المفرطة التي اكتسى بها وجهه، بدا الحديث مغريًا بالمتابعة عن قرب، فاقتربت أكثر ما استطعت لأن الجمع كان كبيرًا، كان يتحدث عن المُهجّرين قسرًا بعد اكتمال بناء السد الذي أوشك على التشغيل بعد أسابيع قليلة، أعاد الرجل المقطع الأخير من كلامه وكأنه يختصني به وحدي دون غيري، مؤكدًا على أن نساء النوبة ضربن مثلًا رائعًا في الصمود..!

- الست النوبية طول عمرها بميت راجل..

قالها بفخر، ثم روى تفاصيل دقيقة لا يعرفها إلا المصاحب لهن، لكنها أكسبته مصداقية لديّ أكثر بعدما تسيدت مِسكة مخيلتي وسيطرت على تفكيري، حكى لنا عن ثلاث سيدات بثلاث قرى نوبية رفضن التهجير بكبرياء، تحدين الطبيعة القاسية بعزيمة الرجال، إلى أن عثرت عليهن إرسالية من علماء الآثار الذين أوفدتهم اليونسكو لإنقاذ المعابد الغارقة، تفرّع الحديث قليلًا وراح بعض المتحفلطين يسخرون من الحكومة، منادين بشعارات رنانة مثل «إنقاذ البشر قبل الحجر»، فقاطعتهم وعيناي مثبتتان على الرجل الوقور سائلًا باهتمام: وأين هم الآن يا مولانا؟

وضع الرجل الوقور ساقًا على ساق مستعذبًا اللقب الذي ناديته به، قائلًا بنبرته الرخيمة الواثقة: اليونسكو بلغت الصليب الأحمر، ونسقت مع السفارة السويسرية بالقاهرة، ووصل الخبر للأمم المتحدة فاعتبروها جريمة ضد الإنسانية، المشكلة أنكم هنا لا تقرأون جرائد أجنبية، العالم كله مشغول بينا وإحنا غارقين في خيبتنا..!

قاطعته بعصبية: أيوه، أيوه كل ده مفهوم يا سيد، وبعدين.. كمل
لو سمحت..

برقت عينا الريس منير الذي ظهر فجأة جالسًا بالقرب منه ولم أره، بدا مستاءً من مقاطعتي، أما الرجل فقد رد بصلف بعدما نزعت عنه غطاء الهيبة والوقار بعصبيتي وجرّدته من لقبه المكتسب: استخرجوا لهن جوازات سفر خاصة واعتبروهن لاجئات تابعات للأمم المتحدة ورحّلوهن على القاهرة منذ شهور للسفر لسويسرا، والله أعلم بحالهن..

لم أنتظر أن يكمل الرجل الوقور حديثه، طرت من المقهى وسط اندهاش الجميع، حتى إن الريس منير ناداني فلم ألتفت له، اكتفيت بإشارة من يدي بأنني سوف أعود لاحقًا، وقفزت في أقرب تاكسي متوجهًا إلى بيت مدام بارديان، استخدمت نسخة مفتاحي كالمعتاد، وجدتها جالسة قرب المدفأة تلقي بها قطعًا صغيرة من الحطب وتتابعها وهي تحترق، وقفت أمامها ألهث بشدة من جراء ركضي على السلم، علت الدهشة وجهها لعودتي المفاجئة وتوتري الظاهر، لكن قبل أن تسألني بادرتها قائلًا: لي طلب وحيد عندك يا أمي..!

انتبهت العجوز وبدت كلها آذان صاغية وهي تنتظر كلماتي القادمة باهتمام، وعيناها تفيضان بحنان حقيقي، فقلت لها بعينين دامعتين وصدر يرتجّ من شدة الانفعال...

- عاوز مساعدتك في السفر لبلدك التاني سويسرا بأي وسيلة وفي أقرب فرصة..!

ثم تحشرج صوتي وانسابت دموعي وتهاويت على مقعد قريب، تأهب الطفل الكامن بداخلي للخروج وأنا أسترسل كمَن جرفه السيل فجأة من علٍ: أنا لست سودانيًّا يا أمي، أنا مصري نوبي، وابني ومراتي في سويسرا..!

اقتربت منها أكثر بجسدي وقد سرت عدوى الانفعال إليها، فدمعت عيناها. ربتت كتفي بحنوٍّ لكنها كانت مضطربة جدًّا، أمسكت يدها وقبلتها وأنا أرتعش وشعرت للحظة أنني أنهار وصدري يضيق بأسراري ويكاد يلفظها، فاستسلمت تمامًا لهذا الشعور ولم أرغب في المقاومة، ثم تنهدت بعمق وقلت: عاوز أحكي لك حكايتي كلها..!

***

.. تقلبت باتريشيا في فراشها، لم تنم جيدًا تلك الليلة فالموضوع كان يشغل جُل تفكيرها ويسيطر على عقلها تمامًا، أشعلت سيجارة ثالثة، سرحت قليلًا حتى احترقت أصابعها منها، أطفأتها وهي لا تزال على شرودها، اقتربت من وجه بدر الذي كان يغط في نوم عميق، أحكمت الغطاء فوق جسده العاري، ثم انزلقت برفق من فراشها، ارتدت ملابسها، متحسسة خموص بطنها لتتأكد أنها فقدت بعض وزنها، طبعت قبلة سريعة على وجنته، لكنه لم يحرك ساكنًا، كتبت له ورقة تعتذر فيها لأنها لم تكن على ما يرام في فراشه أمس بسبب ضغوط عملها، وعدته بأنها ستعوضه عن تلك الليلة لاحقًا ثم طبعت في نهايتها قبلة حمراء قانية بشفتيها ولصقتها على مرآة غرفة نومه، غادرت شقته في طريقها لمقر المنظمة المدنية الخاصة بحقوق الأقليات التي تعمل بها منذ فترة..

عبرت بسيارتها الجسر فوق البحيرة وطوال الطريق كانت شاردة في خطاب خالتها بارديان الذي وصلها من مصر مؤخرًا، ورغم أنهما معتادتان على تبادل الخطابات والزيارات منذ سنوات بعيدة، إلا أن هذا الخطاب بالتحديد مختلف عن سابقيه، وصلها منذ ثلاثة أيام باليد مع إحدى السيدات القادمات لجنيف، فالحكومة المصرية لا تزال تفتح بعض الخطابات المرسلة للخارج وتقرأ ما فيها، خشيت مدام بارديان أن ينكشف أمر عجيبة، فأرسلته مع صديقة لها مسافرة بالصدفة في توقيت قريب.

نقرت باتريشيا بأصابعها على المقود، وهي تفكر في كيفية صياغة خطاب مماثل لمدام بارديان، بعدما تلقت ردًّا من مفوضية حقوق الإنسان بالأمم المتحدة عن أوضاع النوبيين المهجرين في مصر، شردت قليلًا إلى أن انتبهت إلى السيارة التي خلفها وكانت تضيء أنوارها عدة مرات، ففهمت أن إشارتها صارت خضراء، انطلقت مسرعة حتى وصلت لمكتبها خلف محطة القطار، طلبت لقاء الرئيس الشرفي للمنظمة البروفيسور هانز بولوديسكي بعدما ترك الأعمال الإدارية منذ عامين، استغرق الاجتماع بينهما أكثر من ساعة شرحت له فيها قصة عجيبة بالتفصيل لكنه لم يبد حماسًا مع قضيته، سألها عن التعويضات التي قدمتها الحكومة المصرية للنوبيين ولما سمع إجابتها هز رأسه بطريقته التي لا يفهم منها موقفه، وبدا مترددًا لفترة وتحت إلحاحها أجرى الرجل مكالمة مع مدير المنظمة التنفيذي المتواجد وقتها بالولايات المتحدة الأمريكية، لتخرج باتريشيا بعدها عائدة إلى غرفة مكتبها في عجالة، جلست أمام الآلة الكاتبة، لتكتب الرد المقترح الذي اتفقوا عليه، وقد اكتسى وجهها بقسمات الارتياح..!

بعد نصف ساعة لمعت عيناها بشدة وهي تذيّل الرد الطويل بعبارة شكر روتينية، استخرجت الورقة من الآلة الكاتبة، راجعتها بدقة، أصلحت كلمتين لتعطيا معنى أدق وأقرب لما تعنيه، طوت الورقة دون توقيع، ووضعتها في مظروف أحكمت إغلاقه مع أوراق أخرى، انطلقت بعدها إلى الفندق الذي تقيم فيه السيدة السكندرية القادمة في رحلة سياحية لجنيف، لتسلمها الرسالة داخل حقيبة بلاستيكية ملونة تحوي بعض علب الأدوية والحلوى السويسرية الشهيرة بعد أن وضعت المظروف بداخل إحدى علب الشوكولاتة الكبيرة المهداة لخالتها، حتى لا تشك السيدة السكندرية في الأمر ولا تعبث به يد غريبة عند وصولها للقاهرة..!

غادرت متعجلة باحثة عن أقرب كابينة تليفونات عمومية، أدارت القرص وهي تراجع بعينيها خمسة أرقام بعد الكود الدولي من ورقة صغيرة أخرجتها من حقيبة يدها، كررت المحاولة عدة مرات، حتى التقطت مدام بارديان سماعة الهاتف وجاء صوتها بعيدًا، لتخبرها باتريشيا بأن الدواء سيصلها بعد أيام قليلة مع صديقتها السكندرية، لكنها لم تنسَ أن تؤكد لها في نهاية المحادثة أن مِسكة سر الختم والطفل الصغير عجيبة بخير ويلقيان رعاية كاملة، ثم انقطع الاتصال..!

***

ارتشفت رشفة أخيرة من كوب الشاي التي صممت مدام بارديان على إعداده لي بنفسها قائلًا بانفعال لم تخبُ شعلته بعد: وبعد أن قطع المعلم عاشور أصابع يدي هربت على إسكندرية ولما قامت الحرب وضاق الرزق أحضرني المعلم جرجس عندك بالصدفة.. والباقي أنت تعرفينه..

- أنا متفهمة ظروفك وموافقة أساعدك، كلنا عانينا من الغربة..

لم أفهم المقصود بكلمة كلنا، وفيما يبدو أنها شعرت بحيرتي فاسترسلت قائلة: كلنا يا عجيبة تعبنا وضحينا بالكثير علشان يكون لنا مكان تحت الشمس، وأنتم لازم ترجعوا، لكن في ناس عايزة الحال على ما هو عليه..

- تقصدي مين يا أمي؟

- إحنا وأنتم وغيرنا في العالم كله يا عجيبة، أكراد وأرمن وأفارقة في بلاد بعيدة وغيرهم، كلنا حطب لنار قايدة تحت الرماد..

انتابتني أحاسيس متضاربة حول مشاعرها، عيناها دامعتان من شدة التأثر، بينما نظراتها تخفي أمرًا لا أستطيع أن أقبض عليه بعقلي، فقط أشعر به بحواسي، لا أراه ولا أقوى على وصفه، لكنه يحوم حولي، ومع ذلك أحسست بارتياح قليل نحوها أو هكذا أردت، لعنت في سري القوى الخفية التي حدثتني بارديان عنها باستفاضة وشرحتها ببساطة، تلك القوى التي ما تدخلت في أمر أو اهتمت بشأن حتى خرب وتحول إلى مشكلة لا حلول لها دائما من وجهة نظرهم، وبات أصحاب هذا الشأن - وهم بدورهم لم يلجئوا إلى تلك القوى الخفية أبدًا - والذين اهتمت هي بهم، قد أصبحوا أقلية ومضطهدين ومغلوبين على أمرهم دائمًا..! يا ألله! إلى متى سنظل ندور في هذه الدائرة؟!

عدت مرة أخرى أسألها: إمتى ترجعي أرضك يا أمي؟

- المستقبل ورايا يا عجيبة، أنا بأساعد مَن يريد العودة لكن بحب البلد هنا، بحب مصر وباعتبرها بلدي، صدقني كنا نعيش معكم في سلام وكان مستحيل أن يفرق بينا وبينكم إلا وقت الصلاة..

صمتت لبرهة وعيناها دامعتان ثم استرسلت بأسى: أنت نفسك لاحظت لما أتيت معي لزيارة المعبد بالقاهرة افتكروا أنك يهودي في الأول..!

ثم لمعت عيناها بشدة وهي تسألني: حسيت براحة يومها يا عجيبة؟

باغتني السؤال، ولأنني شعرت براحة فعلًا لم أرد الإجابة متعجلًا كعادتي إنما شردت قليلًا وظلت مسكة وابني يحاصران تفكيري ويطاردان أي فكرة أخرى تقترب من رأسي، فقلت بنبرة من يريد إنهاء الحديث: كلها بيوت ربنا يا أمي..

في تلك الليلة أصرت مدام بارديان ألا أذهب لغرفتي وأن أبيت معها خاصة عندما عرفت ما حدث بين جيراني المسلمين والأقباط مؤخرًا، وافقتها متحمسًا، لكن في اليوم التالي أصابتني حمي شديدة ارتفعت معها حرارتي وصرت لا أقوى على الحراك مثل خرقة مهلهلة مبللة متكومة بأحد أركان أريكة قديمة،، فاضطررت للبقاء عندها في البيت أسبوعًا أو يزيد حتى بدأت أتماثل للشفاء.

- تعودت على وجودك يا عجيبة وسحنتك الرايقة بعدما ظهرت نوبيتك الجميلة..

ثم ضحكت مردفة: عندي أخبار حتفرحك، مِسكة وابنك الصغير بخير، النهارده استلمت جواب من قريبتي السويسرية باتريشيا وأنت تقدر تسافر لهم خلال أيام، الدعوة وصلت يا عجيبة..

كانت تصفق كأنها طفلة رأت حلوى وهي تزف لي البشرى. لم أصدق نفسي، احتضنتها بقوة وقبَّلت رأسها ثم يديها بامتنان شديد، ذهبنا معًا في اليوم التالي إلى حجرتي أولًا، حيث لملمت متاعي لأقيم عندها حتى موعد سفري، ثم توجهنا إلى قسم البوليس لاستخراج جواز سفر لأول مرة، عاونتني معاونة كبيرة وذللت كل الصعاب بمعارفها وعلاقاتها القوية، وحررت إقرارًا بأنني أعمل لديها منذ عام ونصف العام، كانت تعرف الكثير من الضباط هناك فسهلت مهمتي، لكن عند استلام الجواز فوجئت بالضابط يسألني بدهشة: فين باسبورك القديم؟!

ألجمتني المفاجأة، فأنا لم يسبق لي استخراج جواز سفر سواء باسم عجيبة أو فارس، لكن مدام بارديان تنبهت بعد دقيقة من الصمت المريب وبسرعة بديهة أجابت بثقة: أعطاه لي وضاع مني..!

تقبّل الضابط حجتها بهدوء وسلاسة ووقعت أمامه في المحضر بفقد الجواز، وأثناء عودتنا سألتها عن موضوع جواز السفر القديم الذي أثاره الضابط فأجابت بعينين لامعتين: من المؤكد أن الرجل الذي ساعدته في القاهرة استخرج جواز سفر باسمك، واضح أنه كان شيطانًا ملعونًا من حكاياتك معه.. بالمناسبة هو اسمه إيه، أنا أعرف عائلات كتير من القاهرة؟

أطرقت صامتًا وناقوس خوفي من بدر يدق عاليًا في رأسي بعدما استقر جواز سفري الجديد باسم فارس حبيب حبشي في جيبي، فأجبتها على عجالة: اسمه مراد، لكن صدقيني مش فاكر اسمه بالكامل، الله يسامحه على كل حاجة عملها..!

تبقى لي يومان وأرحل من الإسكندرية، بل من مصر كلها، إلى جنيف للقاء مِسكة وابني عجيبة، كنت تقريبًا لا أنام من شدة فرحتي خاصة مع مكالمات ابنة شقيقتها باتريشيا وتأكيدها على أنهما بخير، حصلت بخطاب تزكية منها على تأشيرة دخول الأراضي السويسرية بسهولة، وتسلمتها في نفس اليوم من القنصلية، وبينما كنت أقوم بإعداد حقيبة سفري طرقت بارديان باب حجرتي، وجدتها ترتدي فستانها الأسود المعتاد، وعلى وجهها ابتسامة بشوش قائلة: عندنا مشوار مهم قبل سفرك..

لم تشأ أن تخبرني إلى أين نحن ذاهبان، ركبنا سيارة أجرة حتى محطة الرمل، انعطفت بنا يسارًا إلى شارع صفية زغلول وعند منتصفه طلبَت من السائق التوقف قرب محل كبير له واجهة زجاجية ضخمة تعج بأدوات معدنية مختلفة الأحجام والأشكال لم أتبينها بالتفصيل، حتى دلفنا وصاحب المحل يرحب بها بحرارة، لتمتد يده إلى درج بجواره يجذب منه كفًا بلاستيكية سوداء بخمسة أصابع، فقدمتها لي وهي تبتسم في مودة قائلة: قلت لنفسي إنها أفضل هدية تفتكرني بيها للأبد..!

دمعت عيناي وأنا أشكرها، مددت ذراعي مستسلمًا تمامًا للرجل الذي راح يركبها على رسغي حتى أعود إلى أقرب صورة مما كان عليه عجيبة بعدما ظننت أن فارس السوداني قد التصق بي للأبد..!

***

.. وضع الريس منير يده على جرس الباب طويلًا في المرة الثالثة التي يحضر فيها لمنزل بارديان، حتى سمع نقر العصا على الأرض فأيقن أن العجوز قادمة، فتحت له الباب وهي تسأله بعينيها مستفسرة عن شخصيته الغريبة عنها..

- أنا منير حجاج يا مدام، رئيس الرابطة النوبية بالإسكندرية، أسأل عن الأخ فارس السوداني الذي يعمل لديك لأنه متغيب منذ فترة طويلة وعرفت أنه ترك بيته، وكنت أريد أن أطمئن عليه، وحضرت من قبل ولم يفتح لي أحد..

- الجرس كان عطلان، أنت تقصد عجيبة النوبي، هو نزل مصر..!

بهت منير على وقع اسم عجيبة، حاول التماسك لكن أفلتت الدهشة من عينيه، سرعان ما بترها وعقله يتأرجح بين ما إذا كانت السيدة بارديان قد عرفت الحقيقة أم أنها تستدرجه لتأكيد شكوك لديها، هل سرقها عجيبة؟ طرد الفكرة بسرعة من مخيلته، فقال لها متصنعًا الحيرة والبلاهة معًا: عجيبة مين يا هانم؟ أنا باسأل عن فارس السوداني، أرجوك طمنيني عليه..

- عجيبة قال لي كل حاجة يا أستاذ منير، مافيش داعي للف والدوران على العموم اطمن هو أكيد وصل سويسرا الآن.

- سويسرا؟!

- أيوه، سافر إمبارح.

- ليه سويسرا؟ حيغسل صحون هناك؟

- قال إنه سمع في النادي النوبي أن هيئة الصليب الأحمر وجدت مراته وابنه ورحّلوهم لجنيف كلاجئين واتأكدنا فعلًا من خلال قريبة لي أنهم هناك، فسافر لهم.

ضرب منير جبهته بشدة وتمتم: مستحيل، حضرتك متأكدة؟! الله يخرب عقلك يا عجيبة!

أبدت السيدة العجوز دهشتها وغضبها من لهجته المتبسطة معها فجأة، فقال منير بحسرة بالغة: محدش منهم سافر سويسرا يا مدام، الرجل كمّل لنا القصة بعد ما عجيبة ساب القهوة يومها وخرج بسرعة يجري زي عادته قبل ما يسمع باقي الحكاية وحاولنا نلاقيه لكنّه فص ملح وداب..!

ظلت العجوز صامتة وقد انزعجت ملامحها والدهشة لا تفارقها فأردف منير غاضبًا:

- الرجل قال لنا بعدها بيومين إن الحكومة المصرية رفضت السماح لهم بالسفر، ورجعوهم كوم أمبو، والمرارة أن النسوان التلاتة دول مِسكة سر الختم مراته مش فيهم، إنما واحدة تانية قريبة له من بعيد واتأكدنا من وزارة الشئون..!

ضربت بارديان مقدمة صدرها بكفها وهي تشهق فزعة مما تسمعه وتستنجد بالرب، أما منير فقد صمت قليلًا بعدما اربد وجهه ثم سألها بارتياب: لكن أنتم اتأكدتم إزاي أنهم في سويسرا يا مدام؟!

صمتت بارديان ولم ترد وبدا وجهها أشبه بعلامة استفهام كبيرة..!

***

37

التهمت الطائرة الممر في ثوانٍ، بعد تأخير دام لأكثر من ثلاث ساعات عن ميعاد إقلاعها بسبب جنازة عبد الناصر، ربطت حزام مقعديَ وأطفأت سيجارتي، نظرت من النافذة البيضاوية على يساري، كانت الأرض تُنهب نهبًا تحت عجلاتها، انتابني خوف شديد، التصقت بالكرسي وشهقت، كاد قلبي يسقط في قدمَيّ لما ارتفعت عن الأرض، دارت نصف دورة ببطء، وبدأت تتأهب للصعود أكثر، وقعت عيناي على حشود الجماهير من بعيد، شريان بشري طويل لا نهاية له، يتلوى مع شوارع وميادين شرق القاهرة، الغالبية تتشح بالسواد، رافعين لافتات كبيرة، لا شك أنها صورته، كدت أسمع نحيبهم على وفاته الفجائية من بين الهدير الذي كان يصم أذنَيّ، هكذا تخيلت، كنت أظن أنه لن يموت، فجأة نسيت كل شيء مع وفاته، رحيله محا سخطي وأزال غضبي، وكأنه كان مجرد قصور من رمال سحقتها موجات متتالية فانهارت. شعرت فجأة باليتم، تداعيات أصوات أهل اليسار والناصريين الذين ارتبطت بهم بالنادي النوبي وقرأت مؤلفاتهم وأصغيت لهم راحت كلها تتزاحم في رأسي، «مهما فعل بنا فقد كان منا، لم يكن بعيدًا أبدًا عنا، ربما هي أخطاء من حوله، لم يكن يريد بنا سوءًا».

عبارات قالوها كثيرًا لكن لم أشعر بها إلا الآن .. الآن فقط !

في مشاهد أخيرة مختلسة من نافذة ضيقة على ارتفاع عالٍ تبتعد عني رويدًا رويدًا عدت أتأمل الشريان البشري الذي خرج لوداعه وهو يصغر، خُيل لي لوهلة أنه أشبه بخطوط الدلتا على الخريطة، مصر كلها تودعه في وقت واحد، أغمضت عينَيّ والطائرة ترتفع فوق السحاب، اختفت الجموع الهادرة وحلّت محلها جزر قطنية هادئة ساكنة من سحابات بطيئة، وشفتاي لا تتوقفان عن الغمغمة بسورة الفاتحة، وشعرت أن الطائرة كلها يخيم عليها صمت حزين..

بمجرد وقوفي أمام ضابط الجوازات السويسري، لاحظت أن هناك أمرًا غريبًا انعكس على قسماته، بدا منزعجًا وهو يراجع أوراقًا كثيرة أمامه، سألني بفرنسية مختلفة عما أعرفها عن سبب حضوري ومحل إقامتي، أجبته بركاكة أنني تلقيت دعوة من المنظمة التي تعمل بها باتريشيا وأبرزت له الخطاب، تفحصه باهتمام، ثم نادى في ميكروفون داخلي ليحضر ضابطان اصطحباني إلى غرفة جانبية، أمطراني على مدى ساعتين بأسئلة عن حقيقة عملي وصلتي بشخص لبناني يدعى أنطون حداد انتحر منذ عدة أسابيع، وتحويلات مالية كبيرة أجراها إلى دول كثيرة بمشاركتي على مدار بضع سنوات!

لم تسعفني لغتي الفرنسية لأكثر من خمسة عشر دقيقة، لتعلو بعدها البلاهة وجهي وتتصدر الحيرة قسماتي بشدة، أصررت على أن السيدة باتريشيا في انتظاري بالخارج وطلبت حضورها، أبقياني محتجزًا في غرفة صغيرة بها مقعد وحيد، حتى قتلني الملل ببطء بمساعدة القلق وتحريض خفي من الخوف ونمت بعدها من شدة التعب لأكتشف أنني أمضيت ليلة محتجزًا بلا سبب مفهوم، وقرب أول ضوء شمس من اليوم التالي لاح طوق النجاة، كلمات بلهجة مصرية صميمة محببة للقلب وباب الحجرة ينفتح مرة أخرى ليظهر ضابط سويسري ضخم لكنه مبتسم ومن خلفه امرأة ممشوقة بنظارة سميكة هي التي تتحدث..

- حمد الله على سلامتك يا فارس، ولا تحب أناديك بعجيبة؟!

لفحتني نسمات باردة مع كلمات باتريشيا الدافئة عند خروجنا من مطار جنيف، في دقائق كنا في سيارتها الصغيرة لنخترق منطقة جبلية مكسوة بخضرة ناضرة على الجانبين تسر الناظرين ورذاذ مطر خفيف يداعب زجاج السيارة، سألتها عما حدث، فلم تجب سوى بكلمات مقتضبة بما مفاده أنه تشابه أسماء مع شخص سوداني آخر، انتهزتها فرصة لأسألها إذا ما كانت مصرية من لهجتها الصريحة واضحة الحروف والمخارج، ضحكت ضحكة صافية رائقة وهي تردد بعض العبارات بالعامية، أخبرتني أنها أقامت بالقاهرة سنوات طويلة حتى طردها

عبد الناصر، سكتت برهة ثم أضافت بضحكة خجلة أنها كانت تأكل الفول وتسمع الست أم كلثوم وتشجع الأهلي وتحب أفلام إسماعيل يس. كان ذلك كافيًا لأشعر أنها قريبة مني جدًّا، فسألتها مرة أخرى بلهفة عما إذا كنت سأسترد هويتي النوبية أم سأظل سودانيًّا، أجابت بابتسامة مشرقة لكن بعد برهة تخللتها الدهشة: بالطبع هذا ما سنفعله، لا تقلق المشوار طويل..!

أشعلت السيجارة التي قدمتها لي، وجاء دورها لتسألني وهي تنفث دخانًا رقيقًا من شفتيها: احكِ لي كل شيء عنك، أريد أن أسمعك..

قبل أن أبدأ في سرد رحلتي، سألتها متشجعًا من طريقتها الودودة معي عن مِسكة وابني، لكن ردها كان روتينيًّا، أخبرتني أنهما في أمان، لكنهما في مقاطعة أخرى بعيدة عن جنيف، ويحتاج الأمر وقتًا لتدبير تصريح برؤيتهما، خاصة وأن العلاقات السياسية مع مصر توترت بسبب التهجير، فمضيت أروي لها قصتي شاردًا في نصفي الآخر وعجيبة الصغير، لكن توقفت مرة أخرى في منتصف الحكاية مستفسرًا عن صورة لطفلي قائلًا بشغف: سوف يبلغ عجيبة السابعة من عمره بعد أيام قليلة.. صح؟

هزت رأسها بالإيجاب، لكنها اعتذرت عن عدم وجود صور له وهي تبتسم، وعادت تسألني باهتمام عن أرضي، وعن النوبيين في تجمعاتهم المختلفة، ظروف معيشتهم وتفصيلات التهجير ومبالغ التعويض التي صرفوها، أجبتها باستفاضة، فلما انتهيت باغتتني بسؤال: عجيبة..

ما الذي تريده حتى نحققه لك؟

جاء ردي بدون تفكير: أريد العودة للنوبة مع مِسكة وابني..

- أنا أسألك عن أحلامك لا عن حقوقك..!

قالتها وهي تلوي شفتيها قليلًا، أدرت وجهي ناحية اليمين مرتبكًا، فتحت زجاج النافذة لأتنسم قليلًا من الهواء بعد عبارتها الصادمة، ويبدو أنها شعرت بضيقي فأضافت برقة محاولة تلطيف الأجواء وتهوين الأمر عليَّ: لا تشغل بالك، هذه جملة روتينية معتادة نقولها كثيرًا في عملنا

ولا أقصد مضايقتك بها..

هززت رأسي لها بما يعني أنني على ما يرام ورحت أتسلى بمشاهد المارة والأبنية والسيارات تتراقص أمام عيني مهزوزة ولا أستطيع تحديدها، لم أكن أرى سوى وجه مِسكة كبيرًا كالبدر المكتمل، كأنه يطل علينا من خلف البحيرة القابعة عن يميني الآن، وخلفها صورتي وأنا أحمل عجيبة صغيرًا وأضمه لصدري وهو يبكي، شعرت بغصة، تحسست مقدمة بطني، وضغطت على فكَّي، تنهدت في ضيق من لوعة الفراق..

- استرح سأعود بعد قليل..

تركتني باتريشيا بمكتبها واختفت لفترة. تسمرت خلف زجاج النافذة أطل على المحطة الكبيرة، عشرات القطارات تدخل هادئة بلا ضجيج، تقف قليلًا، ثم تمضي في صمت، دقة متناهية، مئات الركاب يركبون وينزلون، كل منهم يعرف طريقه ووجهته بدقة، كلهم متعجلون، لا أحد يتردد للحظة أو يفكر مرتين، لم أرَ أيًّا منهم ينتظر آخر ولا باعة جائلين يطاردونك حتى تشتري راحتك قبل سلعتهم..

بعد نصف ساعة عادت باتريشيا، قدمت لي ملفًّا صغيرًا مفتوحًا وهي مبتسمة، وقّعت فيه على أوراق لم أقرأ محتواها، بعدما طمأنتني أنها بشأن إجراءات الإقامة وبدل المعيشة، اصطحبتني مؤقتًا إلى بيت رجل مصري متزوج من سويسرية، وأخبرتني أنني سأقيم به يومين حتى تدبر لي سكنًا دائمًا، فلما أبديت دهشتي من ديمومة إقامتي قالت ببرود: إجراءات لقاء مِسكة وابنك وعودتكم للنوبة قد تستغرق وقتا طويلا، لا تقلق..!

استقبلني الرجل المصري بترحاب بالغ على عكس زوجته السويسرية الشمطاء، التي صدّرت لي الكثير من الضيق بوجودي بتأففها وجبينها المقطب، ظننتها لأول وهلة أمه لفارق السن الكبير بينهما، لكنني لم أعلق بشيء وكتمت دهشتي، تركتني باتريشيا بصحبتهما على أن تعود غدًا للقائي..

- اعتبر نفسك في بيتك، سنعود قرب السادسة لنتناول طعام العشاء سويًّا..
قالها المصري ذو الثلاثين ربيعًا بعد أن أراني غرفتي، ثم غادر متأبطا ذراع زوجته البدينة ذات الشعر الأصفر المهوش وهي ترمقني بنظرة ازدراء غريبة كأنني من كوكب آخر، وضعت متاعي في غرفة علوية سقفها على هيئة مثلث يتوسطها عمود خشبي عريض، رغم نظافتها إلا أنها كانت شديدة الضيق وبلا نافذة سوى كوة صغيرة عالية، كأنني في بروفة حية لقبري، ابتسمت متذكرًا حجرتي الخانقة بحي عابدين وغمغمت: ورايا ورايا..
بعد مرور ساعة حاصرني فيها الملل من كل جانب، تركت الغرفة في طريقي للمطبخ لعلني أجد ما يسد رمقي حتى موعد العشاء، سمعت صوت خرفشة خفيفة، التفتُّ ورائي لأجد قفصًا كبيرًا يقبع به أرنب ضخم تتدلى من فمه ورقة خس عريضة ويتابعني بعينين قلقتين، جثمت على ركبتَيّ وفتحت القفص، بدأت أربت ظهره الأملس فاستجاب هادئًا على عكس ما توقعت، أعدته للقفص مرة أخرى مع ورقتي خس عريضتين مكافأة على هدوئه، وغادرت الشقة لشراء اللوبيا التي اشتقت لها بالنقود القليلة التي تركتها لي باتريشيا، لكن كلما دخلت متجرًا صغيرًا أو كبيرًا لشراء هذا النوع من الخضراوات ينظر لي البائعون نظرات مندهشة، بعضهم غاضب من لكنتي الفرنسية الركيكة ومن طلبي لنبات غريب لا يعرفونه، حتى كلت قدماي وخفت أن أفقد بوصلتي وأتوه، فعدت للمنزل مرة أخرى وأنا أحمل البديل..!

***

- السيدة باتريشيا فرنسواز.
- دعيها تدخل فورًا.

ما إن أطلت عليه بجسدها الممشوق وشعرها القصير ونظارتها الطبية السوداء السميكة، حتى هب بدر غاضبًا وهو يصيح: من المؤكد أنكِ جُننتِ، كيف تأتين بهذا السوداني إلى هنا دون علمي؟ لماذا لم تخبريني قبلها؟

قفزت الحيرة على وجهها وهي تسأله بدهشة: كيف عرفت بوصوله؟ هل تعرفه؟

أجاب عن أسئلتها بعصبية بالغة تفضح مخاوفه وفي نفس الوقت تسكتها حتى لا تخوض في تفاصيل أخرى: عرفت من ضابط صديق في شرطة مكافحة تهريب الأموال، أبلغني بوصوله أمس واحتجازه حتى تدخّل بولوديسكي للإفراج عنه.. وكانوا يظنون أنه شريك أنطون في تهريب الأموال.

- اهدأ وسوف أشرح لك كل شيء، كان هناك لبس لديهم..

قالتها وهي تطبع قبلة سريعة على شفتيه لإسكاته، لكنه ظل منتفضًا ثائرًا وهي تستفيض شرحًا لأكثر من نصف ساعة في رواية حكايتها معه وصلته بخالتها ميريام، وكيف توصلت إليه وعرفت أنه نوبي الأصل ودعته للحضور رسميًّا عن طريق منظمتها، ومدى حاجتها لأقلية مثله بعملها لأنه سيجلب لها تمويلات كثيرة وأسهبت في وصف سذاجته وغفلته قائلة: وقّع على كل الأوراق ولم يقرأ واحدة منها!

بدأ بدر يلين قليلًا لما عرف مدى معلوماتها، عقد ذراعيه حول مقدمة بطنه بعدما اطمأن وتأكد أن عجيبة لم يقل لها شيئًا آخر، ثم جلس متراجعًا في مقعده وذهنه يعمل بذات السرعة منذ علمه بخبر وصوله أمس إلى سويسرا..

كانت باتريشيا لا تزال تمتدح صيدها الثمين فلم يقاطعها إنما انتظر حتى انتهت من روايتها، ثم سألها بمكر: وما تقديرك لردود أفعاله إذا ما عرف حقيقة غرضك من إحضاره إلى سويسرا؟

- هو الآن أشبه بضفدع وضعوه في إناء به ماء يغلي ببطء، فظل يقاوم ويحاول التكيف مع سخونته، فلما اشتدت عليه همّ بالقفز منه، لكن قواه كلها تقريبا خارت بعدما استنفدت في محاولاته تحمّل الماء المغلي..

أشعلت سيجارة بأصابع مضطربة قليلًا وهي تردف محاولة استعادة ثقتها: لكنه مختلف عمن رأيتهم، لا يزال يقاوم للأسف، يضع اسم زوجته وابنه في كل جملة، أعتقد أنه سيحتاج جهدًا كبيرًا لكي أبقيه في

الإناء أطول وقت ممكن.. لكن...
أشار لها بدر بكفه لكي تصمت ثم التفت والتقط خنجر ويليام ويلكوكس المعلق خلفه وظل يعبث به شاردًا إلى أن قال: إذن اتركيه لي، فأنا لديَّ ما يجبره على البقاء في إناء الماء المغلي للأبد..!
اعترتها الدهشة، لكنه نهض وفتح خزانة مكتبه، عبث بها قليلًا ثم أخرج منها مظروفًا متوسطًا فتحه بالخنجر ليظهر جواز سفر أخضر داكن كبير، ألقاه أمامها وهو يبتسم في مكر، فتحت باتريشيا الصفحة الأولى لتجد صورة عجيبة لكن بياناتها فارس حبيب حبشي، مهندس ري ومقيم بشارع فؤاد بالقاهرة، طوت الجواز وهي تتفرس في وجه بدر بدهشة بالغة ثم نطقت ببطء كمَن يتعلم الكلام: إذن هذا هو سبب القبض عليه أمس، هل أنت الذي...
- نعم أنا، اسمعيني الآن جيدًا ولا تنقلي كلامي لمديرك
ولا للبروفيسور بولوديسكي إلا عندما أخبرك.
ظلت باتريشيا ساكنة تمامًا وحواسها كلها منتبهة تتركز على شفتي بدر وعينيه في انتظار ما سيقوله، أخرج سيجاره وبدأ يسخّن طرفه بولاعته ثم وضعه بين شفتيه وهو يسحب منه أنفاسًا متقطعة متلاحقة، بعدها نفث الدخان كله صوبها وهو يقول بنبرة رخيمة غريبة وكأن صوته آتٍ من ماضٍ بعيد:
- هذا النوبي هو الرجل الذي حكيت لكِ عنه وساعدني لاسترداد أموال عائلتي من مصر قبل خروجي منها، وهو أيضا فارس حبشي السوداني الذي كان يحوّل لنا أموال أنطون منذ سبع سنوات بهذا الجواز دون أن يظهر ودون أن يعلم وكنا نقلد توقيعه، أنا بالطبع لا أستطيع استعمال جواز سفره بعد موت أنطون حداد، لكن يمكنني استعماله هو شخصيًّا..!
برقت عينا باتريشيا إعجابًا ببدر وهو يدور في الغرفة رائحًا غاديًا كبندول الساعة، مسترسلًا مشعلًا سيجاره الذي انطفأ:
- لكن قدومه المفاجئ لجنيف أوحى لي بفكرة ستنفعك في مهمتك معه وستبقيه هنا لسنوات، وفي نفس الوقت تفيدني في تحويل الأموال من خلاله مرة أخرى أيضًا..
- وما هي؟
- ليس الآن، دعيني أرتب بعض الأمور أولًا، المهم أن أراه غدًا.
أومأت باتريشيا برأسها وهي تجيبه بسرعة: يمكننا أن نتناول العشاء معًا في مطعم...
قاطعها بدر بحدة: لا، سأراه بمفردي، أحضريه إلى مكتبي غدًا وانصرفي حتى أتصل بك بعدها.. هذا النوبي سيكون مناصفة بيني وبين منظمتك.. ومن اليوم سنتقاسم بيض الدجاجة سويًّا..!

***

شهقت العجوز السويسرية الشمطاء شهقة عالية، ثم تدافعت الدموع من عينيها، انقلب وجهها باكيًا لتغطيه بكفّها، تهاوت بعدها على الأرض مغشيًّا عليها، لتسقط باروكتها الصفراء عن رأسها، بينما أمسك زوجها الشاب المصري بتلابيبي وراح يهزني بعنف وهو يسبني بأقذع الشتائم ويتهمني بأنني همجي ومجنون، دفعني بعنف في صدري بضربات متتالية وأنا غارق في الدهشة، ثم عاد ليعتني بزوجته دون أن يتوقف لسانه عن السباب..!

كنت واقفًا في وسط المطبخ مرتديًا مريلة بيضاء تخص زوجته فبدت قصيرة للغاية، ممسكًا بيدي اليسرى سكينًا كبيرًا، لا تزال آثار دماء الأرنب عالقة به، بعد أن بسملت وذبحته وشرعت في سلخه، كان يرقد على جانبه الأيمن بإناء ضخم في انتظار تسوية لحمه على نار هادئة، فصلت رأسه عن جسده ونظفته من جلده وشعره، كي أعد لهما مفاجأة سارة بطهوه لهما على الطريقة النوبية مع طبق ضخم من اللوبيا التي لم أجدها بالثلاجة ولا بالسوق، فاستبدلت بها البازلاء الخضراء على مضض!

استسلمت لزوجها وهو يدفعني في ظهري نحو حجرتي ولسانه

لا يتوقف عن سبي حتى صعدنا إليها، دقائق قليلة مرت ببطء وأنا شبه فاقد النطق، كنت قابعًا كتمثال أبنوسي بالحجرة، واضعًا رأسي بين كفيّ بعدما أغلق عليّ بابها من الخارج، وصراخ زوجته الشمطاء يأتيني واضحًا بعد إفاقتها ولا يتوقف الرجل عن سبابي لتهدئتها، فتزداد صراخًا..!

فجأة وبعد مرور دقائق طويلة دار المفتاح بثقب الباب، لأجد أمامي ضابط بوليس متجهم الوجه، اقترب مني ودون أن ينطق وضع في يدَيّ قيودًا لامعة جديدة، يبدو أنها لم تستخدم من قبل، ثم اصطحبني بهدوء إلى قسم الشرطة بتهمة قتل حيوان منزلي أليف متعمدًا، بغرض أكله!

***

- مسيو فارس حبيب حبشي..

نطقها الضابط السويسري بصعوبة بالغة بعدما أحال حرف الحاء إلى هاء، وهو يجول بعينيه في حجرة كبيرة بها خمسة أشخاص وذات نافذة واسعة تطل على حديقة صغيرة غير منسقة، رفع عجيبة يده فاصطحبه الضابط لغرفة أخرى بها اثنان من المحققين وموظفة مدنية ورابعهم بدر المغازي الذي وقف يبتسم في هدوء، تلاقت عيناهما، خيط دقيق يربطهما الآن لا يراه أحد سواهما، تمر فوقه ذهابًا وإيابًا سبع سنوات عجاف وأخريات سمان رغدات في مواجهتها، يتقابلان عند نقطة فارقة، كلاهما يحافظ على توازنه سائرًا على الخيط المشدود بينهما، كل شيء تغيّر، إلا تلك النظرة الباردة الميتة، نظرة التمساح الكسولة متظاهرًا بالشرود والتي تطل من عينيه، ثم تبرق فجأة تلذذًا بالفريسة وهي تتلاشى وتذوب خوفًا قبل التهامها، نظرة لم تتبدل أبدًا...

اقترب منه بدر وهو يمدّ يده ليصافحه، تلقائيًّا رفع عجيبة يسراه في مواجهته، كأنما يحمّله المسئولية عن فقد أصابعه، انحرفت ابتسامة بدر يسارًا وخفض عينيه وهو يربت كتفه موجهًا حديثًا بالفرنسية للضباط بما يعني أنه يضمنه ويتعهد بإحضاره للمحاكمة، تأشيرات وأختام وتوقيعات وبعدها بقليل كانا يجلسان بسيارة كبيرة تقطع الطريق نحو قلب المدينة، وبدر لا يتوقف عن الترحيب به ويشرح في ذات الوقت كل ما يمرّان به من معالم جنيف وكأنه ضيفه المنتظر..

- الضابط قال إن هناك محاكمة! هل سيحبسونني من أجل أرنب؟

علت ضحكة بدر وهو يشعل سيجاره معقّبًا على سؤالي: لم أكن أعرف أنك تعلمت الفرنسية، لكن اعلم أن الحيوان هنا مثله مثلك إن لم يكن أفضل منك، وله الحق في حياة آمنة..

- لكن أنا...

- لا تشغل بالك كثيرًا، يمكننا تسوية الموضوع بغرامة، أنا أعرف صاحبة الأرنب فلا تقلق..

كلما سمع عجيبة عبارة لا تقلق كان يزداد قلقه، صمت ولم يرد وهو يدير وجهه ناحية الطريق، كانت نافورة جنيف الشهيرة قد فُتحت قبل موعدها بدقائق، فلفتت انتباهه قليلًا والماء يندفع قويًّا لأعلى، شريط أبيض عريض منطلق نحو السماء، ثم فجأة يضعف ويلين ليميل برفق فيتهاوى ساجدًا، توارت الشمس بعدما حاصرتها أجنحة الغروب لتضيء النافورة، وعجيبة يلتفت برأسه ناحيتها منبهرًا.

- لن تفتقدها، ستراها كثيرًا.. لا تقلق!

ثم أردف: وربما للأبد أيضًا إن أردت..!

- ماذا تفعل هنا؟ ومتى سافرت؟ وكيف علمت بوجودي؟ ولماذا تركتني بالقاهرة ألم يكن بيننا اتفاق؟ وأين باقي نقودي؟ هل بنيت العمارة؟

- ما كل هذه الأسئلة ؟ ! لم أبنِ عمارة، أنا خرجت مفلسًا من مصر وتركت بها كل ثروتي، انسَ الماضي كله الآن فتلك قصة طوِيلة ستعذرني فيها لما أخبرك بتفاصيلها، لكن لا تنسَ أنك خدعتني وسرقتني لما راهنت بفلوسي على فرس آخر وأنا سامحتك، والآن فكر فيما تريده وأنا سأساعدك.. لا تقلق..

- لا أريد سوى أن ألتقي بسيدة سويسرية تدعى باتريشيا مقيمة هنا وهي التي استقبلتني عند وصولي جنيف، أرجوك ساعدني في أن...

تعالت ضحكات بدر مرة أخرى، وهو ينقر مقود سيارته بأصابعه مع إيقاع الموسيقى المنبعثة من الراديو ويرفع من صوتها فيغطي على صوت عجيبة الذي ظل يسترسل قائلًا:

- هي تعمل في منظمة اسمها...

قاطعه بدر وهو يدندن باسمها مبتسمًا بخبث:

- باتريشيا ألفونسو فرانسواز..أعرفها، وأعلم أنها دعتك للحضور هنا لكي ترى زوجتك مِسكة وابنك الصغير المقيمين بسويسرا الآن، أنا أعرف عنك أكثر مما تعرف عن نفسك..!

سكت عجيبة مندهشًا، فاسترسل بدر قائلًا: لا تتعجل، فهنا أي أمر يستغرق وقتًا أطول مما تعتقد.. فلا تقلق..!

دخلت السيارة الجراج الخاص ببيت بدر فأردف وهو يطفئ محركها: لكن لا شيء هنا أيضًا بدون ثمن، والدفع عادة يكون مقدمًا.. هيا لقد وصلنا.

بيت واسع بحديقة نباتات كبيرة لكنها أشبه بغابة استوائية غير منسقة، أثاث أنيق للغاية يميل للطراز الإنجليزي مثل منزل والده بالقاهرة لكنه بسيط، يضفي وقارًا وهيبة على المكان في خفوت، خادم ممشوق القوام صارم الملامح في جدية، ذو شعر قصير للغاية يميل للحمرة طويل القامة، يرتدي زيًّا أسود، ينحني بلا سبب دومًا وفي أدب جم، خاطبه بدر بكلمات مبتسرة فهم منها عجيبة أنه سيقيم مؤقتًا بغرفة علوية تطل على البحيرة مباشرة لعدة أيام مؤقتًا، حيّاه الخادم بنفس الطريقة منحنيًا ومستفسرًا عن أمتعته ليحملها عنه لكن بدر بتر الحديث بأنها ستصل غدًا..

- ستقيم عندي مؤقتا حتى تتحسن أمورك وتتأقلم..

شكره عجيبة بامتنان والدهشة لا تزال ملتصقة بملامحه من كرمه الزائد وترحيبه الحار به، انحنى الخادم كالعادة، بينما بدر يطلب منه إعداد عشاء لثلاثة أشخاص بعد ساعتين من الآن، ثم اتجه قرب النافذة المطلة على النافورة والتفت لعجيبة المتسمر بمنتصف الصالون كالتمثال داعيًا إياه للجلوس أمامه بحيث يكون ظهره للبحيرة قائلًا: تعالَ يا صديقي.. فبيننا حديث طويل قبل أن تحضر باتريشيا..!

***

39

انتهى عشائي الأول معهما وربما كان الأخير، ومضت أيام طويلة حفلت بمفاجآت حتى ضقت بالساقية الجديدة التي أدور حولها، خرجت في ليلة للتنزه مع الباتلر الذي كان يسير خلفي بعدة أمتار، قادتني قدماي إلى شارع برن خلف مبنى البريد العتيق الضخم، دُرت نصف دورة، عقارب الساعة تقترب من العاشرة مساءً، المدينة مغلقة منذ السادسة تقريبًا حسبما فهمت من بدر، لا أحد بالشوارع ولا حتى «صريخ ابن يومين» كما نقول في مصر، وكأن شخصًا مجهولًا أدخلهم بيوتهم وأغلق بوابة جنيف بمفتاح ضخم ثم ألقاه بقاع بحيرة ليمان واختفى، إلا هذا الشارع فهو استثناء غريب من السكون الذي يلف تلك المدينة، يعج بالأجانب مثلي، عرب وأفارقة وآسيويين وأصحاب بشرة بيضاء أيضًا لكنهم قليلون، حركة سير لا تتوقف أبدًا، صحيح أن لا أحد يلتفت للآخر، لكنني مميز بينهم، كالعادة كلهم يتابعونني وكأنني أتيت من كوكب بعيد.

بعد ثلاث خطوات فقط عرفت سر تميّز الشارع، فهو يبعد عن المقر الأورُبي للأمم المتحدة بشارعين فقط، ويفصله عن مكتب شئون اللاجئين الفلسطينيين التابع لجامعة الدول العربية مبنيان لا غير، واجهات المحلات الصغيرة مضيئة بلونين أحمر خفيف باهت أو أزرق مبهر، تقف في كل واحدة فتاة شبه عارية ترسم على شفتيها ابتسامة بلاستيكية سهل اكتشافها، فهي ترتسم لثوانٍ بمجرد مرورك من أمامها ثم تذوب بسرعة فائقة ليعود الجمود لملامحها، يكفي أن تراقبها من بعيد لترَى كيف تضعها على شفتيها بنفس البراعة كلما مر رجل غيرك من أمامها. حظيت بأكبر قدر من الابتسامات والغمزات المصحوبة بكلمات فرنسية تشجّع على المغامرة واقتحام عالم بنات الليل، مضيت أعاين المعروضات بعينَيّ فقط، فتيات يرتدين ملابس استحمام من قطعتين مثل اللاتي رأيتهن بنادي الجزيرة، وأخريات صدورهن ناهضة وشعورهن صفراء بلون النب، أفخاذهن كالمرمر كأنها رويت بالحليب لتوها، استدارة مؤخراتهن لا بد وأنها من صنع نحات بارع، كعوب عالية بألوان فاقعة، مساحيق وأصباغ وشعر مستعار تستر وراءها فجيعة وآلامًا وقلوبًا جريحة وكبرياءً محطمة حسبما أظن، قطع ملابس كأوراق التوت تكشف أكثر مما تستر لكن بإغراء متقن، نغمة صوت مثيرة تنبعث لمن يتوسمن فيه سخاء جيبه ولهفة عينيه، نظرات محفّزة من عيون جريئة توزع بالمجان وتشجع الخجول على أن يكون فارسًا مغوارًا في دقائق معدودات..!

لفتت نظري صاحبة بشرة سمراء أبنوسية لامعة مصقولة، استوقفتني عنوة طالبة مني إشعالٍ سيجارتها الطويلة، ما إن أخرجت ولاعتي حتى احتوت كفي اليسرى بكفيها الدافئتين، نفثت دخانًا رقيقًا في وجهي ببطء من سيجارتها وهي تخرج نصف لسانها متدليًا على شفتها السفلى في دلال، بدت لي مثل سمكة تتلوى بشبكة صياد قبل أن يقبض عليها بيديه، شعرت برعشة خفيفة بين فخذَيّ، نبضتين أخريين استدعتا شهوتي على عجل، لكن عقلي تحرك من مرقده وأبرز صورة مِسكة على الفور، فهبطت فورتي وخمدت شهوتي بصعوبة..!

مضيت متكاسلًا شاردًا لا ألوي على شيء، أخفي يمناي بداخل جيبي، لا أميز كلمات الغواني، ربما كن يسبونني وربما ظنن أنني عاجز جنسيًّا، لم أفهم تحديدًا كل ما قلن، جلست أستريح على أريكة خشبية بنهاية الشارع والباتلر يقف بعيدًا في أدب يحافظ على مسافته مني ويمنحني خصوصيتي، وواجهات الدعارة كلها خلفي تتلألأ وتومض من بعيد..

رجعت برأسي للوراء مغمضًا عينَيّ وحديث بدر الطويل وكلماته قبل تناولنا العشاء ليلتها تفيضان من رأسي، غمرت تفكيري حتى شعرت بأنني أغرق ببطء، يمكنني النجاة لكنني مستسلم بلا سبب، ذراعاي أصبحتا ثقيلتين ولا أقوى على حمل مجدافي لأبتعد عن الدوامة التي تجذبني بعنف وتشدني لأسفل بضراوة، أرى الشاطئ قريبًا، لكن الصورة مهتزة والأرض ما زالت تتراقص أمام عينَيّ، بدر وباتريشيا

يقفان بعيدًا بثبات، يمسك هو بجواز سفري القديم ويهددني بكشف تحويلاتي المالية التي أجريتها مع أنطون حداد الذي لا أعرفه أمام البوليس السويسري!! وكأنه يعيد المشهد مرة أخرى مثلما اتهمني بسرقة شقته قديمًا في القاهرة..!

أما باتريشيا فلم تكن ملاكًا كما تصورتها، ظلت تطلب مني التوقيع على عشرات الأوراق، فلما ساورني الشك في إحداها مرة من كثرتها.. قرأتها، اكتشفت أنها عن اضطهاد قومي بالنوبة فاعترضت قليلًا على محتواها، تبدلت نبرة باتريشيا، تخلّت عنها الرقة وجفت الابتسامة على شفتيها، ولاحت نذر تهديد من طرف خفي بإعادتي لبلدي دون رؤية مسكة وعجيبة الصغير فأوقفت الطعام بحلقي..!

عادت كلمات بدر من جديد تصم أذنَيّ، مهددًا إياي بأن طريقي الآن بات اتجاهًا واحدًا لا يمكنني أن أسير فيه عكس رغباته، وباتريشيا تحسم أمر مِسكة وعجيبة الصغير بأنني لا يمكنني رؤيتهما إلا بعد تقديم إفادات مسجلة بالصوت والصورة عن التهجير والظلم الذي تعرضت له..!

- التسجيل سيتم في مقر المنظمة وهو مكان آمن، هذا إجراء شكلي لا تقلق، مِسكة قامت به عند حضورها حتى ابنك الصغير سجلنا بكاءه واشتياقه لك..!

قالتها باتريشيا بثقة.. ولم يعد أمامي إلا تصديق ما تقول.. مؤقتًا!

ذهبت معها لتسجيل شهادتي على تعلية الخزان الثانية كما عشتها، لكنني طلبت منها أولًا مشاهدة تسجيل مِسكة وعجيبة الصغير، راوغت في البداية كثيرًا وتحت إلحاحي أجرت باتريشيا مكالمة داخلية قصيرة ثم أشعلت سيجارة بعصبية وهي تردد عدة مرات: لا بأس..

غادرنا مكتبها إلى طابق آخر في ذات المبنى، مررنا بطرقة طويلة على يسارها حجرات كثيرة مغلقة بينما صورتي تتصدر مواضع بارزة على الجدار عن يميننا، لا أعرف من أين أتوا بكل هذه الصور لي، بعضها
لا أتذكره على الإطلاق، لكنني لاحظت أن ملامحي فيها واحدة، متشابهة، كأنها لقطة وحيدة بذات النظرة الشاردة لكن بملابس مختلفة وفي أماكن متفرقة..!

لاحظت كذلك صورًا مكبرة باللونين الأبيض والأسود للحظات التهجير منقولة عن مجلة مصورة اسمها «لايف»، سألت باتريشيا عن مصدر صوري فأجابت بغموض: اعتبرنا عائلتك الصغيرة ونحرص على جمع ذكرياتك كلها..! هذه مجلة أمريكية شهيرة تهتم بالنوبيين.

عرضت عليّ مقطعًا من فيلم بدا لي غريبًا تظهر فيه سيدة سمراء من بعيد، ملامحها غير واضحة على الإطلاق وبالقرب منها صبي صغير
لا يزيد عمره على عشر سنوات، يتصدر المشهد وهو يبكي وتتحرك الكاميرا بعيدًا عنه لتصور بيوتًا خشبية جديدة في منطقة جبلية عامرة بالخضرة، بالطبع لم أشعر بأي ألفة معها، لتعود الكاميرا للصغير صاحب الوجه الباكي ليعطينا ظهره ويمسك بيد أمه ويمضيان بعيدا، التفتُّ إلى باتريشيا مندهشًا وسألتها: أهذا ابني؟ أومأت بهدوء فعدت أسألها: وهل تلك السيدة هي مسكة؟

وضعت نظارتها على عينيها ودققت قليلًا في الشاشة وهي تعيد المشهد ثم قالت ببرود: ربما هي أو ربما تكون إحدى اللاجئات بمعسكر الإيواء لا أستطيع التحديد الآن.

- هل يمكنك رفع الصوت قليلًا حتى أعرف ما إذا كان هذا صوت مِسكة؟

- للأسف حدث تلف بسيط بالصوت أثناء التسجيل، الدور عليك الآن يا بطل!

***

طرق الخادم الأنيق باب غرفتي كعازف بيانو وانحنى كعادته وهو يخبرني بأن السيد بدرو كما ينادونه جميعًا يرغب في لقائي بالصالون، كان جالسًا كعادته في مواجهة البحيرة يدخن بشراهة، فلما رآني نطق بقرار لا رجعة فيه قبل أن أقترب منه وهو يطفئ سيجاره: لا بد وأن تغير اسمك حتى نستخرج لك هوية سويسرية وجواز سفر جديد، هذا هو الحل الوحيد كي لا يقبض عليك البوليس وتطرد من هنا بسبب

علاقتك بأنطون حداد..

- يا ألله! سأغير اسمي لمرة ثالثة؟ ومن يكون أنطون حداد هذا الذي يشاركني كل شيء ولا أعرفه؟!

سألته في حيرة الغريب وقلة حيلته لكنه لم يرد، فأردفت: كيف ستغيّر اسمي ولماذا؟

نظر لي بعينيه الدامعتين وبدا وجهه كاتمًا للضحكة وهو يقول بخبث:

- السيدة برنار ستخبرك بكل شيء!!

***

- بدرو.. أريدك على انفراد من فضلك..!

قالتها باتريشيا بعصبية بالغة فأشار بدر بيده لسكرتيرته لتغادر المكتب، جلست أمامه قلقةً زائغة العينين مجهدة كمَن لم تذق طعم النوم منذ أيام، لم يكن بدر أفضل حالًا منها لكنه لا يزال محتفظًا بثباته ويسيطر على انفعالاته. تحرك من مكانه خلف المكتب ليقف أمام نافذته العريضة وهو يسألها ببرود عن سبب توترها لتجيبه بعصبية: متخوفة من رد فعل عجيبة، لم يعد كما كان منذ تسعة شهور، لا أصدق أنه تغير في تلك الفترة القصيرة! لدرجة أنني أفكر في تقديم مذكرة للمنظمة بإنهاء إقامته وترحيله..!

- لماذا؟

- في البداية كان خائفًا، يستجيب لأي أمر بمجرد نظرة غاضبة مني.

- والآن؟

- يثور فجأة، يتصلب برأيه بلا مقدمات، يطلب مالًا كثيرًا ليسجل إفاداته ومشاهداته عن التهجير، لا يوقّع ورقة إلا بعد أن يرى ورقة مالية أخرى من فئة المائة فرنك، بدأت أشك في علمه بأن زوجته وابنه ليسا هنا...وأنه بدأ في ابتزا...

قاطعها بدر دون أن يلتفت لها: لا أظن، عجيبة لا يستخدم عقله أبدًا، فرأسه مجرد ثمرة كبيرة يحملها فوق كتفيه ولا شيء أكثر، وإلا لما كان هنا الآن..

قالها وهو يدقق النظر من النافذة، اقتربت منه باتريشيا تطلب مزيدًا من الإيضاح فأشار لها صوب مرعى أخضر صغير قريب يطل على ضفاف البحيرة من الجانب الأيسر، بقرتان تقفان بهدوء تمضغان عشبًا بلا مبالاة، وخلفهما حامل خشبي بقبعة مغطى بقماش برتقالي سميك، كلما زادت الرياح ترفرف ذراعيه وكُمَّيه الواسعين، يبتسم بدر وهو يراقب الطيور تهربٍ فزعة مبتعدة بأقصى قوة عنه..

التفت ناحية باتريشيا وهو يتحسس مؤخرتها بأصابعه قائلًا: هذا حال رجلنا، الفارق أننا الذين نتحكم في سرعة الرياح وكلما كانت الريح بطيئة وساكنة، ستأكل الطير من رأسه.. نحن من صنع عجيبة، لا تنسي ذلك.

ثم نظر في ساعته وقال مبتسمًا بخبث وقد بدا متعجلًا: هيا نتحرك لتغيّري ملابسك، فلدينا موعد هام بعد ساعة ونصف من الآن..

- أين؟

- مبنى المحكمة الابتدائية.

- لماذا؟!

- سأقول لك في الطريق.. لكن ارتدي ملابس مناسبة لحفل زواج بسيط!

***

40

- مسيو جون ليون برنار..
نهضت رافعًا يسراي فور سماع القاضي يناديني باسمي الجديد لأمْثل أمامه مرتديًا بدلة سوداء وبابيونة حمراء نارية ضخمة، وقفت بجوار السيدة برنار، الأرملة ذات الشعر الأحمر القصير والتي تكبرني بنحو عشرين عامًا على الأقل، صرت الآن أحمل لقبها، واختار لي بدر باقي اسمي الجديد وسجلناه بمكتب التوثيق الملحق بالمحكمة قبلها بأسبوعين، رفعت كفي مبسوطة وأنا أردد القسم أمام القاضي، لأقرر بعده أنني أعيش معها منذ أكثر من ستة شهور، وأن قلبي نبض بالحب تجاهها وأرغب في الزواج المدني منها متنازلًا عن اسمي القديم، محتفظًا بأصولي الإفريقية السودانية وميلادي المصري وديانتي المسيحية..!
- مبارك زواجكما..
قالها القاضي ببساطة، مبتسمًا ابتسامة رسمية، وبعدها انصرفنا جميعًا إلى الكنيسة القريبة ليبارك الرب زواجنا..!
بمجرد أن وطئت قدماي المدخل وجلسنا على المقاعد الخشبية المتراصة في صفوف بالتساوي، تداعى إلى ذاكرتي على الفور بهو المعبد اليهودي بالقاهرة الذي زرته مرة واحدة مع مدام بارديان، نفس الأعمدة الستة المتراصة على اليمين واليسار، ذات الإضاءة الخافتة، السكينة التي تعم المكان وتسري بوجداني، ألوان الخشب وعراقته، السكون والرهبة التي تلفنا برقة وكأننا ملائكة تسبح في ملكوته، هززت رأسي بشدة وأنا أحدث نفسي متوترًا: لا يمكن أن يدخل كل هؤلاء الناس النار لأنهم غير مسلمين كما كان يقول خطيب الجامع بحارة خاتم المرسلين، لو كنت ولدت مسيحيًّا أو يهوديًّا كنت سأظل على ديانتي، فالروح واحدة، كلهم من صنع خالق واحد، لا شك عندي في ذلك الآن.. تلك هي الإجابة التي لم يقلها لي جدي أبدًا رغم أنني سألته عشرات المرات في صباي.
عندما ذهبت مع السيدة بارديان للمعبد اليهودي بالقاهرة كانت تصلي صلاة قاديش الحداد، ظننت وقتها أنها مجرد تسابيح دينية، لكن لما تأملتها وهي تصلي مع أقاربها، وجدتهم أقرب ما يكونون لما نفعله في صلاة الجنازة بديننا، لا توجد فروق كبيرة بيننا، يومها وقف أقارب الميت صفوفًا متراصة يتلون تسابيحهم في هدوء خلف الجثمان، رفعت رأسي وتساءلت بيني وبين نفسي: هل ستدخلهم النار وهم على هذا القدر من الخشوع؟ لديهم ضمير ويصلّون لك.. هل ستعاقبهم كما قيل لنا في خطبة الجمعة؟!
هل خلقت منا من هو غير مؤهل لدخول الجنة أصلًا؟
لا أظن.. أعتقد أنك ستحاسبهم على ما صدقوه فعلًا وما وجدوا أنفسهم عليه وما وصلوا لك به.. سيدة في حنان ورقة قلب مدام بارديان هل يمكن أن نعتبرها كافرة؟!
كنت أحدث نفسي مرفوع الرأس، ثم خفضتها تأدبًا ورددت هامسًا مطرقًا: العدل من أسمائك وأنت غفور رحيم..!
أفقت من أسئلتي التي لا تنتهي وتلفتُّ حولي باحثًا عن زوجتي برنار، اقتربت ثم أشار لها بدر أن تتأبط ذراعي لنصعد سويًّا درجًا رخاميًّا صغيرًا لنقف أمام القس المهيب ليتلو صلواته علينا، ألبستها خاتمًا فضيًّا أهداه لي بدر قبلها بيوم واحد، كانت كفها خشنة وذراعها ذات عروق نافرة تميل للزرقة، أشعرتني برجفة وكأنني أتأهب لحضور مراسم دفن.
في المساء كانت هناك سهرة خاصة في انتظارنا، زجاجة ضخمة من الشمبانيا قدمت على شرفي، احتسيناها جميعًا، مجموعة من المصريين المغتربين وزوجاتهم السويسريات إلا ما ندر، وباتريشيا وأنا ومدام برنار ومن قبلنا جميعًا بدر صاحب الفرح..!
كلما اقتربت الكأس من شفتي بدر، شعرت بأنه يرتشف دمي بتلذذ، يمتص روحي ورحيقي بقوة،

نظرته الباردة تقتلعني من جذوري أكثر، صرت بائسًا مثل الأرنب الذي أنهيت حياته وحصلت صاحبته على دية مقابل عدم سجني!

أنظر لعينِي التمساح وهو ساكن بلا حراك، متوهمًا أنه سيبتعد، بينما هي لحظات وأستقر في جوفه إن لم أكن قد أُكلت منذ زمن بعيد وهذا هو جسدي الثالث المستنسخ، الذي يبث بدر الروح فيه كل مرة ليعيده للحياة بشكل مختلف على غير رغبتي..!

أهداني بدر زجاجة ويسكي فاخر النوع ثم دس يده في جيبي تاركًا لفافة صغيرة للغاية بابتسامة ذات مغزى وهو يهمس: ادعي للمرحوم أنطون حداد الليلة على آخر نفحاته..!

لكن في تلك الليلة لم أنم، ظللت جالسًا في شرفة صغيرة للغاية بشقة برنار زوجتي على الورق حتى الآن، أقبع في متر مربع محاطًا بأحواض زهور صغيرة مختلفة الألوان، أطل على البحيرة من زاوية لا بد وأن أميل بجسدي إلى اليسار لأراها واضحة. بدأت خيوط النهار تسري في السماء لتزيل كآبة الليل، وتمحو شجونه، فركت عينَيّ بشدة وصببت كأسًا عاشرة أو ربما يزيد، فقد تجاوزت ثلث زجاجة خمري بقليل، بدت لي صفحة البحيرة الرائقة وكأنها تناجيني أن أتوقف عن الشراب وأستمتع برؤياها بدلًا من تلك الصورة المهزوزة التي هي عليها الآن في عينَيّ، نهضت متحاملًا واستندت على حافة الشرفة مبتسمًا وسألت نفسي ماذا لو بنوا سدًّا هنا ليحجز خلفه مياه الأمطار ثم هجّروا كل السكان بمن فيهم تلك العجوز الشمطاء برنار الراقدة في فراشها تنتظرني ثم ملّت فنامت وراح صوت شخيرها يفسد جمال اللوحة المتجسدة أمامي الآن؟

فركت عينيّ لمرة ثالثة وبدأت أشعر أنني أهذي وأخرف، وصلت لفراشي وأنا أترنح، ألقيت بجسدي بكامل ملابسي الرسمية، ملابس السهرة والفرح حتى حذائي الأسود اللامع لم أقوَ على خلعه، وضعت ذراعَيّ متعاقدين على صدري، خفت شخير برنار فجأة وساد صمت السكون فتسرب من بين ثناياه النوم إلى جفوني، لكن آخر ما كنت أفكر فيه قبلها، أنني أرقد في صندوق خشبي ضخم محاطًا بالورد وأنتظر بدء مراسم حفل تأبيني قبل دفني بقليل..!

***

مع الوقت بدأت أدرك أنني لن أرى مِسكة مرة أخرى إلا بمعجزة، وفي أحيانٍ قليلة ساورني شك يرقى لمرتبة اليقين أنها غير موجودة هنا، وربما لا تكون على قيد الحياة، وأن باتريشيا تكذب عليّ وتدبر أمرًا في الخفاء مع بدر لا أعرفه، فأنا لا أشعر برائحة مِسكة من حولي، ولا شيء يقودني إليها، فبدأت رغبتي في البحث عنها تخفت مع مرور الوقت، وراح الشوق يموت متأوهًا تحت أنقاض القهر، غمض الأمر عليّ،

ما الذي ستستفيده باتريشيا من تسجيل صوتي وصورتي بمقر المنظمة وأنا أتحدث عن مأساة التهجير وفقدي لزوجتي وطفلي؟! ماذا ستفعل بهذه الشرائط؟! وما كل هذه الأموال السهلة التي لديهم؟! كأنهم يغترفون من بحر لا ينفد أبدًا..!

يكاد الشك يقتلني ولا أحد يجيبني، فقررت أن أوليه ظهري وأن أغترف من هذا المال السائب ملء كفيّ، لعلهم يرفضون ويضيقون بوجودي وتنتهي المسألة عند هذا الحد، ربما بعدها يطردونني من هذه الجنة البائسة لأعود لبلدي، لكن كرمهم الزائد واستجابتهم لطلباتي
بلا مناقشة زادني حيرة، ففقدت بوصلتي..!

حاولت التكيّف مع زوجتي الجديدة لكن حتى خلطة أعشاب أنطون وزجاجة الويسكي التي قدمهما لي بدر لم يفلحا في تحريك شعرة من الرغبة نحوها، كانت سيدة محافظة كأغلب السويسريات، التجاعيد تعلو وجهها كلما تحدثت كأنها تتسلق ملامحها طلوعًا ونزولا طوال اليوم، تكشيرتها لا تفارقها كمَن نسي الابتسام، تصحو في السادسة صباح كل يوم، تعد إفطارًا خفيفًا وتذهب لعملها في محل لبيع الساعات السويسرية لتعود في السادسة مساءً رغم أنها تخطت السبعين بكثير، منضبطة تمامًا مثل

بضاعتها، تجهز عشاءها البسيط، بعدها تقرأ لمدة ساعة وتشاهد أخبارًا محلية قصيرة بالتلفزيون ثم تخلد للنوم. في إحدى محاولاتنا البائسة لإذابة طبقات الجليد التي تتراكم كل يوم بيننا ذهبنا في نزهة على الأقدام إلى حيث تقبع المدينة القديمة على تل صغير بالجانب الآخر من البحيرة وعلى مسافة بضعة أمتار من أرقى الشوارع التجارية بمدينة جنيف، ترددنا على أكشاك بيع الهدايا التذكارية نقلب في البضائع

ولا نشتري، التقطت لي بعض الصور الفوتوغرافية وأنا أقف كتمثال مبتسم ببلاهة، ثم جلسنا لتناول العشاء، لاحظت ترددها فلما سألتها أوضحت بضيق أن تلك المنطقة سياحية تغالي في أسعارها ويمكننا تناول الطعام بالمنزل، لكن الجوع كان يقرصني ووصفها لأكلة «الفونديو» السويسرية الشهيرة فتح شهيتي أكثر.. فاتخذنا مكانًا بالمطعم تحت إلحاحي.

جلسنا نتسابق في اصطياد كرات اللحم وقطع الخبز الصغيرة المغموسة بالجبن المطبوخ والسابحة داخل إناء معدني مستقر على نار هادئة تنبعث من شعلة تخبو أحيانًا لكنها لا تنطفئ أبدًا، ونحتسي بعض النبيذ الأحمر اللذيذ. كعادتي في تناول الطعام كنت أستخدم يدي

بلا حرج بدلًا من الشوكة، لكن نظرات برنار المشمئزة جعلتني أتوقف عن ممارسة تلك العادة وذكرتني بنظرات بدر وملاحظاته لما تناولت العشاء على مائدته. كلاهما يحصر نفسه في شكليات لا تجعله يستمتع بالحياة، كلاهما يختبئ خلف طقوس بالية وقيود تحد من المتعة، مفرش صغير أبيض يضعونه على صدورهم أو أفخاذهم، لا يأكلون كثيرًا، يمضغون ببطء وهدوء وكأنهم يؤدون مراسم رسمية في طقس ديني مهيب. ابتسمت ساخرًا وأنا أبتلع كرة لحم كبيرة استبقت برنار في اصطيادها من الطبق وقلت لها مازحًا: سيتساوى طعامنا كفضلات في النهاية فلماذا توقرينه بكل هذا الاحترام أثناء التهامه؟

لم تبتسم لدعابتي الثقيلة بل أبدت امتعاضها وقرفها الشديد مما قلت وظلت عابسة كعادتها، حتى انتهينا وجاءت فاتورة الحساب فأخرجت من كيسها الجلدي الصغير نصيبها فقط، ووقفت بعيدًا عن المائدة تنتظرني حتى أسدد فاتورة طعامي..!

أثناء سيرنا في طريق العودة قلت لها مبتسما إنني كنت أنوي سداد الفاتورة بالكامل، فردت بجدية وكأننا نناقش أمرًا مصيريًّا بيننا بأن هذه النزهة خارج إطار الاتفاقية مع بدرو..!

يومها نظرت إلى كتفيها المضمومتين وكأنها تنغلق على نفسها وتنكمش، وفكرت أن أحتويها بذراعي وأضمها لصدري ربما أشعر بونس يبدد وحشة الغربة التي أعيشها، لكن ما إن لامست ذراعي كتفها حتى أزاحتها برفق ووضعت شالًا أسود صوفيًّا رقيقًا بدلا منه قائلة ببرود: لا داعي أنا على ما يرام..!

لم تكن برنار استثناءً من القاعدة، فالحقيقة أن غالبية السويسريات تقريبًا يفعلن مثلها، فنمط الحياة عندهم يبعث على الملل، استيقاظ مبكر دومًا، إفطار خفيف إجباري، رائحة الكرواسون الساخن وعجائن الجبن والسبانخ لا تفارق أنفك إذا ما كنت تسير على قدميك، فترة الغداء قرب الظهيرة شبه مقدسة، والعشاء يبدأ من السادسة مساء ولا يتجاوز الثامنة دائما، أوراق اليانصيب طقس شبه يومي، يمارسه الغالبية كالقطيع أملًا في ثروة تريحهم من الحياة المملة وتنقلهم إلى أخرى أكثر مللًا..! الحياة هنا تسير مثل الساعة بالضبط، نفس الدورة كل يوم..!

شعب جاد أشبه بآلة تعمل بانتظام ودقة لكنها في غاية الرتابة،

لا مفاجآت على الإطلاق، يدورون جميعًا في ساقية بلا هدف سوى البقاء على قيد الحياة أصحاء أطول وقت ممكن، وإلا من أين أتوا بكل هؤلاء العجائز؟ الغاية والمنتهى أن يكون لدينا من المال ما يكفينا عند التقاعد، هل هذه هي الحياة؟ لا أظن..!

لم نفلح يومًا أنا وبرنار في إقامة علاقة حميمة بالمعنى المفهوم، فهي تكبرني بثلاثين عامًا على الأقل، شعرت أنني أحتاج لفض طلاسم جسدها قبل أن أتمكن من معاشرتها، لم أعرف أبدًا من أين أبدأ، حاولت تقبيلها فخُيل لي أنها فأر من فرط بروز عظام وجنتيها واستطالة أنفها، وجدت شعيرات قصيرة صفراء

نبتت أسفل منخارها المعقوف فشعرت بنفور، لكنه للحق كان شعورًا متبادلًا بيننا، ولا بد أنها تراني كائنًا عجيب التكوين، فأراحتني من عناء محاولة ثانية..!

كلما تذكرت ليلتنا الأولى التي بدأت ثاني أيام زواجنا أشعر بالغثيان، ارتدت برنار قميص نوم مفتوحًا قليلًا عند صدرها الضامر المترهل، وجلست في الفراش صامتة وقد حسرت قميصها عند فخذيها المكرمشين، تنتظر خطوتي الأولى بلا مبالاة، كنت أتراجع بداخلي خطوات بينما أتقدم نحوها ببطء، رقدت بجوارها ساكنًا كتمثال، بعدما ابتعدت عني الشهوة بفراسخ وهربت من جسدي بلا عودة، بات لزاما عليّ الآن تناول طعام مضت على طهيه أيام طويلة حتى فسد وباتت رائحته تزكم أنفي، فلم أقو على الاقتراب منه، تلاحمنا وأنا مغمض العينين، قبلاتها ماسخة تدق بوتيرة واحدة موترة مثل ساعة الحائط، محدثة صوتًا مكتومًا مقبضًا، لمساتها خشنة وحضنها بارد كطقس بلادها، ولوهلة شعرت أنني أطبق بيدي على كف المرحوم عوض ابن عمومتي فتراجعت متقززًا..!

فشلت كل محاولاتي في الليالي الثلاث التالية في دك حصونها المتهاوية ولم أحرك ساكنًا، صار حالي كحال طائراتنا منذ أربعة أعوام عندما قُصفت على الأرض، انتكست قواتي في قواعدها وخاب صاروخي القاهر ولم ينطلق، بل لم يشتعل من الأساس، بات كقطعة خردة هامدة بلا حراك، بعدها استسلمت هي من تلقاء نفسها فأراحتني للأبد، لم تعد ترتدي القميص المفتوح، وتدثرت دومًا بروب أزرق فاتح، وراحت تغط في نوم عميق كل ليلة.. بينما ظن كل من حولي أنني منتصر..!

في الليلة الرابعة ومضت برأسي فتاة شارع برن، بائعة الهوى السمراء الفاتنة، عادت غريزتي تلح على عقلي بقوة، عندما حل المساء تحركت قدماي وقادتاني كالسائرين نياما إلى حيث فتاتي، كانت واقفة بميوعة تستند إلى الجدار الملاصق لباب فندق صغير، جميع غرفه تشي بإضاءة حمراء من خلف الستائر والتى تُرك بعضها مواربا فزادها غموضا، اقتربت منها مبتسما وقدمت لها سيجارة سحبتها بدلال وهي تثبت عيناها الكحيلتين على عيني بقوة ثم وضعتها بين شفتي وأشعلتها لي ببطء، شعرت بدفء كفيها وسخونتها وهي تقترب مني، هممت باحتضانها فانسحبت برشاقة لبهو الفندق الصغير، دخلت خلفها متلهفا، لكنها أشارت نحو رجل ضخم مفتول العضلات متجهم الملامح يلوك شيئا بين أسنانه ببرود وعلى وتيرة واحدة، يقف خلف واجهة خشبية قديمة، طلب مني عشرين فرنكا فأنقدته إياها ليسلم فتاتي مفتاحا معدنيا ضخما ويعود لوقفته، صعدت وراءها للطابق الثاني والشهوة تؤججني وتكاد تحرقني من شدة استعارها ملتهما مؤخرتها المكتنزة بعيني، سنوات طوال لم أقترب فيها من امرأة وها هي الآن أمامي عارية تتلوى على ملاءة بيضاء بجسدها الأبنوسي اللامع ورائحتها الفواحة المثيرة، على مدار ساعة شعرت أنني أفترسها من فرط تأوهاتها العالية، فلما فرغت منها استلقيت على ظهري مبتسما في رضى، التصقت بي الفتاة وغمرتني ببضع قبلات بمقدمة صدري هامسة بأنها ستنتظر عودتي مرة أخرى، تحركت رغبتي مرة رابعة على ملامساتها فاحتضنتها بقوة وأنا أرفعها فوقي لكنها انزلقت بخفة من جانب الفراش الآخر مشيرة إلى ساعتها مرتين معلنة انتهاء الوقت وشرعت في ارتداء ملابسها وقد اكتست ملامحها بمسحة جادة متجهمة استدعتها فجأة وكأنها لا تعرف الهوى بعد ولم تقرب الجنس من قبل !

عدت لمضمار الحرب التي تورطت بها مع السيدة برنار مدفوعا بشحنة معنوية هائلة واثقا بقدراتي منتشيا بأدائي مع فتاة الليل، لكن بعد أسبوع من زواجي منها رق قلبها لحالي بعدما رأت قواتي مشرذمة كل ليلة وجيوشي منهكة دوما، ففي الليلة الأخيرة اقتربت مني برنار هامسة بوداعة وملامح وجهها قد تبدلت لتكشف عن بقايا أنثى عاشقة وهي تقول بنبرة تقطر عذوبة: لو كنا التقينا من عشرين عاما ربما كنت أسعدتك وسعدت بك، الحياة قاسية، مثلما تحرمنا أحيانا فهي تعطينا ما نحب بعد فوات الأوان في أحيان أخرى..

اعتدلت بعدها في جلستها وتنهدت بعمق عائدة لحالها ثم أخبرتني بتفاصيل اتفاقها مع بدر، ويا ليتها ما

فعلت، طمأنتني بأن العلاقة الجنسية بيننا كانت خارج الاتفاق من البداية، وإذا ما كنت شاذا فهي حريتي الشخصية التي تحترمها، بشرط ألا يكون ذلك في بيتها!

علمت منها بقيمة المبلغ الذي حصلت عليه مقدمًا من بدر فبرقت عيناي حتى توارى حاجباي خلف جفوني المرفوعة، فقد كان أكثر من قيمة بيتي في النوبة والفدان والحيوان الزراعي مجتمعين..!

اختتمت حديثها معي في خبث لا يليق بسنها، محذرة إياي بأن ثلاثة أرباع ثروتي ستؤول إليها في حالة وقوع الطلاق من جانبي، فشعرت وقتها بأن مكانتي عندها أقل مرتبة من كلبها المدلل بكثير..!

***

بعدما تسلمت جواز سفري السويسري بدأ بدر في إجراء تحويلات مكثفة باسمي الجديد، ثم صارت لدي شركة صرافة صغيرة تتصدر واجهتها حروف اسمي أنا وبرنار وبدر أيضا..! فقد جعل بدر من زوجتي شريكة بنسبة صغيرة معنا لتتحملني زوجًا على الورق أطول فترة ممكنة، وكأن لي تاريخ صلاحية مطبوعًا على قفاي فيراه الجميع إلا أنا..!

افتتحت حسابًا بالبنك لأول مرة في حياتي باسم شركة « JBP » وأعطاني بدر أو «بدرو ألفونسو فرانسواز» كما صار اسمه الرسمي هنا، حق التوقيع منفردًا والسحب كذلك. تبدّل حالي بسرعة وظهرت عليّ مظاهر الثراء، لكن مِسكة لم تظهر، وظلت باتريشيا تتهرب من أسئلتي عنها وعن عجيبة الصغير، تراوغني وتدخلني في دوامة الأقليات فتبتلعني، وكلما ذهبت للتسجيل أرى صورًا عديدة من شتى أنحاء الكرة الأرضية، كلها لطوائف وشعوب لم أسمع عنها من قبل، شغلتني بإجراءات منظمة الصليب الأحمر وتوهتني في دهاليز الأمم المتحدة ولجنة حقوق الإنسان حتى ضللت الطريق تمامًا، أما بدر فلم يسمح لي بمجرد فتح موضوع العودة للنوبة أمامه، مهددًا إياي كل مرة بالسيف الجديد الذي وضعه على رقبتي.. تهريب الأموال.. فخفتت حركتي حتى سكنت، مستسلمًا لهما وهما يأكلان من رأسي في نهم..!

التقيت بعشرات المصريين المهاجرين في جنيف، لكنني لم أعد أتذكر أسماءهم، ورغم أن لكل منهم قصة تستحق أن تروى، إلا أنهم جميعًا متشابهون كظهرية أوراق «الكوتشينة»، هذا كهل يخطط، وتلك امرأة طموح وبصحبتها رجل يافع في فورة شبابه ومقتبل عمره له دور محدد، وهذا جوكر يصلح لأي شيء، والباقون مجرد أرقام لاستكمال اللعبة، وأخيرًا كبيرهم الذي يسيطر عليهم ويحرّكهم، شهرته الباترون لكنني لا أعرفه، تُنسج حوله القصص وتروج الشائعات، قيل لي إنه عمدة المصريين بجنيف والجميع يأتمرون بأمره لكنه يرسل لهم أوامره وتوجيهاته عبر وسيط دائمًا، ظللت أسمع عنه فقط ولا أراه، ومنذ أدخلتني باتريشيا لهذا المجتمع الصغير وهي تطلب مني بإلحاح نقل أخبارهم، قدمتني لهم على أنني سوداني مولود بمصر، سقطت ورقة توت وبقيت أخريات.. لا بأس.

جمعتني بهم جلسات عديدة، فهم يلتقون أسبوعيًّا بانتظام في قبو فسيح أسفل محل بقالة يملكه أحدهم، لدهشتي كانت اللقاءات في غالبيتها أشبه بليلة مصرية بمقاهي سيدنا الحسين، شخص يغني وآخر يضرب على العود، لا حديث إلا عن مصر والحرب المنتظرة مع إسرائيل. أطباق الطعام تشعرك أنك بقلب القاهرة ولم تغادرها بعد، الباذنجان بأشكاله كلها، الملوخية والبامية وطواجن الأرز المعمر، قطع اللحم السابحة بهدوء فوق المرقة الحمراء الدسمة، الجبن الأبيض البراميلي والقريش وشرائح الجبن الرومي المجلوبة من القاهرة مع كل وافد، صارت لديهم مؤن تكفيهم للاحتفاظ بهويتهم وثقافتهم مدى الحياة، وكأنهم تكاتفوا حتى أقاموا جدارًا عازلًا بينهم وبين التحضر..

غالبيتهم يتحدثون بلغة فرنسية ركيكة مثلي، لكنها مفهومة إلى حد كبير لأهل البلد، لكن لا أحد منهم يسعى لتطويرها، يكتفون بالفتات كالعصافير التي تمرح بالقرب من قفص النسور.. معظم أعمالهم وقتية مهمشة لا تستند إلى طموح منظم أو مشروع مستقبلي يؤمّنهم، أشبه بعمال التراحيل، ينتظرون رضاء الباترون عنهم فكما قيل لي من أحدهم: «ربنا يكفيك شر غضبه، أقلها حتترحل على بلدك»..!

بيوتهم لا تختلف كثيرًا عن القبو الذي يلتقون فيه، ومن تزوج منهم مصرية يخاطب أولاده بالعربية، ومن اقترن بسويسرية يجعلها ترطن بالعامية ليتضاحكوا على نطقها الغريب وبعضهم يعلّمها شتائم بذيئة لتزداد سخريتهم، يهتمون كثيرًا بتناول الطعام ولا يخرج أحدهم من بيته إلا ليذهب للقبو أو لعمله، دائرة مغلقة عليهم لا يسمعون فيها إلا صوتهم وصداه، فيظنون أنهم دومًا على صواب..!

يسألون عن ثغرات القوانين قبل قواعده، يبحثون بشغف عن الأبواب الخلفية، متواكلون دائمًا، حريصون جدًّا على أداء صلاة الجمعة فقط في دار السُّنة قرب المطار، وعلمت من باتريشيا أن تلك الدار

أقامها الباترون بعد وصوله بعام، لكنه لا يتواجد بها إلا نادرًا، غرضها الأساسي الفرز والتجنيب لمن يصلح للسير في ركابه، وتحديد من سيخرج من الجولة الأولى لِيهيم على وجهه أيامًا أو أسابيع بعدها يُرحّل إلى مقاطعة أخرى أو يعبر الحدود لإيطاليا أو فرنسا باحثًا عن فرصة أخرى بعيدًا عن الباترون وأعوانه..!

ظللت أنتقدهم جهرًا وسرًّا، في البداية امتعضوا، ثم اندهشوا، وأخيرًا صاروا من الساخرين كلما رأوني، فقد صرت مع مرور الوقت نسخة طبق الأصل منهم..!

سلّمت باتريشيا تقارير عادية تحوي يومياتهم وأحاديثهم المعتادة عن المرأة والطعام ولقمة العيش وبرودة الطقس، ومع ذلك أبدت اهتمامًا ملحوظًا بما كتبت، وأعطتني مالًا كثيرًا مما زادني طمعًا، فكنت أكتب لها فقرات كثيرة من خيالي وكأنني أؤلف حكايات مُسلية، أطلقت لخيالي العنان، أضيف وأحذف من قصة كل منهم بما يروق لي وكيفما أشاء..!

لم يقترب مني أحد لدرجة الصداقة، ولم أجد في أي منهم ما يشجعني على الالتصاق به. سألتهم مرة عفويًّا في إحدى لقاءاتنا العابرة عن اسم الباترون الحقيقي وكانت الخمر قد لعبت برؤوسنا فانتهزت الفرصة لعلهم يجيبون، وأبديت لهم استغرابي لعدم ظهوره وخشيتهم من بأسه وغضبته، ساد صمت لفترة بعدما ألقيت بسؤالي على رؤوسهم، وعبرت سحابة تجاهل بسرعة، كنت أعتقد أن بدر هو الباترون رغم أنه قليل الظهور في تجمعاتهم، لكنه يسخر منهم ويسفّه كلامهم ويناديهم بأسماء نسوية إمعانا في السخرية منهم كلما التقاهم، وجميعهم يتقبلون منه ما يقول وهم صاغرون، عدت ألح في سؤالي حتى فكت كأس الفودكا الرابعة لسان واحد منهم فأجابني بلا مبالاة: اسمه سيدي نور الدين الشمسي، الرئيس الشرفي للمركز الإسلامي بجنيف..!

***

بحثت عن الشيخ نور الدين حتى أعيتني الحيلة، فالرجل شبح نسمع عنه ولا نراه، وكلما ذهبت إلى مكان قالوا لي كان هنا ولا نعلم متى سيعود، رئاسته الشرفية للمركز الإسلامي تجعله لا يتردد عليه فيما يبدو، وبعد عشرة أيام من البحث المضني تعثرت فيه بالصدفة البحتة عقب صلاة جمعة، يومها كنت أنتظر خارج المركز الإسلامي بجنيف لحين انتهاء بعض المصريين من الصلاة لنتناول طعام الغداء سويًّا، عند لحظة خروجهم وتباطؤهم قرب البوابة عرفته من قبل أن يدلني عليه أحد منهم، كان متفردًا، ملفتًا، مختلفًا عنهم جميعًا، يرتدي زيًّا غريبًا، قميصه أشبه بجلابيبنا لكنه قصير حتى الركبتين، أسفله بنطلون قصير أيضا بلون قشر البندق، مغربي الأصل، فرنسي المولد، ومع ذلك يتحدث العربية بطلاقة، فارع الطول لكنه نحيف للغاية، أبيض البشرة واللحية معًا، تعجبت من خوفهم من بطشه وغضبه، فقد بدا لي اسمًا على مسمى من نورانية وجهه وصفاء عينيه الزرقاوين وسماحته التي تطل بوضوح وشفافية من قسماته الهادئة..

اقتربت منه وجمع من المصريين يحيطون به بعد الصلاة، كلهم ينادونه باسمه مسبوقا بلقب سِيدي، صافحته بعدما قدموني له، الرجل كان ودودًا للغاية، شعرت لوهلة أنه ينظر في عينَيّ بعمق، يخترق وجداني، ليقرأ عقلي على مهل، ارتعشت قليلًا وأنا أسحب كفي اليسرى بهدوء من يمناه القوية العفية رغم سنه المتقدمة، حكوا له في عجالة أنني سوداني مسيحي، لدي مكتب صرافة ومتزوج من سويسرية مؤخرًا، بارك زواجي بابتسامة مبتسرة وقبل أن ينصرف أكد على ضرورة لقائنا في أقرب فرصة من قبيل المجاملة حسبما شعرت من نبرته، لكنني تشبثت بمقولته وتعلقت بأهداب الفرصة، فقد انجذبت للرجل كما لو كنت من مريديه بلا مقدمات، فقال بوداعة تحت وطأة إلحاحي: تعال هنا غدًا في السادسة مساءً، سأنتظرك.. وتركنا وانصرف.

أكلني الفضول لمعرفة الرجل عن قرب حتى أزف الغد، كنت في موعدي تمامًا خارج المركز الإسلامي طارقًا البوابة برفق، طلبت من الحارس الأفغاني الضخم الذي استقبلني أن يبلغ سيدي نور الدين

بحضوري، لدهشتي قال لي على الفور وهو ينحني: سيدي في انتظارك يا مسيو برنار..!
صافحني نور الدين بترحاب ثم أمر لي بمشروب ساخن، واستأذنني في الصلاة، أدار ظهره لي ناحية القبلة وشرع في أداء صلواته لفترة طالت، فلما فرغ والتفت يُسلم، برقت عيناه بشدة وقد أطلت منهما دهشة عارمة، فقد كنت راكعًا خلفه بمسافة، ظل على اندهاشه لكنه محتفظ بوقاره، حتى قطعت شكّه باليقين وأنا أمد يدي نحوه قائلًا: أنا نوبي مسلم
يا مولانا..!

***

في صباح يوم صحو شبه مشمس في تقديرهم، مائل للبرودة غائم قليلًا، متقلب بالنسبة لي، اصطحبت الكلب الأسود الضخم الذي تملكه زوجتي في نزهة طويلة بعد أن أصيبت قدمها بالتواء وطلبت مني أن أسدي لها جميلا بالترويح عن الكلب، قائلة بأسى شديد وعينين شبه دامعتين: لم يتنزه منذ يومين أرجوك خذه معك..!
لم أجد أي غضاضة وقتها في اصطحاب الكلب ولم أخف منه لدهشتي، ارتديت بدلة كاملة وقبعة بيضاء كبيرة سائرًا بالكلب في خيلاء، ذهبنا ناحية ممشى البحيرة، ودرنا نصف دورة حول مرفأها الصغير حتى استبد بي التعب، جلست على أريكة بالقرب من ساعة ضخمة أرقامها مرسومة بالحشائش وعقاربها تغطيها الزهور الملونة. قبع الكلب بالقرب من قدمي لاهثًا وظل ينظر لي بارتياب، ثم راح يمد بصره نحو صفحة الماء، ليعاود الكرّة نحوي وكأنه يسألني من أنت ولماذا أتيت إلى بلادنا؟!
كدت أقول له إنني أبحث عن هويتي، وقد لا تفهمني فأنت بلا وطن ولا زوجة ولا أولاد مثلي، لكنك مستقر، تعرف إن تزوجت ستجد رعاية لك ولها ولكلابك منها، لن تصحو يومًا ليخبروك أن فيضانًا من أمطار غزيرة قد تسبب في غرق كشكك الصغير بالحديقة، أو أن أنثاك رحلت مع جروك الصغير إلى بلد آخر أو ماتت بحسرتها، ستجد دومًا من يحنو عليك، من يعتني بك، من يوفر طعامك وشرابك، من يفصص لك اللحم بعيدًا عن العظم حرصًا على أمعائك الرقيقة، من يداويك إن مرضت أو حتى شعرت بتوعك بسيط، أنا أتولى جمع فضلاتك التي تتركها في أي مكان يروق لك بهذا القفاز النايلون الرقيق الذي دسته زوجتي في جيبي، حتى مزاجك أنا هنا الآن كي أحرص على أن يكون جيدًا بهذه النزهة..!
أطرق الكلب قليلًا وكأنه يقلّب كلامي في رأسه الضخم، ثم اعتدل في جلسته وقد تدلت أذناه وأخرج لسانه، بدا مرتابًا في أمري، بعد برهة عاد يرفع بصره نحوي بعينين حزينتين، يبدو أنه يرثى لحالي، ثم زام غاضبًا بلا سبب، فربت رأسه مبتسمًا قائلًا: لا تخف أنا لا أحسدك لأنك أفضل مني، أنا فقط أفضفض معك، أشكو إليك همومي، فلا أحد يسمعني هنا..!
هز رأسه بقوة، وبدا مقتنعًا!
انتبه فجأة وهبّ واقفًا ومضى مبتعدًا عني، جذب السلسلة بشدة، قاومته لكنه أرغمني على النهوض. كان قد لمح أنثى من نفس نوعه، فثارت ثورته ونبح عاليًا، ظل يجذبني بقوة وعناد، غريزته تلح عليه ويسراي تضغط بشدة على لجامه لأثبطها، التفت المارة نحوي بسبب هياج الكلب، ابتسامة خفيفة لاحت لي من صاحب الأنثى كي أبتعد بكلبي عنها، أعقبتها نظرة متوسلة من عيني الكلب نحوي كي أقترب، سال لعابه بعدها غزيرًا وعلا لهاثه، رق قلبي لحاله وبلا تردد تركت السلسلة تنساب، أفلت يدي فجأة وابتسامتي تتسع بقدر ابتعاده عني. مضى الكلب يعدو نحو أنثاه، ولم تمض ثوانٍ إلا وقد اعتلاها على الفور بعدما تشمم مؤخرتها وهي مستسلمة في ميوعة، بينما صاحبها يتراجع خوفًا، وظل يصيح ويحتج، يناديني غاضبًا لأتدخل، لكنني كنت باردًا، حتى بدأ الكلب يلهث ببطء وهو يهبط عنها، وصراخ الرجل الآخر يعلو ويتنامى ويكدر صفوهما وكأنه قادم من بعيد. سحبت كلبي بعدما فرغ من شهوته، ومضيت محملًا باللعنات والصياح والاستنكار من خلفي من صاحب الأنثى التي أطلقت نباحًا متقطعًا رفيعًا ثم تقلبت على الأرض وهي تثني قائمتيها الأماميتين طامعة في مضاجعة أخرى، لم أعبأ بصراخ

الرجل وشتائمه، ربتّ على رأس الكلب مهنئًا، نظر لي ممتنًا ولعق يدي، ومن يومها شعرت لأول مرة أنه قد أصبح لي صديق حقيقي في تلك البلاد الباردة..!

***

42

مضى أكثر من ثلث ساعة على موعده معي ولم يظهر بعد، جلست أحتسي قهوة إيطالية شديدة التركيز منتظرًا في قلق ببوفيه محطة القطار الرئيسة بجنيف، واجهتها الكبيرة مطلة على رصيف القطارات مباشرة ومن نافذتها الزجاجية أرى كل من يدخلون إليها، عيناي لم ترمشا للحظة من شدة انفعالي للقائه بعدما اعترفت له بحقيقتي. رويت له قصتي كلها بما فيها تفصيلات ما فعله بدر بي ومعي بالقاهرة وبجنيف، كنت أرى فيه طوق نجاة مما أنا فيه، وبما أنه الباترون فليخلصني إذن من بطش بدر واستغلاله لي، لكن الغريب أنه لم يندهش ولم يعلّق بحرف على روايتي، استمع لي بصبر جميل وملامح ساكنة مستريحة هادئة كأنه كان يعرف واستعذب الاعتراف، جذبني أكثر إليه بهدوئه وصبره، فلم أترك شيئًا
إلا ورويت تفصيلاته كما شعرت به.. لكنني منتظر الآن تدخله.

في نهاية لقائي الأول به شعرت لوهلة أنني قد استرحت كثيرًا، انزلقت هموم كالصخور كانت تجثم بقوة على كتفيّ وتفتتت في دقائق، لكن بعدها بيومين انتابني شعور غريب، كنت كمَن قفز قفزة واسعة في الظلام ولا يدري بأي أرض يهبط، أسبوعان مرًّا عليَّ كالدهر، حتى هاتفني نور الدين الشمسي بمكتب الصرافة وحدد لي موعدًا للقاء، فانتفضت من مرقدي كمَن تلقى قبلة الحياة..

عدت من شرودي متفرسًا في الوجوه حتى انتبهت فجأة لشخص يفتح مظلة حمراء ثم يطويها ببطء، كان هو.. نور الدين، الغريب أنه رآني لكنه لم يلتفت لي ولم يدخل بوفيه المحطة، بل مضى في طريقه ثم أبطأ من سيره ناظرًا نحوي من خلف الزجاج مقطبًا جبينه، بعدها التفت نحو قطار قادم من جهة الشرق وهو ينظر في ساعته، على الفور غادرت مكاني وسددت فاتورة حسابي دون انتظار الباقي، لحقت به في اللحظة الأخيرة وباب القطار ينغلق ورائي..

اختار نور الدين ركنا قصيًّا في نهاية العربة، جلس عكس اتجاه السير، بينما جلست أمامه مباشرة، ابتسم ليطمئنني ثم قال بصوت خفيض: سنذهب إلى بلدة « Zermatt »، ومنها سنصعد للجبل، وهناك سنكون في أمان بعيدًا عن المتلصصين!

اخترق القطار الضواحي المشبّعة بخضرة كثيفة بديعة وتلال متفاوتة الأحجام والأشكال، تتناثر عليها أكواخ خشبية متشابهات تطل على مراع تحوطها سياج خشبية منخفضة، لوحة لا يبدعها إلا واحد أحد ولا يقدر على رسم تفاصيلها غيره ولا يبّعث فيها الحياة سواه..

كان القطار يمضي بسرعة ونور الدين يثبّت ناظريه في حدة كالصقر عبر النافذة إلى أعلى قليلًا، لم يتحدث كثيرًا، فقط كان يشير إلى مواطن الجمال فيما نمر عليه وما أكثره، يشرح ما يراه مهمًّا أن أعرفه، بغير إسهاب مملّ أو إيجاز يخلّ بمضمون ما يقول. كنت منتبهًا كتلميذ في محراب معلمه الأكبر يحاول أن ينهل منه قدر المستطاع، أحيانًا لم أستوعب بعض ما يقوله، خاصة عندما حدثني عن الخير والشر الكامنين في كل منا، فاجأني بأنه يستعين بأشرار لتحقيق الخير لآخرين، يصبر على شيطان من أجل ضحايا قد يحتاجون عطفه عليهم.. ثم ألقى على مسامعي قنبلة وهو يقول:

- حتى مسيو بدرو بداخله بقعة مضيئة في قاعه، قد لا يراها الجميع لكنني أدركتها مبكرًا، ومن يومها وأنا أحرص على أن تكون قبلتي الوحيدة..!

وصلنا محطتنا الأخيرة بعد نحو أربع ساعات تقريبًا، تبدلت اللغة الفرنسية إلى الألمانية في كل شيء فجأة وكأننا دخلنا بلدًا جديدًا، لافتات المحال وحديث الركاب الوافدين في المحطة الأخيرة حتى نداء مذيع القطار الداخلي، فنحن الآن بالجانب الألماني من سويسرا. البلدة تبدو صغيرة ليس بها سوى ثلاثة شوارع رئيسية وبمنتصفها كنيسة كبيرة عالية، علق نورالدين على ملاحظتي بأنها تشتهر بكونها بلد نصف الساعة في إشارة إلى صغر رقعتها ومحدوديتها، مررنا بغابة صغيرة سيرًا على الأقدام، يقطعها

عرضًا بانحراف جدول صغير رائق، كانت كثيفة الأشجار وتعج بالسناجب، ألقى لهم نور الدين بعض حبات البندق أثناء سيرنا ومع ذلك لم يقتربوا منا أبدًا، استوقفنا شاهد حجري ضخم يروي تاريخ المكان، لخّصه نور الدين قائلًا: قدماء السكان من مئات السنين هنا توحدوا واستماتوا حتى حافظوا على غابتهم وسط العمران، فلم يمسسها أحد..!

ابتسمت له مؤيدًا، فرمقني بنظرة من يستحثني على قول شيء ما آخر، لكنني لم أنطق..!

خرجنا من الجهة الأخرى للغابة إلى شوارع المدينة وأنا مبهور

لا أود مغادرتها، لنستقل ما سماه نور الدين بـ «تليفريك»، كنت أشاهده لأول مرة بعد كل هذه السنوات في ربوع سويسرا، عبارة عن هيكل حديدي ضخم أشبه بصندوق المصعد لونه أحمر ناري معلق بأسلاك كهربائية ضخمة، وقفنا به متراصين محشورين مع آخرين وهو يصعد بنا نحو السماء إلى قمة جبال الألب، وكلما نظرت من النافذة أشعر بدوار خفيف فأغمض عينَيّ. الأرض تبتعد لكن السماء أيضًا لا تزال بعيدة. ابتسم نور الدين وهو يخاطبني بصوته الرخيم وكأنه يقرأ أفكاري: لكن الله موجود، قريب منا، يسمعنا، كل ما عليك أن تتطهر تمامًا قبل لقائه..

هززت رأسي مؤمِّنًا على كلامه، لكنه عاد يقول بجدية كمَن يحذرني: اعلم أن الله لا يحب المساومة ولا يقبل أبدًا بحلولنا الوسط، تطهر من كل شيء أولًا ليساعدك.

كررها ثانية ولم أفهم سبب ذلك، كان «التليفريك» قد وصل إلى قمة الجبل فخرجنا وقد لفحتنا برودة منعشة، البياض من حولنا مرهق للعين في البداية لكن سرعان ما تعودت عليه، مضيت خلفه حيث استأجرنا أحذية مخصصة للسير على الثلوج، تدثرنا بمعاطف ثقيلة حمراء تحمل صورة الصليب بلون أبيض، نفس ألوان وتصميم العلم السويسري، وسرنا صعودًا، يتوكأ نور الدين على عصاه وأنا أحافظ على توازني بالكاد وأستند على كتفيه أحيانًا، فلم أصعد تلًّا بغير والدي أبدًا من قبل، دومًا كنت أمسك بيده، لكن نور الدين يوليني ظهره وأنا أتبعه صامتًا، حتى بلغنا تبة عالية تغطيها الثلوج، ضرب بيده على صدري اللاهث قائلًا: أنا أصدقك لكنك تعاند قدرك وترفض واقعك..!

ظللت صائمًا عن الكلام فسألني بحدة: هل تريد مِسكة وابنك، أم أموال بدر التي جنيتها من التهريب وما زلت تغترف منها ملء كفيك كل صباح؟

- ولماذا لا أحصل على الاثنين معًا؟!

رفع رأسه نحو السماء وأشار بعصاه عاليًا، فذكّرني بجدي وهو يخاطبني صغيرًا: هنا الله، ثم خرج صوته عميقًا وهو يحذرني مرة ثالثة من المساومة، شرحت له بحدة أني لست مساومًا لكنني أريد العودة لأرضي، أزرعها وأقضي بها ما تبقى من عمري مع أسرتي، هذا حقي، وبدر كان وسيلتي وباتريشيا أيضًا، فلم يكونا غاية.. والغاية تبرر الوسيلة كما يقولون.

هز رأسه كالبندول المضطرب بما يوحي بعدم اقتناعه، وراح يملأ كفيه بالجليد المتجمد ويكوره ثم تركه ينزلق على منحدر، كبرت كرة الثلج التي صنعها نور الدين كلما انحدرت حتى صارت ضعف حجمها إلى أن اصطدمت بقائم خشبي فتفتتت، نظر لي بعدها متسائلًا بصوت عالٍ: هل مِسكة موجودة بيننا هنا؟ لم ينتظر مني ردًّا بل أجاب عن تساؤله بهز رأسه نفيًا، هنا علا صوتي مقاطعًا مؤكدًا: نعم موجودة..

تجاهلني وأطرق عابثًا بعصاه في الجليد ليحدث حفرة صغيرة، حتى ظهر الماء من أسفلها، أخرج نور الدين عملة معدنية من جيبه ثم ألقاها بها، بعدها أهال الثلج عليها مرة أخرى، ونظر لي وهو يبتسم متحديًا: هل تستطيع أن تجدها؟!

رددت الابتسامة باستخفاف وقبلت التحدي، رحت أحفر بيسراي وأستخدم يمناي الصناعية المبسوطة كجاروف لإزاحة ناتج حفري، لم يستغرق الأمر مني وقتًا حتى ظهر قليل من الماء فمددت كفي لألتقط العملة المعدنية لكنني لم أجدها، بحثت مرة أخرى، لكنها اختفت تمامًا كأنها ذابت، استعنت بعصاه حتى

اتسعت الحفرة والعملة تأبى الظهور. ابتسم نور الدين في هدوء وبدأت أتوتر ورحت أنبش الثلج بسرعة وعشوائية كالمجنون، أضرب يدي بطول ذراعي حتى القاع، يبدو أنها بئر عميقة إلى ما لا نهاية، جلست ألهث قليلًا ثم شرعت مرة أخرى في الحفر بمكان محدد، فأنا متيقن أنه ألقاها هنا والحفرة لا تبدو عميقة لهذه الدرجة التي وجدتها عليها، لا بد وأن لها قاعًا في نهاية المطاف، فأين اختفت العملة إذن؟!

ابتعد نور الدين عني بخطوات ثم قال: أرأيت؟ هكذا حال مِسكة.. موجودة لكنك لا تراها ولن تفلح أبدًا في العثور عليها، قد تكون هنا وربما كانت في بلادك مع صغيرك وربما...

صرخت في وجهه: لا، لا تقلها، مِسكة لا تزال حية، أنا متأكد من ذلك.

- لا تعاند قدرك يا بني، ربما لو خلصت نيتك للعودة لوجدتها، قد تكون راحتك في بقائك هناك بالقرب من أرضك وقد تجد ابنك وتسترد هويتك، أنت تحتاج لبداية جديدة بدلًا من أن تعيش في ماضٍ ولّى وانتهى، ووقتها ستجدها..!

سكت قليلًا ثم أردف: راضية..!

أطرقت وتحجرت دموعي، زممت شفتَيّ، ابتعدت عنه قليلًا، لكنه ناداني باسمي الحقيقي مشيرًا بعصاه نحوي: أنت تساوم القدر، تريد مغادرة طاولة القمار فائزًا محتفظًا بكل نقودك، مع أنك قامرت واستمتعت وربحت أحيانًا وهذا كله له ثمن، لكنك لا تريد أن تدفعه..!

- لكنني...

- لكنك خسرت، وتيقنت من داخلك أنك خاسر؛ لذا أنت تقامر بنفسك الآن، تلك هي ورقتك الأخيرة، حاول أن تنجو بها ولا تنتظر أكثر، فالخسارة ستكون فادحة كلما طالت جلستك على طاولة بدرو..

- وأترك مِسكة وابني؟

- أنت رأيت العملة تغرق أمامك وكنت متأكدًا من وجودها هنا، ومع ذلك لا تصدق أنها اختفت. لو كنا نصنع قدرنا لكنا غيرنا مساره، الحقيقة الوحيدة في رحلتك أن كل شيء غرق ولم يبقَ إلا أنت..!

في طريق عودتنا كنت مطرقًا صامتًا حزينًا، ولم يحاول هو أن يُسرّي عني بل تركني لهواجسي ومخاوفي وأفكاري المشوشة، حتى اقترب القطار من محطة لوزان قبل مدينة جنيف بنصف ساعة، فبدأ نور الدين يتأهب للنزول بها، رفعت بصري نحوه وهو يحضر مظلته من أعلى الرف فوق مقعده، مازحته لكي أذيب الثلوج العالقة بيننا قبل أن يمضي ويتركني مناديًا إياه بالباترون بنبرة من يعرف أكثر فقد كنت متأكدًا الآن أنه الباترون الحقيقي، لكنه ابتسم بوقار وربت كتفي في شفقة وهو يردد على مسامعي:

- لست الباترون يا ولدي، أنا فقط أرشد من يريد أو من يضل الطريق، وفي ذات الوقت أنفذ رغباته على من يعصاه..!

- رغبات من؟

- السيد بدرو... الباترون الحقيقي لكم جميعًا..

تلعثمت قليلًا ولم أرد، ألجمتني المفاجأة لبرهة طالت حتى قلت في شرود وأنا أنظر بعيدًا:

- وما الذي يستفيده بدر من السيطرة على هؤلاء المصريين وبعض الجاليات العربية؟ كلهم بلا قيمة على الإطلاق بالنسبة له، مجموعة من الرعاع ولا شيء أكثر كما يصفهم دائمًا..!

ابتسم نور الدين بمرارة وهو يرتدي معطفه الأسود الأنيق قائلًا: هذا بالضبط ما يريده، أن يكون دومًا سمكة كبيرة في حوض صغير، الكل يخاف أن تبتلعهم من ضخامة حجمها وشراستها، أما لو أعدتها للبحر ستبدو عادية، تخاف من الحيتان وقد تؤكل في ثوان..! هذا هو اختياره.. ولا بد أن هناك باترون آخر أكبر منه..

- لكن لماذا تنفذ رغباته يا سيدي؟! أنت لست في حاجة إلى...

مندهشا من سؤالي قبل أن أكمله، مكتفيًا بجملة واحدة مقاطعًا وهو يهم بالنزول، رافعًا إصبعه في مواجهتي منبهًا: أنا بشر مثلك وتلك حياتي وهذه رحلتي..!

توقف القطار وهبط منه نور الدين، وبعد قليل ظهر مرة أخرى أمام نافذتي، توقف وهو يتنهد في يأس قائلًا: ابحث عن صفاء روحك لكي تعرف طريقك، أنت تسير الآن عكس الاتجاه وكأنك لا تريد العودة.

كنت مرتبكًا من حديثه كلّه فلم أردّ وعقم عقلي عن تقديم تفسيرات، هممت بوداعه وشكره ممتنا وأنا أشرئب بعنقي من النافذة، لكنٍ صافرة القطار انطلقت مدوية فلم أنطق. تحرك قطاري فجأة وابتعد نور الدين وعصاه حتى صار خيالًا صغيرًا ثم اختفى تماما مثلما يفارقني ظلي في الأماكن المظلمة، بينما ظللت ألوّح بكفّي في الهواء من بعيد
للا شيء..!

***

43

- وصلنا..

.. قالها بدر بعدما أوقف سيارته بالقرب من المطعم الإيراني بمدينة مونترو، لكن باتريشيا لم تتوقف عن الحديث بعد، مثلما كانت طوال الطريق من جنيف، أكثر من ساعة ولسانها يتحرك، إشارات يديها وحركة جسدها وانفعالاتها تشي ببركان غضب لا يزال في مرحلة الفوران، يُمزج بالخوف بمهل، يُقلب على نار الانتقام انتظارًا لرد فعل مجهول غير متوقع قد يظهر في أي لحظة من جراء تحولات عجيبة منذ أن اضطرت لإخباره كذبا بأن مِسكة وابنه الصغير قد عادا إلى مصر بسبب ظروف سياسية أقوى من منظمتها. ثار عجيبة بعدها ثورة عارمة، هددها بكشف كل شيء أمام لجنة حقوق الإنسان وبأنه سيلجأ للصحافة المحلية بسويسرا، سيكتب شكاوى وينشرها، سينظم مسيرة مع أفارقة تعرف عليهم بجنيف يعانون من الاضطهاد ببلادهم واستغلتهم باتريشيا بدورها.. خرج المارد من القمقم ولم يعد من السهل إعادته..!

بدأ يخفي حسابات مكتب الصرافة عن بدر وعن زوجته السيدة برنار، صار يختفي لساعات طويلة كل يوم، استطاع استقطاب رجلين من رجال بدر، أغدق عليهما بالمال حتى كشفا له الكثير من الأمور عن تبييض الأموال وتهريبها من بلدان أورُبا الشرقية ثم إلى أمريكا.. فظن أن لديه ورقة ضغط..!

لم يبادلها بدر ذات الانفعالات، وبدا منشغلا بمراجعة رابطة «الفولار» الحريري الوردي بمرآة السيارة الذي يلف عنقه ويندس بين ثنايا قميصه ليصل لمقدمة صدره، فطرقت بكفيها بشدة على ساقيها وهي تصرخ: سيكتشف هذا الغبي كل شيء، إنه يحفر خلفك، لقد أدرك أن مِسكة لم تكن هنا، لم تخل عليه كل الحيل حتى الأوراق التي اصطنعتها لم يصدقها كان يسايرنا فيما يبدو إلى حين..!

- اهدئي.. أنا أعرف كل ما يفعله في حينه، أسير بجواره ولا يراني،
ولا يزال مفتاحه معي..

- لا لن أهدأ حتى أرتاح من هذا الكابوس الأسود الضخم، أنت لم تره منذ فترة، لقد توحش، حطم أثاث مكتبي أمس ومزق أوراقي قبلها بأسبوع، هددني صراحة وتركني وانصرف ولم يعد يرد على هاتف مسكنه، ولا يتواجد بمكتب الصرافة، وزوجته لا تعرف عنه أي شيء، حتى حسابه بالبنك أغلقه، يبدو أنه حوّل أمواله إلى بلد آخر. أنا أخشى أن يعرف أكثر عن موضوع...

أشار لها بدر بيده أن تصمت ثم أشعل سيجاره وغادرا السيارة، وجهه تكسوه ملامح باردة كعادته، يشي بابتسامة مكتومة لكنها مبتسرة دومًا
لا تولد قط، لمعت عيناه وهو يجلس أمامها وأبخرة الطعام تخبو ببطء، نطق أخيرًا بكلمات قليلة، كان يضغط على مخارج ألفاظه في كل حرف منها كأنه يلقنها إياها، استمعت إلى ما ينوي عمله لكنها أشاحت بيدها قائلة في ضيق: لا، لا يا بدرو هذا حل مؤقت وقد يخيب، سيعود مسعورًا أكثر مما هو الآن..

أشعلت سيجارتها بعصبية قائلة وأصابعها ترتعش: سأقدم طلبًا لنقلي إلى مراكش بمكتبنا في شمال إفريقيا، فأعصابي لم تعد تحتمل هنا..

لم يعر بدر كلامها اهتمامًا وانشغل بطعامه، عادت تسأله وهي شاردة لعلها تهدأ قليلًا: ماذا قال لك الطبيب في لندن عن النزيف الذي يؤلمك كل فترة؟

ابتسم في خبث وهو يمسح شفتيه ويرفع كوب الماء نحوهما: سأحتاج لزراعة كلية بدلا من كليتي اليمنى التالفة..!

بدت عليها ملامح انزعاج وأمطرته بالأسئلة لكنه عاجلها قائلًا بذات الابتسامة: خلال أسابيع قليلة سأجري العملية هنا، ووجدت متبرعًا،
لا تقلقي أنا عشت سنوات عمري كلها بكلية واحدة..!

نظر في ساعته ثم التفت نحو المدخل، حتى وقع بصره على شخص رفيع طويل القامة منحني الكتفين يرتدي ملابس سوداء تمامًا كلون بشرته، له رأس صغير للغاية لم ينبت به شعر، يغطيه بقبعة بيضاء ضخمة خلعها فور دخوله، فبات أشبه بسلحفاة، دخل الرجل المطعم ووقف ببابه باحثًا عن طاولة محددة، أشار له بدر من بعيد فاقترب، قدّمه لباتريشيا قائلًا: نانو شريكي الجديد، مهاجر من السنغال، أعتقد أنكِ بحاجة للتفكير مرة ثانية قبل اتخاذ خطوة السفر إلى مراكش، ربما تحتاجين نانو في عملك أيضًا!

قالها وضحك، لكنها حتى لم تبتسم، ظلت شاردة تلقي كل وهلة قطعة من لحم الضأن المكسو بالصنوبر في فمها وتلوكها ببطء، تمضغها على مهل، لا تعرف لها طعمًا، تبتلعها بالكاد وهي تتفرس في وجه بدر وتتقل بصرها إلى نانو، هذا الأسمر القادم من قلب إفريقيا ليحل محل عجيبة، هزت رأسها غير مقتنعة، بدا لها بدر كمدرب كرة قدم يبدل لاعبيه بعدما يغير خطته أثناء المباراة، «لكن الحياة أصعب يا بدرو، ليست تسعين دقيقة فقط».. قالتها سرًّا وابتلعتها مع طعامها البارد..!

ما إن فرغا من الطعام حتى نهض بدر داعيًا إياها لنزهة بممشى البحيرة قائلًا: لا توجد نزهة على الأقدام في العالم أمتع من هذا المكان، الملك فاروق كان يأتي إلى هنا خصيصًا ليتمشى فقط، تخيلي؟!

لم تُبد باتريشيا أي تجاوب مع حديثه، فقط جذبت نفسًا عميقًا وأخرجته ببطء وهي تتنهد ناظرة للسماء لعلها تمطر حلًّا، عقدت كفيها خلف ظهرها المنحني قليلًا ثم عادت تصوب نظرة شاردة نحو البحيرة العريضة في تلك البقعة التي تحيطها قمم الجبال من الجانبين.. توقفت فجأة عن المشي، أمسكت بذراع بدر ثم أطبقت عليه بقوة قائلة بصوت مختنق: أنا سئمت اللعب بتلك الدمية المخيفة.. لم أعد أريدها يا بدرو.. أرجوك افعل شيئًا.. أرجوك.

- اهدئي يا عزيزتي، نحن صنعناه لكي يخاف منه الآخرون لا لنخاف نحن منه.

قالها باللغة العربية حتى لا يلفت انتباه نانو لحديثهما، أفلتت منها دمعة عين فقالت وهي تمسحها بكف مرتعشة متوترة وقد بدأ صوتها يتحشرج قليلًا: لا، أنا أبدو متماسكة أمامه، لكنه يثور فيبدو كشخص آخر غير عجيبة الوديع المسالم الذي نعرفه، ويهددني دومًا، لا أعرف من أين أتى بهذه الجرأة؟!

- لا تخافي، هو يهدد بما لا يعرف، من المؤكد أنه سمع كلامًا من آخرين وردده.

احتواها بذراعه فوضعت رأسها على كتفه، كانت قلقة للغاية كسمكة صغيرة وسط تيار جارف، راح يمسح شعرها بيده ويقبّل جبهتها وهو يغمغم: كل شيء له نهاية في موعد محدد.. عجيبة الآن كالبالون كل ما عليكِ أن تجذبي الخيط بقوة نحوك كي لا يبتعد..!

رفعت عينيها نحوه مستفسرة، فوضع أصابعه على عينيها ليغمضهما وهو يسترسل: نعم اجذبيه بقوتك حتى لا يطير، هذه الطريقة دائمًا ناجحة مع رجل شرقي مثله..!

- مع عجيبة؟!

- ومع أي رجل غيره، ما المانع ؟!

***

- عجيبة .. عجيبة.

لم أصدق أذني، كنت أسير متثاقلا ألوك بين أسناني قطعة كبيرة من رغيف خبز الباجيت الطويل، التفت نحو الصوت مذهولا، لكنْ عيناي لا تكذبان أبدًا، إنها هي، مِسكة الجميلة المميزة تناديني .. أخيرًا بعد طول انتظار، وهذا الصغير لا شك هو ابني عجيبة، لقد تبخرت كل مقولات وتنبؤات نور الدين الشمسي إذن وكذبت توقعاته، أفلت الصبي كفه من يد أمه وانطلق نحوي، جثمت على ركبتي بانتظاره ودموعي تتسابق للانهمار تباعًا، احتضنته بقوة، حتى أخفيته تمامًا بين ذراعي، ظللت مطبقًا عليه حتى اقتربت مِسكة بلهفة، وضعت كفها الحانية على رأسي، نهضت وأنا أحمل صغيري بيسراي والصبي يتأمل كفي اليمنى وينظر إلى أصابعه في دهشة ، تحسست مسكة وجهي بكفيها، اقتربت مني أكثر، تلامس خدانا، همست لها: «أحبك»، مسحت دموعي وهي تكررها بنفس النبرة، تركت عجيبة الصغير ينزلق برفق

على فخذي حتى لامس الأرض لأحتضنها، وضعت رأسها على صدري، بكت بقوة، علا نحيبها، دخل الصغير من فتحة ضيقة بين ساقينا و تشبث بهما، صار المشهد ملفتا أكثر للمارة من حولنا، لكن لا أحد منا يتحرك، رحنا نعوض شوقا ولهفة طالت لسنوات، ظننا ثم آمنا أن هذا اللقاء لن يسمح به القدر ثانية ..

وكأنها قرأت ما يدور برأسي، ردت مِسكة وعيناها تلتهمان ملامحي اشتياقًا : طول ما فينا روح لازم نعود، ثم ضحكت رغم الأسى الذي يغطي وجنتيها ورددت بصوت واهن متحشرج : سنعود، سنعود حتمًا، يوما سنعود ..!

تقلب الطقس فجأة وغامت السماء بالسحب الرمادية، التصق ثلاثتنا ببعض أكثر، حملت عجيبة الصغير بيسراي وضممته لصدري ومِسكة تدفن رأسها فيما تبقى، يعلو صوت الرعد هادرًا، تبرق السماء غاضبة للحظات ثم تهطل الأمطار بغزارة، فيضان رهيب من الماء يغطينا، الريح عاتية والأشجار تتمايل حولنا، تقاوم اقتلاعها من جذورها تحت وطأة الرياح القوية، صفير الهواء يصم آذاننا، هرولنا مع المارة الفزعين، نبحث عن سقف يحمينا فلا نجد، باتت الرؤية ضبابًا، يسقط الصغير من يسراي فجأة وتفلت يد مِسكة المبتلة مني، ألتفت ناحيتهما جزعًا، شعرت بعجز غريب يغزو كل أطرافي، كأنها تيبست كلها في آن واحد، تسمرت في مكاني، وتيار ماء جارف يأخذهما بعيدًا عني وهما يرفعان ذراعيهما يستغيثان بي ويناديان علي، لكنني لا أقوى حتى على الصراخ، أحرك شفتي بالكاد، الكلمات عاجزة عن الخروج والحروف لا تتشكل والعقل مرتبك، فجأة يصطدم بي جسم صلب مندفع بسرعة لا أعرف ما هو، يدهسني بقوة، فصرخت عاليًا وقد عاد إلي صوتي مرة ثانية ..!

انتفضت والدماء تسيل من رأسي بعدما شجت جبهتي، تحسست دمائي فوجدتها باردة تمامًا، تلفت حولي فلم أجد أثرًا لمِسكة أو عجيبة الصغير، صرخت بأعلى صوتي مناديًا عليهما، لكن لا مجيب..

فتحت عينَيّ فزعًا وعرقي يتصبب بغزارة من مقدمة رأسي، وجدت زوجتي برنار بوجهها الكئيب وأنفها المفلطح وهي تقترب مني بشدة، شعرت وكأنني أنظر لها بعدسة مكبرة، ظللت مندهشًا وهي تخاطبني بصوت أقرب للفحيح: جون.. هل أنت بخير يا عزيزي؟!

أدركت لحظتها فقط أنني كنت أحلم ..!

استغرقت وقتًا طويلًا للنهوض من الفراش فقد كنت متكاسلًا للغاية وأنهكني الحلم تمامًا، ناديت على برنار فلم ترد، سمعت صوت باب الشقة يصفق، لأجد على منضدة المطبخ ورقة صغيرة منها تخبرني بأنها سوف تزور أهلها في مقاطعة سييون، وستبيت عندهم وتتمنى لي نومًا هادئًا. لم يمض بعدها وقت طويل حتى دق جرس شقتي لأجد باتريشيا تقف أمامي، تبتسم بميوعة لم أعتدها من قبل، بدت كعاهرة محترفة بين ليلة وضحاها، دخلت دون استئذان، جلست إلى جواري على طاولة صغيرة بالمطبخ بعدما أعدت لنا إفطارًا خفيفًا، كانت تتصرف بأريحية وكأنها زارت البيت عشرات المرات وتعرف مواضع كل شيء فيه وهي مغمضة العينين، فلما علقت على ذلك، ردّت بابتسامة صفراء أن تلك كانت شقتها القديمة..!

أطلعتني يومها على خطاب يشير إلى قرار عودة مِسكة وابني لمصر ثم سلمتني ورقة مكتوبة باللغة العربية وعقدت يديها حول صدرها البارز من بين فتحات قميصها القطني قائلة بلطف: جواب من مِسكة طلبت تسليمه لك..!

اضطربت قليلًا وارتعشت يدي اليسرى وأنا أطبق على الورقة وأقرأ بصوت مسموع. كانت كلمات الخطاب جافة بلا روح، ساكنة بدون نبض، ثقيلة على الأذن وأنا أعيدها في سري مرة أخرى، شعرت بأنه أشبه بخطاب من موظفة لمديرها بالعمل تخبره فيه بأنها قررت العودة للقاهرة ولا شيء أكثر، بلا لون أو طعم أو رائحة مِسكة..!

فجأة امتدت يد باتريشيا تعبث بين فخذَيّ بأصابعها وعينيها تنادياني بشبق، أصابني ذهول لوهلة

وضممت فخذيّ لا إراديًّا فقالت ضاحكة: هل تصدقني إن قلت إنني لم أصادف في حياتي رجلا أثارني مثلك؟! أنا أحسد مِسكة لأنها لمستك كثيرًا..!

لم أدرِ ما الذي يُقال في مثل هذه المواقف، لم أكن في حاجة لتصنع البلاهة بعدما أصابتني بالفعل فظللت ساكنًا أتصبب عرقًا كتمثال تحت المطر، اقتربت مني مائلة بجذعها حتى شعرت بأنفاسها تلفح وجنتَيّ، تلقائيًّا وضعت خطاب مِسكة المزعوم بين شفاهنا، أطبقت باتريشيا عليه بكفها حتى استحال إلى كومة صغيرة ألقتها بعيدًا وهي تضحك، وراحت تلتصق بي وتجذبني نحوها، أغمضت عينَيّ وأنا أغمغم: يا ألله!

دفعتها برفق بيدي لأبعدها عني، غاصت كفّي في صدرها الرخو، اتسعت ابتسامتها ووضعت أصابعها حول كفّي وضغطت بهما على صدرها أكثر، انسابت من بين أصابعي بخفة ونعومة، ابتعدت عني حتى اختفت، ثم سمعت صوتها متغنجًا ينادي باسمي النوبي من بعيد، مضيت متثاقلًا أجر قدمَيّ جرًّا نحو غرفة النوم والعرق لا يزال يتصبب من جبهتي لكنني لا أدري أكان خجلًا أم خوفًا. كانت باتريشيا ممددة عارية وقد باعدت بين ساقيها اللامعتين، لكنها لاتزال بنظارتها الطبية السميكة، تبتسم ابتسامة ذات مغزى وهي تشير لي بإصبعها أن أدنو وأقترب وهي تضع راحتيها على ثدييها فيظهر منهما ما يثيرني أكثر، أطرقت متذكرًا مِسكة بكل حواسي، كان جسدي ينتفض كبركان أوشك على قذف حممه لما وضعت باتريشيا ساقًا فوق أخرى وتناولت قبعتي من جوار الفراش بميوعة لتغطي قدمها المرفوعة وهي تهزها ببطء وتضحك بدلال، شعرت بالسخونة تكسو جسدي كله وكنت أحتاج لمن يطفئ نار شهوتي، لكنني صمدت بأعجوبة وأنا أستدعي كراهيتي لها من داخلي، لتخرج كلماتي أكثر تماسكا وأنا أدير لها ظهري: سامحيني واعفيني..!

مالت بجذعها لتعتدل في رقدتها، وراحت تعبث في جسدي بأصابعها بلين ورقة ثم دست كفها الرقيقة بين طيات ملابسي، كنت واقفًا مستسلمًا إلا قليلًا، عقلي يرسل مئات الإشارات لجسمي بالتراجع لكنني تراخيت والتفتُّ ناحيتها، تركتها تتحسسني ولم أقوَ على الحراك، ظللت متخشبًا وبدأت أشعر بالرغبة واللذة معًا، حتى رددت بتلعثم المتلهف الحائر بينهما: يا مدام.. أرجوكِ أنا لا...

لكنني لم أكمل عبارتي، فقد تجاهلتني لكنها سحبت أصابعها عني في لحظة ذروتي، وعبثت بحقيبتها فأخرجت سوطًا صغيرًا، مدت يدها لي به وهي تهز رأسها في هيستيريا مناشدة إياي بأن ألهب ظهرها، استلقت على بطنها وهي تصرخ صرخات مكتومة قبل أن ألمسها، لاحظت أن ظهرها مليء بالبثور الحمراء العريضة، كانت كثيرة ومتناثرة، بعضها يميل لونها إلى البني الداكن وبعضها الآخر لا تزال حمراء حديثة، التفتت لي بعينين بارقتين بصورة مفزعة أخافتني، طلبَت أن أطفئ سيجارتي في ظهرها، ففهمت أنها آثار سيجار بدر العريض، ظلت تهذي بالفرنسية تستعجل إيذاءها وتعذيبها، رفعت يسراي لأهوي بها على ظهرها وأستريح من هذا الكابوس، لكن ذراعي عاندتني، تصلبت، ارتعشت كفّي، وشعرت لوهلة أن المشهد أمامي يبدو مهزوزًا..! لطالما تمنيت مضاجعتها لكن تلك المرة لفظتها من مخيلتي.

ألقيت السوط على ظهرها بلا مبالاة وبصقت عليها قرفا وابتعدت، بدت متنمرة وبرقت عيناها غضبا، تقلبت ملامحها كنهر ثائر تعكرت مياهه فجأة فعلت أمواجه، دخلت في تنورتها بسرعة وراحت تغلق أزرار قميصها ليختفي نهداها في ثوان، نهضت كلبؤة جائعة وهي تلتقط حقيبتها من جوارها في عصبية وتسب وتلعن بدر بالفرنسية، عادت فجأة امرأة عادية بعدما خلعت رداء الرغبة، لكنها قبل أن تغادر رمقتني بنظرة طويلة جردتني من كل ملابسي من فرط حدّتها، ثم جففت عرقها في منديل صغير ألقته في وجهي وبصقت نحوي بقوة وهي تتمتم في قرف: زنجي حقير..!

مضت بعدها مسرعة تدق الأرض بكعبيها دقات متوترة متلاحقة عالية ثم صفقت الباب خلفها بعنف حتى ارتج جسمي كله، وأقسمتُ يومها على قتلها في أقرب فرصة!

***

44

بعد مرور ثلاثة أعوام وبضعة أشهر في مدينة جنيف، تلك البقعة الساحرة التي ولا بد أنها ستكون جنة الله الموعودة في الآخرة، شعرت بالمرار والحزن يملآن قلبي، بلدي حاربت وانتصرت، بينما انطوت ضلوعي على الهزيمة، سحقتني نكسة روحي، لم أعد قادرًا على المقاومة، كلما شرعت في مهاجمة بدر طرحني أرضًا بقواعدي، حتى سكن اليأس داخلي وتوطن بعقلي، تمكن مني الإحباط، وبدأت أرى بعض الناس من حولي كخيالات باهتة تتراقص من بعيد بلا ملامح، أسمع أصواتهم
ولا أميزها، واكتشفت متأخرًا جدًّا أنني أراهم الآن بحجمهم الحقيقي..!

هل صحيح أنني أعاند قدري كما تنبأ لي نور الدين، بينما القدر يراني من بعيد ويعقد ذراعيه حول صدره ويبتسم في هدوء؟! يتركني أفعل كل شيء حتى تفرغ جعبتي ثم يلطمني ويمضي ليبحث عن ضحية غيري..! لست أدري..

غطت الأسئلة رأسي وتدلت على جبهتي حتى أسدلت جفوني وسدت أذنَيّ، ولا أحد يجيبني كالعادة، فقررت أن أجيب أنا على كل أسئلتي لكن بطريقتي الخاصة هذه المرة. خططت للهروب من الجنة، لكن كل الأبواب أغلقت فجأة في وجهي، نور الدين اختفى وقالوا غادر للمركز الإسلامي بميونيخ ولن يعود في الوقت القريب، باتريشيا نقلت لوظيفة أخرى بمكتب المنظمة في مراكش حسبما أبلغوني بمقر عملها، وبدر لا يرد على هاتفه في البيت أو المكتب، حاولت لقاءه فأخبروني بسفره ليتعافى بعد العملية الجراحية لزراعته الكلية الجديدة! حتى الجالية العربية أوقفوا لقاءاتهم الأسبوعية وكأنهم تنبهوا إلى عملهم فجأة فصاروا جادين..!

لم يعد أمامي إلا زوجتي برنار، حاولت مساومتها للحصول على نسبة محددة مقابل الطلاق فرفضت حتى تربح تجارتها..! أغريتها كثيرًا لكنها وضعت حجرًا صلدًا ثقيلًا برأسها لم أفلح في تكسيره. قررت القيام بقفزة في الظلام كما يقولون، فأعددت كل شيء للهروب المفاجئ إلى القاهرة خلف مِسكة وعجيبة الصغير، تاركًا ثيابي كلها بالبيت حتى لا تشك برنار في أمري..!

وفي اليوم المحدد حزمت حقيبة يد صغيرة تحوي شيكات مصرفية وأموالا سائلة جمعتها طوال سنوات ثلاث فائتة مكتفيًا بها، وغادرت المنزل مبكرًا، طلبت «تاكسي» قبلها من كابينة عمومية بالطريق، وألقيت بنفسي في المقعد الخلفي، عيناي تائهتان، قلبي يرتجف، عرقي البارد يتصبب، نظر لي السائق في المرآة مستفسرًا، التقت عينانا، فنطقت بكلمة واحدة: المطار..!

***

.. تركت باتريشيا سيارتها أسفل بيت عجيبة وألقت بنفسها في أقرب سيارة تاكسي قابلتها، وبصوت مخنوق تحشرجت كلماتها وهي تطلب منه أن يلقي بها عند ممشى البحيرة، وأمام كشك ضخم لبيع التذكارات السياحية وقفت ساكنة، تأملت لافتته وملامحها تتشنج أكثر، أدارت ظهرها للكشك ومضت باتجاه البحيرة حتى اقتربت من صفحة الماء، تتابع النافورة العالية بعينين دامعتين سرعان ما انسكبت قطراتها تباعًا، طال البلل نظّارتها فغيّم زجاجها، لكنها ظلت ساكنة ترى الصورة أمامها مشوشة مهزوزة، شردت وهي تتلفت حولها في ضيق، الكلمات والأفكار تندفع بسرعة من صدرها الضيق إلى عقلها المضطرب لتقف عند شفتيها حبيسة مكتومة، تتنهد بعمق تريد أن تصرخ لكنها لا تقوى حتى على ذلك، أطرقت قليلًا ثم فجأة عبثت بحقيبتها كأنها تلقت هاتفًا خفيًّا بأمر ما، قلبت محتويات الحقيبة كلها تحت قدميها محدثة جلبة بسيطة، أطبقت بأناملها على بطاقة هويتها، صورتها تحمل ابتسامة متفائلة ووجهها يشع نضارة رغم نظارتها السميكة التي لا تغيرها، خمس سنوات مضت على هذه الصورة لكنها غيرتها تمامًا، أثقلتها، قلبت البطاقة وهي تتفرس في تاريخ ميلادها، فبراير 1924 ، برقت عيناها كأنها غير مصدقة أن كل هذه السنين قد مرت ولم تشعر بها، مثل ماء كان ينساب من بين كفيها، التقطت المرآة

الصغيرة وتفرست في ملامحها وابتسمت بصعوبة مستعيدة ثقتها بنفسها وكأنها ترفعها من بئر عميقة، لا تزال ترى نفسها جميلة ومتوهجة.

قفزت صور عشرات الرجال الذين تعرفهم إلى رأسها في تلك اللحظة، لكن مخيلتها لفظتهم كلهم دفعة واحدة واحتفظت ببدر فقط، الفتى الوسيم العابث المغامر المتقد حماسًا، والرجل الأنيق الطموح الذي صار غولًا كبيرًا الآن يعمل له الكثيرون ألف حساب، هو نفس الرجل الذي طلب منها الزواج منذ عشر سنوات بعد وصوله إلى جنيف للمرة الأخيرة تائهًا خائفًا ليحصل بعدها بشهور قليلة على الجنسية السويسرية، خوفًا من فشله وعودته للقاهرة مرة أخرى، وقتها اتفقت معه على أن يعيشا معًا بصورة تناسبها بعيدًا عن شرقيته، زواج مفتوح بلا قيود على أي طرف، فوافق بسهولة فاجأتها وكأنها كانت تسأله أن يقرضها سيجارة من علبته ففعل!!

في مصر كانت ترى فيه شرقية خشنة تعجبها أحيانًا وتضيق بها في أحيان كثيرة، لكن هنا تخلّى عنها فور وصوله، ألقاها تحت قدميه ودهسها بعنف، مطت شفتيها طويلًا وتنهدت بعمق وهي تتمتم:

لا بأس.. لا بأس، لكن هل يحبني فعلا؟ هل لا يزال يراني امرأته المفضلة في كل شيء أم مجرد شريكة فقط؟؟

هزت رأسها بعصبية نادمة على سؤال نفسها ونكء جروحها المندملة بالكاد، حاولت طرد الفكرة من رأسها لكن عقلها أبى أن يلفظها وراح يدسها مرة أخرى بغلظة، وصوت بداخلها يعلو قائلًا: ولماذا شجّعك على تقديم جسدك لعجيبة إذا كان يحبك؟ ولماذا قدمك قبلها لأمراء عرب وعرّفك بهم وهو يعلم جيدًا ما الذي سيفعلونه بك بعد نهاية السهرة ورحيله وحيدًا من غيرك يتحسس شيكات صفقاته بجيوبه؟ لماذا ظل يستخدم اسمك في أغلب أعماله ويتوارى خلفك دومًا؟!

بصقت على صورتها بقوة، وعلا صوتها تباعًا وهي تسب نفسها بأقذر الألفاظ، لم يلتفت لها أحد، أقصى ما فعلته سيدة عجوز كانت تمر بجوارها أن تفوهت ببضع كلمات غير مسموعة، ربما كانت تدعو لها أو خافت على نفسها من جنونها فاستعانت بتراتيل تحميها من سيدة فقدت صوابها فجأة. جثمت باتريشيا على ركبتيها وأطرقت برأسها حتى لامست الأرض، ظلت على وضعها الغريب ساجدة لدقائق وهي تنتحب بشدة، اعتدلت ببطء ولملمت متعلقاتها المبعثرة: قلم روج، سوط بني رفيع، قميص نوم أسود قصير، واقٍ ذكري، مرآة صغيرة ونظارة احتياطية، وأخرى شمسية كبيرة ارتدتها بغير تفكير وألقت بالطبية مكانها، صورتان شخصيتان لها، اشتراك الترام، رخصة سيارتها وأخرى للقيادة، إيصال استلام سلفة مؤقتة من المنظمة بخمسة آلاف فرنك لم يسددها لها بدر حتى الآن كعادته، بطاقة التأمين الصحي وموعد مراجعة الطبيب بعدما زادت آلام الغدة الدرقية عليها وجحظت عيناها قليلًا. أمسكت بزجاجة عطر صغيرة، خلعت فوهتها وسكبت ما تبقى منها فوق ملابسها وهي تبتسم في سخرية مخلوطة بالمرارة ليميل فكّها نحو اليسار وبدت أكثر امتعاضًا وقرفًا، لملمت محتويات حقيبتها المبعثرة وحملتها مقتربة من البحيرة وعلا صوتها وهي تعد الأرقام بهستيريا، انتبه بعض المارة إثر نبرتها المتصاعدة، فهدّأوا من سيرهم وهم يتابعونها بقلق ودهشة، بلغت الرقم عشرة بعد فترة لتوقفها كل برهة لتوزع ابتسامتها البلهاء بعشوائية، لتتعالى بعدها ضحكاتها، ثم أعادت ذراعها للوراء وطوحت بحقيبتها بعيدًا في اتجاه البحيرة، انتظرت فترة وجيزة لتراقب ردود أفعال لفعلتها فلم تجد، طفت الحقيبة في البداية ثم غاصت بعد قليل بثقلها لمّا تسرب لها الماء، وبدأ المتجمعون ينفضّون بهدوء، صرخت فيهم وهي تقترب من بعضهم لكنها كانت تترك دومًا مسافة آمنة بينها وبينهم، راحت تسبّهم وتلومهم، تعاتبهم أنها فعلت كل ذلك من أجلهم، وهم لم يفعلوا لها شيئًا، أشاح بعضهم بيده وامتعض البعض الآخر لكن لم يجادلها أحد، سارت بخطوات متعرجة في عدة اتجاهات حتى عادت لنفس النقطة التي كانت فيها، رفعت رأسها للسماء وظلت صامتة لوهلة ثم تهاوت على الأريكة الخشبية وانفجرت بعدها في البكاء بغير توقف.

***

45

- مسيو جون ليون برنار بالخارج ويصر على لقائك يا سيدي!!
لم يصدق بدر أذنيه، ظل يحملق في وجه سكرتيرته مندهشًا كأن صوتها آتٍ من زمن بعيد، ارتبكت بدورها وأعادت على مسامعه اسم الضيف المنتظر بالخارج ثلاثيًّا وبدأت تصف له ملامحه، لم يعرف ماذا يقول لها، هذه الأوصاف لا تنطبق في الكون كله إلا على شخصٍ واحد فقط.. عجيبة النوبي..!
ظل واجمًا لبرهة، لكنه في النهاية أشار لها بيده أن تدعوه للدخول، لحظات مرت ببطء شديد وبدر يزداد ارتباكًا ولا أحد يظهر أمامه، شعر بسخونة على جبهته، قطرات عرق تجمعت فرادى وتأهبت للانزلاق واحدة تلو الأخرى، تحرر قليلًا من رابطة عنقه، الريح القادمة من المروحة المثبتة أعلى مكتبه تطفئ سيجاره لمرة ثانية. ها هو أخيرًا قد ظهر، تنفس بدر بعمق عندما رأى عجيبة يدخل الغرفة ببطء، رائحة نفّاذة تسبقه، خليط من العرق والكحوليات، بدا النوبي الضخم مثل بناء قديم آيل للسقوط، شحب وجهه وامتقع، برزت وجنتاه، تراخت كتفاه وزحف الصلع على مقدمة رأسه، شاب فوداه وتناثرت شعيرات بيضاء على الجانبين كأنها تستطلع الأمر لتستدعي أخريات، فقد الكثير من وزنه وبدت مشيته وكأن بها ميلًا خفيفًا لليسار، خطواته مرتبكة مضطربة شبه مترنحة، عيناه منكسرتان، صوته خفيض ورأسه مطرق قليلًا...
غاص بدر في مقعده أكثر والذهول يحتويه وهو يدعوه للجلوس ولسانه يمسح شفتيه الجافتين عدة مرات ارتباكًا، عيناه زائغتان لا تستقران على منظر محدد، طالت فترة الصمت بينهما، لم يدر عجيبة ماذا يقول، ولم يعرف بدر كيف يبدأ، لا شيء يقال عادة بعد مشهد النهاية، الستار يسدل والأضواء تغمر الصالة ويتأهب الجمهور للانصراف في ثرثرة دائمًا وجلبة أحيانًا، لكن ما لم يتوقعه بدر أو غيره أن يظهر عجيبة على خشبة المسرح مرة أخرى بدون مقدمات، ليلتفت له جمهور المغادرين، يا ترى ماذا لديه ليقوله لهم؟! ربما هو نفسه لا يدري..!
- خرجت قبل نهاية المدة؟
سأله بدر مندهشًا.
تدحرجت ببطء نظرة انكسار من عيني عجيبة قبل أن يعتدل في جلسته ويبدأ استرداد ثقة مفتقدة منذ زمن بعيد، منذ أن قبض عليه بمطار جنيف وهو يحاول السفر للقاهرة هاربًا من قدره وكان يظن أنه سيسبقه، وها هو يعود إليه بقدميه مرة أخرى، والفارق بين المرتين سبع سنوات عجاف..!
- نعم.. وجئت اليوم لتسوية حساباتي معك!
قالها عجيبة بنبرة مهددة فاضطرب بدر ثم أطفأ سيجاره بعصبية وهو يقول دون أن ينظر في وجهه: وماذا تريد؟
- فقدت سنتي ومن بعدها أصابع يدي، ومن قبل ذلك كلّه كرامتي لما فرّطت في هويتي، أنا أحتاج الآن لمن يرمم إنسانيتي ويعيدني للحياة مرة أخرى..
فقد عجيبة ثقته بسرعة أمام نظرات بدر الحادة ونبرته المتعجرفة المتوعدة وكأنه وضعه على منحدر، يبدو أن ثقته بنفسه كانت سرابًا، فقد خرجت الكلمات الأخيرة من عجيبة بصوت واهن متلعثم، مشوبة بتوسل ذليل كمَن يشحذ اهتمامًا وشفقة.. لكن بدر بدا أنه لا يفهم شيئًا من كلامه وهو يرد بلا مبالاة:
- ربما يكون بعض كلامك صحيحًا، لكنني لم أجبرك أبدًا على أي شيء هنا، حتى التبرع بكليتك، بدليل أنك رفضت لمّا طلبتها منك وأنا تقبلت الموقف ببساطة، أما الكرامة يا عزيزي فلا تمنح ولا تنتزع.. هي من الأشياء التي نولد بها ولا ينبغي أن نتخلى عنها أبدًا، تلك مشكلتك وحدك.
قال بدر عبارته ثم بدأ يستعيد غطرسته تدريجيًّا وكأنه يتحكم في كل الخيوط. سادت لحظة صمت بعدها أخرج من درج مكتبه رزمة أوراق مالية تضم ألفا من الفرنكات ألقاها على سطح المكتب قائلًا بصلف:

هذه باقي مستحقاتك قبل غلق مكتب الصرافة وبعد خصم قيمة ما سرقته، أنا للأسف لم أستطع زيارتك فقد كنت في فترة نقاهة طويلة بعد جراحة نقل الكلية..
- إذن أنت الذي...
لم يرد بدر وبدا وجهه جامدًا تمامًا منتظرًا باقي السؤال، لكن عجيبة ابتلع سؤاله ولم يبح بما يعرف، وآثر الصمت متأملا الأوراق المالية التي أعطاها له بدر وسط دهشة الأخير من تصرفه، عبث بها بأصابعه في حسرة قائلًا بابتسامة مبتورة أيضًا: إذن هذا ثمن كرامتي، وماذا عن سبع سنوات قضيتها بالسجن؟ بالتأكيد لك نصيب فيها لا يقل عن نصفها، أنا كنت مجرد واجهة لك في كل عملياتك، أم نسيت؟
تغيرت نبرة بدر مرة أخرى وعلا صوته محتدًّا وقد بدأ يفقد بروده المتصنع: لا لم أنسَ، لكن أنت الذي طمعت وسرقتني وكنت تحاول الهرب مثلك مثل أي لص جبان في حواري القاهرة، فنلت جزاءك وحدك..
تلاحقت أنفاس عجيبة وغطّى وجهه عرق غزير انحدرت ملوحته إلى عينيه، ازدادت ضربات قلبه حتى سمعها مدوية فخرجت كلماته خافتة: أنا لم أسرقك هذا حقي وأيضا كنت واجهة لـــ...
قاطعه بدر وائدًا كل كلماته في حلقه: الواجهة لا تتغير إلا بأمر صانعها وليس من تلقاء نفسها، ثم إنك حاولت الزج بي في قضيتك لكنهم لم يصدقوك، رويت لهم رحلتك البائسة مغموسة في بكائياتك كعادتك، فظنوا أنك فقدت عقلك، صدقني انسَ هذا الموضوع ولا تفتحه مرة أخرى، بل لا تحاول مجرد التفكير فيه حتى لا تشقى أكثر..
أنهى بدر كلامه فجأة وانتزع خنجر والده القديم من بين كفّي عجيبة الذي كان يعبث به، وبدأ في تلميع نصله في برود..!
عاد عجيبة بظهره في مقعده ووضع ساقًا فوق أخرى مبتسمًا ابتسامة صفراء قبل أن يشرع في كشف أول ورقة من أوراقه قائلًا: إذن دعني أحكِ لك قصة صديق قابلته في السجن ربما تغير رأيك!
- ومن يكون هذا الصديق المشترك بيننا؟
سأله بدر بتهكم.
- نانو..
امتقع وجه بدر على ذكر عجيبة لاسم السنغالي نانو وحاصرت الحيرة ملامحه وألجمت المفاجأة لسانه وبدا مذهولًا مما يسمعه منه ولم يتوقعه على الإطلاق، بل ولم يعمل له حسابًا كعادته!

***

انتهت التحقيقات معي إلى ثبوت تهمة تهريب أموال، كان القاضي قاسيًا معي لأقصى درجة، لم أفلح في استدرار عطفه، فحكم عليّ بالسجن عشر سنوات وغرامة ضخمة تعادل قيمة الأموال التي هُرّبت وما جنيته من ربح، أُغلقت شركة الصرافة وصودرت أموالي كلها لصالح الحكومة السويسرية وكأنها كانت فقيرة تنقصها أموالي..!
- هل سأعمل في تكسير الحجارة؟
سألت ضابط السجن في جنيف وأنا أتسلم منه ملابس خضراء داكنة، عبارة عن طاقمين بأكمام طويلة نُقش على ظهر نصفها العلوي رقم يخصني داخل السجن ويعرفونني به وكان 29 فتفاءلت به..!
- حجارة؟ ما هذا الهراء؟ ليست لدينا أحجار للتكسير، كما أنك معاق.
أجابني الضابط بدهشة ممزوجة بحيرة من سؤالي فعدت أسأله متوجسًا والقلق ينهكني:
- هل سيتم جلدي أو ترك الكلاب تنهش لحمي؟
- ما هذا التخريف؟ هل تظن أنك هنا لتؤدي دورًا في فيلم سينمائي عن سجون العصور الوسطى؟ أنت مجرد سجين لك حقوق وفقًا للقانون، وبناءً على حكم القاضي فقد تم إعفاؤك من أية أعمال يدوية بسبب أصابعك المبتورة لكننا قد نضطر لوضعك بحجرة ثنائية في حالة ازدحام السجن بالنزلاء!

أجابني هذه المرة بضجر وضيق، ثم أخرج ورقة كبيرة ذات مربعات صغيرة وجداول متداخلة ودفعها ناحيتي قائلًا ببرود دون أن يرفع نظره عن أوراق أخرى أمامه: اختر قائمة الطعام التي تريدها كل أسبوع لمدة ستة أسابيع قادمة، مع ملاحظة أن سمك السلمون غير متوافر حاليًا..!

وجدت نفسي بعدها في زنزانة انفرادية، صحيح أنها رحبة، نظيفة، مشمسة، لكنني وحيد وسط أربعة جدران مصمتة لا تنطق ولا تشي بأي أمل قريب في نجاة، لم يزرني أحد أبدًا، ولم يتغير ناموس حياتي اليومي، وبعد شهور كنت أكلم نفسي كل يوم، عرضوني على طبيب فقال إنني قد أصبت باكتئاب خاصة بعدما ظهرت عليّ أعراض رعشة عصبية متكررة بيدي اليسرى التي كنت أستخدمها باستمرار حتى نجحت في تعلم الكتابة بها بعد عامي الأول، وعزا الطبيب السبب في مرضي إلى ضعف في الأوتار بسبب اعتمادي على يسراي بشدة أكثر مما تحتمل..!

لكن القدر مثلما اعتاد أن يأخذ فقد قرر فجأة أنه آن أوان العطايا، فظهر لي نديم بدد عزلتي التي كنت أقاومها بالتردد على المكتبة وصالة السينما كل يوم، حل ضيف جديد على السجن، لون بشرته السمراء الداكنة ولكنته الفرنسية الغريبة لفتا نظري وجذباني نحوه، حاولت الاقتراب منه كثيرًا، لكن السجين الجديد بدا انطوائيًا عنيدًا لم يستجب بسهولة..

عرفت أنه مدان بتزييف دولارات وإشعال النار في منزل أحد الأشخاص بنية قتله، لكن لم يتسبب فعله في موت أي شخص لخلو المنزل وقت ارتكاب الجريمة من قاطنيه. ظللت أراقب الرجل وأتحين الفرصة للحديث معه، حتى جاءت بالملعب الصغير الملحق بفناء السجن الخلفي ومع رميته الثانية لكرة السلة والتي خابت أيضًا، التقطت الكرة ووضعتها بسهولة في سلتها من رمية واحدة، ثم أمسكت بها وبدأت ألفها بسرعة مثبتًا إياها على إصبع يدي اليسرى، ابتسم لي الرجل لكنه لم يعلق بحرف، وعلى مائدة الطعام اقتربت منه متحدثًا بالفرنسية مرحبًا ومتوددًا ودون أن أنتظر ردًا رويت له فصولًا قصيرة منتقاة من قصتي، لكنه فاجأني قائلًا: لماذا تحاول الكلام معي؟!

- لقتل الوقت، لا أكثر، أنا حتى لا أعرف اسمك حتى الآن، أنا اسمي جون ليون برنار.. سوداني.

قلتها وأنا أمد يدي لأصافحه، تأمل الرجل كفّي الصناعية ببرود وقال دون أن يمد يده: لا شيء مجانًا في هذه الدنيا، هكذا تعلمت في بلدي.. ماذا تريد مني؟

رددت عليه بأسى: لا شيء سوى الصداقة، في بلدي كان كل شيء تقريبًا مجانيًا، لكنني تركتها للأسف وجئت إلى هنا!

- أنت مغفل إذن، وأنا لا أحب مصاحبة الأغبياء..!

قالها بحدة وعاد لطعامه منشغلًا به، لكنني لم أيأس وظللت أحاول كثيرًا بعدها الاقتراب منه، ومع مرور الوقت ورتابة الحياة بالسجن بدأ يلين لما حاصره الملل، ارتاح لي الضيف الجديد أخيرًا وخرج من جموده حتى صار يتسامر معي كل ليلة لكن من جانب واحد، أنا فقط أتحدث وهو يهز رأسه أو يندهش، وأحيانًا يعلق بكلمة أو عبارة قصيرة..!

كان نانو بطبعه متحفظًا قليل الكلام لكنه كثير الحركة، يتمتم في أحيان كثيرة بكلمات غير مفهومة وأحيان أخرى يكيل السباب لآخرين مجهولين دون تسمية، لكنه لا يتعمق في الحديث بأي موضوع، لذا كانت دهشتي عظيمة لما أيقظني ذات صباح مبكر، وروى لي حكايته بدون مقدمات وكان مضطربًا للغاية وكأنه يرى مصيره أمام عينيه،

ولا يريد أن يصدق ما يراه..!

قال لي فيما قاله إنه قدم من بلاده هاربًا من الشرطة، أملًا في فرصة عمل لائقة بخبرته المتفردة في تزوير ورقة المائة دولار..! فالتقطه رجل أعمال سويسري عبر شبكته المتشعبة واستخدمه في تزوير أكثر من مليوني دولار أمريكي وتم تهريبها تباعًا لدول أخرى، من بين ثنايا حكايته وزهوه بنفسه بدا لي بارعًا، فهمت أن القالب الذي يستخدمه في التزوير جديد ومبتكر بما يسمح بفترة طويلة من الترويج

للعملات المزيفة قبل اكتشافها من فرط دقتها. ظل زميلي دجاجة تبيض ذهبًا بالنسبة للسويسري الذي التقطه حتى أقنعه بالتنازل له عن كليته مقابل مبلغٍ مغرٍ، فلما فعلها وبدأ يتعافى بعد الجراحة غادر الرجل السويسري إلى جنوب فرنسا للاستشفاء والنقاهة، وبينما كانت طائرته ترتفع عن المهبط كان البوليس يقتحم غرفة نانو ويضبط الأوراق المالية المزيفة التي دسها له الرجل خفية وسط عملات سليمة مقابل الكلية المسروقة..!

أخبرني نانو بشعوره وقتها بالغدر، فهرب ولم يعد لمنزله مرة أخرى حتى لا يقبض عليه، وقرر الانتقام بطريقته بعدما فقد قوالب التزييف التي استولى عليها السويسري شريكه، ومن بعدها فقد جزءًا من جسمه وبات السجن على الأبواب. اختفى نانو يومين ثم ظهر ليلًا كشبح يحوم حول بيت الرجل السويسري المطل على البحيرة، سكب مادة سريعة الاشتعال حول الأبواب والمداخل وسرعان ما علت ألسنة اللهب وارتفعت، وعلى ضوئها كان نانو يبتعد مسرعًا، لكن لسوء حظه كان البيت خاليًا، فقد سافر الرجل للاستشفاء ونانو لم يكن يعرف..

ظل نانو يهرب كفأر ضئيل من الشرطة التي طاردته مسعورة بتهمتي التزييف والحريق حتى سقط في أيديهم بإحدى الضواحي القريبة من جنيف حيث يتجمع الأفارقة، وراح يقضي عقوبة السجن لمدة اثنين وعشرين عامًا، سكت برهة شاردًا وهو ينظر إلى السور البعيد ونحن في فناء السجن نتريض بعد الإفطار ثم أخبرني هامسًا أنه لم يعد يتحمل البقاء كثيرًا وراء الأسوار، وبات يعد الوقت بالدقائق المتبقية على تهريبه حسبما وعدوه..!

- من هم؟

سألت نانو متلهفًا لكنه لم يجبني، ثم تحدث فجأة بلهجته الساحلية وقال كلامًا كثيرًا، فلم أفهم حرفًا مما قاله، وبدا لي كأنه ممسوس ويخرف، ألححت عليه في أن يسمح لي بالهروب معه، لكنه لم يتحمس مطلقًا. بعدها بيومين حانت اللحظة المرتقبة وأخبرني نانو بأنه سيهرب عصر الغد أثناء تغيير نوبة الحراسة وطلب مني ألا اقترب منه أو أتتبعه..!

يومها فقط زالت دهشتي من حكايته وتبددت، فقد أسرّ لي نانو أنه احتفظ بالسر ولم يبح بمكان آلة التزييف لكي ينتقم من الرجل السويسري عندما يخرج من السجن، وقتها لويت شفتَي وأنا أغمغم بأن هذا السنغالي الغبي لن يقوى أبدًا على صيد التمساح..!

لم تمض سوى ساعات قليلة على آخر حديث بيننا حتى غادر نانو الحياة نهائيًّا..! وكان الفيصل بين الحكاية البائسة التي رواها نانو لي، والنهاية الحزينة التي بلغها أمام عينَيّ لا يزيد على اثنتي عشرة ساعة فقط كنت أغط في نوم عميق..!

استيقظت في الصباح التالي بصعوبة بسبب مادة مخدرة ربما وضعها لي نانو في كوب العصير الخاص بي ولا أعرف لماذا فعل ذلك، لأرى أمامي جسد نانو معلقًا في سقف الغرفة بملاءات الفراش وقدميه تتدليان وجسمه يتأرجح يمنة ويسرة ببطء، لم أعرف ما إذا كان نانو قد أنهى حياته بإرادته أم تدخل آخرون لم أشعر بهم بسبب تخديري ليعاونوا القدر في وضع بصمته الأخيرة ويرحل نانو عن عالمي الضيق متراقصًا أمام عينَيّ المجهدتين..!

لكن القدر على غير عادته ظل رحيمًا معي بعد رحيله، فبدون مقدمات أفرجت عني إدارة السجن عقب مرور شهرين من انتحاره، بعدما قضيت سبع سنوات وكان الإفراج تحت بند الظروف الصحية.. فلم أعرف وقتها مَن كان وراء الإفراج عني فقد آثرت الخروج على انتظار أن يتسلمني أحد حسبما أخبروني بالسجن، فلا صديق لي في تلك البلاد الباردة..!

خرجت من السجن الهادئ بنفس ملابسي القديمة التي دخلت بها، لكنها لم تعد لائقة، ترهلت بعدما صرت نحيفًا، بدا جسدي غريبًا بداخلها ومنظري يثير الشفقة لما جلست وحيدًا متعبا بالقرب من البحيرة أتابع الكلاب التي تسير بجوار أصحابها في خيلاء لتدمع عيني، ألقى لي بعض المارة بقليل من الفرنكات

في قبعة بيضاء وضعتها مقلوبة أمامي، فاشتريت بها ما يسد رمقي. قادتني قدماي لمكتب الصرافة القديم، لأفاجأ بلافتة كبيرة تعلوه مدوّن عليها «وكالة بدرو للسياحة والطيران»، سألت عنه فعرفت أنه يتواجد بمكتبه القديم، ذهبت إليه فأنا لا أعرف أحدًا سواه، وها أنا أجلس أمامه صامتًا بعدما رويت له ما أردت كشفه مؤقتًا من حكايتي بالسجن..!

ظللت ساكنًا كتمثال، فالتماثيل لا تخشى عبث الأقدار معها، يصنعها بشر وقد ينهي وجودها بشر، ربما تظل واقفة في رتابة، شامخة بعض الوقت، حتى تُشرخ أو تتحطم، لكنها لا تحرك ساكنًا أبدًا ولن تفعل دومًا..!

***

46

.. سادت فترة طويلة من الصمت بينهما لكنها كانت كافية ليعيد كل منهما ترتيب أوراقه مرة أخرى تمهيدًا لجولة جديدة، ارتاح بدر لأن نانو لم يذكر شيئا لعجيبة عن حقيقة الأشخاص الذين حاولوا تهريبه وبعدها شنقوه وفيما يبدو لم يقل له أكثر مما رواه عن تزييف الدولارات وتهريبها، لكن بعض القلق ظل يساوره فيما إذا كان عجيبة قد حجب ورقة أخرى من أوراقه لوقت لاحق عن هوية السويسري الذي كان يعمل نانو عنده. أخرج بدر الخنجر من جرابه مرة ثانية وانشغل بتلميعه كعادته ليكسب مزيدًا من الوقت وهو يفكر في الخلاص من الكابوس النوبي الماثل أمامه، لكن عجيبة عاجله بسرعة متخابثًا: لماذا قتلوا نانو؟

- لا أعرف فلست أنا من قتله..!

رددها بدر ببرود وهو لايزال منشغلًا بتلميع النصل البراق للخنجر.

- مَن قتله إذن؟

- طمعه.. ثم إنك حكيت أنه انتحر، هو إذن الذي تعجل نهايته..!

- لكن نانو قال إنه يحب الحياة..

- نصيحة اسمعها جيدًا، انسَ كل ما قاله نانو لك، فمن الأفضل أن تكون ذاكرتك ضعيفة في مرحلة ما من عمرك لتعيش حياة أطول وأهدأ..

قاطعتهما السكرتيرة فجأة وهي تقول بحرج بالغ:

- مسيو موسى بركات على التليفون للمرة الثالثة، ويصمم على محادثتك مسيو بدرو..!

اهتز بدر من داخله بشدة وهو يتمتم بالفرنسية في ذهول: ما هذا اليوم اللعين الذي تبعث فيه الأشباح من غياهب السجون!

أمسك بسماعة التليفون وضربات قلبه تتسارع مع انسياب صوت موسى بركات عبر الهاتف وهو لا يصدق أن هذا الشبح الذي ظنه مات قد بعث من جديد للحياة، علم منه أنه أنهى فترة السجن في مصر بعد خمسة عشر عامًا على ذمة قضية التفجيرات الشهيرة وبعدها هاجر نهائيًّا إلى سويسرا حيث استقر بمكتب المنظمة التي تعمل بها باتريشيا لكن في مدينة زيورخ. ظل بدر طوال المحادثة يردد كلمات المجاملة المعتادة أملًا في أن يخبره موسى سبب الاتصال الحقيقي، لكن المكالمة طالت وموسى لا يتوقف عن سرد تجربته الأليمة بالسجون وعمره الذي ضاع وهو الآن على أعتاب الستين، ثم سكت برهة ليقول بنبرة مختلفة: تعرضت لضغوط كبيرة بالتحقيقات لكشف اسمك لكنني لم أرضخ لها..

- أشكرك.. لكن أنا...

لم يجد بدر ما يقوله فلم يكمل جملته وتعثَّر، فالموضوع قد عفا عليه الزمن لكن موسى بدا واضحا أنه يمهد طريقه جيدًا لأمر آخر لما قال بذات النبرة: وأعتقد أنه آن الأوان لرد الجميل.

- وما المطلوب مني؟

- الدجاجة التي أمامك الآن لا تزال تبيض ذهبًا وسنتقاسمه سويًّا..!

نزل الصمت بستائره الكثيفة على عقل بدر فلم يستوعب الصلة بين موسى وعجيبة، شعر أنه كان في غيبوبة لسنوات وأفاق منها فجأة ليكتشف أناسًا جديدة لا يعرفهم من قبل، وظل يحملق في وجه النوبي الآيل للسقوط والجالس منكمشًا أمامه في دهشة طالت فترتها حتى ظن موسى أن الاتصال قد انقطع فقال بدر بهدوء:

- أنا ما زلت معك ولكنني لا أفهم شيئًا..

- النوبي الموجود بمكتبك الآن نحن الذين ساعدناه على الخروج بالإفراج الصحي، لكنه غادر السجن قبل وصولنا إليه واختفى لفترة، والآن نحتاجه في برنامج مهم عن الأقليات تمهيدًا لأمر آخر سوف

أخبرك به عندما نلتقي غدًا في جنيف، والآن اختر ما بين أن تحتفظ به مؤقتًا لصالحنا، أو تتركه لنا نهائيًا، ويكفي أن موضوع نانو قد مر رسميًا على أنه انتحار..!
أنهى موسى حديثه ووضع السماعة فلم يكن في حاجة لسماع رد من بدر، لقد أصابه في مقتل ولم يعد يقوى على الحراك والفريسة جاهزة لالتهامها الآن، على الناحية الأخرى ظل بدر حائرًا ممسكا بسماعة هاتفه محملقًا في عجيبة الذي أطرق مدحورًا وصورة نانو معلقًا من رقبته بالسجن تتقافز إلى ذاكرته، فلما رفع رأسه عاجله بدر بضربة أخرى وهو يشعل سيجاره ويتحرك ناهضًا من وراء مكتبه ليكتسب ثقة أكبر ويعيد على مسامعه المقطع الأخير من تهديدات موسى بركات بصيغة تلائم موقفه: اختر بين أن تخرج من هنا لتشحذ بالقرب من البحيرة بقية حياتك، وقد تنام أيامًا بلا طعام حتى تموت، أو أن نغلق صفحة الماضي للأبد إذ ربما أساعدك في أن تعود يومًا ما لبلدك، أمامك وقت للتفكير!
وضع بدر خنجر والده في جرابه وأعاده لموضعه على الجدار خلفه، بعدها غادر حجرة مكتبه إلى غرفة أخرى، ليبتسم عجيبة في أسى، هز رأسه أسفًا ولسان حاله يقول: ماذا يظن هذا الأبله أني فاعل؟ بالتأكيد سأقبل أي عرض يقدمه لي، أنا مجرد ركام لا يأمل سوى لملمته جانبًا بجوار جدار حتى لا تدهسه الأقدام مرة أخرى، أنا شحاذ حتى ولو لم تُرضه الصدقة فسيحتفظ بها..!
طوى رزمة النقود ووضعها في مظروف صغير أمامه، وأشعل سيجارة واقفًا بالقرب من الواجهة الزجاجية العريضة، نفث دخانها ببطء وهو يتأمل خيال مآتة في المرعى القريب بملابسه البرتقالية الفاقعة والبستاني يهندمها ثم يدور من خلفها مبتعدًا عدة أمتار، لتدور مروحة ضخمة من ورائه تجعل كسوة القائم الخشبي ترفرف بقوة، فتطير الطيور الرابضة على الأرض بسرعة بعدما أزعجتها الحركة المفاجئة، ترفرف محلقة، تدور دورتين فيزيد البستاني من سرعة الهواء المندفع من المروحة الضخمة، فتحلق الطيور لأعلى وتبتعد..!
ابتسم عجيبة لما يراه، ثم سمع من خلفه صوت الباب يفتح ليدخل بدر متجهمًا بعدما تركه أكثر من نصف ساعة بمفرده وهو يظن أنه تركه يتقلب على نار الحيرة حتى خمدت بعدما حرقته وبات رماد القلق يغشي عينيه، ليجد عجيبة يلتفت له مرحبًا ومبتسمًا في بلاهة، رمقه بدر بنظرة فاحصة متمهلة ليحدد من أين تؤكل الكتف، منتظرًا جوابه في ريبة من رد فعله، جاء رد عجيبة بنبرة ساخرة باللغة الفرنسية وهو ينحني كنادل مخضرم في مطعم راقٍ:
- A votre service monsieur Pedro!
لم يبتسم بدر لمزحته ودار حوار جاف بينهما لفترة قصيرة ختمه بدر بصلف شديد بأنه سيقبل وجوده بالشركة في وظيفة ساع مؤقتًا حتى يعيده لمصر في الوقت المناسب، إكراما للعِشرة القديمة على حد تعبيره.. ثم أمره بالانتظار بالخارج حتى ينتهي من أعماله التي عطله عنها لساعات طوال. ذكّره عجيبة بأنه لا مسكن لديه، فقاطعه بحزم: سأدبر لك مكانًا يؤويك.. لا تقلق!
من خلفهما استمر المشهد متصاعدًا في المرعى وهما لا يلتفتان له، ازداد اندفاع الهواء من المروحة الضخمة، والبستاني يعبث بأزرارها وبيده مقبض أسود ضخم، يبدو أن عطلًا قد أصابها ولم يفلح الرجل في إيقافها أو تقليل سرعتها، ينتفض خيال المآتة أكثر ويمتلئ بالهواء عبر ثقب صغير في رأسه ظل يكبر ويتسع، ارتعدت جوانبه وبدأ الرأس في الانفصال ببطء عن الجسد، ثم طار فجأة بعيدًا، ليتدحرج على أرض المرعى حتى اختفى عن الأنظار، انفجر القائم الخشبي من منتصفه وخرجت أحشاؤه من قش وورق ولفائف قطنية، تناثرت في كل مكان بعشوائية. راح البستاني يجري وراءها مشتتًا، يحاول أن يلملم الأشلاء لكنه لا يفلح أبدًا، فتيار الهواء كان أشد منه بكثير هذه المرة..!

***

في نهاية ذلك اليوم الذي التقيت فيه بدر غلبني النعاس، نمت على مقعدي بالمطبخ الصغير الملحق بمكتبه حيث أمرني أن أنتظر حتى طال انتظاري، استيقظت فزعًا على يد تربت كتفي بحذر وتأفف، كانت

سكرتيرة بدر، نظرت لها فزعا فهدأت من روعي وقدّمت لي بعض الماء لكن يسراي خانتني، ارتعشت وبللت قميصي. أخرجت من حقيبة يدها مظروفًا وقالت لي: إن السيد بدرو انصرف وترك لك هذا..!

عشرون فرنكًا سويسريا فقط لا غير هي كل محتوى المظروف الأنيق الذي يحمل حروف اسمه ولقبه الأولى! لن تكفيني سوى يومين أو ثلاثة، إذن سأظل أتردد عليه مثل المدمنين، هذا ما يريده بعدما أعاد مبلغ الألف فرنك التي نسيتها بمكتبه إلى خزانته، بحجة ادخارها لي وللزمن..

يا ليتني وضعتها بجيبي من البداية..!

استفسرت منها عن غرفة صغيرة رخيصة تؤويني وفكرت في نفس اللحظة أن أعود لزوجتي برنار، لكنها صدمتني بأن بدر أمر أن أبيت بالمطبخ، وأخبرتني أنها سوف تغلق الباب خلفها كتعليماته وسألتني وهي تبتعد عني إن كنت أريد شيئًا قبل انصرافها، كانت ممتعضة، تتفرس في هيئتي باشمئزاز لم تفلح في مداراته. لممت شتات ذهني وقررت المغامرة بكارت أخير على طاولة قمار بدر، طلبت منها ورقة وقلمًا لأكتب له خطابًا مهمًّا فوافقت على مضض. دونت بعض العبارات باللغة العربية كي لا يقرأها غيره عن ماكينة تزييف النقود المملوكة لبدر والتي كان نانو يستخدمها معه، ثم كتبت كلمة «بارديان» بين قوسين ووضعت تحتها خطًّا وطويت الخطاب، معتقدًا أنه ورقة ضغط جيدة ستحافظ على حياتي لأطول فترة ممكنة، ستجعله يخافني ويسعى لإرضائي. سلمته للسكرتيرة التي كانت تتابعني بضجر لانتهاء مواعيد عملها، ثم انتهزت فرصة انشغالها بغلق المظروف ودفعتها بقوة في صدرها لتسقط أرضًا وهي تصرخ فزعة، وأطلقت لساقَيّ العنان هاربًا من المكتب..!

قادتني قدماي إلى حي كاروج بقلب مدينة جنيف، كان نور الدين الشمسي قد أخبرني مرة أنه أرخص مكان في سويسرا كلها، ركبت الترام رقم 5 والركاب يبتعدون عني بمسافة آمنة، حالتي سيئة للغاية، ملابسي شديدة الاتساخ ورائحتي فيما يبدو كريهة، شعري أشعث وكثيف، معدتي مضطربة لا تتحمل أكثر من بضع لقيمات ثم تلفظ بعدها كل ما بداخلها بانقباض مؤلم كثعبان يعتصر عظامي ولا يقتلني، سعالي يزداد ومخاطي يسيل بسبب البرد القارس، بدأت أشعر بالتعب ينخر عظامي وكل أطراف جسمي تتهاوى، حتى إنني كنت أبذل جهدًا خارقًا لرفع جفنَيّ..!

تذكرت مقولة نور الدين الشمسي التي كان يرددها على مسامعي كثيرًا ونحن عائدان بالقطار: «المرء دون كرامة إنسان أعزل، لا يقوى على المواجهة أبدًا».

شعرت أنني أفتقد الرجل بشدة وأنني أيضًا لم أكن أفهم كل ما يقوله في حينه. بعد دقائق وصلت حي كاروج، عبارة عن منطقة تعج بالحرفيين من أصحاب المهن البسيطة، صناع أحذية وعمال كهرباء ومصانع، لصوص وغجر من أورُبا الشرقية وبائعي سلع تافهة، ورش صغيرة لتصليح السيارات متناثرة في تلك البقعة الصغيرة بوسط مدينة جنيف، شوارعها متسخة نوعًا ما ويغلب عليها عدم الارتياح والقلق كلما توغلت فيها أكثر خاصة بشوارعها الضيقة، حتى بيوتها تبدو وكأن الحكومة السويسرية قد شيدتها على مضض، وبدت لي لوهلة أنها منطقة غير آمنة، ولم يخيب القدر ظني، فبعد بضعة أمتار من السير المتعرج ظهر فجأة شخصان من أمامي يقطعان عليّ الطريق، وخلفهما ثالث وضع مطواته بين طيات لحمي فلامست عظامي من فرط نحولي، أحاطوا بي وأمطروني بالأسئلة، تظاهرت بأنني لا أعرف الفرنسية كي أعرف نواياهم، متشحًا بالبلاهة كسياج لحمايتي منهم، لكنهم أفصحوا عن نيتهم بسرعة، فعلًا لا قولًا، طرحوني أرضًا بسهولة فلم يعد بداخلي طاقة للمقاومة فتكومت على الفور بينما فتش أحدهم ملابسي وأخذ ما تبقى من العشرين فرنكا وساعة يدي وبصقوا في وجهي وانصرفوا!

لا أعرف لماذا قفزت صورة أبي عجيبة سر الختم إلى رأسي المتعب في تلك اللحظة تحديدًا، سمعت صوته واضحًا يرن في أذنَيّ قائلًا:

يا بني إن أكثر مكان آمن هو أن تكون دومًا على مرأى ومسمع من الجميع، فلا تنعزل أبدًا..

كان يقولها ونحن نصعد الجبل مع أهالي قريتنا في هجرتنا بعد تعلية الخزان الأولى بسنوات، وكنت أريد البقاء قرب النهر، كدت أبكي وأنا أستمهله ليبقى معي أكثر بصوته، لكن الصوت اختفى والصورة اهتزت بالذاكرة حتى غابت، تحاملت على نفسي ونهضت مقتربًا من صندوق قمامة، فتشت عن بقايا طعام فلم أجد، فتلك بلاد بخيلة لا يترك أهلها وراءهم شيئًا فيما يبدو.

التقطت كوبًا بلاستيكيًّا فارغًا من الصندوق ومشيت نحو مفترق الطرق العامة واخترت بقعة مضيئة تعج بالمارة، ارتكنت على الجدار وتركت الكوب أمامي وظل رأسي يتساقط كل برهة من شدة الإعياء وكلما ألقى أحدهم بعملة معدنية بالكوب كنت أتنبه، أحاول أن أتمتم شاكرًا فلا تخرج الكلمات من فمي من شدة تعبي، فأكتفي بهز رأسي مبتسمًا فأبدو مثل شبح مخيف، منفر..!

لا أعرف كم يومًا مضى وأنا في هذا المكان، فهنا كان بيتي وعملي وحياتي كلها، لكنني أذكر جيدًا أنني على مدار وقت طويل لم آكل سوى نصف تفاحة ألقتها لي سيدة عجوز وسندويتش هامبورجر ابتعته من مطعم ملاصق لموقعي، تجرعت وراءه زجاجة صغيرة من الكولا، لكن في تلك الليلة آلمتني معدتي وتقيأت كل ما أكلته وكومته خلفي برائحته الكريهة من فرط تعبي فلم أكن قادرًا على مبارحة مكاني مرة أخرى، شعرت أنني أحتضر، وبدأت نغزات بسيطة تنقر صدري بعناد وإصرار، ولم أفق من شبه غيبوبتي إلا على جسم لين رطب يلعق وجهي..!

ارتعشت بوهن وبدأت أعي قليلًا أن كلبًا عجوزًا قد اقترب مني وهو يهز ذيله في تودد ولا يتوقف عن لعق وجنتَيّ بلسانه الضخم، ورغم مودته وهدوئه إلا أنني اضطربت لوجوده، وعلت أنفاسي وصرت ألهث في مكاني، وفجأة اخترق أذني صوتها وهي تجذب الكلب نحوها وتنهره عن الاختلاط بأمثالي، وبنصف عين مجهدة وعقل يقاوم الاحتضار وذاكرة منهكة.. تذكرتها، كانت زوجتي السيدة برنار، وقد نال منها الزمن في بضع سنين حتى توكأت على عصا وانحنى ظهرها قليلًا، لكن نبرة صوتها المنفرة لا تزال كما هي، مددت يسراي بنصف التفاحة المتبقي معي وأطعمت بها صديقي الوفي الذي تذكرني وربتُّ رأسه، وخُيل لي وهو يبتعد عني مُجبرًا خلف برنار أن عينيه قد اغرورقتا بالدموع..!

***

قرب فجر اليوم الخامس وربما السابع لا أعرف بالتحديد، غشت عينَيّ أضواء سيارة ضخمة اقتربت من الرصيف الذي أقيم عليه، سمعت اسمي يتردد عدة مرات، ورأيت كبير الخدم الذي يعمل لدى بدر يقترب مني ومعه السائق وشخص ثالث ضخم الجثة يبدو من بنيانه وهيأته أنه حارس خاص. حملوني في قرف شديد وألقوا بي في مؤخرة السيارة بمكان الحقائب، بعدها دخلت في غيبوبة لكن قبلها كنت أهذي في حين أضواء حي كاروج الخافتة من خلفنا تبتعد بسرعة حتى اختفت تمامًا عن عينَيّ فأغمضتهما لأفيق من كابوسي، مستسلمًا بهدوء لواقعي الجديد بعدما كنت على مشارف الهلاك...

بدأت أعود للحياة مرة أخرى لكن من سلم خلفي، لا بأس، على أي حال أفضل من التسول والنوم في الطرقات حتى لو كان ذلك في الجنة التي يطلقون عليها مؤقتًا «سويسرا». اصطحبني رجال بدر إلى بيته بعدما قرأ خطابي عن ماكينة التزييف وبحث عني حتى وجدني ضالًا لكنه لم يهدني بالطبع، إنما تركني في الحديقة الصغيرة الخلفية بعد استجوابٍ قصير وتحذير شديد اللهجة بالقتل إذا ما تفوهت بحرف عن ماكينة تزييف الدولارات، كنت قد زدته خوفًا من فرط خوفي على حياتي فأخبرته أن هناك من يعرف سر التزوير ومكان الماكينة غيري، وهددته إذا ما أصابني مكروه سيبلغ الشرطة فورًا، تراجع بدر قليلًا بعدما لمس صدق حديثي الكاذب. كان لوقع كلمة «بارديان» التي دونتها له بالورقة مفعول السحر كما توقعت، سألني عنها كمحقق يستجوب مجرمًا عتيدًا لكنني راوغته كثيرًا حتى أجهدته.

رويت له ما رواه لي نانو عن مكان تزييف العملات الذي يحتفظ بدر فيه بماكينة التزوير أسفل كشك لبيع الهدايا التذكارية مملوك لباتريشيا على لسان البحيرة ويحمل اسم خالتها «بارديان»، لم أكن أعرف إن كانت باتريشيا شريكته أم لا، لكن اسم بارديان ظل عالقًا بالطبع بذاكرتي وادخرته ككارت أخير إذا ما لاحت بوادر غدر من بدر بعد خروجي من السجن. علمت وقتها من نانو أن بدر يعتمد على صوت ماكينات تشغيل النافورة العالي ليغطي على صوت تروس ماكينته وهي تدور لتزييف الدولارات ويضمن بذلك عملًا متواصلا يوميًا لمدة اثنتي عشرة ساعة. مات نانو وأفضى بالسر لي قبل انتحاره بقليل، وربما لو كان قاله للشرطة لتغير حاله أو صار بدر ثالثنا بالزنزانة ولا أعرف لماذا صمت عنه واحتفظ به بين ضلوعه هذا السنغالي الغبي، وها هو قد رحل خاوي الوفاض وتركني أواجه التمساح من جديد.. لكن هذه المرة بمفردي!

جلست قرابة الساعة وحيدًا بالحديقة الخلفية بجوار كشك الكلب في انتظار تقرير مصيري، بعدها بقليل أتى الباتلر الذي يخدمه، فأشار لي بطرف أنفه بأن أتبعه وأحمل صرتي القماشية ذات الرائحة النفاذة على كتفي بنفسي، سرت خلفه وأنا أتذكر انحناءه لي كرقم ثمانية في أول لقاء بيننا وقد صار الآن ينافس الرقم واحد في شدة انتصابه، درنا حول البيت نصف دورة ثم هبطنا درجًا صغيرًا ملتويًا يؤدي إلى قبو فسيح بنافذة تطل على الحديقة، لكن لا تسمح سوى برؤية أحذية من يسير أمامها فقط..!

- هنا ستقيم..!

قالها كبير الخدم أو الباتلر كما يناديه بدر باشمئزاز وهو يشير بإصبعه إلى أسفل، ثم أمرني بالتجرد من ملابسي عدا سروالي، امتثلت لأوامره مندهشًا، بعدها خرجنا وأنا وراءه شبه عارٍ لأقف بركن منزوٍ بالحديقة موليًا وجهي للجدار. لم تمر سوى لحظات انتظار قلقة حتى غمرني ماءٌ دافئ من خرطومٍ يصوبٍ نحوي بعنف، ثم رأيت قطعة صابون تنزلق أسفل قدمَيّ بعدما أُلقيت لي من مبعدة، التقطتها والتفتُّ للرجل فأشار لي بأن أستخدمها حول جسمي وهو لا يزال يوجه خرطوم الحديقة نحوي بشدة كأنني أجرب، بعد دقائق قليلة أغلق صنبور الماء وأشار بيده نحو القبو فهبطت مسرعًا وأنا أرتجف من شدة البرودة، تلحفت بالمنشفة وأسناني تصطك ببعضها، وجدت ملابس موضوعة على فراشي، فارتديتها بغير تفكير..

طرقتان على الباب ووجدت الخادم المشمأنط يضع صينية على الطاولة الصغيرة أمامي ويخرج دون أن يتبادل معي كلمة واحدة، أمسكت بطبق الشوربة الساخن بيسراي وتجرعته متعجلًا حتى أغرقٍ السائل مقدمة صدري، أعدت الطبق بيدي المرتعشة للطاولة ولم أقرب باقي الطعام القليل. كنت منهكًا فألقيت بجسدي على الفراش، أغلقت عينَيّ لكن النوم عاندني وتركني للتعب والإرهاق والقهر يتلاعبون بي ويتناوبون إذلالي، فظللت أتقلب على فراشي كل فترة متوسلًا للنوم أن يداهمني لكنه أبى وراح يتلذذ بمنظري والذكريات تنهش عقلي وتفترس أعصابي بوحشية..!

في صباح اليوم التالي استيقظت على دفعة قوية لباب القبو، ووجدت بدر وحارسه الضخم فوق رأسي، جلست في فراشي وأنا أفرك عينَيّ المجهدتين، كان بدر يضع يديه في جيبي معطفه قائلًا بالعربية حتى لا يفهم حارسه ما يقوله: اسمعني جيدًا، الصحفي موسى بركات ومنظمة باتريشيا يريدونك للعمل معهم ولولاهم لتخلصت منك، سأسمح لك بالبقاء هنا مؤقتا، وإذا أردت أن تهرب فلتخرج الآن لن أمنعك، لكن اعلم أنني لن أتركك لحظة تتلو ذكرياتك مع نانو لآخرين.. مفهوم؟

- مفهوم..!

مضت ثلاثة أشهر، كنت أذهب فيها كل يوم لمقر الشركة كي
لا أفعل شيئًا، فالسيد بدر لديه ماكينة لصنع القهوة وبراد للشاي بمكتبه، والسادة الموظفون لديهم حجرة صغيرة بها نفس الأدوات ووقت الغداء يغادرون جميعًا ويغلقون الباب خلفهم، وأنا أجلس بالمطبخ وحيدًا. لم أتقاضَ راتبًا سوى طعامي وشرابي من خلال الباتلر وبعض الفرنكات المعدنية القليلة التي كان بدر يتخلص منها حتى لا تزعجه في جيوبه، ولم يعد يُسمح لي بالخروج أبدًا، وكأنني خرجت من سجن الحكومة مبكرًا كي أستكمل باقي فترة العقوبة بقبو صغير أسفل بيت بدر..!

استرجعت شريط حياتي كله كعادتي، مررت على كل مشهد بتفاصيله، توقفت بمحطات كثيرة لكن لم يعد هناك حتى رفاهية للندم، كل الطرق ردمت خلفي، كما لم تعد أمامي سكة لمستقبل فجميعها غير ممهدة ولا تصلح للسير فيها، أنا محشور بالكاد بين ماض ينضح بالفشل وحاضر كئيب ممل يبدأ صباح كل يوم متكررًا بحذافيره، كأن الزمن قد توقف منذ أن التقيت ببدر بعد خروجي من السجن. استسلمت لواقعي فلم يعد لدي ما أخسره، فقدت طموحي لكسب أي شيء آخر مثلما تمنيت من قبل، الهاجس الوحيد الذي بات يسيطر على كل تفكيري بعدما استغرق تخمره في عقلي عشرة أيام بلياليها، أن أنهي حياتي لكن بطريقة مختلفة! فكرت في البداية أن أبلغ الشرطة عن مكان احتفاظه بماكينة التزييف أسفل البحيرة التي يتأملها يوميًا من شرفة مكتبه لفترات طويلة وكأنه يطمئن على سير العمل، لكنني عدت وفكرت أنه ربما يكون قد نقلها لمكان آخر ولا بد أنه فعلها، ولن أجني من وراء بلاغي إلا فصل رقبتي عن جسدي بمعرفة رجاله وينعم هو بالحياة وحده، فهداني تفكيري إلى أمر آخر أكثر فاعلية، قررت أن أقتل بدر وأستريح..!

نعم سأقتله، هكذا كان جدي ومن بعده أبي وعمي يقولون، التمساح يُقتل ويُحنط ليظل عبرة للجميع فيعرفون أننا أقوياء، إنما مصارعته ومحاولة إبعاده عن الشاطئ مجرد حماقة وإضاعة للوقت بلا طائل، أيًا كانت النتيجة فلا شك أن الحياة ستكون أفضل بدون بدر، أقصى ما سيفعلونه أن يسجنوني مدى الحياة لو لم يقتنعوا بمبرراتي ودوافعي، فقد أخبرتني باتريشيا ذات مرة أنهم لا يطبقون عقوبة الإعدام هنا، كنت
لا أرى في بدر سوى حجر عثرة في طريقي، صحيح أنه لا توجد ملامح طريق محددة أمامي منذ فترة، لكنني لم أعد أعبأ حتى بوجود الطريق، أنا أطللت على الهوة السحيقة وتدلى جسدي وسقط في ظلامها تحت وطأة ثقل رأسي التي ملأها بدر بالوعود الكاذبة، ولم أعد أتشبث الآن بالحافة كما كنت، هويت ولم يعد لدي ما أخسره..!

سيطرت عليّ فكرة قتل بدر واستولت على حواسي كلها، ظلت تتنامى بعقلي كلما رأيته صباح كل يوم يتحرك حولي، أيقنت أنني لن أعود أبدًا لنوبيتي، إذن فلنرحل سويًا عن هذه الدنيا وليسبقني هو إلى

الجحيم أولَا، مثلما اعتاد القدر أن يميزه ويفضله عني دائمًا..!
بدأت أخطط لقتله بالسم لأنه أسهل وسيلة، وربما يصعب اكتشاف أنني القاتل فأعداؤه أكثر من معارفه، اشتريت كمية من مادة مميتة تستخدم في قتل الفئران مستغلا فترة الغداء وغياب الموظفين مؤقتا، يومها نبهني الصيدلي محذرًا: لا تستخدمها كلها مرة واحدة فهي كافية لقتل فيل..!
أذبت نصفها في فنجان قهوة أعددته له معتمدًا على أنه بلا شك يفتقد لمذاق ورائحة قهوتنا المصرية منذ سنوات بعيدة.. لكن في كل مرة تخذلني يسراي وتظل ترتعش، يعاونها على زيادة هزاتها خفقان قلبي ونبضاته العالية من شدة انفعالي بعد وضع السم وتخيل منظر بدر وهو في نزعه الأخير، فكانت تنسكب في كل مرة قبل أن أغادر مسرح الجريمة، مطبخي الصغير..!
بعد ثلاث محاولات فاشلة لقتله بالسم نفدت الكمية التي اشتريتها، وبدأت أستعد لشراء أخرى، لكن تغيرت الخطة فجأة لما استدعاني بدر يومًا قرب الظهيرة لحجرته على غير عادته، فلما مثلت بين يديه، قال دون أن يرفع نظره عن الأوراق التي أمامه: افتح أذنيك جيدًا يا عجيبة، لديك فرصة ذهبية للسفر إلى مصر، أنا وعدتك بالعودة في الوقت المناسب
وها هو أوانه قد حان..
سكت قليلًا ثم أردف وهو يزيح نظارته الطبية من على عينيه قائلًا بنبرة محفزة ومبتسمًا رغم ملامحه المجهدة دومًا في الفترة الأخيرة: وستعود إلى أرضك أيضًا.. في النوبة...!! ترك لي فرصة بعد هذه الكلمة السحرية الأخيرة ليرى رد فعلي، ورغم أن كلماته زلزلتني في مكاني لبرهة قصيرة، لكنني تعمدت أن أبدو باردًا، تلقيت كلامه بكثير من الاستخفاف ولا مبالاة بالغت في تصديرها إليه، كنت مثل البطة التي تبدو ساكنة على سطح الماء لكن من أسفله تتحرك قدماها بعنف بلا توقف وتدور كالمروحة.
تشككت قليلًا في الأمر فلم أعد أصدق تلك الحيل بعدما عانيت منها على مدار سنوات، وكنت قد تيقنت أنه لن يعيدني لمصر مرة أخرى، ما زالت لدغات باتريشيا تلسعني، وضربات بدر المتلاحقة تؤلمني..!
عصفت برأسي أفكار أخرى أطاحت بمشاعري كلها، ماذا سأفعل إذا عدت؟! ولمن أعود؟ لم يعد لي أهل ولا ولد، أنا على يقين الآن بأن مسكة وعجيبة غير موجودين هنا أو هناك، ولا أرض لي ولا سند، لم أعد أشعر بنوبيتي ولا شيء هناك يجذبني كي أعود، تلبسني تمامًا جون ليون برنار مثلما فعلها فارس حبشي السوداني من قبله وجثم على روحي لسنوات..
اقترب بدر مني قائلًا بصوته الرفيع: أعلم أنك غير مصدق ما أقوله لك.. لكن تفضل اقرأ بنفسك..
قالها وقدّم لي جريدة الأهرام المصرية، أبرز صفحتها الأولى في وجهي، عنوانها الرئيسي يتناول زيارة رئيس الجمهورية أنور السادات الأخيرة للنوبة وإقامته يومين بها في استراحة على شكل بيت نوبي قديم، ثم تصريحاته عن تعهده ببدء تعميرها وعودة من وصفهم بمنكوبي التهجير إلى ضفاف البحيرة مرة أخرى.. يا الله! أخيرًا..
رحت أخطو نحوه ببطء والابتسامة تنمو على شفتَيّ بالكاد وهي تقاوم أحزاني وشجوني، أطبقت على الجريدة بيسراي واتسعت ابتسامتي قدر ما استطعت، دمعت عيناي، قرأت الخبر ثلاث مرات، منها مرة بصوت عالٍ، التهمت تفاصيله بالصفحتين الأولى والرابعة، ثم طويت الجريدة باكيًا بدموع الفرحة، سجدت بصعوبة شاكرًا.. بعدها اقتربت من بدر وهو يعاونني على النهوض لأحتضنه من شدة انفعالي، لكنه تراجع نصف خطوة للوراء بخفة ورشاقة مكتفيًا بتربيت كتفي قائلًا: أنت لك قريب اسمه عطية سر الختم كان عايش في حلفا؟
- أيوة، أنا من بيت سر الختم بالنوبة وعطية سر الختم يبقى عمي الله يرحمه وأبو مسكة مراتي.
سألته بعدها عن سبب سؤاله فزام قليلًا ثم روى لي في عجالة قصة مفادها أن هناك نوبيًّا يحمل اسم سر الختم يعمل لدى أحد أصدقائه فدفعه الفضول لسؤالي عنه، ثم عاد يقول بنبرة مختلفة تمامًا عن ذي قبل وعيناه تلمعان بشدة وكأنهما ممتلئتان بالدموع المتحجرة وقد تجهم وجهه: كما قلت لك من قبل،

موسى بركات سيعاونك على العودة، لكن تذكر دومًا أن لكل شيء ثمن، ولا بد من دفعه مقدمًا أيضًا..!

***

.. كانت الصفحات الداخلية بالجريدة تشير إلى تفصيلات الخبر الرئيسي ودعوة الرئيس السادات المستثمرين إلى بلاد النوبة لتعميرها، بينما مقالات رئيس التحرير وبعض كبار الصحفيين تهاجم بضراوة الأصوات التي تدعو إلى توطين النوبيين أولًا، وتتهمها بأنها واجهات لتيارات الشيوعية التي تريد العودة بالبلاد للوراء مرة أخرى، عبارة «عام الرخاء» كانت تتكرر عشرات المرات يوميًّا في تحقيقات صحفية كلها تتحدث في نفس الموضوع، مثل الكورَس الذي يردد المقطع الأخير خلف المطرب عدة مرات وهم يتمايلون طربًا بينما هو ينتهزها فرصة ليلتقط أنفاسه من جراء ما كرره قبلهم!

لم يكن بدر يريد فرصة مهيأة أكثر من ذلك لاستغلال تلك المنطقة الغنية والغامضة على أرض مصر مع آخرين لا يظهرون أبدًا، لكنهم يثقون به لإدارة ملايينهم، ابتسم بمكر وهو يتذكر موسى بركات الذي أبلغه بالأخبار لما التقاه مؤخرًا، وأعطاه التفاصيل كلها قبل الإعلان عنها رسميًّا ليستعد للتعاون معهم، لا يزال لديه مصادره القوية التي تمده بالأخبار، المشكلة الوحيدة أمام بدر أنهم ينتظرونه الآن على الجانب الآخر، موسى بركات وآخرون سيتقاسمون معه بيض تلك الدجاجة التي عادت للحياة مرة أخرى.. عجيبة النوبي المهجر العائد لوطنه!

اضطر بدر مرغمًا تحت ضغوط من مدير المنظمة الجديد لأن يتفق معهم على ظهور عجيبة في حلقتين مسجلتين يتحدث فيهما عن أرضه وبيته ومِسكة زوجته التي ظلت تنتظره بعد غربة طويلة، بعدما شعروا بأهميته وأنه يمكن أن يكون شوكة في ظهر الحكومة المصرية إذا ما تباطأت في منح الشركات الاستثمارية التي اتفقوا معها امتيازات في الكعكة الجديدة، وشمل الاتفاق أيضًا أن تكون الحلقة الثالثة والأخيرة عن دعوة عجيبة لمستثمرين أجانب من العالم كله لتعمير بلاده، وأنه يثق في أن الحكومة المصرية ورئيسها أنور السادات سوف يقدمان يد العون والمساعدة لهم..!

كان عجيبة سهل المراس مثلما وطئت قدماه أرض جنيف لأول مرة منذ عشر سنوات، بل بالعكس ربما كان لينًا طيعًا أكثر، بلا أظافر أو أنياب، لم يشترط أي شروط، لم يعد يسأل عن زوجته وابنه، بدا كطفل لا يريد أن يسمع ما يوجعه، رفض تقاضي مقابل مالي نظير ظهوره في الحلقات المسجلة بعنوان مأساة التهجير وغموض العودة التي أذاعتها قناة أمريكية تلفزيونية شهيرة على مدار شهر، لا شك أنه كان يعلم بأنهم يستغلونه حتى الرمق الأخير، يعصرونه ويمتصون بقايا رحيقه، لكنه بدا زاهدًا في الدنيا كلها، مستسلمًا للقدر دونما معاندة أو مجرد تذمر هذه المرة على غير عادته، حتى مخططه لقتل بدر صار من المؤجلات، شأنه شأن أمور كثيرة في حياته فشل في إنجازها، بل ربما كان مثل سحابة صيف عابرة فلم يعد يفكر فيه مرة أخرى..

في يوم تصوير الحلقة الأخيرة من الفيلم التسجيلي الذي أذيع بعنوان أحلام العودة لأرض الذهب، كان عجيبة مضطربًا على نحو ما، خاصة لما شاهد حلقة من الحلقات التي أذيعت من عدة أيام، فقد رأى اسمه على الشاشة مسبوقًا بوظيفة جديدة لم يباشرها قط، ولم يفاتحه بدر في تولي شئونها من قبل، نائب مدير العلاقات العامة لمؤسسة «بدرو» لاستشارات التنمية والاستثمار في الشرق الأوسط..! لم يفهم، ولما استفسر لم يجد مجيبًا كالعادة..!

في طريقه لأستوديو التصوير لاحظ أن صوره التي كانت تغطي الجدران قديمًا قد نزعت من مواضعها، وتراصت فوق بعضها على الأرض بجوار أخريات، كأنها تتأهب لرحلة العودة للمخازن مرة أخرى، بينما ظهر عاملان يثبتان صورة كبيرة لعائلة إفريقية فقيرة يبدو عليهم الهزال بشدة وكأنهم هياكل عظمية خرجت من قبورها تترنح..!

ابتلع عجيبة الأسئلة المتفق عليها مسبقًا وحفظها منذ أسبوعين عن ظهر قلب بمكتب بدر، لكن قبل التسجيل قابل مصريًّا ببشرة سمراء فاتحة، كان واحدًا من طاقم التصوير لكنه لم يلتقه من قبل، رحب به

الرجل بالمودة التي يحرص المصريون على إظهارها لبعضهم البعض في الغربة في أول لقاء قبل أن تتبخر بعد ذلك تمامًا لتحل محلها الكراهية والحسد والضغينة..!

قدم له بعض القهوة ليدور حديث قصير مركز بينهما، كانت النوبة وأحلام العودة محوره الوحيد، رد عجيبة عليه بإجابات مقتضبة بعدما عرف أن محدثه ليس نوبيًّا، إنما تنحدر أصوله من إحدى قرى أسيوط، مضى الحديث فاترًا تقليديًّا حتى باغته الرجل بسؤال: تفتكر ليه السادات بنى بيت في النوبة وصمم يشهد على عقد جواز نوبيين؟

هز عجيبة كتفيه بما يعني أنه لا يعرف جوابًا محددًا، لكن المصور المصري رد بسرعة وهو يطفئ سيجارته بعصبية: لأنه ممثل أمريكاني وبيمسح كل خطوط عبد الناصر بأستيكة!

- خطوط أم خطايا؟!

طرح عجيبة تساؤله باستنكار والذي علق بذاكرته منذ أن قرأه في جريدة الأهرام، ونهض استعدادًا للتصوير تاركًا المصور في حيرة من أمره لا يفهم شيئا من تركيبة هذه الشخصية التي تجلس أمامه الآن وتلك التي يراها من خلف الكاميرات..

في ذلك اليوم سأله المذيع سؤالًا أخيرًا عن أسباب العودة الشخصية وكانت إجاباته تقتضي أن يضع مِسكة وعجيبة الصغير في جملة مفيدة باعتبار أنهما يعيشان الآن في أسوان وينتظران عودته وفقًا للمتفق عليه، مع عرض صور فوتوغرافية لامرأة سمراء وصبي يافع في مثل عمر ابنه، يبتسمان وهما يرتديان الزي النوبي أثناء كلمته، لكن عجيبة انفعل بشدة وتوتر حتى دمعت عيناه لما شاهد الصور واختنق صوته وهو يردد: كنت أتمنى أن ألقاهما، لكنني لا أعرف إذا ما كانا قد غرقا أم لا يزالان على قيد الحياة.. لم يعد لديّ أمل..!

رغم خروجه عن النص إلا أن التسجيل لم يتوقف، فقد أشار المُعدّ للمذيع والمصور بأن يستمرا، تركوا العنان لعجيبة لتنطلق كل مشاعره بدون لجام، حتى انهار تمامًا ولم يقوَ على استكمال الحلقة، فحددوا له يومًا تاليًا لاستكمال الفقرة الأخيرة منها والخاصة بدعوة المستثمرين للنوبة الجديدة ودعمه للحكومة المصرية، إلا أن بدر لما علم تفاصيل ما حدث أثناء التسجيل، أجرى اتصالًا برئيس المنظمة وصمم على رؤية الحلقة قبل إذاعتها، فحذف منها الكثير وطلب عمل مونتاج لمقاطع منها وتركيب بعضها على أخرى واستكملوا تصوير الجزء الأخير بمكتب بدر ليتدخل إذا ما لزم الأمر، فخرجت الحلقة للنور وعجيبة يبكي مرتين، الأولى على زوجته وابنه، والثانية لما دعا المستثمرين للعودة معه إلى أرض الذهب، بينما بدر وموسى بركات يقفان خلف الكاميرات ويبتسمان في هدوء لا يخلو من رضى..!

***

ربما بسبب تناولي الطعام أحيانا بمطبخ الشركة الصغير أو عدم اهتمامي بتنظيف المكان ورائي، لا أدري بالضبط، فقد ظهرت لأول مرة في حياة معظمهم حسبما قالوا حشرة مفزعة. كتمت ضحكاتي حرصًا على مشاعرهم، فلم يكن سوى صرصور متوسط الحجم، فيما يبدو أنه تغذى على بقايا طعامي حتى شب عن الطوق ومضى يشق طريقه معتمدًا على نفسه ناسيًا حجمه ومكانته، وكأنه كان يشاركني محنتي تمامًا، فنحن الاثنان نعيش على الفتات فقط..!

فزعت سكرتيرة بدر وانتفضت صارخة لما رأت الصرصور يمر بجوار مكتبها ويدلف حجرة رئيسها بدون استئذان أو حتى موعد سابق، لم يهمه بروتوكول أو شكليات، لم يعبأ بكونه قد تسلل في غفلة من الزمن إلى بلد من أغنى وأرقى بلاد العالم، وأن القابع خلف المكتب في تلك الغرفة الفسيحة واحد ممن يديرون الملايين على أطراف الكرة الأرضية وفي قلبها..

أعلنت حالة طوارئ بالشركة، امتعض بدر متقززًا لما عرف بالخبر، طلب استدعاء مكتب متخصص في قتل الحشرات، ابتسمت وحدثته بالعربية حتى لا يفهم باقي الموظفين المتجمهرين لرؤية هذه الحشرة التي تجرأت على اختراق الحصون العاتية، وكسرت كل القواعد الصارمة..

قلت مبتسمًا: دعنيٍ أخلصك منه فورًا، الأمر لا يستحق كل هذه الجلبة..
أومأ برأسه موافقًا في عصبية وغادر المكتب إلى غرفة الاجتماعات وخلفه سكرتيرته فزعة وعيناها علينا متلفتة في اضطراب كل برهة أثناء خروجها. بعد بحث قصير لمحت الصرصور يحاول الاختباء أسفل ستارة الواجهة الزجاجية ليحتمي بقماشها السميك من العيون الباحثة عنه، كان يتحرك في خطوط متقاطعة بسرعة ولا يستوعب حجم المخالفة التي ارتكبها، وجعلت كل هؤلاء السويسريين المرفهين ينتفضون لأجل الخلاص منه..!
سحقته بضربة واحدة من كفّي مثلما كنت أقتل الناموس صغيرًا في النوبة، فشهقوا فزعًا أو ربما قرفًا لا أعرف.. سقط الصرصور شبه جثة هامدة من على ذيل الستار إلى الأرض، حرك قرونه الصغيرة بعشوائية وارتجف رجفة بسيطة، سرعان ما خفتت حتى سكن تمامًا. اقترب الموظفون منه بحذر وهم مندهشون، التفوا حوله على شكل هلال غير مكتمل، صدرت آهات وعبارات استياء والتقط أحدهم صورة للجثة من عدة زوايا بكاميرا «بولارويد»، لتخرج الصور على الفور من فوهتها الأمامية العريضة، فتبادلوها ضاحكين، دقائق أخرى من الهرج والمرج ثم عاد كل منهم إلى مكتبه بعدما انتهت القصة نهاية دراماتيكية سريعة..
أزحت الصرصور جانبًا بقدمي قرب الجدار ليلتصق به خلف الستار، لتظهر جحافل نمل فجأة، فيما يبدو أنها توطنت في المكان بعد قدومي بفترة لكثرة فتات طعامي أيضًا. دارت كتيبة النمل دورتين حول الصرصور، راحت تقترب أكثر ثم انزلقت غالبيتها أسفله، مرت لحظات بطيئة بعدها مضى الموكب المهيب نحو ركن المكتب، ثم ظهرت جحافل النمل مرة أخرى تسير خلف قائدها حاملة جثمان الصرصور القتيل في مشهد جنائزي مهيب، حتى اختفت تمامًا بين ثنايا خشب الأرضية..!
عاد بدر لغرفته شبه شارد مشغول البال، استدعى عامل النظافة لرفع جثة القتيل وبدأ يعبث بأوراقه في عصبية، بدا متعجلًا فقد كان موعد سفرنا للقاهرة صباح الاثنين وغدًا عطلة الشركة الأسبوعية، سألني دون أن ينظر نحوي عما إذا كنت قد استعددت بدوري للسفر، رددت ببرود أنني دومًا مستعد، لكن جواز سفري الذي استخرجه لي منذ أسابيع بالوظيفة الجديدة لا يزال معه، استدار نحو خزانة مكتبه الضخمة، أزاح بعضًا من بكرات التصوير السينمائي، لمحت اسم باتريشيا على بعضها، التقط جواز السفر وسلمه لي، ثم تفحص مجموعة من تذاكر الطيران، وسرعان ما استبعدها وعبث بالخزانة مرة أخرى بعصبية ليلتقط تذكرة طيران للقاهرة بالدرجة الثانية كانت تقبع وحيدة عن الأخريات، أعطاها لي، تفحصتها بغير اكتراث وطويتها بين صفحات جواز السفر ورحت أؤكد عليه أن عودتي نهائية ولا شأن لي بكل ما يخطط له هناك..
- طبعًا طبعًا.. هذا أمر انتهينا منه.
قالها في عجالة، فرحت أعيدها على مسامعه مختتمًا بتهديد مغلف بطريقة بلدية حتى يظهر واضحًا بدون مواربة: لو لم أعد للنوبة سأقول كل شيء علنًا، لن يهمني شيء حتى لو ستقتلني..!
على عكس ما توقعت كان رد فعله باردًا، ابتسم قائلًا بوداعة: صدقني لم أنوِ قتلك أبدًا، أنا أريدك أن تعود الآن، وللأبد أيضًا..
- ولماذا وضعت وظيفة تحت اسمي أثناء تصوير الفيلم التسجيلي إذن؟
- مجرد شكليات طلبها موسى بركات لا تقف عندها كثيرًا، ارتدِ زيك النوبي من الغد إن أردت، سترافقنا ثلاثة أيام فقط في أسوان، سنلتقي موظفين حكوميين وصحفيين مصريين يمكنك معاونتنا والتعامل معهم، وبعدها سنودعك للأبد، لا تقلق، لكن إذا أردت أن تعمل معنا في...
- لا أريد أي شيء منك، سوى أن تتركني في حالي للأبد..
كنت جافًا حاسمًا وأنا أقاطعه، لكنه قبل أن يعلّق انتبه لوجود جلبة بالحجرة، كان عامل النظافة لا يزال يبحث عن جثة الصرصور وفشل، بعدما نجحت جحافل النمل في إخفائه تمامًا عن الأعين لحين قيامها

بغارة أخرى، ظل العامل يدور حول نفسه باحثا عن القتيل في حيرة، حتى سئم بدر وجوده الصامت المندهش، فصرفه من أمامه خالي الوفاض. ثم لملم حاجياته وبدأ يتأهب للمغادرة، لكن فجأةً بدا وكأنه تذكر شيئا فلمعت عيناه وابتسم ابتسامة مبتورة وفتح خزانته ليقدم لي بطاقتي القديمة قائلًا : خذها، ربما تستخرج بطاقة جديدة باسمك الحقيقي مرة ثانية!!

فتحت دفتر البطاقة بأصابع مرتعشة متأملا صورتي بالطربوش، عمري وقتها لم يتجاوز الثامنة عشرة بكثير وها هو اسمي الحقيقي كاملا وأوصافي ومسقط رأسي، يا ألله.. كم أفتقد نفسي !!

التفت بدر ناحيتي سائلًا : هل هناك شيء آخر تود أن تقوله قبل سفرنا؟

- نعم، هل السيدة برنار لا تزال زوجتي؟ لقد ذهبت إليها بعد خروجي من السجن ورفضت لقائي.

- لا تشغل بالك بهذا الأمر، هي لن تطالبك بشيء، أنا سويت الموضوع معها منذ فترة.

كنت أصوب عينَيّ على الجدار خلفه وهو يتحدث، فالتفت وراءه ثم عاد ناحيتي قائلًا بدهشة وضيق: هل تريد شيئًا آخر؟!

- نعم.. ولكن أخشى أن ترد طلبي!

قلتها بنبرة خافتة تحمل بين طياتها الكثير من الرجاء، ظل بدر صامتًا جامدًا لا يعلق، منتظرًا أن أحدد مطلبي كي لا يتورط مبكرًا في وعود كعادته، فأردفت وصوتي يزداد لينًا وابتسامتي تتأهب للبزوغ: أريد الاحتفاظ بالخنجر الفضي المزين بالتماسيح والخاص بوالدك..

قلتها وأنا أشير نحوه بيسراي، كان الخنجر لا يزال معلقًا على الجدار خلف مكتبه، هز بدر رأسه متعجبًا من مطلبي الغريب المتكرر الذي لم أعد أنا نفسي أعرف له سببًا، ثم ابتسم ابتسامة مبتورة قائلًا على مضض بدون تفكير طويل: لا بأس، فأنت صاحب فضل في استرداده، سأعطيه لك لكن بشرط واحد، ألا...

قاطعته بحماس: أعدك ألا أبيعه أبدًا..!

فأكمل ابتسامته مطمئنًا وهو يسلّمه لي..!

خرجت من مكتبه فرحًا بالخنجر وبطاقة الهوية الأصلية وأنا لا أفكر إلا في شيء واحد.. العودة.. لكن إلى أين ومع مَن؟! لم أجد إجابة واضحة بعد..!

***

صب بدر كأسا ثانية من الويسكي لموسى بركات ووضع له بعضًا من مكعبات الثلج وقرعا كأسيهما وبدر يقول ضاحكًا: في صحة عجيبة، أخيرًا سأتخلص من هذا الكابوس الأسود ونهاية سعيدة أيضًا، أشكرك يا موسى.

لم يبتسم موسى بل بدا شاردًا قليلًا وهو يرد متجهمًا: أشعر أنه
لا يريد العودة!

- لأنك لا تعرفه مثلي، هذا النوبي لا يمكن أن يعيش بعيدًا عن أرضه كثيرًا كما تظن، فهو مثل السمكة التي...

- لا يا بدرو أنت مخطئ، نظرته منكسرة وشاردة ولا بد أنه عرف الحقيقة..!

قاطعه موسى بثقة وهو ينهي كأسه ويشرع في إعداد ثالث ثم استرسل قائلًا: حتى عندما كان يسجل الحلقة الأخيرة لبرنامج الأقليات شعر الجميع بأنه جسد بلا روح، الخوف الآن من بقائه هنا وثرثرته ولا بد أن يكون دائمًا تحت أعين...

- لا أظن يا موسى أنه عرف الحقيقة، من أين له أن يعرفها؟ أنت قلق أكثر من اللازم.. دعنا من عجيبة ولنتكلم فيما هو أهم، مواعيد التنفيذ وشروط التمويل.

بدا موسى شاردًا فجأة، كمَن تذكر أمرًا مهمًّا ولا يسمع شيئًا مما يقوله بدر ثم التفت له قائلًا: أين عجيبة الآن؟!

- في القبو كالمعتاد، فهو تقريبًا لا يغادره إلا لمكتبي !

قالها بدر مرتبكا بعدما هزت كلمات موسى بركات ثقته في مخططه فالتفت لحارسه طالبًا منه التأكد من وجود عجيبة، غاب الحارس قليلًا ليعود لهما مهرولًا حيث يجلسان بالتراس المطل على البحيرة قائلًا بتوتر: برنار غير موجود بحجرته يا سيد بدرو، ووجدت تلك الورقة على فراشه لكنني لا أفهم منها حرفًا، فهي مكتوبة بلغة غريبة..!

***

تركت خطابًا قصيرًا باللغة العربية لبدر أطمئنه فيه بأنني لن أفشي سره لأحد، لم أعد راغبًا في تلك الحياة، رفعت رأسي صوب السماء مناجيًا ربي أن يرحمني من عذابي، لا أظن أنني سأتحمل العودة دونها ودون عجيبة الصغير، أنا ذهبت لآخر العالم من أجلهما والآن سأعود للقاهرة خالي الوفاض لأبدأ من جديد وحدي، لكن بأي حال سأعود؟ ومع من؟ مع بدر الذي صار الآن من كبار المستثمرين في نوبتي.. في أرضي، وكأن حلمي كله كان مجرد تذكرة سفر للقاهرة، أعود لكي أعمل عنده أجيرًا ذليلا كما كنت دومًا؟ أجلس أمام الخور قرب الشاطئ لأرى بدر يخرج عليّ كل صباح يستمتع بأرضي وشمسي وخيراتي كلها، سأظل خائفًا.. مغتربًا.. خانعًا.. وسيصفونني كلهم بأنني طيب القلب.. راضٍ، قانع..! يا ألله!

قادتني قدماي قرب البحيرة من الناحية الغربية، هبطت درجات السلم نحو المرسى متأملًا يخت بدر الرابض أمامي وحروف اسمه الخمسة منقوشة بخط كبير على جانبيه، يتأرجح ببطء على صفحة الماء، يغيظني بتموجاته، لمحت من بعيد كشك الهدايا التذكارية «بارديان» ولفت نظري أنه أكبر قليلًا من الأكشاك المنتشرة حول البحيرة، خُيل لي أنني أسمع صوت ماكينة تزييف النقود وهي تدور أسفله وتضخ ملايين الأوراق النقدية المزورة ليستثمر بها بدر في بلادي ويشتري بها أرضي..!

جرجرت حقيبتي الصغيرة خلفي متجها نحو الجسر الكبير المرتفع، عازمًا على طعن نفسي بخنجر السير ويليام ويلكوكس الذي أعطاه لي بدر منذ يومين لأنهي آلامي، غمغمت محدثًا نفسي: لا تقلق يا سيد بدرو فلن أفتح فمي ثانية ولن تراني بعد اليوم وسامحني لو غرق الخنجر معي عندما ألقي بنفسي في البحيرة، أنا مسافر وحيد بحقيبة فارغة، ولم تعد لديَّ حلول أخرى سوى الانتحار..!

***

«دقائق قليلة ونهبط في مطار أسوان، الرجاء ربط أحزمة المقعد والامتناع مؤقتًا عن التدخين لحين الهبوط وتوقف محركات الطائرة تمامًا، شكرًا لاستخدامكم خطوط طيران سويس إير»..

أظن أنني الوحيد على متن الطائرة الذي كان واجمًا مضطربًا لسماع هذه الكلمات القليلة الروتينية من المضيفة السويسرية، ألقيت نظرة طويلة من النافذة البيضاوية، ها هي البحيرة تتلاحم مع مجرى النيل الفضي اللامع، وهذا هو السد الجرانيتي السميك يجثم عليها ويحبسها خلفه، هنا يرقد جدودي وآبائي وأعمامي وأبناؤهم وربما هنا أيضا مِسكة وعجيبة الصغير، سلام الله على أرواحهم جميعًا، أما هذا الشريط الأصفر الضيق المتعرج فهو أرضي التي سأعود إليها مجبرًا بعدما منعني بدر وموسى بركات من الانتحار..!

أبلغا الشرطة وبحثا عني بأرجاء مدينة جنيف طوال الليل، حتى وجداني قرب الجسر أتأهب للقاء مسكة وعجيبة الصغير فحالا دون إتمام اللقاء، من يدري لعلني أموت هنا مع آبائي وأجدادي وعائلتي بدلا من الرقود في قاع تلك البحيرة الباردة هناك..!

نزلت على رغبتهما بالعودة مضطرًّا بعدما عرفت الشرطة طريقي وأخذت عليّ تعهدات بعدم محاولة الانتحار مرة أخرى، وفرضت قيودًا كثيرة على إقامتي بجنة الله في الأرض راقدًا بقبو بدر في ليلتي الأخيرة وحارسه يجلس بجواري قبل طردي منها مع أنني لم أتذوق طعم التفاحة بعد..! فآثرت الخروج منها مثلما فعل إبليس قبلي مع أنني لا أقوى على غواية أحد ولا حتى نفسي..!

.. بدا لي شريط الرمال من بعيد كأنه تمساح يلوي ذيله ويرقد متشمسًا مثلما كنت أراه صغيرًا.. لكنني الآن لم أعد أخشاه كما كنت! ربما تبلدت وربما تهيأت للعيش بالقرب منه من كثرة ما عانيت طوال رحلتي..! خرج بدر من الطائرة قبلي، فقد كان يجلس بمقاعد الدرجة الأولى مع ستة من كبار المستثمرين ورجال الأعمال السويسريين وأربعة آخرين من طاقم مكتبه، كنت الوحيد القابع في ذيل

الطائرة وآخر من غادرها، وقفت برهة على سلمها مجهدًا من الرحلة التي توقفت لأكثر من ساعة ترانزيت بالقاهرة قبل أن تطير لأسوان مرة أخرى ببعض الركاب، رحت أتنسم هواء بلدي غير مصدق أنني عدت إليها مرة أخرى لكنني ما زلت أشعر بغربة وكأنني لم أعد بعد..!

- حمد الله على سلامتك يا أستاذ برنار، حضرتك من أصل مصري؟!

ابتسمت ابتسامة بلاستيكية لضابط الجوازات الذي يحدثني بسماجة ولزوجة عن الحياة في أورُبا والفتيات الشقراوات، ثم أومأت برأسي فقط ولم أرد، خرجت في دقائق بسبب تواجد مندوب من محافظة أسوان لإنهاء إجراءات الوفد السويسري الذي وصفته الصحافة في اليوم التالي لوصولنا بالاقتصادي رفيع المستوى، قرأت اسمي ووظيفتي الجديدة التي لم أباشر مهامها بالصفحة الأولى بالجريدة بينما احتلت صورتي مساحة لا بأس بها بالصفحة الثالثة مع تصريح مقتضب لم أنطق به بأن النوبة أرض الفرص السانحة للاستثمار الواعد..! نحيت الجريدة جانبًا، وعدت أتعجل موظفة الاستقبال في الفندق للمرة الثالثة لتحول لي المكالمة الهاتفية الوحيدة التي حرصت على إجرائها منذ وصولي مصر، كان رقم هاتفها بالإسكندرية محفورًا في ذاكرتي لم أنسه أبدًا، لطالما اطمأننتِ عليها وأنا في جنيف، حتى حالت سنوات السجن بيننا ولما خرجت لم تكن ترد على هاتف منزلها مطلقًا. بعد قليل جاءت المكالمة، لكن رد عليّ صوت رخيم غريب لم أتعرف عليه، فبادرته سائلًا بقلق: هل مدام بارديان موجودة؟!

- البقية في حياتك، المدام ماتت من ثلاثة شهور، مين حضرتك؟

وضعت السماعة بهدوء، فلم يعد هناك مبرر لاستمرار الحديث ومعرفة تفاصيل ماضٍ لن يغير من الحاضر شيئًا، خرجت إلى شرفة حجرتي بفندق الكتاراكت أتأمل النيل يجري ببطء أمامي وعيناي دامعتان وصورة مدام بارديان لا تفارق مخيلتي، عشرات المراكب الشراعية متناثرة بأرجاء النهر، ألوان البيوت وزحف النباتات على الضفتين وأطفال صغار بجلابيب بيضاء نظيفة يلهون قرب الشاطئ، ولأول مرة منذ سنوات بعيدة لم أعد أبحث عن مِسكة أو عجيبة الصغير، رغم أنني لمحت شبحيهما يتحركان أمامي من بعيد، ربما يكونان هناك، ابتسمت على هذا الهاجس في مرارة اعتدت طعمها اللاذع في فمي حتى استعذبته. نزعت «الفولار» الحريري الذي يطوق عنقي وألقيت بسترتي الكحلية الداكنة ذات الصفين المحلاة بأزرار ذهبية على فراشي وأخرجت جلبابًا نوبيًا من حقيبتي، فردته أمامي على السرير متأملًا إياه لبرهة، قربته من أنفي وتشممته بعمق، شعرت أن رائحتي فارقته منذ زمن بعيد وبدا غريبًا عني. تكومت في فراشي كجنين غير مكتمل، مجهدًا حزينًا، متجردًا من كل ملابسي عدا سروالي..!

رغم شدة إجهادي حاولت النوم بشتى الطرق لكن الأرق نجح في تمكينه من الفرار بعيدًا عن عيني، فمنذ اليوم الأول لوصولنا ونحن في اجتماعات مع المحافظ ووزيري الإسكان والتخطيط وجيش جرار من الموظفين، يحيط بنا دائمًا رجال الشرطة والمصورون والمراسلون الصحفيون أينما حللنا، عدنا للفندق منذ ساعات قليلة بعدما تفقدنا منطقة الشلال خلف السد العالي مباشرة، وغدًا سنذهب إلى النوبة القديمة، ومنذ وصلت أسوان ينتابني شعور غريب، إنني مجرد حشرة تتنزه بثقة فوق شبكة عنكبوت ضخمة، تظن أنها ستبلغ منتهاها بنهاية خيوطها لكنها متشعبة متشابكة ستطوى عليها وتبتلعها لينتظر غيرها من الغافلين..! غادرت الفراش وتجرعت نصف زجاجة من الويسكي بشرفة الغرفة وحيدًا، قابعًا في الظلام حتى دار رأسي وأسدلت جفوني، وبين فينة وأخرى بعد الكأس الرابعة كان يطل بصيص من الأمل ويراودني على استحياء كلما طردته من تفكيري أن مِسكة عادت بالفعل مع صغيري ولا تزال على قيد الحياة..! غادرت الشرفة منقبضًا، تقلبت على الفراش مستجديًا النوم، لكن ظل قلبي ينبض بشدة ورعشة يسراي تضغط أكثر على أعصابي المضطربة، وتفكيري يكاد يتلف تروس عقلي من شدة الدوران. كانت الساعة تقترب من السادسة صباحًا، ارتديت ملابسي وتوجهت لمحطة القطار واشتريت تذكرة عودة للقاهرة بعد ثلاثة أيام بعدما قررت الاستقرار بحي عابدين، سأعود ولكن للقاهرة، سأعود

إلى غرفتي القديمة الخانقة، سأعود لحياتي الأولى البائسة، سأستخرج بطاقة هوية جديدة من هناك، فلم تعد لديّ حلول أخرى ولا حياة لي هنا.

رجعت للفندق وبمجردٍ أن استلقيت على فراشي وبدأ النوم يداعب جفوني، سمعت طرقًا خفيفًا على باب حجرتي، فتحت متكاسلًا لأجد أمامي زائرًا لم أكن أتوقع حضوره على الإطلاق، لم أنم بعدها بسبب ظهوره المفاجئ في حياتي وما أطلعني عليه من أسرار فقلبها رأسًا على عقب من حيث لا أدري..!

***

50

منذ أن ترجلنا من السيارات بالقرب من مرسى البحيرة لنعبر بالمعدية إلى ناحية الشرق وأنا لا أصدق ما أراه حولي، مساحات شاسعة من الصحراء والأراضي الخالية على ضفاف البحيرة بالقرب من معبد «أبو سمبل»، آبائي وجدودي مثل هذا الفرعون الخالد الذي يزوره المئات كل شهر ويقف أمامه آلاف البشر مرتين كل عام وقت تعامد الشمس على وجهه، الفارق بيننا ثلاثة آلاف سنة أو يزيد، لكننا لم نخلد أسطورتنا بعد، لا بد وأن يخطو أحدنا الخطوة الأولى.. ولكن من يكون هذا الفارس؟!

شطحت مخيلتي في هلاوس تجسدني ضخمًا للغاية، طولي يتجاوز العشرين مترًا وأحمل عجيبة الصغير بيسراي ومِسكة تبدو أطول مني وأضخم أيضًا تقف بجواري بطرحتها النوبية الرقيقة المشغولة من الحرير وتضع كفها على كتفي وننظر ثلاثتنا للأمام في فخر وكبرياء وعِزة..

- هيا يا أستاذ برنار وصلنا الشرق..!

انتبهت لكلمة سكرتير عام المحافظة المرافق لنا وهو يتأهب لمغادرة المعدية ويتنبه لخطواته، بعد أن فضل بدر ومرافقوه معاينة الموقع دون المحافظ والصحافة الرسمية في اليوم الأول لوصولنا ليتحدثوا بحرية أكثر ثم ينتقوا كلامًا آخر للرسميات. تكرر نفس سيناريو أسوان بحذافيره، بدر يسير على خطوط مرسومة بدقة لا يحيد عنها أبدًا، وقفنا على شكل نصف الدائرة على ضفاف البحيرة نستمع لشرح مطول من مسئول وزارة الإسكان عن جغرافية المنطقة وإمكانية البناء والتعمير والاستثمار فيها، وبدر ومرافقوه يستمعون باهتمام بالغ، يدوّنون ملاحظات ويسألون عن تفاصيل كثيرة، كنت أقف في نهاية طرف القوس فتراجعت خطوة للوراء وأعطيتهم ظهري، وقعت عيناي على موقع مدرستي القديمة، كنت أعلم أنها قد غرقت لكن لدهشتي وجدت المبنى لا يزال في مكانه، لا إراديًّا توجهت نحوه محملًا بشجن الطفولة وعبق الذكريات الجميلة عندما كان أبي يصطحبني في كل زيارة يحضر فيها لرؤيتنا، ويحكي لي عن التماسيح أثناء سيرنا وعن شجاعته في اصطيادها شابًّا وبراعته في تحنيطها بعد ما ولَّى الشباب، تقلبت ذكرياتي مع حيرتي بسبب عدم غرق هذا المبنى بالتحديد ولماذا كذب عليّ عمي وأنا صغير وأخبرني بغرقه، لكن تبدلت ملامحي وتبددت حيرتي لما اقتربت أكثر ورأيت، المبنى ليس مدرستي بل ليس مدرسة من الأساس، هذه بناية عسكرية صغيرة منشأة حديثًا في ذات المكان بالضبط الذي غرقت به مدرستي بعد ردم النهر، عليها لافتة كبيرة تشير لكونها نقطة تفتيش عسكرية بالكيلو 27 حدود..!

تلقائيًّا قادتني قدماي بعيدًا عنها، وبدأت المسافة بيني وبينها تتسع حتى ناداني جندي يقف على مبعدة من ناحية اليسار: أنت يا أفندي..!

التفت نحوه فأشار إلى لافتة سوداء كبيرة في وسط الأرض مثبتة على حامل خشبي طويل ومكتوب عليها بخط واضح وحروف ضخمة: «ممنوع الاقتراب أو التصوير»..!

كدت أردد بصوت عال: تلك أرضنا.. لكن شيئًا ما في ملامح الجندي وابتسامته الودودة لي جعلاني أبتسم له، تساءلت مع نفسي: ما ذنبه؟ هم قالوا له قف هنا فوقف، اسمع فأطاع، نفذ الأوامر، فما ملك من أمر نفسه شيئًا، مثله مثلي تمامًا، حييته بحماس وانصرفت صامتًا مطرقًا..!

عدت للانضمام لدائرة بدر، وقفت بالقرب منه كأنني أستمد هويتي من وجوده للأسف، كان مشغولًا بالشرح، يشير بيده إلى خيران كثيرة مما كنت أختبئ فيها صغيرًا ليكمل حديثًا لم أحضر بداياته لكنني أصبحت مدركًا تمامًا لنهاياته..!

- سوف نبني لهم بيوتًا هناك على بعد أربعة كيلو مترات من شاطئ البحيرة لا مشكلة لدينا في ذلك.

أنهى بدر كلامه ثم التفت لي وربت كتفي مبتسمًا، ليبتسم الواقفون لنا، وأنا أجول ببصري بينهم، لكنني لم أعلق بحرف ولم أبادله الابتسام..!

قضينا ليلتنا تلك في فندق صغير والتقيت للمرة الثانية مع الزائر الذي حضر لغرفتي أمس وغيّر مجرى

حياتي مرة أخرى، وبعد هذا اللقاء بدت ملامح طريقي واضحة أمام عينَيّ أكثر من أي وقت مضى..!

في اليوم التالي كان مقررًا أن يحضر بعض الوزراء والمحافظ ورجال الصحافة والتلفزيون المصري والسفير السويسري أيضًا، وسرت شائعات عن حضور الرئيس السادات بالطائرة الهليكوبتر، اهتمام إعلامي غير عادي ومسئولو المحافظة لا يكفون عن ترديد عبارة «كله تمام يا أفندم» لكل ما يفكر فيه بدر أو يرد على خاطره حتى ولو عدل عنه إلى نقيضه..!

في الثامنة صباح اليوم الأخير لنا بالنوبة القديمة، قبل أن نعود لأسوان في المساء لنتوجه منها للقاهرة، غادرت الفندق بمفردي، فلا يزال أمامنا أربع ساعات على بدء المؤتمر الصحفي والجولة الرسمية مع الوزراء والمحافظ والركب الطويل من الموظفين وغيرهم ممن لا أعرف لهم صفة كي يتواجدوا بهذا الحشد الضخم وكأننا ذاهبون لمباراة كرة قدم باستاد القاهرة..!

ركبت حنطورًا طالبًا من الحوذي الذهاب لمكتب البريد، ظللت أراقبه طوال الطريق وأنا مبتسم، ثم تدخلت لأوجهه في قيادة الحصان، فعلت الدهشة وجهه، إذ كان يظنني خواجة كما قال من بدلتي الأنيقة ورابطة العنق الخضراء الفاقعة التي أرتديها والقبعة البيضاء التي تغطي رأسي، أخبرته أنني سوداني مهاجر منذ زمن بعيدٍ لكن في البلد الأوربي الذي أعيش فيه لدي عربة حنطور للتسلية، تبادلنا الضحكات وأعطيته جنيهًا كاملا، فظل يدعو لي حتى ابتعدت عنه بمرمى حجر على الأقل..

وقفت أمام الشباك المنخفض بمكتب البريد، فلما جاء دوري انحنيت قليلًا قائلًا بثقة وأنا أترك جنيهًا آخر على المنضدة الرخامية أمامه مباشرة كأنني ألقي بسنارتي وطُعمي في انتظار صيدي: لديكم دفتر توفير قديم باسمي وأريد أن أعرف الرصيد من فضلك؟

حيّاني الموظف بترحاب شديد بالعًا الطعم بشهية، قائلًا بأدب مبالغ فيه بعدما دس الجنيه في جيبه بسرعة: باسم مين يا سعادة الباشا؟

- دهب عجيبة سر الختم..!

أول مرة أنطق اسمي الحقيقي كاملًا، منذ زمن بعيد لم أستخدم اسمي الأول، دهب، ربما منذ أيام دراستي هنا بالمدرسة الداخلية، حتى علاه الصدأ من الإهمال، وتآكل من النسيان، ظللت مبتسمًا واضعًا يمناي البلاستيكية في جيبي والموظف يبحث بسرعة في الدفاتر أمامه، بدا مظهري متعاليًا بعض الشيء، ذا هيبة نوعًا ما، مختلفًا عن المترددين جميعًا فانجذبت العيون نحوي في فضول..!

- تمام مضبوط، دهب عجيبة سر الختم، موظف بمركز رعاية الشباب بالجزيرة مواليد النوبة في 29 فبراير 1924 ، وفيه تحويلات ماهيات وحوافز ومكافآت بقيمة ثلاثة آلاف وأربعة وستين جنيهًا وآخر تحويل من شهرين، البطاقة لو سمحت يا باشا ونصرفهم لحضرتك فورًا..

قدمت له بطاقتي، فظل يقلب فيها عدة مرات مندهشا ثم أطلع رئيسه عليها، تجمع باقي الموظفين حولها كأنهم يرون عجيبة من العجائب ثم قال رئيسهم بحزم: لازم حضرتك تبدلها في السجل المدني، البطاقات اتغيرت من عشرين سنة يا أستاذ دهب.

- الحقيقة أنا مهاجر من سنين طويلة!!

استدرت منصرفًا وأنا لا أقوى على كتم دموعي المترقرقة على حالي وكأنني أنعي نفسي وهجرتي، اختلطت مشاعري بأحاسيسي في مزيج شديد المرارة، والموظف يتأهب للحاق بي وهو يصيح عاليًا: تحت أمرك يا باشا حننتظر حضرتك في أي وقت بالبطاقة الجديدة ..!

***

ظللت أكلم نفسي طوال طريق العودة وأنا قابع في عربة الحنطور أطالع وجوه المارة القليلين بالشارع، كدت أصرخ فيهم: يمكنكم أن تنادوني باسم أبي مؤقتًا، فاسمي لم يعد مهمًّا، أنا نفسي لم أكن أتذكره، كل ما يعنيني الآن أن أعرف نهايتي بعدما كبرت مشاكلي وتشعبت كخيوط عنكبوت، ربما هو نسيها بعد أن ظل شهورًا ينسجها، وربما هجرها منذ زمن بعيد وتركني عالقًا بها وحدي أواجه مصيرًا مجهولا!

هززت رأسي مستنكرًا وكأنني أعترض على كلامي، علا صوتي وأنا أردد: أنا أحمل عدة أسماء وبضع هويات وعشت ثلاث حيوات أيضًا ومع ذلك لن أتضايق إذا ما ناداني أحدهم الآن باسم أبي، بالعكس سأسعد جدًّا بل أصبحت أتمنى ذلك، فعلى الأقل لا يزال هو الاسم الأقرب لهويتي من بين كل الأسماء التي تسميت بها حتى اسمي الحقيقي «دهب»..!

لكن للأسف فهذه الأمنية البسيطة لم تعد قابلة للتحقيق الآن فكل شيء تغير، أنا هكذا دومًا، لا أحد يستجيب لرغباتي والقدر يتربص بي دائمًا ويصر على معاندتي، لكنني سأخطو خطوتي التالية حتى ولو كانت الأخيرة، فلم تعد لدي حلول أخرى..!

***

51

عدت إلى غرفتي بالفندق، وفي طريقي بالبهو الضيق الطويل لمحت النتيجة المعلقة على الحائط، كان يوم التاسع والعشرين من شهر فبراير، ضربت جبهتي بيسراي متنهدًا متمتمًا بمقطع «عدت يا يوم مولدي.. عدت أيها الشقي»، مثلما كانت مِسكة تغنيها لي كل أربعة أعوام، فهي الوحيدة التي كانت تحتفل بعيد ميلادي، ومن بعدها صرت فارس حبشي ثم جون برنار بتاريخي ميلاد غريبين عني، قفزت إلى رأسي مقولة عمي عن شؤم هذا اليوم منذ موافقة مجلس الشيوخ على تعلية الخزان، كان أيضًا يوم 29 فبراير من عام 1932 ، فغرقنا بعدها..!

- يا ألله!

أتراها صدفة أيها القدر أن أولد في يوم شؤم؟ أم أنك تعمدتها مثلما تفعل معي دائمًا، ثم ستراقبني بعدها غير مبالٍ بحالي كعادتك لتتدخل في اللحظة الأخيرة وتكتب كلمة النهاية..؟!

تمتمتُ بكلماتي تلك ثم لوحت بيسراي في الهواء للا شيء، هندمت ملابسي وتحسست خصري جيدًا بعدما غادرت حجرتي وأنا أتلفت حولي في حذر، توجهت إلى مقر المؤتمر الصحفي بساحة «أبو سمبل» على ضفاف البحيرة من ناحية الغرب، نظرت حولي فرأيت بدر وموسى بركات ومرافقيهما وحشدًا هائلًا من المسئولين حولهما. وعلى مبعدة رجال شرطة كثيرون وجنود بأسلحتهم، ونوبيون فقراء في الخلفية حشدوهم للتصوير فيما يبدو، ربما ليسوا نوبيين، ما الذي يمنع صاحب أي بشرة سمراء أن يدّعي نوبيته وسط هذا المولد؟! أنا نفسي لم أعد مثلهم، فقدت نوبيتي الحقيقية وقت أن تخليت عن أشياء كثيرة منذ زمن بعيد وقبضت ثمنها ودفعت ثمن أخريات لم أكن أريدها! لكن لم تعد لي خيارات الآن، معي بعض المال فقط، النقود التي وعدني بها بدر أمس بالفندق والتزم بوعده ليضمن سكوتي للأبد، سلمني شيكًا يحمل رقمًا تراصت عن يمينه أربعة أصفار، وهو رغم ضخامته لم أشعر بأنه سيسترني، بل بات يكشف عوراتي وسوأتي أكثر من أي وقت مضى أمام نفسي..!

ألقيت نظرة شاردة على البحيرة لكنني تنبهت وفزعت لكثرة التماسيح الطافية على صفحتها وتحوم حول المرسى العائم، تكاثرت وزادت أعدادها حتى كادت تلتهم من تبقى منا وأفلت من الغرق وساورته نفسه بأن يقترب من الشاطئ مرة أخرى..!

رنت كلماته بصوته الرفيع المزعج الذي يقشعر معه بدني دومًا بسبب العصبية التي تغلفه فأخرجتني من شرودي وأنا في طريقي إليه..

- برناار.. اكتب كلمة الشركة في دفتر تشريفات المحافظة حتى ننتهي من التصوير..!

قالها بدر بنبرة آمرة بالفرنسية ثم أشار بعينه ناحيتي لرجل يقف على مقربة، أعطاني بدر ظهره منشغلًا بمن حوله، واقترب مني الرجل وهو ينحني عدة مرات بلا سبب واضح معرّفًا نفسه بأنه موظف العلاقات العامة بالمحافظة، كان يحمل دفترًا ضخمًا يغطي مقدمة صدره، قدم لي قلمًا وظل يضع الدفتر مفتوحًا على راحتيه حتى لا يشغلني بأمر حمله..

اضطرب تفكيري قليلًا ولم يستقر إلا بعدما أعطى عقلي أمرًا واجب النفاذ لذراعي، وبيدي اليسرى المرتعشة أمسكت بالقلم، كتبت في دفتر التشريفات ما يدور بخاطري، بحروف متعرجة بدأت تميل إلى أسفل كأنها ستروي البحيرة بمداد الحبر الأحمر: «أيها القدر، ليتك كنت تقبل الرشوة، فلم تعد لدي حلول أخرى»، ثم وقعت أسفلها باسمي الحقيقي كاملًا ووضعت التاريخ المشئوم الذي يسجل معاناتي ويصر عليها، يوم مولدي وربما نهايتي فلا أدري حتى الآن ماذا ستفعل الأقدار بي، كتبت بخط كبير تاريخ اليوم 29 فبراير 1980 ، تنهدت ثم طويت الدفتر بعنف وابتسمت للموظف كي لا ينزعج أكثر لما لمح توتري وفي نفس الوقت لا يقرأ ما كتبته بعدما لاحظت تلصصه..!

هممت بالتحرك لتنفيذ ما عزمت عليه، لكن وقعت عيناي على وجه الزائر الذي أتى لغرفتي بالفندق منذ

يومين، كان واقفا على مبعدة حاملا أوراقه تحت إبطه ويصوب نظره نحوي في لهفة، لم يكن سوى المهندس جلال مدير إدارة الإسكان بمحافظة أسوان، آخر ما كنت أتوقعه يومها أن يكون هو نفسه المهندس جلال البحر، ذلك النوبي البشوش، الشاب وقتها الذي تعرفت عليه منذ خمسة عشر عامًا، لما كنت أستخدم اسم فارس حبشي وذهبت أبحث عن مِسكة وابني.. والتقيته في قرية دابود.. منتصف الستينيات! يا ألله!

كان وقتها متيمًا بجمال عبد الناصر ولا يزال على حماسه وإيمانه، أخبرني بأنه تعرف عليّ منذ اليوم الأول لعودتي، لما رأى صورتي بالجرائد وانتهز الفرصة ليلقاني على انفراد، فلما أتى لم أقاومه، اعترفت له بحقيقتي كعادتي مع من تذوب الحواجز بيني وبينهم، كان يظن أنني فارس السوداني وفاجأني بأنه لم ينسني أبدًا، أخبرته بأنني دهب عجيبة سر الختم، نوبي مثله، فأذهلته، هلل فرحًا غير مصدق ما يسمعه مني، كتم سرّي وأفضى لي بسرّه، زارني بغرفتي بالفندق عدة مرات لساعات طوال امتدت حتى الصباح كل مرة، أطلعني على أوراق كثيرة، خرائط مشروع بدر ورفاقه بعدما احتفظ بنسخة منها باعتباره عضو لجنة التنمية للنوبة قبل ظهور بدر وأعوانه حسبما أطلق عليهم، أراني عشرات المراسلات بينه وبين مؤسسات اقتصادية أجنبية تحذره من مشروع مؤسسة بدر الجديدة، آراء مهندسين نوبيين وقاهريين زادت من مخاوفه ورجحت كفة يقينه على شكوكه، مخطط كامل للاستيلاء على أرضي، لن تُبنى لنا بيوت نوبية، لن نعود، حتى خيران التماسيح ستكون أكبر من بيوتنا الموعودة..!

ستتحول المنطقة إلى واحة للأغنياء، وعلى مبعدة بالصحراء القاحلة سيقيمون لنا عشرين بيتًا فقط لا غير، لا ليست بيوتًا، بل عشرين دكانًا خشبيًّا فقيرًا، سيسكنها نوبيون أو أصحاب بشرة سمراء والسلام، سيبيعون منتجات يدوية وطعامًا نوبيًّا في أوانٍ ملونة مبهجة، سيلتقطون معنا الصور ونحن نرتدي زيّنا الأبيض التقليدي والطواقي المزركشة أو العمامات الكبيرة التي تستر رؤوسنا، سيرقصون معنا رقصتنا الأخيرة، سنجد ما يسترنا مؤقتًا وسنقتنع لأننا طيبون، لكننا سنكون عراة أمام أنفسنا، سيضحكون ويمرحون بنا ومعنا ونحن نؤدي أمامهم رقصاتنا ونضرب بالدفوف، ليلقوا لنا بالفتات مرة أخرى ويرحلوا ليأتي غيرهم..

سيكون هناك عشرون دهب عجيبة سر الختم آخرون، وربما مئات بعدهم على مدار الأجيال يقفون كخيالات مآتة لكنها لن تخيف أحدًا هذه المرة، مجرد زينة للناظرين لتكتمل الصورة وتمتلئ خزانة الذكريات لمن سيزور المنتجع السياحي العالمي.. يا ألله!

- لم يعد لدي ما أفعله، طرقت كل باب لكن التعليمات هبطت كالسيل بضرورة التنفيذ، أنا يائس.

خرجت الكلمات من المهندس جلال البحر مثقلة بالإحباط يحوطها اليأس من كل جانب، استحلفني بكل ما هو غالٍ عندي كي أعرقل المشروع قدر استطاعتي بعدما فشل هو، وبات شبح الفصل ينتظره بعد انتهاء المولد بسبب اعتراضه على التطوير المنتظر، فوعدته خيرًا وأنا

لا أدري ما الذي في جعبتي، لكن على أضعف الإيمان هناك عجيبة آخر من بيت آخر، نوبي حقيقي مثلي ومثل ابني الذي غرق، يستحق أن أفعل شيئًا لأجله، في نهاية لقائي الأخير معه أقسمنا سويًّا على الحفاظ على أرضنا حتى آخر قطرة دماء. لكنه ليلتها ألقى على مسامعي مفاجأة مدوية عندما أخبرني بأن جزءًا من الأرض التي سيستثمر فيها بدر ورفاقه آلت لي بالميراث عن زوجتي مسكة سر الختم والتي كانت ورثتها بدورها عن عمي حتى أعلنت الحكومة اعتباري من الغارقين..! بقيت الأرض تنتظرني لكن بدر وضع يده عليها الآن بسهولة وستصبح ملكه، كعادته كان يعلم ولم يخبرني بالحقيقة، لما سألني عن عطية سر الختم وصلته بي، جرّدني من هويتي وأرضي وتسبب في موتي مرتين.

يومها أطلعني المهندس جلال البحر على المستندات، وعلى إحدى الخرائط قرأت عبارة مربع سر الختم إشارة لأرض عمي التي ورثتها الحكومة عني حيًّا وكانت تنوي تخصيصها كمدافن للنوبيين لكنها

تراجعت عن قرارها مؤخرًا وسلمتها لبدر ليحلب خيراتها، طويتها باكيًا فلا فائدة منها الآن لأنني شخص ميت في نظر الحكومة منذ سنوات بعيدة مع أنني لم أعرف طعم الحياة بعد، واتجاهي صار إجباريًّا في مسار محدد. حتى الدفن في أرضنا استكثروه علينا، خرجت الكلمات مكتومة من صدري هذه المرة..

أشرت للمهندس جلال البحر بعلامة النصر لأطمئنه، لكنه ظل متجهمًا وهو يتابعني بعينيه في قلق، رحت أقترب من الجمع المحيط ببدر بخطى مترددة بطيئة لكنني لا أميز ملامح أحد..

بدأت أرى أمامي وجوهًا كثيرة الآن، كلها آتية من الماضي، تخترق ذاكرتي وتمر أمام عينَيّ فلا أرى سواها ولا أشعر بمن حولي، وجه أبي واضح وهو يبتسم في حنو يشير نحو امرأة نوبية جميلة قائلًا ها هي أمك حُسنة التي لم ترها، خلفها بنات صغيرات يضحكن ببراءة، شقيقاتي،

يا ترى أين هن الآن؟! تمنيت لو أجابني عن سؤالي هل قتل السير ويليام ومات بطلًا أم انتحر يأسًا ومات كافرًا؟؟ تبددت ابتسامتي التي شرعت في البزوغ وتوالت الوجوه في الظهور، ها هو عمي الذي تولى رعايتي دون تربيتي ثم سعدون مرسال الغرام، عوض ابن عمتي الحنون، وخلفه مستر بيلي بغليونه الطويل وقبعته الشهيرة وملامحه الجادة.. عثمان الأحمر بظهره المحني قليلًا وسترته البيضاء المفرودة يحمل لافتة ضخمة مكتوبًا عليها «سنعود» ويشير لي بعلامة النصر.. تتمايل الكودية كوثر مع صبيانها أمام عينَيّ، بينما مكرم الإسكافي العجوز الطيب يبتهل لربه داعيًا لي.. المعلم عاشور الجزار يقترب بوجهه الدميم حاملًا ساطوره ليطير أصابعي وخلفه أولاده ككلاب مسعورة تنبح بلا سبب، فأغمض عينَيّ قليلًا وأضغط بشدة على أسناني وترتعش يدي اليسرى..

ها هو الريس منير حجاج يبتسم لي في بشاشة ويرفع يده محييًا ويقول عبارته الأثيرة «طمّنا عليك»، يظهر أمامي عرفة القصير يحمل صرة الملابس المهندمة على كتفه ويسير وحيدًا بالقرب من أسوار قصر المنتزه العالية، لكنه يبدو حزينًا..

ترقرقت دموعي وأنا أرى وجه مدام بارديان راقدة في سلام بصندوق خشبي وسط زهور ناضرة بملامحها الهادئة، تبدو راضية، تتوارى صورة بارديان لتطل باتريشيا بنظارتها السميكة وشعرها القصير وصدرها الناهض وجسدها البرونزي اللامع وندوبه الكبيرة، ابتسامتها المريبة تتسيد شفتيها، وأكاذيبها التي لا تنتهي تخرج من بينهما وكأنها تتنفسها، أتساءل هل يا تُرى لاتزال في مراكش أم ستظهر في النوبة عن قريب هي الأخرى متسترة بمنظمتها؟!

من بعيد تبدو ملامح غير واضحة للسيدة برنار، زوجتي التي كانت على الورق فقط وفشلت حتى يومنا هذا في تذكر اسمها الأول! رأيتها تسير أمامي وهي تصطحب كلبها المدلل الوفي في نزهة المساء، بدا لي الكلب مطرقًا في وجوم كمَن يفتقد صديقًا عزيزًا..! يظهر المستشار الصحفي موسى بركات بضحكته المجلجلة الشهيرة وأنفه الكبير المعقوف وصوته المميز وهو يعدد لي مآثره وكيف أخرجني من سجني وساعدني في العودة لوطني وبدا لي وهو يقترب مني بشدة أنه سيشق صدري بكفه الضخمة ليقتلع قلبي من بين ضلوعي..!

تختفي ملامح موسى من مخيلتي ويرتعش جسدي كله فجأة، فاستعذت بالله، ظهر لي نور الدين الشمسي مطلًّا بوجهه البشوش الرائق، بدأت أتأهب للابتسام أكثر، لكن ملامحه بدت قلقة على الفور لما تلاقت عينانا، هيئ لي أنه يصرخ في وجهي منبهًا ومحذرًا من

أمر ما يرفضه بإصرار، لكنني أغمضت عينَيّ وأنا ألوح بيسراي في الهواء، رافضًا ومتجاهلًا تحذيراته،ماضيًا في طريقي بلا عودة..

فجأة تختفي الوجوه كلها، مثلما تلملم أوراق اللعب بخفة وسرعة في يد لاعب قمار محترف ليظهر وجه صبوح، أفتقد صاحبته كثيرًا.. وجه مِسكة.. وهي تبتسم بحنان، فأبتسم لها ويتهلل وجهي، تتسع ابتسامتي أكثر وأنا أسمعها تناديني باسمي، تتحرك شفتاي رغمًا عني لأناجيها : أنا قادم، بيني وبينك خطوات معدودات.. فانتظريني..!

أملأ صدري بالهواء بقوة، أدقق النظر في الجمع المهيب الذي يقف فوق الطوف الضخم بقلب البحيرة، زحام كبير، أصوات الكاميرات
لا تتوقف عن الدق وكأن ساعة الزمن تعلن نهايته، صوبت عينَيّ على بدر، كان منشغلًا بالحديث مع محافظ أسوان حتى التقت نظراتنا، هو الأقرب للحافة من المحافظ، يولي ظهره للبحيرة متكئًا على إفريزٍ معدني قصير، اقتربت منه بخطى ثابتة وقسمات جامدة، لم يحِد بصري عنه حتى اضطربت وقفته قليلا من حدة نظراتي!

ضاقت المسافة بيننا، أخرجت يدي اليسرى من جيبي لترقد به مطوية تذكرة وحيدة للقاهرة.. تذكرة العودة التي يحين أوانها الليلة بقطار النوم لأغادر أرضي للأبد، لكنها فيما يبدو لا تدري مصيرها مثلي تمامًا فانطوت على نفسها يأسًا، يا ترى هل أسافر بها في موعدي أم تبقى وحيدة في جيبي ؟ هذا هو السؤال الوحيد الذي لن يجيب عنه أحد سواي..!

تحسست جانبي الأيمن من أسفل سترتي، عبثت بأصابعي حول خصري، حتى قبضت على خنجر السير الإنجليزي ويليام ويلكوكس الذي جلبته من حجرتي قبل قليل لما عدت إليها، المسافة بيننا الآن أقل من متر، التماسيح لا تزال تحوم حولنا في صبر وترقب كلينا بعين متلهفة، أطبقت بيسراي المهتزة على الخنجر وأنا أشد أوتار يدي، ابتسمت له ابتسامة صفراء جائعة، مندفعًا نحوه، مسرعًا، مختصرًا السنتيمترات الأخيرة في خطوة واحدة، كبيرة، واسعة، كانت ولا شك خطوة فارقة في حياتي كلها، وربما في حياة بدر أيضًا.

«تمت»

أشرف العشماوي

5 / 6 / 2016

Table of Contents

CoverImage
tazkara wa7eda el el 2ahera
tazkara wa7eda el el 2ahera-1
tazkara wa7eda el el 2ahera-2
tazkara wa7eda el el 2ahera-3
tazkara wa7eda el el 2ahera-4
tazkara wa7eda el el 2ahera-5
tazkara wa7eda el el 2ahera-6
tazkara wa7eda el el 2ahera-7
tazkara wa7eda el el 2ahera-8
tazkara wa7eda el el 2ahera-9
tazkara wa7eda el el 2ahera-10
tazkara wa7eda el el 2ahera-11
tazkara wa7eda el el 2ahera-12
tazkara wa7eda el el 2ahera-13
tazkara wa7eda el el 2ahera-14
tazkara wa7eda el el 2ahera-15
tazkara wa7eda el el 2ahera-16
tazkara wa7eda el el 2ahera-17
tazkara wa7eda el el 2ahera-18
tazkara wa7eda el el 2ahera-19
tazkara wa7eda el el 2ahera-20
tazkara wa7eda el el 2ahera-21
tazkara wa7eda el el 2ahera-22
tazkara wa7eda el el 2ahera-23
tazkara wa7eda el el 2ahera-24
tazkara wa7eda el el 2ahera-25
tazkara wa7eda el el 2ahera-26
tazkara wa7eda el el 2ahera-27
tazkara wa7eda el el 2ahera-28
tazkara wa7eda el el 2ahera-29
tazkara wa7eda el el 2ahera-30
tazkara wa7eda el el 2ahera-31
tazkara wa7eda el el 2ahera-32
tazkara wa7eda el el 2ahera-33

tazkara wa7eda el el 2ahera-34
tazkara wa7eda el el 2ahera-35
tazkara wa7eda el el 2ahera-36
tazkara wa7eda el el 2ahera-37
tazkara wa7eda el el 2ahera-38
tazkara wa7eda el el 2ahera-39
tazkara wa7eda el el 2ahera-40
tazkara wa7eda el el 2ahera-41
tazkara wa7eda el el 2ahera-42
tazkara wa7eda el el 2ahera-43
tazkara wa7eda el el 2ahera-44
tazkara wa7eda el el 2ahera-45
tazkara wa7eda el el 2ahera-46
tazkara wa7eda el el 2ahera-47
tazkara wa7eda el el 2ahera-48
tazkara wa7eda el el 2ahera-49
tazkara wa7eda el el 2ahera-50
tazkara wa7eda el el 2ahera-51